أ. د. عبد الحميد أبو سليمان

أزمة الإرادة والوجدان المسلم

البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة

في إصلاح الثقافة والتربية
رؤية إسلامية معاصرة

دار الفكر
آفاق معرفة متجددة

مؤسسة تنمية الطفولة

عبد الحميد أبو سليمان

متخصص بالعلاقات الدولية

- من مواليد مكة المكرمة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م
- دكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة بنسلفانيا.
- بكالوريس وماجستير في العلوم السياسية من جامعة القاهرة.

أعماله

- سكرتير المجلس الأعلى للتخطيط بالسعودية.
- عضو هيئة التدريس ورئيس قسم العلوم السياسية بكلية العلوم الإدارية في جامعة الرياض.
- شارك بتأسيس اتحاد الطلبة المسلمين في أمريكا وكندا.
- صاحب فكرة جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في أمريكا وكندا.
- الأمين العام المؤسس للندوة العالمية للشباب الإسلامي.
- أول رئيس للمعهد العالمي للفكر الإسلامي ثم كان مديراً عاماً له.

من نتاجه

- النظرية الإسلامية لعلم الاقتصاد: الفلسفة والمقاربات المعاصرة.
- النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية.

الأستاذ الدكتور
عبد الحميد أحمد أبو سليمان

أزمة الإرادة والوجدان المسلم

البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة

(في إصلاح الثقافة والتربية: رؤية إسلامية معاصرة)

دار الفكر
آفاق معرفة متجدّدة

مؤسسة
تنمية
الطفولة

الرقم الاصطلاحي: ١٨٠٦,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-343-8
الرقم الموضوعي: ٢١٠
الموضوع: دراسات إسلامية
العنوان: أزمة الإرادة والوجدان المسلم
البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة
التأليف: أ.د. عبد الحميد أبو سليمان
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ٣٣٦ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com
E-mail: info@fikr.com

حوار DIALOG
٢٠٠٥
عالم بلا عنف
NON-VIOLENCE WORLD

الإعادة الثانية
ربيع الثاني ١٤٢٦هـ
أيار (مايو) ٢٠٠٥م

الإهـــــداء

إلى أَبِـــي وأُمِّـــي حُبّـــاً ودعـــاءً

وإلى أبنـائي، وكـلِّ الأبْنَـاءِ، أمـلاً ورجـاءً

وإلى كـــــل أبٍ وأمٍ مســـــلمةٍ

وإلى كـــلِّ مثقـــف ومـــربٍّ مســـلمٍ

وإلى كلِّ عاملٍ مسلمٍ مخلصٍ إليهـم: حتـى

يأخذَ رجالُ الأمةِ ونسـاؤُها زمـامَ المبـادرةِ

في أيدِيهـم، لنحمـلَ الرسـالةَ ونـؤديَ

الأمانـةَ ونرسـيَ لأبنائِنـا والأمـةِ والإنسـانِ

قواعـــدَ غـــدٍ أهْـــدى وأفضـــلَ

وبشـــائرَ مســـتقبلٍ إنســـانيٍّ كريـــمٍ

وباللـــــــه العـــــــونُ

ومنه الهدايـةُ والتوفيـق والسـدادُ إنـهُ علـى

كـــلِّ شـــيءٍ قديـــرٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمَحَــات

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٣/١١]

((النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خيَارُهِمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقِهُوا)) رواه البخاري.

((اطلبُوا العلمَ من المهدِ إلى اللَّحد))

((منْ شَبَّ على شَيْءٍ شَابَ عليه))

((كما تكونون يُولَّى عليكم))

مَـنْ كَـرِهَ عَيْـشَ ((نفسـيةِ العبيـد)) فليتعلـمْ كيـفَ ينشـئُ في دارِهِ

المؤمـنَ، القـادِرَ، المبـادِرَ، كريـمَ النفـسِ، شـجاعَ الفـؤادِ،

وإلا فليعـشْ عبـداً، ويَرْضَـى لأبنائِـهِ عيـشَ العبيـد

المحتوى

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٥
المحتوى	٧
المقدمة	١٣
الفصل الأول	١٧
- القضية	١٧
- دواعي البحث	١٩
- المنهج: دليل ومرشد	٢٢
- الشمولية والجزئية في المنهج	٢٣
- الشمولية وبناء الأولويات	٢٥
- أهمية إدراك خصائص منظومة الذات العقدية والفكرية	٣١
- أخطاء التلاقح الفكري بين الأمس واليوم	٣٢
- العلاقة بين المعرفي والوجداني	٣٥
- الفكرالتربوي والتغيير الاجتماعي	٣٥
- جذور الأزمة	٣٧
- طاقة الدفع الإيماني الحضاري والتراكم المادي العمراني	٣٩
- كيف بدأ ضعف الطاقة الإيمانية الأخلاقية؟	٤٢

الموضوع الصفح

- السياسة والأخلاق والدين: انقسام القيادة ونشأة المدرسية النظرية ... ٤٤
- آثار الانقسام، وانهيار المؤسسات، وتغييب البُعد الجمعي ٤٦
- الأشكال التوضيحية من الأول حتى الرابع ٤٩
الفصل الثاني: تشخيص الداء ٥٣
- تشوهات وانحرافات في فكر الأمة وثقافتها ٥٣
- التشوه الأول: تشوه الرؤية الكلية ٥٤
- التشوه الثاني: التشوه المنهجي ٥٨
- التشوه الثالث: تشوه المفاهيم ٦٥
- تشوه مفهوم العبودية ٦٥
- مركزية مفهوم التوحيد ودلالاته الحياتية ٦٨
- في التوحيد والعبودية والتزكية ٧٠
- في الاستخلاف والإصلاح والإعمار ٧١
- التشوه الرابع: تشوه الخطاب ٧٣
- التشوه الخامس: عقلية الشعوذة والخرافة ٧٨
- طلبُ السنن شرطٌ لازمٌ غيرُ كافٍ: التوكُّل والتواكل ٨٠
- الإرهابُ والاستبداد والتخلف تربةُ الخرافةِ والشعوذة ٨٣
- الكارثة في توظيف القداسة لخدمة الخرافة والشعوذة ٨٣
- المعوذتان نهايةٌ وحاجزٌ، لا مدخلاً لفكر الخرافة والشعوذة ٨٨
- الدعاء والرقية علاقةٌ وجدانيةٌ، لا مهنةً وتألياً على الله ٨٨
- مواصلة الجهود لتحرير النصوص والتفاسير وتنقيتها ٩١
- ترويج فكر الخرافة والشعوذة وكتبها جريمة دينية حضارية ٩٢
- تتقدم الأمم بالعلم والمعرفة لا بالخرافة والشعوذة ٩٣

الموضوع الصفحة

- وعي الآباء أساس البناء ٩٥
- مزيداً من الجهد في تحرير المفاهيم الأساسية ٩٩
- الشكل الخامس ١٠٤
- التشوه السادس: العرقية "دعوها فإنها منتنة" ١٠٥
- العرقية العنصرية تلوث عقدي ثقافي اجتماعي خطير ١٠٧
- عالم الحق والنور وعالم الغاب والظلام ١٠٩
- الشكلان التوضيحيان السادس والسابع ١١٢
- آثار الانحرافات الفكرية في بناء الأمة النفسي ١١٤

الفصل الثالث: الطفل قاعدة الانطلاق ١١٩

- حركات الإصلاح الإسلامي والحاجة إلى التقييم ١٢٠
- الطفلُ الجنديُّ المجهول ١٢٣
- ثقافة العامة وثقافة الخاصة: مرض مايزال ينخر البناء ١٢٤
- تنمية الوعي التربوي وإصلاح التعليم أساس الإصلاح ١٢٦
- الدرس الموسوي والتغيير الاجتماعي ١٢٨
- الشكل التوضيحي الثامن ١٣٢
- موقع الفكر من مشكلات الأمة الكبرى ١٣٣
- الإسلام مصدر ما بقي في الأمة من خير ١٣٤
- الاستعمار مضاعفة ومرض ١٣٦
- مقارنات في قضية الوحدة الإسلامية: الصين، والهند، وأرووبة ١٣٧
- الدين والعقل والمصلحة كلها تأمرنا بالوحدة والتكافل ١٤١
- الخلل الجمعي في ثقافة الأمة: فاقد الشيء لايعطيه ١٤٢
- الجانب الجمعي في الفكر الإسلامي ١٤٤

الموضوع الصفحة

- الآثار الخطيرة لضعف البُعد الجمعي في الثقافة والتربية ١٤٩
- ضرورة بناء البُعد الجمعي في مجالات الثقافة والتربية ١٥٣
- التغيير الاجتماعي والخطاب التربوي ١٥٥
- كيف نفهم الخطاب الإسلامي التربوي؟ ١٥٧
- ضعف الدراسات الإنسانية وخلط الأبعاد والمجالات ١٥٧
- تعدد الخطاب بتعدد المخاطبين ١٥٩
- الآثار المدمرة لسوء توظيف قدسية الخطاب: نفسية العبيد ١٦١
- الخطاب التربوي والخطاب القانوني: نظام العقوبات نموذجاً ١٦٢
- الخطاب النبوي التربوي نموذجاً ١٦٧

الفصل الرابع: الحلُّ الأساسيُّ بناءُ الطفولةِ ١٧٣

- طريق الإصلاح ومواجهة التحديات ١٧٤
- التحديات ١٧٥
- الإشكال الثقافي: فضُّ المعارك الوهمية وتصحيح المفاهيم ١٧٦
- الإسلام دين العقل والاقتناع والعلم ١٧٦
- عقوبة الردة لا تتعلق بالإيمان أو الاقتناع ١٧٧
- القديم الجديد في المنهج: الديني والمدني ١٧٩
- اهتمامات المدنيين وملاحظاتهم المنهجية ١٨٢
- الإمكانات الحديثة والمنهجية الشمولية: في قضايا نقد المتن والسند .. ١٨٦
- نماذج في نقد المتن: علم الغيب وتلوث الثقافة ١٩١
- لامجال في عالم اليوم لفكر الخرافة باسم الإسلام ١٩٦
- عالم ما قبل الرسالة المحمدية وعالم ما بعدها ١٩٩
- ضرورة التصحيح المنهجي والتنقية الثقافية ٢٠٣
- الإشكال التربوي: النهج والمنطلق ٢٠٤
- ضرورة مراعاة العلاقة بين المعرفي والوجداني التربوي ٢٠٥

الموضوع **الصفحة**

- انحطاطُ الفكر التربوي تبعٌ لانحطاط الفكر السنني ٢٠٦
- بين الماضي والحاضر: الأسس والمنطلقات التربوية ٢٠٨
- القدوة: المنهج النبوي في التربية ٢٠٨
- الحبُّ والاقتناع والشجاعة منطلقات الخطاب النبوي ٢١٠
- الحبُّ قوةٌ ودافعٌ: تربة العلاقات المؤثرة المثمرة ٢١٤
- الحريةُ قوةٌ: حدودها وضوابطها ٢١٥
- جوهر النظام والانضباط: التعوُّدُ وحسُّ الكرامة والمسؤولية ٢١٩
- مراحل نمو الطفولة الأساسية ومنطلقات التعامل معها ٢٢٢
- صفات المربي الناجح ٢٢٤

الفصل الخامس: الأسرةُ المسلمةُ منبعُ الوجدان ٢٢٩

- أسرار الشريعة في بناء الأسرة: الأسس والمنهج ٢٣٢
- دور الفرد بين الأسرة والمجتمع ٢٣٦
- الأمومة والعمل في نظام المجتمع المسلم المعاصر ٢٤٠
- معالم الطريق في "سيناء" العصر ٢٤٥
- دور الأسرة ٢٤٥
- الأنظمةِ والمؤسسات في الإصلاح: دورٌ تابعٌ ٢٤٦
- دافع الفطرة الأبوي مفتاح تشغيل التغيير الاجتماعي ٢٤٨
- دور الوالدين التربوي والوجداني ٢٥٠
- قصور التربية والتعليم في الأمة ٢٥٠
- أهمية أدبيات الأبوة التربوية ٢٥٤
- فاعلية المعرفة التربوية: تجربة ذاتية ٢٦٠
- المعلم رديف الأسرة ٢٦٥
- خطاب القداسة الديني: العلاقة بين المعرفي والوجداني ٢٦٦

الموضوع	الصفحة
- الشكل التوضيحي التاسع	٢٧٢
الفصل السادس: خطة العمل	٢٧٣
- جبهات العمل	٢٧٣
- توعية المثقفين والمفكرين	٢٧٤
- تنمية الفكر الإسلامي الاجتماعي الناقد	٢٧٦
- الإصلاح الثقافي	٢٧٨
- الإصلاح التربوي	٢٨٠
- أدبيات الأسرة التربوية	٢٨١
- أدبيات المدرسة التربوية	٢٨٣
- إصلاح التعليم العالي	٢٨٤
- خطة مدرسة إسلامية المعرفة وتأصيل الفكر الإسلامي	٢٨٦
- النشأة والمسار	٢٨٦
- المؤسسات المتخصصة في دراسة الطفولة ورعايتها	٢٩٠
- مؤسسة تنمية الطفولة	٢٩٢
- تجربة إسلامية المعرفة في إعداد (الأجهزة) البديلة	٢٩٤
- الشكل التوضيحي العاشر	٢٩٧
- المدارس الإسلامية العالمية	٣٠٠
- الأشكال التوضيحية من الحادي عشر حتى السابع عشر	٣٠٣
- الحاجة إلى إعلان مبادئ منهجية وفكرية	٣١٠
خاتمة: حتى نعلمَ ونعملَ	٣١١
وللشعر والوجدان كلمة:	٣٢١
رسالة موجهة إلى الآباء من أجيال المستقبل	

المقدمة

لم يأتِ هذا الكتاب وهذا البحث عفوَ الخاطر، بل جاء نتيجة قدرٍ كبيرٍ من النظر والبحث والدرس والتجربة، وهو - إلى جانب كتاب "أزمة العقل المسلم" - محاولة لفهم الأسباب التي حالت حتى اليوم دون نجاح مشروع الإصلاح الحضاري الإسلامي، وإحداث التغيير المطلوب في الأمة؛ على الرغم من مرور أكثر من تسعة قرون على صيحة أبي حامد الغزالي في (تهافت الفلاسفة) و(إحياء علوم الدين)، وعلى الرغم من مضي أكثر من قرن على رؤية الكواكبي في سمو مبادئ الإسلام ومقاصده وغاياته وقيمه في كتابه الشهير (أم القرى)، وصيحة اتهامه وغضبه على "أصل الداء وأُسِّ البلاء" في كتابه الأشهر (طبائع الاستبداد)، ومع ذلك فلا حِلمٌ تحقق، ولا جورٌ تبدد حتى اليوم.

يوضح هذا البحث أنه مازال هناك بعدٌ غائبٌ في مشروع الإصلاح الإسلامي؛ لا يمكن للمشروع الحضاري - دونه - من إحداث التغيير المطلوب: الذي يفجر طاقة الأمة، ويحرك كوامن طاقتها الوجدانية، وهذا البعد هو الطفل الذي يمثل البذرة التي تحدد نوع الشجرة وطعم الثمرة.

هذا الكتاب محاولة لفهم غياب الجانب النفسي الوجداني في الخطاب التربوي الإسلامي للطفل؛ ليكون هذا الفهم أساساً لإرساء طاقات الإدارة والقدرة والمبادرة والإبداع في البناء النفسي والوجداني، وهو أيضا محاولةٌ لمعرفة الأبعاد الثقافية والفكرية التي تسببت في هذا التشوه والغياب، ولمعرفة المفاهيم والمنطلقات التي تمكّن الأمة من استكمال هذا النقص، وإن استعادةَ هذا العامل أمرٌ ضروري في عملية التغيير الاجتماعي والحضاري، عن طريق

استعادة الوحدة بين المعرفي والنفسي الوجداني في بناء نفسية الطفل، وتمكين طاقات الإرادة والقدرة والمبادرة والروح العلمية والإبداع في أصل طبع طفولة الإنسان المسلم وتكوينه النفسي والوجداني؛ لأن التمكين في أصل الطبع هو أساس الإرادة والفعل وتفعيل الأداء.

ولتحقيق هذا الهدف يوضح هذا الكتاب الأدوات المنهجية والثقافية اللازمة للإصلاح التربوي، ويستجلي أهم أسس هذا الإصلاح ومنطلقاته، كما يلفت النظر إلى مؤسسة الأسرة ودورها المحوري الفطري الذي هو بمنزلة مفتاح التشغيل في عملية تحقيق الإصلاح التربوي والتغيير الاجتماعي والحضاري؛ مما يجعل الأسرة (سيناء)[1] هذا العصر، شريطة أن يقوم المفكرون والتربويون وبقية مؤسسات المجتمع التربوية بدورهم في توعيتها وإمدادها بالأدبيات اللازمة، وأن يضعوا المبادرة في إرساء أسس التغيير في يد الأمة وفي يد أبنائها من الرجال والنساء، وذلك بالتوجه إلى ما في أصل نفوس الأبوين من دوافع الأبوة والأمومة الفطرية المكرَّسة لجلب كل ما فيه خير الأبناء وتحقيق مصلحتهم الروحية والمادية، التي هي أساس بناء الأمة القادرة العزيزة الكريمة من ورائهم.

إن ما يدعو إليه هذا الكتاب، من الجهود الإصلاحية المنهجية والثقافية والتربوية، لايلغي ولا يقلل من أهمية أي جهد من جهود مشروع الإصلاح الإسلامي في المجتمعات المسلمة في الجوانب الاقتصادية والسياسية والدعوية وسواها؛ بل تتكامل معها وتتضافر، لاستكمال الشروط الضرورية لتفعيل طاقة التغيير في الأمة، وإعداد البذور الصالحة الصحيحة لعطاء الثمر الحلو الزكي الناضج المرغوب.

وإن النظرة الناقدة التي اتسم بها هذا الكتاب ليست إنكاراً لما شهد عليه التاريخ من حضارة إسلامية سامية باسقة سادت العالم المتمدن لقرون عديدة،

---

(١) إشارة إلى دور الجانب التربوي لإعادة تربية وتأهيل بني إسرائيل على يد سيدنا موسى في تيه (سيناء) كما نص على ذلك القرآن الكريم.

وتفردت بالعطاء، قبل أن ينحدر مسار الأمة، وتجدب بقاع الأرض ويسودها الظلام؛ حيث ارتقت الحضارة الإسلامية بالإنسان إلى آفاق سامية واسعة؛ كانت أساساً لكل ثمر علمي طيب في حضارة اليوم، ولكنها - في الوقت نفسه - هي نظرة بحث ودرس ناقد؛ يهدف إلى معرفة أسباب ما أصاب روح تلك الحضارة من فتور، وما ناب أداءها من قصور، ولذلك فالكتاب في جوهره رحلةُ بحثٍ عن أسباب الضعف والقصور الذي أسلم الأمة إلى ما نراه ونشهده من العجز والضعف، حيث لابد من الدواء ولو كان مراً.

وإذا كنا نعلم أن إشكالية المنهجية، وأحادية المعرفة وجزئيتها، وبالتالي تشوه الفكر والثقافة، هو جوهر أزمة العقل المسلم، فإن الجهل بالطفولة وإهمالها، هو جوهر أزمة الإرادة والوجدان المسلم، وهذه المعوقات وما ينجم عنها من أمراضٍ تمثل أهم كوابح طاقة العطاء والأداء والإبداع في أصل بناء النشأة المسلمة والمجتمع المسلم.

لذلك فإن المطلوب هو التعامل الجاد مع الأزمات الثلاث، أزمة العقل والمنهج، وأزمة الفكر والثقافة، وأزمة الوجدان والتربية، ولا سبيل إلى تحقيق قدرة الأمة على إطلاق إرادتها وطاقاتها، وتجديد بنائها، وبلوغ غاياتها السامية، دون ذلك التعامل الجاد مع تلك الأزمات الثلاث، وعلى أساسٍ من التوازن بين السياسي والفكري والتربوي في جهود حركات الإصلاح؛ بهدف تحقيق القدرة، وتحرير نفسية المسلم، وتفعيل وجدانه (يقولون ما يفعلون).

إن المسؤولين عن هذا الأمر هم المفكرون والمربون، وإن المفتاح الأهم لحركة التغيير السلمي الوجداني هو الدافع الفطري في قلوب الآباء والأمهات في حرصهم التلقائي الذي لايدخر شيئاً لتحقيق ما فيه مصلحة أبنائهم، الذين هم عدة الغد، ومادة المجتمع، وجيل المستقبل، وإذا صلح الفرد صلح المجتمع واستجابت المؤسسات.

إنني أرجو أن يفتح هذا الكتاب باب حوارٍ جادٍ بناءٍ، يتسم بروح الإخلاص والشجاعة، دونما خوف من جهالة الجهلاء ومزايدات أصحاب

الأغراض والأمراض، والنظر في أعماق كيان الأمة الفكري والثقافي والتربوي؛ ليتعرفَ مفكرو الأمة وعقلاؤها على مكامن الداء فيها، ويبصِّروا أبناءها وقياداتها بحقيقة أدواء النفوس، وتشوهات الفكر، وانحراف الممارسات، ويستكملوا للأمة رسمَ معالم المنهج العلمي الفكري التربوي الصحيح الذي يضع القدرة والمبادرة في يد أبنائها، ومفكريها ومثقفيها، واعتماد مكامن طاقة الفطرة والعطاء والبذل والإعمار في نفوسهم أساساً لانطلاقتها لأنه لا معنىً ولا وجود للنّوايا والقيم والمعاني مالم تتجسّد مادة وعطاءً وإعماراً (حضارة).

هذه هي رسالة الكتاب، وهذه هي الغاية الأسمى لما طُرِحَ فيه من القضايا والتأملات، رجاء أن يسهم - ولو بقدر ضئيل - في إدارة الحوار واستكمال أدوات نجاح مشروع الإصلاح الحضاري الإسلامي ونهضة الأمة الذي طال انتظارهما، وتعاظمت - مع مظالم العولمة المادية واستكبارها - حاجة الإنسانية إليهم.

و الله أسأل أن يوفق الأمة، وأن يوفق المفكرين والمصلحين والعاملين، وأن يشد أزرهم، وأن يهدينا وإياهم إلى الصراط المستقيم، عليه توكلنا، وإليه أنبنا، وإليه المصير.

والعاقبة للمتقين

والحمد لله رب العالمين...

❊ ❊ ❊

الفصل الأول

القضية: الإرادة

إذا كانت قضية هذا الكتاب هي معرفة أسباب تدهور حال الأمة وقصور أدائها، وبالتالي معرفة السبل الموصلة إلى استنهاض همتها، واستعادة قدرتها، والبحث - انطلاقاً من محورية الطفولة في بناء الإرادة والوجدان - في نجاح مشروع الإصلاح، وأن إسقاط دور الطفولة وعدم فهمها وفهم دورها يعد من أهم أسباب أزمة الأمة، وقصور أدائها، وعدم القدرة على تحريك كوامن الإرادة والطاقة فيها؛ فإن البحث يرجع ظاهرة إسقاط الطفولة من مشروع الإصلاح إلى أمرين:

الأمر الأول: الخلل الذي أصاب منهج الفكر الإسلامي؛ حيث غُيِّبَ فيه البعد المعرفي الشمولي التحليلي الذي يتعلق بمعرفة "السنن الإلهية"[١] في الطبائع النفسية والكونية، وفي تفاعل عواملها المركبة رأسياً وأفقياً في الزمان والمكان، وهذه السنن الإلهية (القوانين الطبيعية) هي التي يشير إليها قول النبي ﷺ: "فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا"[٢] بمعنى أنّ للتربية والتنشئة أسساً نفسية هي سنن وقوانين إلهية، وأن طرق التعامل معها تحدد نوعية البناء النفسي للفرد، وعلى أساسها تتبلور نوعية الفرد ويتشكل معدنه وطاقاته، ومنها: الشجاعة والجبن والأمانة والخيانة وقوة الإرادة وضعفها.. وما إلى ذلك، وهي التي يتم تسخيرها اجتماعياً - في اتجاهٍ أو آخر

---

(١) المقصود "بالسنن الإلهية" في طبائع الأحياء والجمادات هو ما يطلق عليه في الفكر المادي الغربي "القوانين الطبيعية".

(٢) صحيح البخاري: ٣١٢٣.

- بحسب الرؤية الكونية الاجتماعية لكل أمة ومجتمع، فجندي الجيش ورجل العصابة كلاهما من الضروري أن يتوافر فيهما الولاء والشجاعة للنجاح في أدوارهما؛ ولكن الجندي يسخرها في سبيل الدفاع عن الأمة، ورجل العصابة الإجرامية يسخرها للأذى والإضرار بالناس. وقد كان من نتيجة خلل منهج التفكير ضعف الوعي بأهمية الدراسة العلمية النظرية والتجريبية للتكوين النفسي للإنسان، ودور الطفولة فيه، ونوعية الخطاب النفسي التربوي المناسب لكل مرحلة من مراحل تلك الطفولة، وأثر ذلك في تكوين البناء النفسي اللازم للفرد المسلم؛ من أجل توفير الدوافع الوجدانية النفسية اللازمة له حتى تكون الناشئة أداةً فعالةً في الإصلاح والتغيير وتصحيح الرؤية الكلية الكونية الاجتماعية، وإزالة الانحرافات الناجمة عنها، واستعادة الإرادة والقدرة على إتقان الأداء ومواجهة التحديات بشكل إيجابي فعّال.

والأمر الثاني: غياب الخطاب النفسي العلمي التربوي السليم الذي لابد منه لبناء نفسية الطفل المسلم؛ وقد أدى غياب هذا الخطاب إلى خلل في تكوين البعد النفسي الوجداني الإسلامي السليم لدى الطفل المسلم، مما جعله ينمو إنساناً بالغاً مفتقداً لدفع البعد الوجداني الفعّال اللازم لتحريك الطاقة، وبذل الجهد، وتوفير الأداء الإيجابي (الإرادة) الذي يُعَدُّ شرطاً ضرورياً لتملك القدرة على التصدي للتحديات التي تواجه الأمة والمجتمع بشكل ناجح فعَّال، والخطاب النفسي العلمي التربوي السليم هو ضروري كذلك لتصحيح الانحرافات الموجودة في الذات، وفي المجتمع، إنه خلل في منهج الفكر، وبالتالي فإن هذا الغياب هو الذي يفسر عدم قدرة الإنسان المسلم والأمة المسلمة -حتى اليوم- على الاستجابة لمتطلبات مشروع الإصلاح الحضاري الإسلامي، وتصحيح الانحرافات، وضم الصفوف، وإتقان الأداء، على الرغم من سلامة غايات هذا المشروع، ونبله، وتوافر الوعي المعرفي بأهدافه وجل متطلباته لدى البالغين من أبناء الأمة.

لذلك فإنه من المهم أن ندرك أنّ السبب الثاني من أسباب عدم قدرة الأمة على إصلاح ما أصابها من خلل في استعادة قدرتها وعافيتها، والذي هو "خلل الخطاب التربوي" إنما هو ناجم عن الشق الأول، وهو القصور

والتشوه المنهجي للفكر الإسلامي، الذي نجم بدوره عن عزل رجال مدرسة الرسالة وقادة الفكر في الأمة واعتزالهم ممارسة الحياة السياسية والاجتماعية العامة، والتمرس بها، ومعرفة أسبابها وكنه خباياها، ودراستها، وفحصها، والبحث العلمي في قضاياها؛ فكان ذلك سبباً في تشوه الرؤية الكلية الإسلامية، مما أدى إلى ضمور دور المصدر الثاني للمعرفة الإسلامية وغيابه، ألا وهو المعرفة الإنسانية في إدراك السنن والطبائع الكونية والإنسانية والوقائع الزمانية والمكانية، وتسخيرها بشكل عملي فعال في إدارة سياسة الأمة، وتدبير شؤونها، من أجل تحقيق أهداف الهداية الربانية الكلية للإنسان على هدىً وعلم وبصيرة. وإن ذلك كله قد جعل غياب مصدر المعرفة الإنسانية في السنن والطبائع مؤدياً في النهاية إلى عقلية المتابعة الآبائية، وبالتالي العجز عن إدراك طبيعة المتغيرات وتفاعل عواملها، وافتقاد القدرة على التعامل معها في تركيب النفس البشرية، وتنميتها، وإعدادها في مختلف مراحل الطفولة التي تتشكل من خلالها نوعية الدوافع النفسية الوجدانية، والمفاهيم المعرفية المنهجية، التي تطبع عقلية أعضاء المجتمع ونفسيتهم ووجدانهم، وتصبح فيهم طبعاً أصيلاً (إرادة) يصدر عنه فهمهم واستجابتهم لما يدور حولهم من أحداث، وما يتصدون له من تحديات.

دواعي البحث

إن دوافع البحث في هذه القضية المعرفية والتربوية هو الإحساس بأولوية الحاجة إلى إعادة بناء النفسية المسلمة، واستعادة قدراتها وطاقاتها الأخلاقية الحضارية الإبداعية؛ بهدف إنجاح المشروع الحضاري الإسلامي، وتحقيق أهدافه النبيلة، وهي أبعاد متعددة الجوانب، منها ما يتعلق بالإسلام من حيث هو رسالة إلهية سامية، ومنها ما يتعلق بالإنسانية المعذبة الحائرة المتصارعة، ومنها ما يتعلق بالمسلمين الذين هم في مجموعهم ضعفاء متصارعون وأذلاء مضطهدون مستعبدون.

ولا تقتصر أضرار تخلف الأمة الإسلامية وضعفها وتمزقها وعجزها وقصور أدائها على الأمة وحدها، كما لا تقتصر تلك الأضرار على ما أصاب الأمة من النوازل، وماعانته - وما تزال تعانيه - من المحن والمظالم، ولكن أثر ذلك يمتد إلى حجب نور رسالة الإسلام العالمية وهدايته الكلية الروحية الأخلاقية، توحيداً واستخلافاً وإخاءً وسلاماً وعدالة ورحمةً إلى الإنسان، مما يعوق رسالة الإسلام عن أن تصبح رحم حضارة حقيقية، وسعادة روحية ومادية، وخيراً في الأولى والآخرة.

إنّ حجب الرسالة المحمدية الإسلامية الحضارية الكونية في عصر اكتمال مكونات عالمية دنيا الإنسان وإمكاناته، وفي وقت هو أشد ما يكون حاجةً إلى هداية رسالة "العالمين" التوحيدية الاستخلافية القائمة على الإخاء والعدل والإحسان والرحمة والتراحم؛ تلك الرسالة الخالية من التمايز، المنزهة عن الاستكبار والتظالم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ٤/١]، «ألا إنَّ ربكم واحد وإنَّ أباكم واحد»[1] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠]، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [العصر: ١٠٣/ ٣]، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ٩٠/ ١٧]، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣]، إن حجب هذه الرسالة وهذه الهداية يُعَدُّ جنايةً عظمى يقع وزرها على الأمة الإسلامية عامة، وعلى مثقفيها وقادة الفكر فيها خاصة، قبل أي أحدٍ آخر سواهم في العالمين.

إنّ ما أصاب الإنسانية - بسبب استعلاء الرؤية الكونية المادية الجاهلية العنصرية - من عالمية الحروب والصراعات، والتظالم ومآسي (الاستعمار)، يميل إلى أن يكون أشد حدة وأكثر ظلماً وقسوة، وستتعاظم هذه المظالم بتعاظم وسائل القويِّ وأدواته، في عالم نفسية التمايز، وجشع المادة، وقسوة المنافسة، واستكبار الأقوياء.

وإذا كان مما يصدم نفوس الشرفاء وفطرة الأسوياء، وما يصك أعينهم وآذانهم ليل نهار من مآسي المظالم والصراعات التي تؤجج أوارها أنياب جشع

---

(١) مسند أحمد: ٢٢٣٩١.

الأقوياء في مهج الضعفاء والبؤساء، من ملايين الثكلى والجياع والعراة والمرضى من المعدمين البسطاء، نساءً وشيوخاً وشباباً بائساً، وأشلاءَ أطفالٍ، ورضعاً لايجدون مايبل عطشهم ويسكت آلام جوعهم وجوع أمهاتهم؛ فإنّ ما يخبئه تدافع قبضات الأقوياء من تعديات الطغيان وقسوة الاستبداد، أمر لا حدَّ لمدى أثره في الإفساد والدمار، حيث لا رادع له، ولا مانع يحول دون جهالته وتعديه، ولن تتمكن الأمة، والإنسانية، من التصدي له إلا بالعمل المبصر الدؤوب من أجل تمكين سلامة التصورات في النفوس الحرة الأبية، وإرساء أخلاقية المنطلقات، ومسؤولية الأداء، وغائية الوجود، وروحانية المصير.

أما خسارة الأمة الإسلامية وانحسار دورها الحضاري، وهي التي تعدل خمس الإنسانية جمعاء فهي خسارة كبرى في تاريخ الإنسانية، لأنها وريثة حضارة عظمى، هي رحم كل خير، ومنطلق كل تقدم في حضارة العصر، ولأنها حاملة أعظم رسالة سماوية "خيرة" "موثقة" في تاريخ الإنسان والعالم، أعادت تشكيل وجهته وطاقاته بما قدمته من الرؤية والقيم والمبادئ الربانية الروحانية الأخلاقية، وما هدت إليه وصنعته من بدائع العلوم ومنطلقات الحضارة، فليس من العقل، ولا من العدل والحكمة، ولا من الخير، أن يصبح سواد أبناء هذه الأمة الشاهدة، من أشد أبناء الإنسانية عجزاً وفاقة ومعاناة وحاجة، وأن تقع شعوبها فريسة لظلامات الفقر والجهل والمرض والقهر والمظالم.

فاستنقاذ العالم الإسلامي، واستنقاذ الأمة الإسلامية، ليس استنقاذاً لخُمسٍ مهم من كيان البشرية وتاريخها فحسب؛ بل هو استنقاذ لمستقبل الإنسان أيضاً، ولحضارة الإنسانية التي تتهددها وحشية الغاب، ونتن العنصرية، وتعاظم طاقات الخراب والدمار. وإن استنقاذ الأمة الإسلامية للأسف، ليس قضية مشاعر ورغبات فحسب؛ بل هو أيضاً قضية عمل وجهد علمي منهجي منضبط منظم، يؤدي إلى تنقية الإسلام مما شاب فهمه

وثقافته - على مدى تاريخ شعوب المسلمين - من موروثات ثقافاتهم الغابرة، وتقاليدهم البالية، وانحراف ممارساتهم، وظلامات تعدياتهم، وما ألحقوا به من خرافات آبائهم، وشعوذات سالف كهانهم، وأكاذيب أصحاب الأغراض منهم.

ولتنقية الإسلام والثقافة الإسلامية ومفاهيمها الأساسية لابد من استعادة فهم القرآن الكريم كما أنزل، وإدراك مسيرته في تاريخ الأمة، ومعرفة العوامل والمنعطفات التي شكلت مسيرة الأمة ومسيرة الفكر والثقافة الإسلامية فيها؛ وبذلك تهتدي الأمة إلى أسباب التلوث الثقافي والانحراف الاجتماعي في مسيرتها، وتتعرف على مجرى هذه التلوثات والانحرافات حتى تستطيع تصحيح المسار، ومعالجة أسبابها الأساسية.

وبالوجه النقي للإسلام، والأداء الفاعل الصالح للمسلم، فرداً ومجتمعاً، وبتملّك القدرة على مواجهة التحديات في مجال الأداء والقوة؛ يمكن أن ينجلي وجه الإسلام للإنسانية، وأنْ تُدرَك دلالات هدايته في النفوس والآفاق، وتستطيع الإنسانية حينئذ أن تهتدي إلى أشواق النفوس القيمة والفطر السليمة، حتى يتبين الإنسان من خلال تأمله في النفوس، وفي الكون، أنّ الإسلام وهداية الإسلام هي سبيل الحق ودين العدل من مبدع الكائنات وفاطر الأرض والسماوات.

المنهج: دليل ومرشد

ومن المهم منذ البداية أن نوضح المنهجية العلمية التي ننوي اتباعها في هذا البحث حتى ندرك أبعاد القضية المطروحة وكيفية التعامل معها، وأسباب هذا التعامل؛ حيث إنّ الفهم والحوار كثيراً ما يستعصي على المتحاورين بسبب عدم وعي الباحثين والمتحاورين على اختلاف مناهجهم وما بينها من اختلاف في الفرضيات والمسلمات؛ لأنه دون هذا الوعي يستعصي البحث، ويستحيل التواصل والحوار.

الشمولية والجزئية في المنهج

ومنهج هذا البحث منهج علمي باعتباره أداة بحث للنظر الموضوعي في السنن الإلهية، في الكون والكائنات، وهو منهج إسلامي في غاياته الكلية الروحية والأخلاقية، فهو بذلك منهج كلي شمولي تحليلي منضبط يلتزم الغايات الإسلامية الاستخلافية الخيرة، وإن الشمولية في البحث الاجتماعي أمر ضروري لكونها تهدف إلى فهم الظواهر وإدراك أسبابها الخفية الأساسية، وإن النظر الجزئي في مثل هذه المجالات المعقدة التكوين، المتعددة الأسباب، كثيراً ما يضلل الباحث ويخل بأوزان الظواهر ومواقعها وآثارها، ويبسِّطها تبسيطاً مخلاً تنتج عنه تصورات لا أساس لها من الواقع، ويجعلها أقرب ما تكون إلى الخيالات والأوهام.

ولعل العلاقة بين النظر الجزئي والنظر الكلي الشمولي في الدراسات الاجتماعية أقرب شبهاً بمن يأتي بقطعة من الورق ويسكب عليها شيئاً من الحبر ويقف أمامها متأملاً بعين خياله فيما يتبدى لتهيؤاته من رسوم وأشكال وصور لا وجود لها في الحقيقة، ويعبر عنها بما يشتط إليه خياله حيالها من تصورات وتهويمات، ولا بأس عليه في ذلك ما دام ممعنُ النظرِ فيها مدركاً أنها محض خيالات، لا تمثل في الحقيقة رسوماً ولا أعمالاً فنيَة، وأنها في كليتها ليست إلا حبراً مسكوباً بشكل عشوائي على ورق صقيل. وكثيراً ما يؤدي المنهج الجزئي في تأملاته وإنعامه النظر وخيالاته - لمن لا يحسن استخدامه ولا يدرك حدود فاعليته - إلى تصورات وهمية، ونتائج اعتسافية لا تمت إلى الواقع والحقيقة بصلة، وقد ينفعل صاحبها ويعجب مستنكراً من انصراف السامعين عما يعرض عليهم، ويستنكر عليهم عدم أخذهم ظنونه التي يعتقد أنها حقائق بما تستحقه - من وجهة نظره - بالقدر اللازم من الجدية لما أراده وهدف إليه.

ويشبه هذه المفارقةَ بين النظر الكلي والنظر الجزئي الحكمُ على الأمور دون اعتبارٍ لملابساتها الزمانية المكانية، والأخذ بها على أساس جزئي، وبانطباعات ذاتية لا يسندها نظر كلي، ولا إدراك صحيح لنسبية الدلالات في ملابساتها وتداخلاتها مع العوامل الأخرى المتفاعلة معها.

ومن ذلك قول من يقول جزافاً إن مبلغ المليون من الدراهم مبلغ قليل أو مبلغ كبير؛ فهو في ذلك يكون قد جانبه الصواب ما لم يدرك الغرض من هذا المبلغ، فإن كان هذا المبلغ مرتباً شهرياً لآحادٍ من الناس فربما كان بالفعل عظيماً، أما إن كان المقصود منه ميزانية لهيئة أو دولة فلا عجب أن يعدَّ ضئيلاً جداً في مثل هذه الحالات.

ولذلك فإنّ معالجات أزمة وجود الأمة، وأسباب قصور أدائها، وضعف أداء شعوبها وأبنائها، وعجز مشروعها الحضاري عن أن يحقق أهدافه السامية، على مدى قرون عديدة؛ يوجب على الباحث اعتماد أكبر قدر من الشمولية التحليلية في البحث بشأن كل ما يمكن أن يتعلق بظاهرة التمزق والعجز والتخلف التي تعاني منها الأمة.

وإلى جانب النظرة الشمولية، فإن على الباحث أن يتحلى بالشجاعة الأدبية والنظرة الناقدة التي لاتتردد في تمحيص أي أمر من الأمور حتى يتضح وجه الحق فيه، فضعف الشجاعة الأدبية والنظرة الناقدة وتمكن كوابح الخوف والرهبة من نفوس أبناء الأمة صبغَ جلَّ معالجاتِها بالسطحية والانفعالية والتزييف، ومنعها من النظر الفاحص، والتحليل الجاد؛ حتى كاد الفكر والمفكر الإسلامي المعاصر يبدو وكأنه من كواسر حيوانات العروض البهلوانية التي بلغ بها الخوف والرعب نتيجة الترويض أن تنكر طبائعها وتعجز عن أن تفعل ما تمليه عليها فطرة طباعها الوحشية الافتراسية؛ فترى المفكر وقد أخذ الخوف والرهبة النفسية بتلابيب عقله ومنطقه، وأصبح عاجزاً عن الغوص في البحث والنظر والمحاكمة الناقدة إلا في حدود السطحي المأذون به، وذلك بسبب ما استقر في النفوس من الكوابح؛ فأصبح العقلُ المسلمُ والفكرُ المسلمُ - بحكم هذه الكوابح الثقافية - هو ذاته حارسَ سجنه، وكاهنَ معبد تخلفه وعجزه، ولعل في كوابح الثقافة والعقائد الهندوسية وما ولدته تلك العقائد في نفوس معتنقيها من الخوف والرهبة النفسية على مدى القرون ما يوضح تلك الظاهرة النفسية؛ حيث نجد من

كوابح الثقافة الهندوسية ما يجعل مئات الملايين من فئة المنبوذين في الهند هم ذاتهم حراساً على بؤسهم وشقائهم، وأمناء على سجن ضعتهم ومهانتهم.

لَكَمْ يأخذ النفس الأسى والحزن والألم، وهي ترى العديد من رجال الفكر الإسلامي، الذين كثيراً ما يحجمون عن إبداء الرأي إلا في حدود المعتاد والمتوارث، وذلك بسبب تمكن الكوابح الثقافية التراثية من أنفسهم، رهبةً وخوفاً من ردة الفعل النفسية، غير العاقلة، التى تكررت وتمكنت على مر الزمن من عقلية جمهور أمتهم، والتي لن تسمح بالحوار الرصين الذي يفسح المجال لرؤى اجتهادية تجديدية ترتكز إلى الأسس والثوابت الأصلية في العقيدة والمقاصد، لا إلى مورثات العصور السالفة وما شاب كثيراً منها من التحيزات والتحزبات الغابرة، وخاصةً تلك التي أملتها ظروفٌ وملابساتٌ خاصةً، والتي ما زالت - بسبب الرواسب الثقافية الآسنة المكرّرة والمنبعثة عن جهالة منهجية - تكوي نفوس الأمة ومثقفيها، وتثير الخوف والرعب والانقياد الأعمى في أعماقها، ولم يبق بفعلها في واقع الأمة إلا الفرقة والبغضاء والتشاحن والعجز عن الفكر والنظر والاجتهاد والتجدد الاجتماعي والحضاري؛ الذي يمليه دوران عجلة الزمن في مجال الفكر والنظر والتطبيق والعمل، لابد للمفكر المسلم من التسلح بالشجاعة في إبداء الرأي، والتجديد في الفكر والنظر، وذلك بسبب ما يطرأ في واقع الحياة من تغير، وما يتيحه تراكم المعارف والخبرات من الإمكانات، وما يطرحه من التحديات، وما يوجبه من التغيرات، لكي يتأتى له تنزيل المبادئ والقيم بشكل عملي فعّالٍ على واقع حياة البشر، وفي نسيج علاقاتهم ومعاملاتهم وبناء مؤسساتهم.

الشمولية وبناء الأولويات

والبحث الشمولي التحليلي بطبيعة الحال لا يأخذ - دون دليل - بأحادية العوامل المؤثرة في أي ظاهرة اجتماعية؛ بل يرى أن الأصل في التحليل هو تعدد العوامل المؤثرة في تكوين أية ظاهرة اجتماعية عامة، وأنّ من التبسيط

المخل الاعتمادَ الجزئي - لأسباب ثقافية أو عاطفية أو رؤية انتقائية أو خيار عشوائي - على عاملٍ واحدٍ بعينه، أو على مجموعة من العوامل والأسباب، مع تجاهل ماعداها من الأسباب الموضوعية المهمة المتعلقة بمختلف جوانب تلك الظاهرة. واعتماد نتائج النظر الجزئي التي عادةً ما تشحن بالرموز العاطفية الموروثة لقهر عقول المخاطبين وضمائرهم؛ مما يضيف إلى عتمة الموقف، ويضع العراقيل المنهجية، ويحول دون النظر الناقد الجاد، والحوار الهادئ الرزين، الذي يهدف إلى إدراك كنه القضايا، وتنوير العقول، وتخطي العقبات، وحل المشكلات، ومواجهة التحديات.

وإن معرفةَ العوامل الهامة المؤثرة في أية قضية أو في أي مجال، ومعرفة تداخلاتها الرأسية والأفقية، أمرٌ على أكبر قدر من الأهمية لفهم الظاهرة الاجتماعية، وتتبع آثارها، ووضع الحلول الفاعلة للتعامل معها، إلا أن ذلك لا يمنع من ترتيب الأولويات في التعامل مع هذه العوامل، وتبين مواقعها ومنازلها من الأهمية في تشكيل الظاهرة، وفي ترتيب حل إشكالاتها.

بل إنه من المهم في دراسة أية قضية أو ظاهرة اجتماعية، ليس النظر إلى مجموع العوامل المؤثرة فيها فقط، ومعرفة نوع التفاعل بينها فحسب؛ بل إن من المهم أيضاً في هذا الشأن التفرقة بين الأسباب الأساسية والمضاعفات المترتبة عليها، حيث إنّ الكثير من المفكرين يُؤْخَذون بالمضاعفات، ولايلقون بالاً -بالقدر الكافي - للأساسيات، وتدور رحى جهودهم في دوائر غير متناهية من العلاجات السطحية العرجاء العقيمة المكرَّرة، وهم في ذلك مثل من يستنفد طاقته متفانياً في بذل الجهود المضنية من أجل علاج مرضى البلهارسيا دون أن يلقي بالاً إلى أصل المرض ومنشئه، ومكافحة ما يلقى في مصادر المياه من النفايات التي تلوث الماء وتجعله مصدراً متجدداً لا ينقطع للإصابة بالمرض وانتشار العدوى.

فالتصدي للمضاعفات أمر لا يغني وحده عن التصدي للأساسيات، وإن التصدي للاستعمار والعولمة وما يلحق بهما من الهيمنة التسلطية العالمية

الظالمة، يجب ألاَّ يعني مطلقاً التقصيرَ من جانبنا في التصدي - وبالدرجة الأولى - لأسباب القابلية للاستعمار، والمواجهة الجريئة لأسباب القصور الذاتي للانحطاط والعجز والتخلف في كيان الأمة.

وهكذا، فإنّ من المهم لنا في هذا البحث إدراك الصورة الكلية، ومعرفة العوامل الأساسية المؤثرة في أزمة تخلف الأمة وتمزقها وعجزها، والوقوف على نوع التداخل بين هذه العوامل، وإدراك عناصر تبادل التأثر والتأثير فيما بينها، رأسياً وأفقياً، في الزمان والمكان، وحصر المضاعفات الداخلية والخارجية التي ترتبت عليها، وزادت من حدتها، وضاعفت من آثارها.

والإدراك الشمولي السليم لكل هذه العوامل يأخذ في حسبانه الدلالة الحقيقية الهامشية للمؤثرات العابرة والتي تشبه ذبذبة الخط البياني الصاعد أو الهابط، التي لا تغير من الاتجاه الأساسي للخط صعوداً أو هبوطاً، حيث إن مثل هذه الذبذبات العابرة - في كثير من الأحوال - يُغَضُّ الطرفُ عنها في رصد الحركة الكلية للخط البياني ومعرفة وجهة الحركة الكلية فيه، وأمر هذه الذبذبات والاهتمام بها له موضعه في مجال التطبيقات الميدانية الآنية، التي لا تتعلق بمثل هذه الدراسات والأبحاث، والتي ترصد توجهات حركات الحضارات صعوداً وانهياراً، فالغوص في خضم تفصيلات هذه الذبذبات يعتم الرؤية ويضلل الفهم، ويغرق الفكر في رمال متحركة وتحركات واهمة، وتدخله في بحث عقيم أشبه ما يكون باستباق الأحمق ظله ومطاردة الهر ذيله.

إن المنهج الشمولي السليم هو ذلك المنهج المتعمق الذي يهتم بتحليل العوامل الأساسية، ويدرك طبيعةَ التفاعل بينها، كما يهتم بمعرفة المضاعفات الناشئة عنها، وفي الوقت نفسه يعمد إلى ترتيب هذه العوامل وفق سلم الأولويات في التعامل مع الإشكالات المطروحة وحسب المضاعفات المترتبة عليها، ويتم ذلك كله في ضوء الظروف والإمكانات المتاحة.

وإذا تعددت العوامل الفاعلة والمضاعفات اللاحقة، وتفاوتت الأولويات

والمؤثرات، تحتم تعدد الوسائل والأساليب التي يجب اتباعها للتعامل بشكل حي متجدد معها، وبشكل يشمل كامل جسد الأمة وطاقاتها وقواها، مع تجنيدها - قدر الطاقة - للتعامل مع الظاهرة وحل إشكالاتها، وتخطي عقباتها، ومواجهة تحدياتها، والحرص على تكامل الحلول، واستمرار البحث، والتقصي الدقيق، لرسم الخطط، وسد الثغرات، وإحكام الأولويات، واحتواء التطورات، ومتابعة المراحل، وملاحقة المتغيرات.

وإذا نظرنا منهجياً إلى ظاهرة انحطاط أوضاع الأمة الإسلامية وتمزق صفها وتخلفها، وعدم قدرتها على تحقيق مشروع إصلاحها الحضاري على مدى أكثر من ألف عام، على الرغم من أنّ الأمة قد أخذت خلال هذه المدة الطويلة بالعديد من الحلول والمعالجات للتعامل مع أزمة الانحطاط والتمزق والتخلف؛ لاستعادة عافيتها ومركزها الحضاري "الشاهد في العالمين"، إلا أننا نجدها حتى اليوم لم تنجح في تحقيق هذا الهدف على الرغم من كل الإخلاص والتضحية من قبل كثير من أبناء الأمة ورجالاتها، بل إننا لا نجافي الحقيقة إذا قلنا: إن فجوة "القدرة" الحضارية و"الأداء" المتميز - مع مرور الأيام- تزداد اتساعاً بين الأمة المسلمة والأمم المتقدمة؛ وذلك بسبب تزايد إمكانات العلوم والتقنيات الحديثة لدى تلك الأمم؛ مما يمكنها يوماً بعد يوم من إحكام قبضة التحكم والقهر والتخلف في كيان الأمة وفي مقدراتها، ويزيد بذلك نصيب جموعٍ غفيرةٍ من أبنائها من الجوع والجهل والمرض والتخلف، حتى إنه قد يأتي اليوم - لاقدّر الله - الذي لايكاد سواد الأمة يحسنُ أكثرَ مما كان يحسنه - بمقياس العصر - إنسانُ العصور الحجرية.

وفي عصر التحدي الغربي وانحطاط الدولة العثمانية آخر كبريات الدول الإسلامية، نجد أن جهود الإصلاح والنهضة في العالم الإسلامي قد تعددت وتنوعت على مدى ما يقرب من ثلاثة قرون، وفي مختلف التوجهات والمنطلقات، بدءاً بحركة الإصلاح الديني على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب (ت ١٧٩٢م) في جزيرة العرب، والشهيد شاه ولي الله (ت ١٧٣٦م) في الهند،

والسلطان العثماني سليم الثالث (ت١٨٠٧م)، وما تلا ذلك من حركات الإصلاح الديني على يد أبي عبد الله محمد بن علي السنوسى (ت ١٨٥٩م) في ليبيا، ومحمد المهدي في السودان (ت ١٨٨٥م)، وخديوي مصر محمد علي باشا (١٨٤٩م)، والوزير العثماني خير الدين باشا التونسي (١٨٩٠م)، وسير سيد أحمد خان بالهند (ت ١٨٩٨م)، وجمال الدين الأفغاني (ت ١٨٧٩م)، والشيخ الإمام محمد عبده (ت ١٩٠٥م)، والشيخ عبد الرحمن الكواكبي (ت ١٩٠٢م)، والسيد محمد رشيد رضا (ت ١٩٣م)، والشهيد حسن البنا (ت ١٩٤٩م)، ثم ما تبع ذلك منذ بدء حركة استقلال كثير من البلاد الإسلامية مع مطلع النصف الثاني من القرن العشرين حتى اليوم من الجهود العمرانية المدنية، والحركات القومية العلمانية، في الكثير من بلاد العالم الإسلامي، وما نجم عن تلك الأفكار والحركات والجهود من تغيُّرات كثيرة فكرية وثقافية وعمرانية، إلا أنها في المحصِّلةِ لم تتمكن كلها - فيما هو ملموس - من أن تنجح في إدراك إشكال الأمة، وتشخيص كل أسباب أمراضها المهمة المؤثرة، ووصف العلاجات اللازمة لانتشالها من وهدة التخلف، ودفعها لتكون قادرة على الأداء، وتحقيق أهداف مشروع الأمة الحضاري، والنجاح في مواجهة تحديات العصر الرهيبة المتنامية.

وفي هذا المجال حيث تتعلق الآمال بقدرة الفكر الإسلامي، والحركات الإصلاحية، على وضع الأسس الفعالة لانطلاق النهضة الإسلامية، وتخطي أزمة الأمة، فإن علينا - لتحقيق ذلك - أن ندرك منطلقات هذا الفكر في الوقت الحاضر، حتى ندرك وجوه القوة والضعف فيه، وحتى تأتي الدراسة لتحقق التكامل مع تلك المنطلقات، وسد ما بها من ثغراتٍ حالتْ - حتى اليوم - دون أن تحقق الأمة جل النتائج المرجوة منها. ومن السهل أن نحدد جوهر هذه المنطلقات التي تتبناها - بتفاوت - فصائلُ الحركة الإسلامية، وهي منطلقات ترجع في أساسها الفكري المباشر إلى منطلقات الشيخ عبد الرحمن الكواكبي وفكره في كتابيه (أم القرى) و (طبائع الاستبداد) حيث

يعرض في الأول منهما (أم القرى) جملة من مبادئ الإسلام الكبرى، وقيمه الأساسية السامية، وفي مقدَّمَتها مبدأُ التوحيد، وقيم العدل، والتضامن، والشورى. وفي الثاني (طبائع الاستبداد) يلقي فيه اللوم - فيما أصاب الأمة من التخلف والانحطاط - على كاهل الحكومات، وما تتسم به القيادات من الاستبداد والتبديد والفساد.

ومن المهم منهجياً أن نلحظ أنه على الرغم من مضي أكثر من مئة عام على أطروحات هذين الكتابين، ومُضي أكثر من ثلاثة أرباع القرن على قيام الحركات الجماهيرية الإصلاحية السياسية الإسلامية التي تستند إلى هذه المقولات، وعلى الرغم من توالي جهود الحكومات المدنية والحركات العلمانية، إلا أننا لم نجد الأمة - بمقياس الزمن - قد أصبحتْ أقربَ إلى بغيتها الآن مما كانت عليه قبل انطلاقها.

والسؤال المنهجي: لماذا لم تنجح هذه المنطلقات، ولماذا لم تفلح تلك المجهودات، على مدى هذا الزمن كله، في أن تحقق جل الغايات المرجوة منها؟ أين الخلل؟ وأين أخطأ النظرُ وجهَ الصواب؟ وما وجوه النقص في هذا كله؟ وكيف نضع أيدينا على مواقع الثغرات وما تبقى من العثرات؟. إن فشل التشخيص لا يعني بالضرورة خطأ المنطلقات، لكنه يعني بالضرورة عدم اكتمال التشخيص والفحص والتدقيق، وبالتالي فإن البحث العلمي المنضبط (systematic) سوف يؤدي - بإذن الله - إلى تكامل الحلول، ودعم الجهود المبذولة لمواجهة الأزمة، وتخطي العقبات لتحقيق المطلوب وإصلاح الخلل. ولا يعني ذلك أن كل ما تحقق حتى اليوم كان بالضرورة خاطئاً، لكنه بكل تأكيد لم يكن كافياً وحده لإحداث التغيير والإصلاح المطلوب.

إن نتائج هذا البحث ومنهجه الشمولي لن يلغي أهمية أي جهدٍ بنَّاءٍ يبذل على طريق الإصلاح المنشود، ولابد من أن ينتهي إلى أن أي جهد جاد مخلص

يبذل في أي وجه من وجوه العمل، ويهدف إلى إصلاح كيان الأمة؛ إنما هو عون مطلوب له موضعه وأهميته، ويرجى له الدوام والإتقان، وهذا لا يتعارض في الوقت نفسه مع إدراك أن كلَّ ما بذل حتى الآن غيرُ كافٍ، وأن هناك ثغرات لم تسد بعد، وأن هناك مصادر لم تورد بعد، وأن هناك عوامل لم تعالج بعد، وأن البحث والنظر والتنقيب الفكري المنهجي يجب أن يستمر في أداء دوره، وبعمق أكبر، وبجهد أعظم، وبشجاعة أوفر، لا تصده مخاوف كاذبة ولا دعاوى غابرة، ولا قداسات زائفة، دون أن يفرط في الأساس المنهجي العقلي العلمي الإسلامي الناقد؛ حتى يستطيع أن يدرك الباحث مواقع الثوابت ومواقع المتغيرات، بعيداً عن الدعاوى الواهمة أو المنتفعة أو المغرضة، وحتى يبلغ ميزان الحق، ويهتدي إلى الحلول الفعَّالة التي تحقق المطلوب، وبها يصدق القولُ العملَ، ويطابقه.

وهذا يعني منهجياً حيال القضية التي نحن في صددها - وهي أزمة ضعف الأمة وتخلفها وتمزقها وضعف أداء أبنائها - أن هناك عاملاً أو عوامل ما زالت مجهولة يتوقف عليها - إذا صح الرأي - تفعيلُ بقيةِ الجهود وفاعليةُ بقية العوامل، مما يعني أيضاً وجوب إعطاء الجهود الفكرية الحرية الكافية للبحث عنها، وفيها، وأن تنال الأولوية المناسبة لها من جهود المفكرين والعاملين في هذه المرحلة المهمة الحرجة من حياة الأمة.

أهمية إدراك خصائص منظومة الذات العقدية والفكرية

وإن أول ما يلحظه الباحث في كثيرٍ من منطلقات النهضة ومشاريع الإصلاح المتأخرة في الأمة - بغض النظر عن الأسباب والدوافع - أنها انطلقت منذ البداية باتجاه التقليد والمحاكاة، وهو تقليد ومحاكاة، إما باتجاه التاريخ، مع خطاب مشحون بالرموز العاطفية، أو باتجاه تقليد الأجنبي الغالب ومحاكاته من خلال خطابٍ مشحونٍ بالوعود والآمال الغائمة. ومن الواضح أن فكر التقليد والتلفيق والمحاكاة لم يُفَعِّل الطاقات، ولم يحرك

الدوافع، ولن يستطيع أن يفعِّل الطاقات، أو يحرك الدوافع، ويبقى الأداءُ المسلمُ - وسيبقى إذا ما استمرَّ الحال على هذا المنوال - قاصراً، والكيان المسلم ضعيفاً عاجزاً مهضوماً مقهوراً، ما بقيَ حالُ الأمة وتوجهاتُ مشاريع نهضتها منطلقةً من مبدأ التقليد والتلفيق والمحاكاة للتاريخ أو للأجنبي؛ ذلك لأن التقليد والمحاكاة لا يعيدان صفحات التاريخ، ولا يحركان كوامن الطاقة.

ولذلك فإنه لابدَّ للباحث والمفكر من النظر الشمولي التحليلي العلمي المنضبط حتى يتمكن من فهم ظاهرة تخلف الأمة وانحطاطها في مختلف الجوانب، ومعرفة الأساليب العملية الفعالة للتعامل العلمي الفعَّال معها؛ من منطلقاتها الأصلية، ومن خصوصيات مكونات عقليتها ووجدانها، ضمن واقع حياتها وإمكاناتها وتحدياتها: الزمانية والمكانية.

أخطاء التلاقح الفكري بين الأمس واليوم

وإذا اضطرت الأمة في تاريخها السالف، لعدم قدرتها - في باكورة نشأتها - على توفير الجهد الهائل اللازم لإتمام الصهر الثقافي والتربوي للشعوب الوافدة على كيان الأمة؛ بسبب الكمِّ الهائل والسرعةِ الفائقة، ودفعِ وقعِ الأحداثِ التي توالى بها اتساع الرقعة، وإذا أخطأ - في كثير من الحالات - فكرُ الأمة، أو لم يستطع أن يقدر الأولويات، ويوفر المطلوب في تلك المرحلة المبكرة عند التعامل مع موروثات شعوب الأمة في القبليات والشعوبيات، وفي الأساطير وفلسفات الإلهيات، كان لابد في النهاية من أن يكون لذلك أسوأ العواقب التي ستستنفد طاقة الأمة، وتشوه رؤيتها، وتورثها السفسطات والحلوليات والتمزق والفتن وانحراف المؤسسات؛ ولتضعفَ في النهاية طاقة الأمة العقدية والفكرية، وتفقدَ الدليلَ العقدي والإطار المنهجي الفكري؛ الذي منحها التميُّزَ والتفرُّدَ والقدرة على التجدد وتصحيح مسار حركة المجتمع وتطوير مؤسساته.

ولتوضيح مفهوم خصوصيات الأمم وأبعادها الحضارية؛ فإن من المهم أن ندرك أن كل شيء في الوجود هو منظومة (system) بدءاً من الخلية إلى

الذرة، إلى المجرة، وكل منظومة لها خصائصها، وقواعد عملها، وحدود طاقتها، وإذا لم تراقب تلك الخصائص والقواعد والحدود فإن المنظومة تتحطم وتنهار، والمثال الأقرب الملموس هو جسد الإنسان؛ فهو منظومة لها خصائصها وقواعدها وحدود طاقتها، فأخذ الجسم على سبيل المثال قدراً من الأكسجين استنشاقاً من الأنف يكون نافعاً له، أما إذا أخذ منه جرعة - ولو كانت سنتيمتراً واحداً - في الوريد فإنها تقتله في الحال، فليست العبرة بما تأخذه المنظومة أو تتركه فقط، ولكن العبرة تكمن أيضاً في الكيفية التي تؤخذ بها الأمور. وكذلك الأمر بين الثقافات والحضارات، فإنه يجب ملاحظة الخصائص والقيم والمقاصد فيما يُؤخَذ وفيما يُرَدّ، وعلى أي الوجوه يُؤخَذُ أو يُرَدُّ، وهو الأمر الذي لم يسبر غوره المفكرون المسلمون بالأسلوب العلمي الفاحص الدقيق، ولم يولوه ما يستحقه من الأهمية والبيان المطلوب.

والأمة اليوم في التقاء فكرها الضامر ونظامها المهترئ بفكر الأجنبي المناجز بمؤسساته المتطورة المتجددة - وهي ما تزال إلى حد بعيد لا تدرك بشكل علمي موضوعي طبيعة منظومة فكرها وخصوصيات كيانها[١] - قد أصبحت منبهرةً بقدرة مناجزيها والغالبين على أمرها، مما أسدل على عينيها غشاوة، وجعل وعيها في غيبة؛ مما حال - في تفاعلها العشوائي - بينها وبين أن تدرك طبيعة منظومة فكر هذا الأجنبي وخصوصيات كينونته، وأوقعها اليوم فيما وقعت فيه بالأمس، وهو الالتقاء بفكر الأمم وفلسفاتها وموروثاتها على غير دراية ولا منهج، لذلك نجدها اليوم قد وقعت في خطأ تقليد المادي الغربي، وفي أخذ الحياة والمادة على أنها غابة وغاية، وبذلك اهتزت هوية الأمة؛ بسبب حالة الانبهار والتقليد وتبنّي منطلقاتٍ وفكرٍ وقيم مناقضةٍ لمنطلقاتها وفكرها وقيمها، فلا غرابة ألا تُقْبِلَ الأمة على ما يقدَّم إليها بحماسةٍ وجدٍّ يحرك كوامن الطاقة والتغيير فيها، وأن تبقى تلميذاً بليداً عالةً

---

(١) انظر أبو سليمان، عبدالحميد، "الأمة بين شريعتين" مجلة إسلامية المعرفة عدد (٢٨) - (ص١٣٣-١٤٨) - المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة.

على الحضارة الغربية المادية برغم كل الجهود المبذولة لأكثر من قرنين من الزمان، وأن تكتفي بالحد الأدنى الذي يُبْقي على وجودها؛ ذلك لأن الحياة والمادة في ضمير الأمة الإسلامية، وفي منظومة كيانها الوجداني، لايمكن أن تجعل الحياة غاية ولا يمكن أن تجعل المادة - على الرغم من الحاجة إليها - غاية في حدٍّ ذاتها، فالحياة في وجدان المسلم لابدَّ من أن تكون وسيلة لغاية إنسانية خيِّرة، على أساس من شريعة العدل، لا شريعة الغاب: تفسخاً وعنصريةً وتسلطاً؛ حيث الحقُّ للقوة، وليست القوَّة للحق.

إن الانسجامَ والتناغمَ بين ضمير الأمة الإسلامية ووجدانها من ناحية، وطبيعة فكرها وغايات حركتها ودليل نظامها من ناحية أخرى، أمرٌ ضروري لتفجير طاقاتها الإيمانية والعمرانية وإثارة الحماسة وقوة الإرادة في نفوس أبنائها، وإن عهدَ الرسالة وصدر عهد الخلافة الراشدة، مثالٌ منيرٌ ومرشدٌ في تاريخِ الأمة، وذلك على غير حالِ الفكر الإسلامي المعاصر؛ الذي يفتقد دليلَ الرؤية، ويتخبط في أوحال التفاعل العشوائي دون أساسٍ منهجيٍّ في تفاعله مع الحضارة الغربية، على غرار التفاعل العشوائي غير المنهجي في العصر الأموي والعباسي بين منظومة الفكر والحضارة الإسلامية ومنظومة الفكر والحضارة الإغريقية؛ التي أفلستْ وأدت دورها؛ ذلك التفاعل وإن كان قد أفاد الحضارة الإسلامية في تعلُّم إرث الصناعات الغابرة وحصيلة علومهم الفيزيائية، إلا أنه أضرَّ بروح الحضارة الإسلامية في الجوانب الروحية والعقدية التوحيدية الاستخلافية (الإعمار)، والمنهجية السببية، وبطَّأ حركتها، وانتهى بها إلى غبشِ الرؤية الكونية الإسلامية، وسفسطةِ الإلهيات، والمنطقِ الصوري، وضياعِ المنهج الإسلامي العلمي التجريبي؛ ليغلبَ على الأمة إرث الإسرائليات وفكرُ الخرافة والأسطورة والشعوذة، ويدفع بها إلى المواتِ والخمود، وهو الأمر الذي يتكرر اليوم في صورة أخرى بين منظومة الفكر والحضارة الإسلامية ومنظومة الفكر والحضارة المادية الغربية، دون أن ننتبه إلى الخطأ المنهجي الفادح الذي سبق أن ارتكبناه، ودون أن نأخذ من ذلك الدرس ما يستحقُّ من العظةِ والعبرةِ.

العلاقة بين المعرفي والوجداني

إنّ من أهم الآثار التي ترتبت على الأزمة المنهجية التي انتهى إليها الفكرُ الإسلاميُّ وعلماءُ الأمة ومفكروها بسبب العزل والعزلة؛ هو ما نجم عنهما من إهمال جانب المعرفة الإنسانية، وإهمال البحث العلمي الاجتماعي، والوقوع في أسر المنهج الجزئي النصي اللغوي، وكان من نتائج ذلك إهمال دور المرأة والطفل في الإصلاح والتغيير الاجتماعي؛ مما ترتَّب عليه غياب البعد العلمي التربوي الذي يبحث في دراسة الطفولة، وفي الأدوار التي تمر بها، وأهميتها في تشكيل عقل النشء ووجدانه، وما يناسبها من الخطاب، وفي تحديد طبيعة الأجيال القادمة وقدراتها المعرفية والوجدانية في مواجهة التحديات.

الفكر التربوي والتغيير الاجتماعي

إنّ الغاية من هذا البحث هي أن توضع قضية الطفولة ودور الفكر التربوي بشأنها - كونه منطلقاً أساسياً في تحقيق التغيير الاجتماعي - على مائدة الدراسة والفكر والنظر، وما يستتبع ذلك من قضايا تنقية الثقافة الإسلامية وتنقية مدخلاتها التربوية، واستكمال الفكر الإسلامي لأدواته المنهجية في دراسة السنن والطبائع والواقع في الزمان والمكان، وفي فهم النص والتاريخ، وإدراك ما يقدمانه من توجيه ودروس وعبر، بشكل صحيح يناسب الزمان والمكان؛ لتسهمَ هذه الدراسات بشكل إيجابي فعَّال في تكوين عقلية الطفل المسلم، وفي بناء كيانه النفسي والوجداني؛ فيصبحَ خالصاً من التشوهات والانحرافات والشعوذات التي تفسد الرؤية الكونية للمسلم، وتضعفُ الروحَ العلمية والطاقات الإبداعية لديه، وتقضي على معاني العزة والكرامة والإخاء والنصرة في بناء نفسيته وعقليته.

إنّ الطفولة وإدراك دلالاتها العلمية النفسية في إحداث التغيير الاجتماعي هي البعد الغائب الأساس في إحداث التغيير النفسي الجمعي الضروري لاستعادة الرؤية، وتحريك الطاقة الوجدانية، ومواجهة التحديات.

إنّ مهمة هذا البحث هي إلقاء الضوء على هذا البعد الغائب، وتوضيح أبعاده وتفاعلاته مع بقية العوامل، ومعرفة السبل العملية العلمية لاستكمال هذا النقص، وسد هذه الثغرة؛ بهدف التكامل مع مايبذل من الجهود لبناء مشروع إصلاح الأمة ونهضتها، واستكمال أدواته، خدمةً للأمة والإنسانية، وتجليةً لهدي رسالة الإسلام في نظام القرية العالمية المعاصر.

ولكونه بحثاً ناقداً بالدرجة الأولى فإنه سوف يركز على وجوه النقص والقصور فيما سلف من الجهود، ولذلك سينصرف - مهما كان الأمر مؤلماً - إلى تقصي وجوه القصور التي أورثت في واقعنا المعاصر الضعفَ والتمزقَ والتخلفَ، وقصّرت بنا عما كان بإمكان الإسلام أن يوصلنا إليه ويحققه في حياتنا وتاريخنا؛ بحيث إن عوامل القصور التي غلبت على نفوسنا قد جعلتنا حيث نحن اليوم في مؤخرة الركب؛ فأرجو أن يحسن القارئ فهم غاية النقد، والتركيز على غايته في معرفة وجوه القصور، لأنّ البحث إنما يهدف فقط إلى استكمال النقص وتكامل الجهد، وإنّ تقديرنا وإجلالنا لما سلف، يجب ألاّ يحول دون معرفة وجوه التقصير والقصور فيه حتى تُقالَ العثرةُ، وتُسَدَّ الثغرةُ، ويتحقق المأمولُ إن شاء الله تعالى.

إنّ من الخطأ محاكمة الماضي بواقع الحاضر ومعطياته؛ بل يجب محاكمته إلى واقع زمان أحداثه، حتى يأتي التقدير حقيقياً ومتوازناً، وإنّ لنا أن نعتز وأن نقدر بكل إجلال وإكبار إسهاماتِ الحضارة الإسلامية وعطاءَها في مجرى تاريخ الإنسانية، وإن قصرت عما نريده اليوم منها، أو عما كان يمكن أن تقدمه للإنسانية من عطاء؛ فيما لو سمحت الظروفُ وأُفسِح المجالُ أمام دفع روح الإسلام، وقلّت العراقيلُ والمعوقات والانحرافات. لقد مثّلت الحضارة الإسلامية بكل المقاييس فترة مضيئة، وقفزة عملاقة، وإنجازاً عبقرياً، في تاريخ الإنسانية، تشهد لذلك آثار تلك الحضارة وما أحدثته في حياة شعوب الإسلام من تغييرات، وما أسهمت به في تراث الحضارة الإنسانية المعاصرة

من أسس ومناهج ومنطلقات؛ بل إنّ شروخ الضعف والوهن في بناء الحضارة الإسلامية لا تخطئ النظرةُ الفاحصةُ أساسَه فقد حدثتْ بسبب تنكب هذه الحضارة عن منطلقات هدي الإسلام في شؤون الروح والأخلاق والاجتماع، وهو ما نسعى اليوم لإدراكه واستعادته حتى يصلح البناء، وتتجدد الطاقة، ويثمر الشجر.

جذور الأزمة

إذا سلمنا بأنّ الأمةَ في أزمة، وأنها - من المحيط إلى المحيط - لا تنقصها الموارد المادية، ولا الموارد البشرية، التي تبلغ بليوناً ومائتي مليون نسمة، أو ما يعادل خمس كيان البشرية، وأنها لا تنقصها القيم والمبادئ، ولا الغايات والمقاصد السامية التي يزخر بها الإسلام أكثر من أي دينٍ وثقافةٍ وحضارةٍ عرفتها البشرية، فهو رسالةٌ خُتمت بها الرسالاتُ السماوية، فكانت كمالَ الهداية إلى الخير والحق والعدل والإخاء، وكانت رسالة سواسيةً للناس كافة.

وإذا سلمنا بكل ذلك، وإذا سلمنا بأن المعالجات والمنطلقات والجهود التي طرحتها رؤى المصلحين المسلمين وحركات الإصلاح الإسلامي لم تنجح حتى اليوم في حل الأزمة، واستعادة عافية الأمة، ورأب صدعها، ورصّ صفها، وتفجير طاقاتها، فإننا لا نجافي الصواب إذا قلنا بلغة النسبية أنّ الهوة والفجوة الحضارية بين الأمم المتقدمة وبين الأمة الإسلامية في تزايد متسارع في عالم القوة والقدرة وطاقات ثورة التقنيات العليا.

إذا سلمنا بكل ذلك، ولا حيلة لنا إلا في التسليم، فإنّ السؤال الذي لا بد من أن يطرح نفسه علينا هو: ما الذي أصاب الأمة؟ وكيف انحرفت مسيرتها؟ وكيف تعوق فعل دفع روح الإسلام فيها حتى انتهت إلى ما انتهت إليه من العجز والتخلف والضعف؟ ولماذا لم تنجح على مدى القرون محاولات الإصلاح ومشاريع التغيير في استعادة عافية الأمة وتعديل مسارها؟

والجواب أنه لا يمكن أن يكون ذلك قد تم بسبب عدم الرغبة في الصلاح والإصلاح، فقد بُذِل الكثيرُ، وما يزال يبذل، ولكن من الواضح أنّ عوامل التعويق والانحراف كانت كثيرة وعميقة الجذور، وأن تتابع وقع الأحداث كان سريعاً، وعلى قدرٍ أكبر من الطاقة المتوافرة لملاحقته، بل سبقها ورسم مسارها؛ فأصبح الأداء أقرب إلى ردود الفعل الذي لا يسمح بالتحكم في الظروف، ولا في إمعان النظر في القضايا، ولا في فهم طبائعها ومتطلبات مواجهتها. إن هذه الظروف وتلك المعوقات تجعلنا نلتمس العذر وندرك لماذا قصَّر الجهد - على الرغم مما اشتمل عليه ذلك الجهد من البذل والنبل- عن دفع الكثير من مداهمات أحداث التاريخ، وعن سداد الكثير من معالجات الأزمات، وإحداث التغييرات التي تصحح المسار، وتفسح المجال لاستمرار دفع روح الإسلام، وتعزيز رؤيته الكونية الإعمارية، وإزالة العراقيل عن طريقها، وإبعاد العوائق عن تروس عجلات دفعها ومسيرتها.

وإذا كان هدي الإسلام ليس لقوم بعينهم، ولا لزمان بعينه، ولكنه هداية للإنسانية جمعاء على مر العصور، فإنه يصبح حقاً لكل فرد وكل قوم وكل جيل، ولكل واحدٍ مهما كان موقعه، وإينما كان موقعه، لينهل منه على قدر ما يطيق وما تؤهله نفسه للإفادة منه، فهو نهرٌ ثرٌّ جارٍ بالخير والهداية، وإنه دين مشمولٌ بالحفظ والصون على مدى الوجود والتاريخ، إنه نبعٌ لا ينضب خيره مهما اغترف منه الغارفون، لكلٍّ منهم نصيبه مما يغترف، ومن الطبيعي أن يغزر ماء هذا النهر بتقدم الزمن، وتكرار العظة، ونضج التجربة، وسعة العلم، وتواصل العوالم، وتعاظم الأمم، وأن تمتد شطآنه، ويعظم نفعه وعطاؤه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٤١/٥٣].

فعصر الرسالة هو تجسيد للرسالة، وتطبيق لمبادئها وقيمها في واقع حياة البشر، وإقامة الحجة على الناس كافة بإمكانية تطبيقها، وإقامة مبادئها وقيمها في الإخاء والحق والعدل والتكافل، في حياة البشر كافة، وأنها ليست

مجرد أفكار وفلسفات وأحلام ورؤى وخيالات، على غرار مايأتي به الفلاسفة والحكماء المثاليون، بل هي رسالة حق وهداية كلية ربانية إلى البشرية، توضح لها الكليات، وتمدها بالقيم والمبادئ التي تهدي سعيها، وتنير طريقها، وتسدد فِعَالها، وتصبغ - بقصد الخير - وجودَها، يستوي في ذلك بَعْدَ عهد الرسالة كلُّ البشر، وكلُّ الأجيال، وكل الأقوام، وكل الأفراد، بقدر ما يأخذون وما يدعون، وينال كلُّ جيلٍ وكلُّ واحدٍ من البشر - أياً كان موقعه في التاريخ - بقدر طاقته واجتهاده من هداية هذه الرسالة العالمية المحفوظة، و﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣]؛ بل إنه - كلما اتسع بمرور الزمن مجالُ الرؤية، وزادت آفاق المعرفة، ولاسيما الأجيالُ التي جاءت بعد الأجيال التي لازمت رجال جيل الرسالة وعرفتهم - كانت الحاجة إلى رسالة الإسلام أكبر، وكانت مسؤولية التطبيق والتبليغ أعم وأشمل، وكانت القدرة على الإفادة منها أعظم.

طاقة الدفع الإيماني الحضاري والتراكم المادي العمراني

حين ننظر إلى مسيرة الدفع الإسلامي الأول وما فجرته الرؤية الإسلامية وجيل الرسالة في كيان الأمة الإسلامية والحضارة الإسلامية في التاريخ، وكيف تعوقت وتعثرت مسيرة الرسالة في واقع الأمة فيما بعد، وحتى اليوم؛ فيبدوَ الأمر وكأن قيم الرسالة، ورؤيةَ الرسالة، وروحَ الرسالة في الاستخلاف بالإخاء والعدل والبذل وإتقان الأداء، قد تعطلت عن الحركة في واقع الأمة الإسلامية اليوم، أو كادتْ؟ وهنا يجب ألا نخلط في فهم تاريخنا بين قوة الدفع النوعية من جهة، وتراكمات البناء والعمران والصنائع المادية من جهة، وعلى الرغم من أن قوة الدفع قد تكون في تناقص فإنّ تراكمات العمران والصنائع - لأمدٍ قد يطول - لابد أن نجدها - غالباً - في تزايد بفعل الوقت والجهد والموروث، وتستمر هذه الصورة المضللة في فهم التاريخ إلى أن يبلغ الضعف والظلم والانحراف والفساد في كيان الأمة قدراً يجفف قاع المنابع، ويقضي على منطلقات روح المبادرة والإبداع والتجديد؛ فينهدمَ البناء، وتتصدع العرى، وتنهار المؤسسات، وتندثر المعالم، وهناك فقط

تتضح للناظر - دون جهدٍ - رؤيةُ العلاقة بين ضعف روح الدفع والنماء والتجديد من ناحية، وانحراف المسيرة وفساد الممارسات وانحطاط الحضارة من ناحية أخرى.

وإذا كان انحرافُ مسيرة الأمة الإسلامية عن خط الأداء الأمثل الذي رسمته تطبيقات الرسالة الإسلامية، بعد غياب الرسول ﷺ وانتهاء عهد الرسالة ودولة صدر جيل الصحابة والتابعين، قد بدأ مبكراً؛ فالسبب في ذلك أن الناسَ، كلَّ الناس، وكلَّ الأجيال، من بعد جيل النبوة والرسالة من الصحابة والتابعين، قد تُركوا لجهدهم في تمثل الرسالة، ولاجتهادِهم في الاقتباس منها، وأن كلَّ جيلٍ ومدى تمثله للرسالة أو انحرافه عنها مرهونٌ بطاقة أفراده، وفق معطيات زمانهم ومكانهم وإمكاناتهم ومتغيرات أحوالهم وتحديات عصورهم.

وكان هذا الأمر واضحاً في المسيرة التاريخية لرسالة الإسلام؛ حيث كان فيها التناسب في تاريخ الأمة الإسلامية عكسياً: بين قوة دفع الرسالة ونوعية الأداء من ناحية، وتراكم معالم عمران الأمة وتراثها ومظاهر الحضارة فيها من ناحية.

والمقصود بالتناسب العكسي أن قوة أي طرف من الأطراف ونموَّه يعني ضَعفَ الطرف المقابل وانكماشه، أي إنه في الوقت الذي تضعف فيه روح الإسلام يزداد توسع الملك وازدهار الصنائع والعمران. لقد نزلت رسالة الإسلام على العرب وهم في عامة حالهم أعرابٌ في حالةٍ من البداوة والجهالة؛ مما جعل جل قبائلهم أقرب إلى البدائية، حيث لا دولةَ لهم ولا أنظمةَ ولا عمرانَ ولا علومَ ولا صنائعَ، على غرار ما جاور الجزيرة العربية من حضارات الفرس والروم والهند وسالف حضارات الرافدين وبلاد مصر والشام، وفي الوقت نفسه كانت دول الفرس والروم والهند وحضارتهم تفلس وتغرق في المفاسد والمظالم والانحلال والتدهور، وجاءت رسالة الإسلام إلى العالمين، برؤيتها الكونية التوحيدية الخالصة السامية، وبقيمها ومبادئها ومفاهيمها النبيلة الخيرة الحضارية، فأوجدت آفاقاً واسعة، ومناهج علمية

سننية راسخة، تشكل في مجموعها أسساً قوية لدفع الاجتماع الإنساني، والحضارة الإنسانية، وتجديدها، وفتح أبواب جديدة ومبدعة في مجالات العلوم والمعارف الإنسانية والكونية، فأخرجت أمةَ العرب، وأخرجت معها الإنسانية، من الجاهلية والبدائية، ومن الفساد والمظالم، إلى مستوياتٍ عليا من الرؤية والمفاهيم والمبادئ الكونية السامية، ووضعت الجميع على دروب جديدة واسعة من المناهج الحضارية، ودفعت بالجزيرة ومَنْ حولها إلى مرحلة جديدة من الحضارة في تاريخ الإنسانية، حضارة تلتقي فيها - بتكاملٍ وانسجام - الروحُ والمادةُ، والعقلُ والوجدانُ والعلمُ، والغيبُ والشهادةُ.

وكان من الطبيعي أن يكون زخم دفع روح الرسالة الإسلامية عند منابعها في عهد الرسالة وجيل الأصحاب والتابعين قد بدأ قوياً كاسحاً؛ مما مكّن دولة عهد الرسالة من اجتياح رقعة العالم المتمدن في أقل من ثلاثة عقود من الزمان، غيرت من حالة العرب وشعوب العالم المتحضر من حولهم ديناً وثقافة ونظاماً، بل غيرت من حال الشعوب التي حكمها جيل الرسالة تغييراً عميقاً بلغ حداً غير مسبوق من التأثير والانبهار، غيَّر منهم حتى لغاتهم في شمال الجزيرة العربية وشمال إفريقيا وشرقها لتصبح اللغة العربية القرشية لغتهم الأم. وإذا كان الدفع والتغيير الإسلامي للروح والعقل والوجدان عظيماً فقد كان من الطبيعي في عالم الجزيرة البدائي أن يكون الأثر العمراني في البداية محدوداً، وأن يتراكم مع مرور الزمن ودخول الشعوب من أبناء الإمبراطوريات والحضارات الدائلة في الإسلام، وأن تتسع رقعة الملك وتزدهر الصناعات والعمران، ومع مضي الوقت وبسبب ما حملته الشعوب التي دخلت الإسلام من آثار تراثها وتقاليدها وفلسفاتها ودياناتها السالفة كان من الطبيعي أيضاً أن تضعف الروح الإسلامية وينال الغبش والتلوث الفكري صفاء عقائدها ورؤيتها الكونية وثقافتها ومناهج فكرها وأنظمة حكمها وعلاقاتها الاجتماعية، وأن يعلق بها كثير من ممارسات الكسروية والقيصرية في الظلم والجور والاستبداد والخرافة والضلالات؛ بسبب ما علق في ثقافة الشعوب التي دخلت الإسلام من تلك الرواسب، والتي لم يسعف الزمن والإمكانات

لتغييرها جميعاً، وإعادة صياغة تلك الشعوب تربوياً على عقائد الإسلام ومفاهيمه وقيمه ومناهج فكره ومبادئه الصافية، فأصبح في الحقيقة فكر شعوب الأمة ونظمهم وممارساتهم خليطاً من أساسيات الإسلام، ومما حملوه معهم من ثقافات هي بقايا سالف ممارساتهم وتراثهم وعاداتهم وإحنهم وعنصرياتهم.

لذلك كان من الطبيعي أن نرى تاريخ الأمة يُظهِر ولأمد طويل تناسباً عكسياً بين قوة دفع الإسلام في بداية عهده وبين توسع الملك وتراكمات العمران والصنائع في لاحق عهده، لينتهي الأمر بالأمة إلى الكارثة حين بلغ الضعف والفساد والاستبداد مداه؛ لتخبو الروح ويشتد غبش الرؤية، وتلوث الثقافة، وتنتشر المظالم والمفاسد، وليخرب العمران، وينهار البناء، وتذوي الصنائع، ويجف العطاء، وتغرق الأمة في ظلامات الجهل والخرافة والقهر والجور، وتنهزم أمام الأقوياء، ويلهب ظهرها الأعداء، وتغدو فريسة سهلة لكل معتد طامع.

كيف بدأ ضعف الطاقة الإيمانية الأخلاقية؟

إن التاريخ يذكر لنا بما لا مجال للشك فيه، أنّ بدايات الانحراف قد ظهرت في العصر اللاحق لعصر الرسالة، بعد أن وهنت يد جيل الأصحاب؛ حيث لم يعد الأصحاب الذين صفت معادنهم وسمت غاياتهم وخلصت مقاصدهم يمثلون جحافل جيش دولة الخلافة وحراس نظامها ومرتكز قاعدتها السياسية، هذا التغيير الجوهري الذي أصبح الأعرابُ فيه جيشَ الخلافة وقاعدتها السياسية، هو الذي جعل الخلافة بعد العهد الراشد تتحول إلى "ملك عضوض" بُنِيَ في كثير من جوانبه على قواعد الاستلاب وقهر العصبيات القبلية، وزاد الطين بلةً ما لحق بالأمة مع مرور الزمن من الشعوبيات والفلسفات والخرافات. لذلك كان من الطبيعي أن تتفاوت أجيال ما بعد الرسالة على مدى القرون في مدى تمثلها لروح الرسالة، وما انطوت عليه من طاقة على حملها، والإفادة منها بحسب حالها والظروف التي مرت

بها، وبحسب قدرتها على التغيير والتكيف والاجتهاد والتجديد؛ بما يستجيب لمتطلبات هداية رسالة الإسلام ومبادئه وقيمه السامية، وعلى ضوء ما يواجه الأمة في مختلف المراحل من التحديات.

لقد كان من أهم الأسباب في سرعة ظهور الانحراف عن رؤية الإسلام الكونية، وعن قيمه ومبادئه السامية، وما أدى إليه ذلك من هدم نظام الخلافة الراشدة، هو قصور الجهود التربوية عن إعادة تربية أبناء القبائل البدوية التي كونت جيش الفتح حين ضعف جيل الرسالة والصحابة وانحلت قبضتهم عن جيش الدولة، وما صاحب ذلك من أحداث وتغيُّرات جسيمة تمثَّلت بدخول شعوب وقبائل وأمم كثيرة في الإسلام، وبزخم وسرعةٍ هائلةٍ تفوق طاقة الدولة وجيل الأصحاب في تدبرها ومواجهة متطلباتها في (التربية) والتغيير؛ بحيث انتهى الأمر بالأمة والدولة - مع أفول جيل الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ، ولقاء المنايا بفعل الحروب ومر الزمان - أن تتسع آفاقها، وتمتد رقعتها إلى بحر مائج من الشعوب والثقافات، وإذا كان جيش جند القبائل والأعراب قد تحلى بالقوة والشجاعة في الجهاد والذود عن حياض الأمة إلا أن اولئك الجند من أبناء القبائل لم تتوافر لهم الفرصة لإعادة تربيتهم، ولم تصهرهم روح الإسلام وإخاء الإسلام بمثل ما صهرت به جيلَ الأصحاب وجندَ عهد الرسالة وصدر الخلافة الراشدة، لذلك تغيرت بهم طبيعة الجيش وطبيعة الشعب، وطبيعة القاعدة السياسية؛ لتجريَ الأيام بأحداث انقلابية متسارعة كان لابد لها من أن تنهيَ عهد الخلافة الراشدة، وتنهيَ نمط حكمه وتنظيمه، وأن يستقر الأمر في النهاية لقيادات جديدة تمارس - ضمن هياكل بناء مجتمع الإسلام ومؤسساته - كثيراً من موروثات المفاهيم والتقاليد والظلامات والعصبيات والعنصريات القبلية والشعوبيات المنحدرة إليها من إرث الجاهليات التي نشِّئوا فيها، ورُبُّوا عليها؛ فتسقطَ الخلافة الراشدة، وينحدرَ ورثةُ مدرسة الرسالة ورموزُهم وقياداتُهم من أمثال الحسن والحسين ابني علي، وعبد الله ومصعب ابني الزبير، ومَنْ جاء مِنْ بعدهم وسار على دربهم مِنْ رجال تلك المدرسة، ويستقر الأمر لملوك بني أمية

بسبب تغير القاعدة السياسية والعسكرية، لا لِمَا زُعِمَ من انحرافاتٍ وأخطاء نسبت إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان أو إلى الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنهما؛ لأن ماجرى عليه منهاج معاوية ونظام ملكه من أخطاء هو أضعاف أضعاف مازُعِمَتْ نسبتُه إلى الخلفاء الراشدين؛ بل إن لسان الحال يوضح أنّ الأخطاء - إن صحت نسبة ما نسب منها إلى الراشدين، وهو أمر غير مسلَّم به - لم تكن بالقدر الكافي الذي يفضي إلى القاعدة السياسية العريضة الجديدة التى سادت جيش الفتح من الأعراب وجموع القبائل. فكان ذلك الحدث التاريخي المتمثل في انهيار نظام الخلافة الراشدة هو الذي أحدث الشرخ الأول في دولة الإسلام، ونظامه بكل ما حمله ذلك الحدث من آثار عقدية وسياسية واجتماعية واقتصادية أصابت روح الإسلام ورؤيته، وعكَّرتْ صفاء قيمه ومبادئه، وأصابتها بالعتمة والغبش بما شابها من الروح والعادات والممارسات والتحيزات القبلية والشعوبية، إذ بدأ بها ضعف دفع الروح الإسلامي في الوقت الذي كان يتعاظم فيه ملك دولة المسلمين بالفتح، وتتسع فتوحاتها، ويزداد عدد رعاياها من ورثة الصنائع وأرباب فنون الحضارات والإمبراطوريات الدائلة في شمال الجزيرة وبلاد فارس والهند والروم.

السياسة والأخلاق والدين: انقسام القيادة ونشأة المدرسية النظرية

وحين نتتبع مسيرة التوجه الفكري والعقدي للأمة مع تطور هذه الأحداث فإننا نجد الجيل الأول جيلاً قد تولاه الرسول ﷺ بالتربية والتهذيب، وتولاه الوحي الإلهي بالتوجيه والترشيد؛ ولذلك تمتع برؤية وروح وقدرة حضارية عالية مازجت ما جبلت عليه قبائل العرب من القوة والشجاعة والنبل والكرامة، فأخرجت جيلاً حضارياً فاعلاً، وكانت عظمة إنجازاته بقدر قوة تكوين طبعه التربوي وسلامته، وسمو مفاهيمه العقدية والسياسية والأخلاقية.

وبإسقاط الخلافة الراشدة وغلبة قادة القوى القبلية أخذ الدور القيادي

لرجال مدرسة الرسالة يتضاءل، وسلطانهم ينحسر، ومعاقلهم تدك وتدمر، وشيئاً فشيئاً انتهى الأمر بعد مئة عام من الصراع الدامي، طيلة العهد الأموي إلى تهميش دورهم السياسي، وليتحولوا تدريجياً بعده إلى فئة نظرية مدرسية معزولة ومنعزلة في المساجد والزوايا والمدارس، يتسمون بالطهارة والزهد في الوقت الذي أخذت تتزايد فيه الممارسات والعادات القبلية والشعوبية، وتتنامى الإحنُ والحزازاتُ العنصريةُ، وتقوى من خلاله روح التسلط والاستبداد، وتتسع مجالات التبديد والفساد.

ومع إيغال عزلة العلماء الذين هم ورثة مدرسة الرسالة كان من الطبيعي أن تضعف صلتهم بواقع المجتمع ومتغيراته والقدرة على التأثير في مسار سياساته وممارساته وتجديد مؤسساته، ويظهر أثر ذلك على فكرهم ومناهج ثقافتهم؛ لتضعفَ لديهم ملكة التجديد والاجتهاد، وتتحولَ مدراس الخبرة والعمل إلى مدارس الرأي، ثم تتحول مدارس الرأي إلى مدارس النص، وتنتهي مدارس النص إلى مدراس الجمود والتقليد.

وبسبب اعتزال العلماء والمثقفين ومعارضتهم وعزلهم من قبل الصفوة السياسية، تبنت فئات من تلك الصفوة العلمية المدرسية (الفلاسفة) البديل الفلسفي الناهل من الثقافات الوافدة، ولكن دون منهج شمولى سليم يدركُ خصائص الأمة ومكونات رؤيتها وعقليتها ونفسيتها العقدية والحضارية؛ لينغمسوا وينغمس معهم شطر مهم من الفكر والجمهور الإسلامي من خلال الفلسفة وعلم الكلام والفرق والتصوف الأعجمي في متاهات الإلهيات الميتافيزيقية الإغريقية وضلالها وانحرافاتها وتساؤلاتها وتهويماتها ومنطقها الصوري، وفي الوقت نفسه انتهى العلماء والأمناء على تراث الرسالة إلى جمود نصية العلوم والمعارف الفقهية الشرعية، وتجلّتْ ثالثةُ الأثافي في تمادي فساد الصفوة الحاكمة وجهالتها واستبدادها، وبذلك فقدت الصفوة السياسية -بعزل وعزلة رجال العلم والشريعة- سندَها وقاعدتَها، ولم يعد لها قاعدة

فكرية ثقافية تدعمها وتبصرها؛ فغرقت الأمة في انحطاط وجمود واستبداد، وأسلمت عامة الأمة معها نفسها إلى صوفية فلسفية حلولية خرافية، أخمدت جلَّ ما بقي في الأمة من طاقة حضارية، وأسلمتها إلى غيبوبة وخنوع وسلبية. وقد عمق ذلك الإرهاب المادي الناتج عن استبداد قُوَّاد الأمة وصفوتها السياسية الحاكمة؛ الذي كرَّسه عجز الأمة عن مواجهة المتغيرات، وعدم القدرة على التصدي للتحديات، فكان إرهابُ العسف والخسف والقضاء على كل معارضة هو السبيل الوحيد للصفوة الحاكمة للمحافظة على الحكم، وتحقيق الضبط والبقاء. أما الصفوة المثقفة الشرعية فإنها - بتدهور قدراتها العلمية، وضعف ممارساتها العملية، وعزوفها عن معارف السنن والطبائع والوقائع - قد أصبحت أشبهَ ما تكون بمدرسة حِرَفِيَّة هامشية؛ حيث لم يبق لها - في الغالب الأعم - من دور في المجتمع إلا في توجيه شؤون الحياة الفردية، وتولي ما يتبعها من وظائف الفتوى والقضاء وإمامة المساجد، وكان لابد لها لأداء دورها من اللجوء إلى الإرهاب والترهيب الروحي، وإضفاء القداسات على المنطوقات وشحنها بالرموز وشوارد النصوص؛ حتى ما عاد بالإمكان رفع أخمص ولا سحب خطوة إلا بدليل من نص وسابقة وفتوى وإجازة.

آثار الانقسام وانهيار المؤسسات، وتغييب البعد الجمعي

وهكذا انتهى الأمر بالأمة إلى انهيار المؤسسات وتسلط الصفوات، وأصبح المسلمُ فرداً يتناوشه - نفسياً ومادياً، ومن كل جانب - إرهابُ الاستبداد السياسي، وخطابُ الترهيب الديني؛ لِيُدْفَعَ وتُدْفَعَ معه الأمة عامة إلى الانطواء والسلبية، ويسلب من فؤاده ومن خيال الأمة ما كان لها من دوافع الإتقان والعمران والحضارة.

وزاد الطين بلة أن صفوة الفكر في الأمة لم تنتبه بشكل حقيقي علمي فعال إلى أن السبيل الناجح للإصلاح والتغيير إنما يأتي أولاً من داخل الأمة

والمجتمع، ويبدأ بجوهر الذات ومنبع الفكر والوجدان، وهو التربية وإعادة التربية، وبذلك ضلوا السبيل حين ظنوا أن سبيلَ الإصلاحِ هو سبيلُ المناجزةِ والصراعِ والعنفِ؛ مما زعزع استقرار الأمة، ومزّق نسيجها الاجتماعي، وزاد من تمكين أسباب المظالم والقهر والاستبداد والتمزق(١).

هذه هي الصورة الكبرى لمجرى تاريخ الأمة وعلاقاته العكسية؛ والذي انتهى بها إلى ما هي عليه من ضعف وخمود وسلبية وتمزق وهوان.

وعلى الرغم من ذلك فإنه يجب ألا يغيب عن وعينا أنّ حال الأمة في كثير من لحظات تاريخها - وحال كثير من بلدانها وليس دائماً - في السوء سواء، فهو إن تردى في مصرٍ من الأمصار فإنه قد يكون أفضل حالاً بعض الشيء في مصرٍ آخر، ففي الوقت الذي كانت قد خمدت فيه شعلة روح العرب واندثر رسمُ المسلمين في بلاد الأندلس كانت طاقة الإسلام تتجدد على يد قبائل الأتراك التي دخلت الإسلام بصلابتها وشجاعتها، وكانت مزودة بروح الحرية والإباء؛ فرسخت الإسلام في بلاد الأناضول، وانبثق عنها براعمُ الدولة العثمانية.

وإذا تراجعت طاقة الفكر والإبداع في الأمة بتراجع روح الحضارة فيها؛ فإن ذلك لم يمنع - حتى في عصور تفاقم الصراع والتمزق والانحطاط بل ربما بسببه وما يمثله من التحدي - من ظهور عبقريات فكرية علمية وإصلاحية متميزة، منهم الغزالي وابن حزم وابن رشد وابن تيميه وابن خلدون في مجالات علوم الدين والشريعة والاجتماع، وكثير سواهم في مجالات العلوم الفلسفية والفيزيائية والصنائع وغيرها، فذلك - ولو بشكل جزئي - أثرٌ مما تبقى من أصل قوة الدفع، ومن جوانب الإيجاب في الاستجابة للتحديات ومقاومة الآفات والأمراض، ومما جبلت عليه النفوس من دافع الإصلاح والعمران، وهي ظواهر ما زلنا نلمس آثار وجودها حتى اليوم في روح الأمة، وفي تطلعاتها، وتفجرات غضبها، ومحاولات الإصلاح فيها.

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر السياسي الإسلامي بين المبدأ والخيار: رؤية إسلامية. دمشق: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار الفكر. ٢٠٠٢م.

لكن هذا لا يغير من طبيعة الصورة الكبرى لتاريخ الأمة ومسيرتها الحضارية التي كانت تدفع التاريخ على جبهات مختلفة بما يؤدي إلى ذبول دفع روح الإسلام، وإخماد طاقته، وتكدُّرِ صفاء رؤيتها الكونية الحضارية وشموليتها، وبما يمزق صف الأمة، ويمكِّن للفساد والاستبداد في كيانها، ويَسِم شعوبَها بالخمول والسلبية، وينزع عنهم - ولو ببطء شديد - ثيابَ العزة والكرامة، ويحيل جموعَ أبنائها إلى قطعان، ونفوسَهم إلى عبيد، يستولي عليهم الخوف والخنوع، وتنعدم فيهم المبادرة، ولا يرجون إلا لقمة العيش، وسلامة البدن. وكان لابد من أن تصحو الأمة من غيبوبتها، وينكشف لها عوارها ومدى ما أصاب روحها من الدمار، برغم مقاومة روح الإسلام فيها على مدى القرون، وذلك حين برز لها أعداءٌ مناوئون، وأقوامٌ لهم قدراتٌ حضاريةٌ ومهاراتٌ ماديةٌ وتقنيةٌ، تدعمها منهجيةٌ علميةٌ، وطاقةٌ نفسيةٌ إبداعيةٌ، بصورة غير مألوفةٍ لديها في عهود التخلف، حيث تحدت بها الأمة وناجزتها، فانهزم جمعها بسبب ضعفها وتخلف فكرها، وخنوع نفسيتها، وتمزق صفها، وانهيار مؤسساتها، حتى وقعت فريسة ذليلة سهلة لأعدائها، فأخذ الغزاة والمستعمرون وقُوَّاد الأمة يسومون الأمةَ وشعوبها ألوانَ الخسف والظلم والهوان، ولا من معينٍ ولا منقذٍ لها بعد الله إلا أن تأخذ الأمةُ ومفكروها وقادةُ الإصلاح فيها - بصبرٍ ومصابرةٍ - بالأسباب الحقيقية لخمود طاقتها وقصور أدائها حتى تسترد عافيتها، وتجدد طاقتها، وتقضي على أسباب الخمود والضعف والتمزق والتخلف في كيانها بإذن الله.

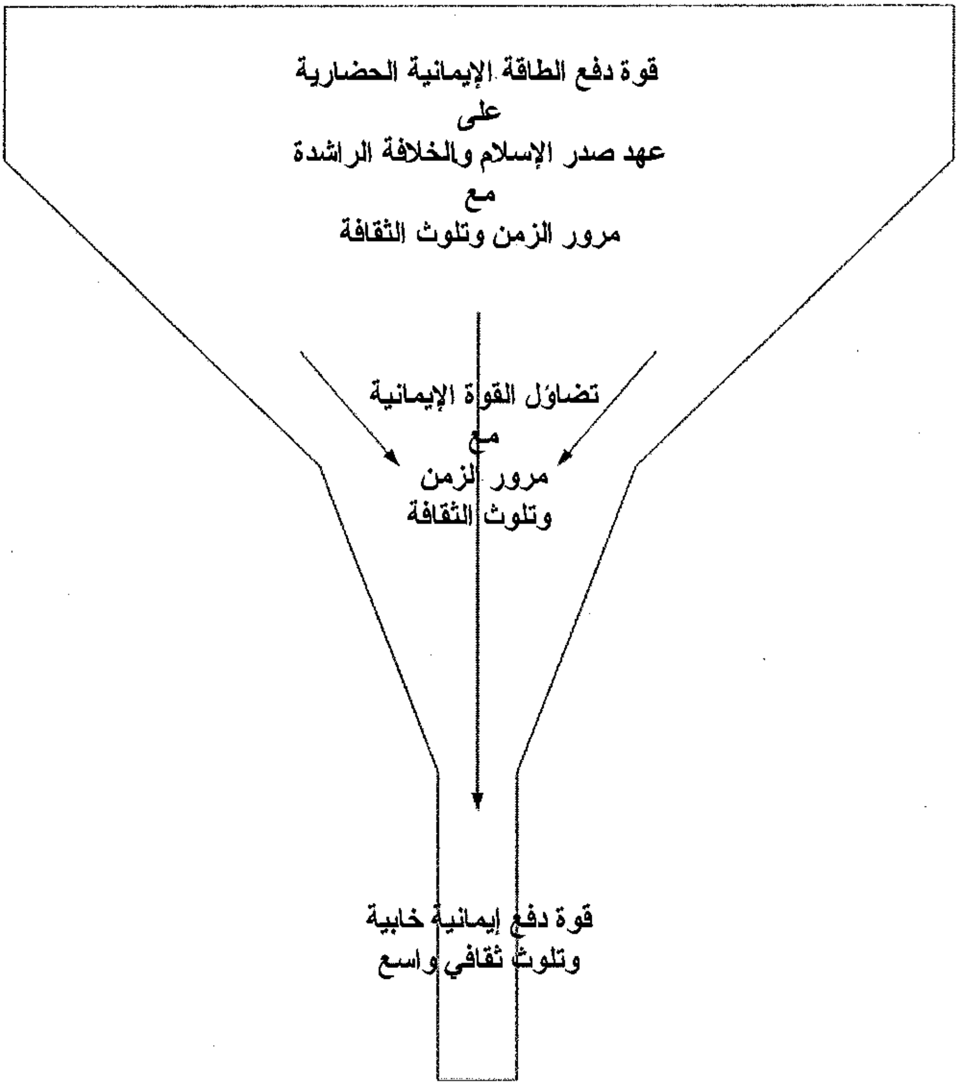

قوة الدفع الإيمانية الحضارية وتضاؤلها مع مرور الزمن،
وتشوه الرؤية الكلية الكونية الإسلامية،
وتأثير الروح العرقية القبلية والشعوبية.

الشكل (١)

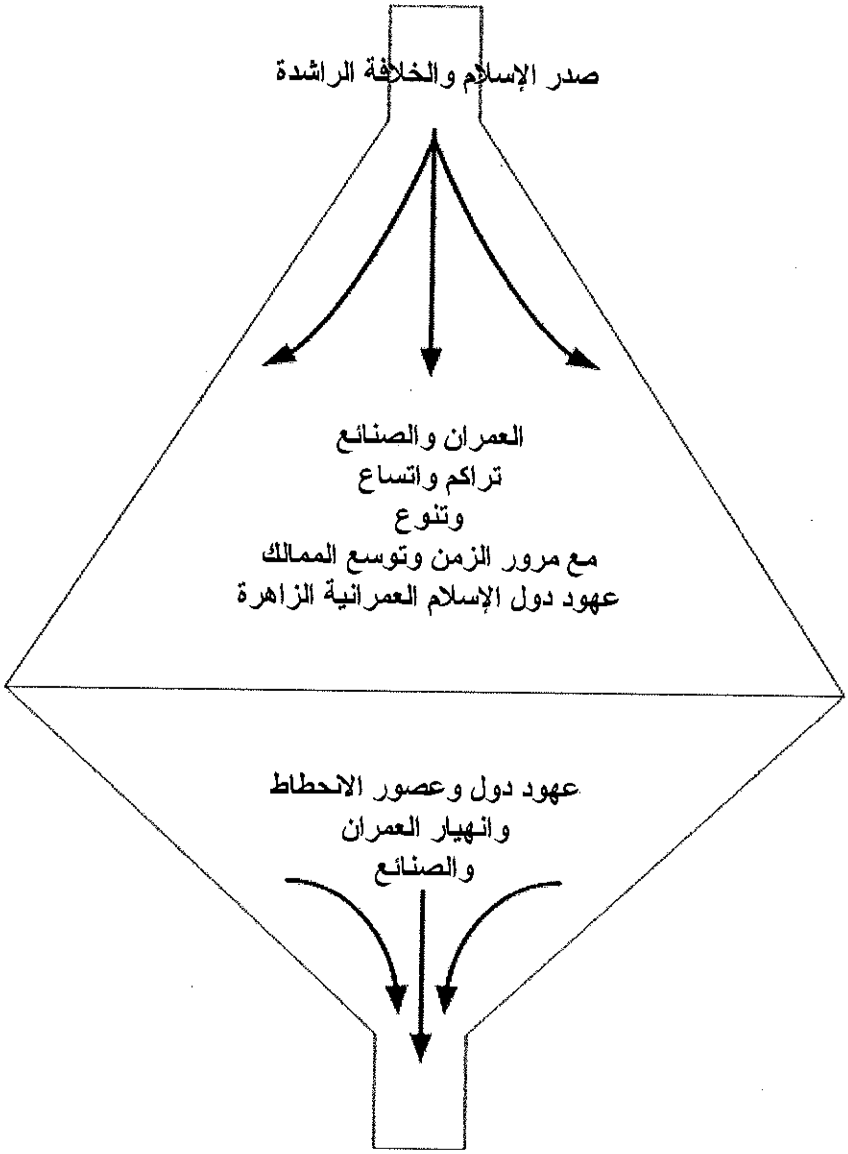

ضآلة العمران والصنائع في الجزيرة العربية على عهد بدء الرسالة وصدر الإسلام، وتوسعهما، وتراكمهما مع مضي الزمن، على الرغم من ضعف الروح الإيمانية الحضارية الإسلامية، وتشوه الرؤية الكلية الكونية، وتلوث الثقافة.

الشكل(٢)

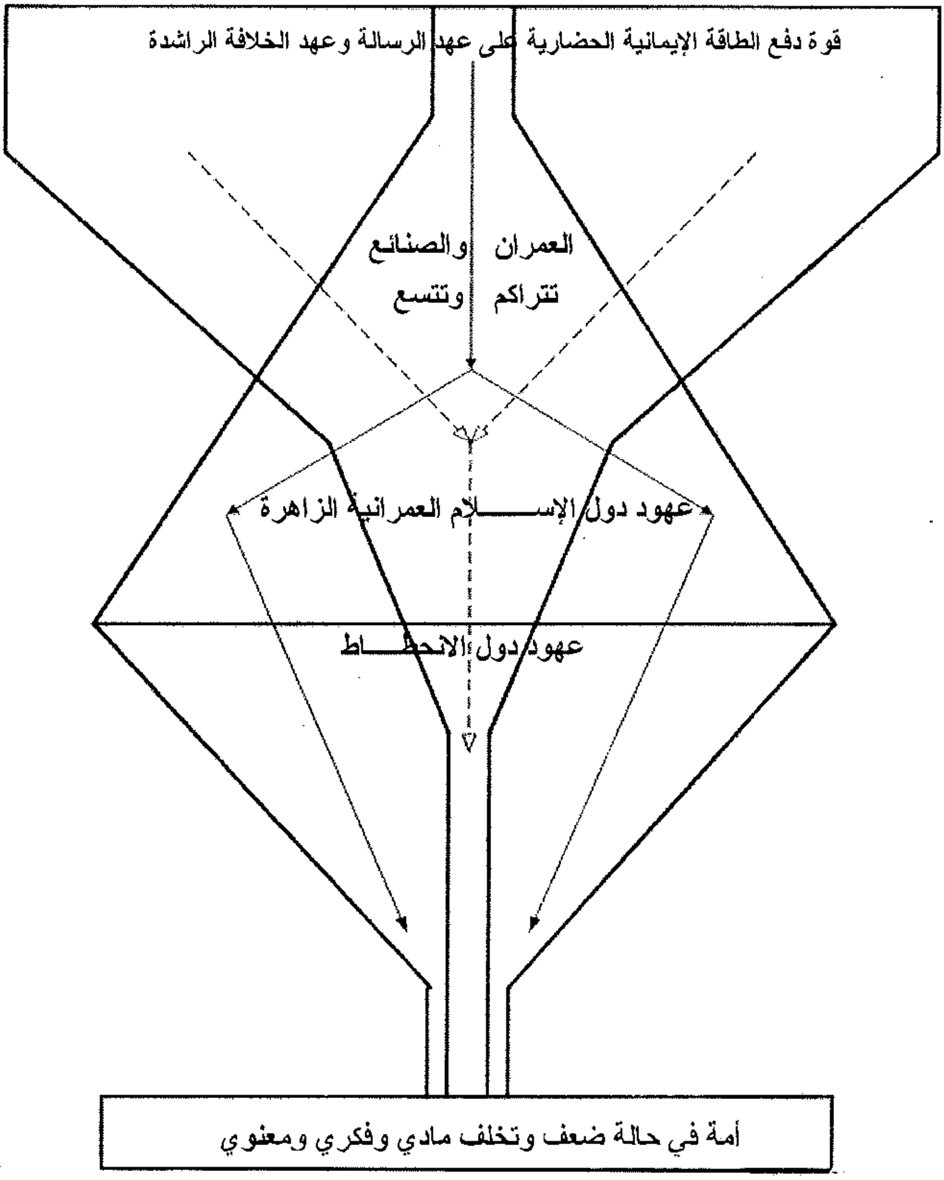

التناسب العكسي بين قوة الدفع الإيماني الحضاري الذي كان قويا مع عهد الرسالة في مقابل إمكانات عهد الرسالة العمرانية الضئيلة،وتوسع العمران والصنائع مع تقدم الزمن على الرغم من تضاؤل القوة الإيمانية الحضارية وتناقصها.

الشكل (٣)

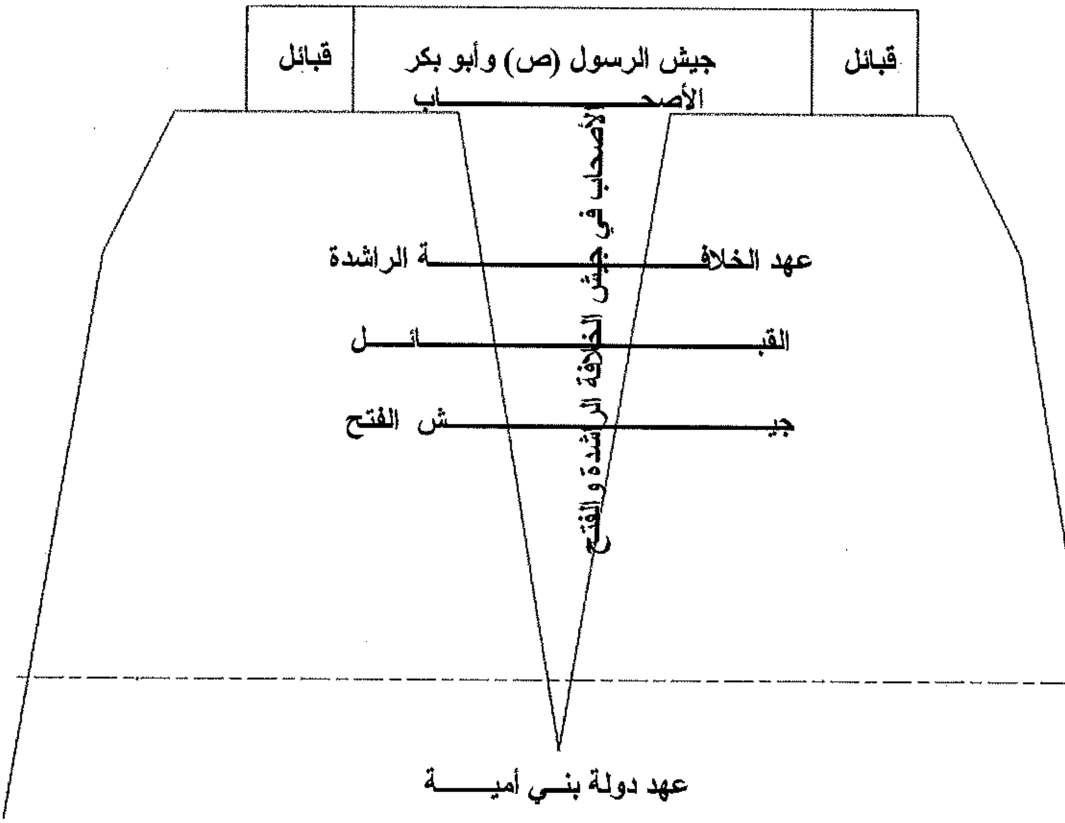

تطور
القاعدة السياسية في عهد الرسول (ص)
وعهد الخلافة الراشدة وفي عهد الدولة الأموية

الشكل (٤)

الفصل الثاني

تشخيص الـداء

وإذا كنا قد استعرضنا في الصفحات السابقة الصورة الكبرى لمجرى التقهقر في دفع الروح الإسلامي الحضاري في الأمة، برغم ما حققته تلك الروح في العصور الماضية من التألقات والتراكمات العمرانية، فإن المطلوب اليوم هو معرفة ما تم على وجه التحديد من تغيرات وانحرافات في فكر الأمة، وفي نفسيتها ووجدانها، وأثر ذلك في الإنسان المسلم فرداً أوجماعة، ومعرفة وجوه القصور التي أسهمت في تعويق جهود الإصلاح عن تحقيق أهدافها؛ لينتهيَ البحث بعد ذلك إلى محاولة الإسهام في العلاج واستكمال الأدوات، وفي سد بعض ما بقي من الثغرات؛ حتى تنالَ الأمة احترام الإنسانية وتقديرها، وتجدَ الآذان مصغية لماتطرحه من القيم السامية والتحديات الروحية والأخلاقية.

تشوُّهات وانحرافات في فكر الأمة وثقافتها

السؤال المهم الآن هو ما أهم هذه التشوهات والانحرافات الفكرية والثقافية التي شوهت وضعضعت بناء الأمة النفسي، وحالت دون استرداد الأمة عافيتها، ومنعت مشروع الأمة الحضاري من أن يحقق أهدافه ويبلغ مقصده وغايته؟ وللإجابة عن هذا السؤال فإن من الممكن أن نتبين ستة أنواعٍ من هذه التشوهات التي نتناولها بشيءٍ من التوضيح في الصفحات التالية.

التشوه الأول: تشوه الرؤية الكلية

أول هذه التشوهات وأخطرها كان تشوه الرؤية الكونية الإسلامية التي تشكل إطار فكر الأمة وثقافتها؛ بحيث لم تعد رؤية كونيّة توحيدية شمولية إيجابية قادرةً على أن تقدم الدليل والهداية الكلية لفكر المسلم وضميره وعلاقاته ونظمه.

لقد كانت الرؤية الكونية القرآنية - كما مارسها جيلُ الرسالة العاملُ - تتصف بالشمول والوضوح والإيجابية والتلقائية الفطرية، فهي إيمان بالله الخالق الحق العدل الذي ليس كمثله شيء، وهي إيمان بأن الإنسان الخليفة مخلوق من نفسٍ واحدةٍ، ليسعى في الأرض على أساس من العدل والتكافل والشورى؛ بقصد الخير والإصلاح والعمران، رعايةً لكافة المخلوقات، وتكريماً لنوعه، وتسخيراً لحاجته، وتمحيصاً لمعدنه، وهو ذلك المخلوق الذي يقررُ تقواه وإخلاصُ أدائِهِ واجتهادُهُ موضعَه ومكانتَه الأبدية في الدار الآخرة، إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فشرٌ، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٥٣/٣٩-٤٢]، وبذلك فالرؤية الكونية الإسلامية للإنسان تتلخص في ثلاث قضايا أساسية عامة هي:

١- في الغيب: إيمانٌ بالله الخالق وحده لا شريك له.

٢- وفي الحياة: حسُّ المسؤولية، وقصد الخير والعدل، والسعي بالإصلاح والإعمار تحقيقاً وتجسيداً لقيم الخير والعدل.

٣- وفي الآخرة والمآل: مواجهةُ المصير، وحصيلةُ العمل - برحمة الله - تكون وَفْقَ الجزاء العادل، "إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فشرٌ".

ولذلك نجد الإيمان والعمل الصالح - في الرؤية الكونية القرآنية - لا ينفصمان، فغاية الإيمان هو العمل الصالح، والعمل الصالح هو كل أعمال جوارح الإنسان، لا فرق بين عمل وآخر، حتى لو كان مثقال ذرة، حيث

يتقرر نوعه وبعده الروحي على أساس قصد الخير منه وجهد الإتقان فيه، ليس فقط بالقصد؛ ولكن أيضاً بصلاح الأداء الذي يعني الاجتهاد في الأداء بطلب السنن والأخذ بالأسباب التي أودعها الله طبائع الكائنات وفطرها عليها، والعمل بمقتضاها، يستوي في ذلك السعي بشأن ما تحبه النفس وما هو من شهواتها، أو بشأن ما تضحي فيه النفوس أداءً لواجباتها ومسئولياتها. ولذلك كان وعدُ الله لعباده المؤمنين بالتمكين مشروطاً بالإيمان، لأنه يهدي المسيرة، ويربط القلوب، ويثبت الأقدام، وأن يكون الإيمان مصحوباً بالعمل والأداء، فهو أداة تحقيق المقاصد، دونه لا يكون للمقاصد وجود ولا معنى، وأن يكون العمل صالحاً مستصحباً روح الإحسان والإتقان؛ وذلك ببذل أقصى الجهد بإخلاص في التماس منهج السنن الإلهية والفطرة التي تمثل سنن الحق والحقيقة، فيأتي العمل متقناً صالحاً. وإن النوايا وحدها لا تكفي لاستحقاق الاستخلاف والتمكين في الأرض، فذلك له ثواب الآخرة، أما التمكين والاستخلاف في الأرض والتوفيق في العمل وفعل الخير في الدنيا فمشروطٌ بالصلاح، أي بالإحسان والإتقان والاجتهاد في العمل، فذلك المنهج، منهج الاجتهاد والإتقان في العمل، هو الذي يهدي - بتوفيق الله وعونه وبالغ حكمته - إلى السنن، وإلى وجوه الحق والحقيقة في الأداء، وإلى التوفيق في العمل والنجاح فيه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٢٤/٥٥].

هذه الرؤية الكونية الشاملة الواضحة الصافية في توحيد الخالق، وغائية الخلق، واستخلاف الإنسان، وقصد الخير والإصلاح والإتقان، وحمل المسؤولية، أصابتها - نتيجة طبيعية - على أيدي جمهرة المفكرين المدْرَسِيين المعزولين المنعزلين المنقطعين للدراسة والتأملات والأبحاث النظرية، المركِّزين على حالات أفراد المجتمع وحاجاتهم، تشوهاتٌ خطيرةٌ، أسهمَتْ - بحسن نية، وعلى المدى الطويل - في ذبول روح الإسلام وقوة دفعها في رؤية الأمة، ومكّنت لفعل عوامل التخلف في كيانها كي تفعل فعلها فيها؛ بحيث تخمد طاقة التجدد فيها، وتسلم الأمة إلى حالة من السلبية وانعدام الوزن، وتُقْتَلُ

فيها كل إرادة للبحث والتنقيب والتجدد والدفع، وتسلم نفسيتها وكيانها إلى منحدرات المحاكاة والتقليد، ويُهدم فيها معنى العمل والمبادرة والإتقان ومعنى الجماعة والأمة وتكافلها، وتنهار مؤسساتها، وتتمزق وحدتها وعلاقاتها.

نلمس هذا بوضوح في الرؤية التي يقدمها بشكل عام وأساسي كتب الفقه والكلام، ويكون بها أسس التكوين التربوي والنفسي للفرد المسلم؛ فهي -في جوهرها- رؤية فردية لا رؤية جماعية، رؤية تنبثق من طبيعة العلاقة بين العلماء والعامة، وهي تتعلق بالشؤون الشخصية لا بالشؤون العامة، ولا بأنظمتها ومبادئ تسييرها وطبيعة مكوناتها وروابطها، ولا مجال في هذه الرؤية وهذا الفكر - بشكل جدي وجماهيري - للتربية والمشاركة السياسية والعلاقة الجماعية وشؤون الحكم وموازين الإخاء والعدل والتكافل والشورى، في تسيير الحياة العامة للأمة. وهي في نهاية المطاف رؤية سلبية لا تتفاعل مع كل أبعاد الحياة ولا تنفعل بها، ولا تتابع مجرياتها ومتغيراتها، ولا تدفع عجلة أدائها الحضاري، فالهم الحاضر والشغل الشاغل للعاكف في المسجد هو الانشغال بما يعبر عنه بمصطلح الرؤية القرآنية: "الذكر" و"الشعائر" التي تصبح في منطق هؤلاء المنقطعين إلى الذكر والدرس في المساجد محصورةً في "العبادات" كما عبرعن ذلك مصطلح علم الفقه؛ فيسهبوا في تفصيل أدق حركاتها وسكناتها، وينقسموا نحوها مدارسَ ومذاهبَ، ويتوزعوا بشأنها شيعاً وأحزاباً، أما شؤون الحياة والعمل والاستخلاف فجاء اهتمامهم بطبيعة موقعهم وزاوية نظرهم متعلقاً في جوهره بشؤون الحياة الفردية دون شؤون الحياة العامة أو السياسية وليطلقوا عليها مصطلح "المعاملات" كما عبر عن ذلك علم الفقه. والمقصود بالمعاملات مجموع المعالجات والضوابط الفقهية القانونية لشؤون تعاملات حياة الفرد المسلم وما يتعلق بها من القواعد والعقود، ويتطلب القضاء فيها، وتكاد تجردها من البُعد الروحي الذي خُصَّت به "العبادات" باعتبار "المعاملات" كما عبر عن ذلك بعض الفقهاء أنها يجب أن تتم إجراءاتها وحسب القواعد الشرعية ولكنها في نفس الوقت أمرٌ دنيويٌّ اختياري لا يتعلق بها ثوابٌ، ولا يلحق بعدم إتيانها إثمٌ أو عقابٌ.

إنّ هذه الرؤية الفقهية واهتماماتها تختلف كلية عن الرؤية القرآنية التي تنظر إلى الإنسان نظرة شمولية لا تفرق بين مسؤولياته الفردية في حفظ النفس، ومسؤولياته الجماعية في حفظ الجماعة والأمة، ويشمل بعدها الروحي كلَّ أعمال الإنسان، وتجعل من كل أعماله دون تفريق "عبادة" بحسب الغاية والقصد، حتى ولو كان ذلك من أعمال البضع وشهوات النفوس، فحياة الإنسان المسلم في الرؤية القرآنية كلها ذكر وجهاد، وكلها تعبد وعبادة.

فحياة المسلم في الصلاة والدعاء والصوم والزكاة وتلاوة القرآن وتعظيم الشعائر وأداء المناسك، وهي في الرؤية القرآنية ذكر وتذكر يحيي ضمير المسلم ويعينه على أداء واجباته والوفاء بالتزاماته: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٤]. ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٨]. ﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٣]. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١٤-١٥]. ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٩]. ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٥]. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٥].

حياة المسلم في العمل والسعي في كلِّ شؤون حياته الخاصة والعامة وفق الرؤية القرآنية، وهي كلها جهاد واجتهاد في كل شيء يفعله، جهاد في طلب العلم، وفي طلب الرزق، وفي تهذيب النفس، وفي القيام بواجبات العدل وحماية المستضعفين، والسعي في حاجات الأمة، والذب عن ديار المسلمين، وفي تبليغ دعوة الحق والدين؛ بل إن هذا الجهاد والاجتهاد في شؤون الحياة الإسلامية هو من أهم غايات أعمال الذكر في حياة المسلم؛ لأن حياةَ المسلم كلٌّ لا يتجزّأ في قصد الخير اتباعاً وطاعةً للحقِّ سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي

هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦١-١٦٣].

فبقدر ما كانت الرؤية الكونية الإسلامية صافية فعالة شمولية إيجابية، كانت رؤيةُ عصر العزلة والمدرسية - فكرياً - رؤيةً منكفئةً على نفسها في جُلّ ممارساتها، وكانت في كثير من وجوهها ناقصةً، جزئيةً، سلبيةً، وكانت عملياً في حياة الناس ممارسةً قبليةً عرقيةً فرديةً أنانيةً. وسوف نرى فيما بعد آثار هذه التشوهات الخطيرة كاملة في مفاهيم الأمة الثقافية، وفي بنائها النفسي وأدائها الحضاري؛ حتى بلغ الحال بالأمة إلى ما هي عليه الآن من العجز والتخلف والهوان.

التشوه الثاني: التشوه المنهجي

والتشوه الثاني الذي نجم عن عزلة العلماء والمفكرين وعزلهم هو - في أحسن حالاته - تشوهٌ معرفيٌ منهجيٌّ، حَوَّل الفكر الإسلامي إلى فكرٍ نظريٍّ، غارقٍ في تأملات نظرية مدرسية، لا تجد طريقها إلى الحياة الاجتماعية للأمة بالتنقيب والملاحظة والتجريب، لأن ذلك يحتاج إلى ممارسة وتطبيق، وهو تشوه أدى إلى عقمٍ منهجي خطير، جعل المعرفةَ عمليةَ استظهارٍ وتقليدٍ ومحاكاة، يغيب فيها بشكل عام كل أثر فعّال لعنصري الزمان والمكان، ومعرفة سنن الطبائع في الخلائق والكائنات، وقد ساعد على إحداث هذا التشوه المنهجي - إلى جانب العزلة - الطبيعةُ النظريةُ الميتافيريقية الصورية للفلسفة والمنطق الإغريقي، وما أدى إليه الانبهار بهما وتأثيرهما على المناخ الفكري للأمة من إضعاف الفكر العملي التجريبي، والفضولِ العلمي وحب الاستطلاع الذي دعت إليه المفاهيم الإسلامية في النظر، وفي السير في الأرض، وفي التفكر والتدبر، وفي القياس والمقارنة. وقد أدى ذلك إلى العجزُ الفكري الذي أسلم رجال العلم إلى التقليد والمحاكاة، وأدى مع مرور الزمن إلى التوسع في طلب النصوص، وإضفاء قهر القدسية عليها، مداراةً منهم

لذلك العجز الفكري، كما ضَعُفَتْ أدواتُ الاجتهاد ووسائله الضرورية اللازمة لتوليد المعارف الإنسانية التي تتكامل مع معارف الوحي وهدايته، وتوليد المعارف اللازمة لنماء الأمة وامدادها بما تتطلبه من فكر قادر على مواجهة التحديات، واحتواء المتغيرات والإفادة من الإمكانات.

وبسبب هذا التشوه المعرفي المنهجي بقيت منطلقات العلوم الاجتماعية في الفكر الإسلامي على هيئة عناوين ومبادئ مجردة، وعلى شكل مصادر ثانوية في ميدان علوم الفقه وأصوله، واقتصر عموم مداها ودلالاتها النظرية على الحياة الفردية، وحتى حين تهيأت الفرصة لأحد كبار علماء المالكية، بما تيسر له من الممارسة والاشتغال الواسع بالسياسة والحياة العامة أن يفتح أمام الفكر الإسلامي باب المعرفة الإنسانية الاجتماعية، ويكشف - مبدعاً - الكثير الثمين من مكنونات أسرارها، ومغاليق أبوابها، وفهم طبائعها وعوامل تفاعلاتها ومتغيراتها ومعرفة أوجه التأثير فيها في كتابه العَلَم: (المقدمة)[1] تم تهميش هذا الفكر المبدع - بسبب عقلية العزلة - كما هُمِّش فكرُ كثيرٍ سواه من المبدعين، ولم يكن كتابه من قراءات العلماء، ولم تكن مواضيعه من اهتماماتهم، وبقى مشروع البحث في آيات العلم والمعرفة السننية الحية مشروعاً معطلاً، لم يكتب له - مع جدب الحياة العلمية المدرسية النظرية النصية - موضعٌ، حتى صحت الأمة على كنوز المعرفة الاجتماعية التي فتحت للغرب - على أساس منطلقات ابن خلدون ومنهجه السنني في مجالات العلوم الاجتماعية في التاريخ وفلسفة التاريخ والاجتماع والاقتصاد والتربية - أبواباً وآفاقاً واسعةً مكنت لأمم الغرب في الأرض من أن تزود ناشئتها بروح المبادرة والقدرة الإبداعية والتنظيمات الاجتماعية، وزودتهم بقدرة الأداء، ومواكبة المتغيرات، ومواجهة التحديات.

لقد أورثت سلبيةُ الرؤية الكلية التشوهَ المنهجي الذي أنتج أحادية المعرفة دينية ومدنية، وضمور الفكر، وغياب النظرة السننية؛ مما حرم الأمة من نمو

(١) هو أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ -٨٠٨ هـ، ١٣٣٢-١٤٠٦م) صاحب المقدمة.

العلوم الاجتماعية التي تتكامل مع كليات الوحي وهدايته في ترشيد الحياة الاجتماعية الإسلامية، وتجديدها، وتطوير مفاهيمها ومؤسساتها وطاقاتها وإمكاناتها مع تطور المعرفة والإمكانات والتحديات.

وإن جمودَ الأدبيات الدينية، وعدم متابعتها وإفادتها من المستجدات في ترشيد ممارسات الحياة الاجتماعية وتجديدها وتجديد مؤسساتها، أمرٌ واضح للعيان لا يحتاج إلى برهان.

ولا بأس أن نسوق هنا مثلاً نوضح به شيئاً عن أثر تشوه المنهجية في رؤية طلاب العلم واهتماماتهم وأسلوب معالجاتهم للقضايا الاجتماعية التي تظهر زاوية عزلتهم في زوايا الحفظ والاستظهار. وهو أن أحد فضلاء المفتين في إحدى البلاد الإسلامية كان يخطب في يوم جمعة خطبة عالج فيها موضوع الطهارة، وكانت معالجته للموضوع - والحق يقال - بأسلوبٍ سلسٍ بليغ وضح فيه للسامعين معاني الطهارة الدينية وأحكامها، وما يزيلها وما لاَ يزيلها وفق أفضل ما تقرره وتعرضه كتب الفقه وأحكامه.

وبعد انقضاء الصلاة - وعلى عادة الرجل وكرم خلقه في استقبال الناس في مكتبه في المسجد - سلمتُ عليه وجلستُ إليه وذكرتُ له - بكل الأدب واللباقة وحسن المدخل اللائق بعلمه ومكانته وكرم خلقه - سروري من خطبته وبلاغة عرضه وسلاسته وشمول تعرضه لأحكام الموضوع الفقهية، ذاكراً له أن الخطبة في رأيي كان ينقصها التعرض لموضوع النظافة وتحقيق الوقاية الصحية بشكل متكامل، مشيراً إلى أن عدم إيضاح هذا الجانب وإغفاله قد يؤدي إلى استهانة العامة بالنظافة وعدم الوعي بأهميتها، والنظر إليها على أنها قضية ثانوية شخصية تثقل الكاهل بلا ضرورة؛ بل لعل بعض القضايا التي تَمَّ عرض الموضوع من خلالها قد تحمل على إمكان التلبس بالقذارة دون حرج؛ مثل النخامة التي قد تحمل أمراضاً معديةً، ومثلها بعض ما يلحق الثياب من القذارات التي لا تنقض فقهياً الطهارةَ ولا تزيلها، وبذلك نكون -

ونحن نعلم الناس الطهارة - نشجعهم على عدم المبالاة بالقذارة، وعلى الاستهانة بالنظافة وبمتطلبات حماية الصحة العامة.

وكان حواراً علمياً وديّاً بيننا تقبله فضيلته بصدر رحب، مما يدل على أننا في حاجة إلى تبادل الرأي، وتوسيع دائرة المعرفة، وفهم إشكالات حياتنا وثقافتنا، وإصلاح منهج المعرفة، وإزالة العُزلات، وتجنب أحادية المعرفة.

ومن المهم هنا الإشارة إلى أنه حتى حين يشير بعضهم إلى موضوع النظافة في مثل هذه المواقف والسياقات فإنه يقف بها عند حد أخذ الزينة حين ارتياد المساجد للجُمع والجماعات. إن التوعية بشؤون النظافة والوقاية الصحيحة تُعَدُّ في الحقيقة جزءاً هاماً من القصد والغاية وتحقيق الهدف من الطهارة؛ التي عبر عنها سلوك الرسول القدوة عليه الصلاة والسلام حينما كان يأمر المجتمع من حوله ويأخذهم به؛ حتى إنه ﷺ حينما رأى فِنَاء دارٍ من دُوْرِ المسلمين في حالة من الفوضى أمرهم بنظافته والعناية به، محذراً إياهم من أن يتهاونوا في النظافة، ودعاهم إلى العناية حتى بأفنية دورهم، وألا يتشبهوا في ذلك باليهود في عدم العناية بالنظافة، والذي يبدو أن جزءاً كبيراً من الأمة قد أصيب اليوم بما أصيب به اليهود من الأمراض النفسية والاجتماعية التي كانت سائدة فيهم على عهد الرسول ﷺ(١).

وبسبب التشوه المنهجي أصبحت المعرفة نصيةً حرفيةً جزئيةً تقوم على التقليد والمتابعة والمحاكاة والاستظهار، وغرقت في التعقيد والحواشي والمختصرات. وجُزِّئَتْ المعرفة، فبوعد بين العقيدة وممارسة الحياة؛ حيث اختص فيها علمُ التوحيد بالعقائد المجرَّدة أو ما يسمى بـ "علم الكلام" الذي

(١) فقد جاء في الحديث: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو عامر العقدي، حدثنا خالد بن إياس، عن صالح بن أبي حسان، قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: «إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا - أراه قال - أفنيتكم، ولاتشبهوا باليهود، قال: فذكرت ذلك لمهاجر بن مسمار، فقال: حدثنيه عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، عن النبي ﷺ مثله، إلا أنه قال: نظفوا أفنيتكم». سنن الترمذي: ٢٧٢٣.

اتسم في كثير من جوانبه بالجدليات والسفسطات اللاهوتية، وانفصل "علمُ الفقه" عن علم العقائد، واستقل بشؤون تفاصيل ممارسات الحياة الفردية، معتمداً في دراساته واجتهاداته على منهج جزئي يقوم على القياس الجزئي على ما سلف من حالاتٍ متفرقةٍ دون أن تؤخذ فيها الصورةُ الكليةُ في الحسبان، وأصبح جُلُّ ما يعتمد عليه عند المتأخرين هو المفاهيم اللغوية للنص؛ حيث تبذل غاية الجهد في طلبه، ولو بالتغاضي عن ضعف بعض الروايات أو غرابتها. وأصبحت المعرفة النصِّية في عصور العجز والجمود والتقليد غايةً تُطلَب ليغطي قهرُ القداسة عجزَ المعرفة، وفي الوقت نفسه تُستخدَم مادةً تُحْشَى بها رؤوس الطلاب دون عظيم دراية أو اهتمام بآثار تلك المعارف، ومدى ملاءمتها للدارس، ودورها في تكوين عقليته، وبناء نفسيته[١] حتى إننا نعجب لما يباهي به بعضهم، من موهوم مناقب الأئمة، من أنّ بعضهم قد جَشَّم بعض أبنائه استظهار عشرات الآلاف من النصوص المكذوبة، حتى يعرف مكذوبَ الحديثِ. وإن هؤلاء الرواة لشدة لهفتهم على النصوص وروايتها وصنعها والمبالغة فيما بذل من جهد بشأنها، وضعف إدراك هؤلاء الرواة لآثار المعارف على نفسية حاملها وعقليته؛ لم يتنبهوا - وهم يباهون ويزيفون المناقب - أن حفظ المكذوب والزائف من المعاني سيكون له أثره السلبي على الدارس،

(١) السنة النبوية مصدر غني ومهم، ومن خلاله يُبَيِّنُ نموذجُ التطبيقات النبوية في واقع المجتمع الإنساني على عهد رسول الله ﷺ أبعادَ الرسالة ومبادئها، ويثبت إمكانية تطبيقها في واقع الحياة البشرية، ولكن يجب أيضاً فهمها وفهم ظروف تطبيقاتها الزمانية والمكانية، حتى ندرك حقيقة دلالاتها، كما يجب الحرص على الصحيح منها فقط؛ الذي نُعمِل في تحقيقه كافة الأساليب العلمية من حيث نقد السند ونقد المتن، وأهمها اتساق معاني النصوص مع مبادئ القرآن الكريم ومفاهيمه ومقاصده، وإن أي نص لايوثق بسنده أو لايحقق المبادئ والمقاصد القرآنية لايمكن لأوهام شكلية ومغالطات كلامية، أو لقصور منهجي أن نقبله ونلغي بذلك عقولنا، ونعطل مناهجنا، ونتجاهل مقاصد القرآن الكريم، ونسيء تأويله. أما ما صحت معانيه من النصوص التي لايوثق بسندها فتكون من باب الآثار، ويستفاد من المعاني المشتملة عليها دون حاجة إلى أن نضفي عليها أستار القداسة؛ لأن قبولها حينذاك يكون متعلقاً بما فيها من المعاني، وفي ذلك الكفاية.

وأن الأولى أن يبذلَ الطلابُ جهودهم في معرفة ماهو صحيح من الرواية وحفظه، وأن كل ما عدا الصحيح ليس في الغالب صحيحاً، وإن تم تداوله فمن باب مأثور الكلم الطيب أما الزائف والمكذوب فلا نهاية له، وليس لزيادته حد، ويكفي في بابه إدراك غاياته ومآربه ومداخله ووسائله مع استعراض نماذج منه، والتصدي لما يشيع منه، والرد عليه.

وأيضاً فإن من باب الغفلة عن الآثار النفسية للمعارف في فكر الأمة، والإغراق في الاهتمام بكمِّ المعارف، ما نعيشه حتى اليوم في مجال التعليم الديني؛ حيث تُحشى رؤوس الأطفال بالمعلومات التي لا تناسب عقليةَ الطفل ولا بناءَه النفسي، ولا يقف ضررها عند حشو رأس الطفل بما لا حاجة إليه، ولا فائدة جليلة ترجى له منه؛ بل إنّ إن ذلك الحشو - وبهذا الأسلوب - يضيع عليه فرصة تزويده بما له نفع نفسي أعظم حينما يحرم الطفل - نتيجة استهلاك وقته وطاقته واستنفادها في هذا الحشو المعرفي الجاف - من جمع المعلومات التي يحتاج إليها، ويحرمه من أساليب التعليم والعرض التي تسهم في بنائه النفسي في مراحل نشأته ولين عوده، وبفواتَ هذه الفرصة التربوية الوجدانية - وهو في سن الطفولة المبكرة - وانقضاءَها دون العناية بها وبتوفير احتياجاتها التربوية تكون قد ضُيِّعَتْ فرصة إصلاحه إلى غير رجعة، وتركت فراغاً، وأوجدت صدعاً في البناء النفسي للفرد وتنشئته، ولا سبيل يعتد به بعد فوات الأوان إلى إصلاحه حينما يكبر هذا الصبي ويصلبُ فيه عودُ الطفولة الطري البريء القادر على التلقي والتشكُّل والتكوين.

ومن أمثلة ما يُحشى به عقل الطفل - وهو قليل الفائدة - ما يستظهره الطفل الصغير في المرحلة الابتدائية من مقادير الزكاة ونسبها في الإبل والبقر والغنم والزروع؛ فكثير من هؤلاء الأطفال لم يعد يرى الإبل، ولعله لن يملك في أي يوم من الأيام بقراً ولا زرعاً ولا غنماً، فلماذا يحشى رأسه بهذه التفاصيل الفقهية الجافه، وفي أمور لا تتعلق بواقع حياته، ولو ألزموا مثل هذا الطفل استظهار زكوات عروض التجارة الرائجة من أسهم وعقارات وصناعات، فكم من هؤلاء سيصبح عاملاً من عمال جمع الزكاة؟ وحتى إن

ملك في لاحق الزمان - حينما يبلغ الفتى مبلغ الرجال، وتبلغ الفتاة مبلغ النساء - شيئاً من هذه العروض، فهل حقاً سيتذكر ما استظهره من قبل؟ وهل سينفعه حقاً تذكرُ ما استظهر من النسب والمقادير؟ أم أنه سيطلب القول اليقين في ذلك عند أصحاب الاختصاص؟.

وليت الضرر يقف عند هذا الحد من حشو رأس الطفل بما هو قليل الجدوى، ولكن الأسوأ والأدهى أن مرحلة الطفولة هي المرحلة التي يتم فيها البناء النفسي والوجداني الذي تتطبَّع به النفوس، وتنشأ معه العواطف، وتتشكل به المفاهيم، ويتكون عليه الوجدان، ولذلك فإنّ الأولى في مراحل تنشئة الطفل، أن يتم تعليمه بما يتناسب وطاقة وعيه وشاكلة طبعه. فيكون الأولى في مجال الزكاة مثلاً أن يعلم معاني التكافل والرحمة والتضحية والإيثار ومشاركة الضعيف والعاجز والمحتاج، وأن يربى فيه الإحساس والانفعال بآلام الضعيف وحاجة الفقير والمحتاج، وهذه هي الأهداف الرئيسة للزكاة في الإخاء والعطاء، وألا يتم ذلك التعليم بمجرد التلقين، وإنما بكل الوسائل المقروءة والمسموعة والمرئية، وبالأساليب التربوية العملية النفسية الفعَّالة، ومنها مثلاً مخالطة المحرومين والعاجزين والمعوقين وخدمتهم وتقديم العون لهم، وإدراك معاني حاجتهم ومعاناتهم، لتكونَ الرحمة والإيثار طبعاً في نفوس هؤلاء الصغار؛ فلا يصبح ديدنهم حين يكبرون التهرب من كل بذل وتضحية، إيثاراً للنفس، وأنانيةً للذات، حيث يتحجر القلب فلا يصل إليه نداءٌ لتضحيةٍ أو عطاءٍ لمحرومٍ أو عونٍ لمكروب.

أما حاجة الطفل المعرفية القانونية الفقهية في السن المبكرة - ومن باب الثقافة العامة - فيكتفى فيها بإلمامةٍ عامةٍ عن وجوه الزكاة، ونسبها العامة المفروضة كحد أدنى من المال مساعدة لفئاتٍ بعينهم من أصحاب الحاجة، والتي هي جزء واحد من واجبات الرحمة والتكافل والإخاء والإيثار وبذل العون والصدقات.

إنّ تفويت فرصة التكوين النفسي بالحب والترغيب والاستعاضة عنه

بالتخويف والتفزيع وبمثل هذا الحشو المعرفي ليصبح هدفاً في حد ذاته، دون التنبه إلى دور ما يقدم إليه من معلومات، وعدم ملاحظة أثرها السلبي في تكوين عقلية الصغار وتربية الناشئة، هو غفلة عن طبيعة الطفولة وعلاقة المعرفي بالنفسي الوجداني في بناء الشخصية الإنسانية وتنميتها، وهو واحد من موروثات التشوه المنهجي الذي أصاب الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية في عصورها اللاحقة.

التشوه الثالث: تشوه المفاهيم

وثالث التشوهات الخطيرة التي أصابت الفكر الإسلامي والعقل المسلم هو تشوه المفاهيم، وقد كان نتيجة عزلة العلماء، وما نجم عن ذلك من عجز فكري وجمود وتوظيف لخطاب الترهيب؛ لإخماد روح المحاكمة والنقد، وإرغام العامة - بسبب العجز الفكري - على استسلام المتابعة والقبول؛ لأنه ماكان بالإمكان أن تُخمَد روح المحاكمة، وطلب الاقتناع، وتستسلمَ عامة الأمة للإملاءات، إلا بأن يمتد التشويه إلى كثير من المفاهيم الإسلامية الأساسية؛ بما يسهل المهمة، ويهيِّئ العقول والنفوس للخضوع والمتابعة والاستسلام.

تشوه مفهوم العبودية

إن مفهوم (العبودية) يُعَدُّ واحداً مهماً من المفاهيم الإسلامية الأساسية، وقد أدى تشويهه إلى تشويه كثير من المفاهيم الإسلامية الأخرى؛ لتتضافر المفاهيم المشوَّهة وتتمكَّن من إحكامِ القهر النفسي، وإلغاءِ العقل الناقد، والحجرِ على التفكرِ والبحثِ والاستقصاءِ، والاكتفاءِ بالدعاوى ودغدغة الأحلام دون طلب النتائج وتقصي الآثار.

فالمسلمُ - كما أراد له الإسلام - عزيزٌ، وهو خليفةٌ مكرمٌ، وعبوديته لله هي مثار عزة وكرامة، لأنها تعبير عن إرادة حرة في معرفة الحق واتباع طريقه السوي القويم، والمسلمون المؤمنون هم عباد الله المخلصون. وليس صدفة أن الله سبحانه وتعالى خاطب الإنسان في القرآن الكريم دائماً بلفظة (عِبَاد) بكسر

العين وفتح الباء، ومنها عُبَّاد بضم العين وتشديد الباء المفتوحة، فلفظة (عباد) جاءت من (التعبيد)، وليس من (الاستعباد)، أما لفظة (عبيد) فقد جاءت في صيغة واحدة تكررت بلفظها ذاته في خمسة مواضع من القرآن الكريم؛ وهي أن الله سبحانه وتعالى ليس "بظلام للعبيد"، لأن الإنسان حينما يضل ويشرك مع الله غيرَه من الخلق أوالهوى أوالشهوات الحيوانية فإنه - في هذه الحالة - يظلم نفسه، ويستعبدها، فالعبد في طاعة الله هو من تعبيد النفس، والعبد بالانحراف عن الحق هو من استعباد النفس الذي هو ظلمٌ، وضياعٌ وإضلالٌ لها، وانحرافٌ بها عن مسار الحق والهداية، ومن ذلك يتضح أنّ عبودية المسلم لله مشتقة من التعبيد لا من الاستعباد، والإنسان السوي؛ الذي هو على الفطرة السوية، هو معبَّد لله، وليس مستعبداً، لأن الله هو خالقه، وهو بطاعة الطواغيت والأهواء لا يكون معبداً؛ بل يكون مستعبداً، وهذا أشبه باستعمال كلمة "الذل" في القرآن الكريم، فذل المرء لأبويه - بحكم طبيعة علاقته بهما في سياق القرآن الكريم - مشتق من التذليل والتيسير والرحمة بهما، وليس من المذلة والمهانة، فذلك ليس من علامات الأبوة والبنوة، يقول الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٤].

أما الخلَط بين خطاب الله للكافر المكابر الجاحد المحارب مع خطابه سبحانه للمؤمن المعبَّد المقبل، وأن يصبحَ مفهومُ "عبوديته" مشتق من "الاستعباد"، ويصبحَ هذا المفهوم الأخير مشجباً لكل ألوان المهانة والتهديد والوعيد وقهر الضمير، وأداةَ تحقيرٍ، وسحقِ كرامةٍ، وإلجام عقلٍ، وحاجزاً بين المخلوق والخالق، فهو خلطٌ لا أساس، ولا معنى، ولا داعي له، لأن الإنسان مخلوق محدود، والله هو الخالق المطلق، ولا مجال أصلاً للمقارنة بين المخلوق والخالق، ولا معنى لإثارة مثل هذه الدعاوى وتلك المقارنات في غير موضعها، وإشهارها في مواجهة العقل المسلم المؤمن غير المكابر أو المعاند، والمبالغة في ترديدها؛ فتلك أمور لانتيجة لها إلا استعباد ضمير المسلم وقهر عقله من قِبَلِ مُخاطِبِه، وإلزامه متابعته ومتابعة فهمه وفكره وغرضه دون فكر

ولا عقل. وبتشويه مفهوم "العبودية" وترويج هذه المقارنات أمكن التهوين من شأن العقل، وأصبحت تساؤلاته وتفحصاته موضع الاتهام، بالإنكار والعصيان، وقد أسهم هذا التشويه في قهر ضمير المسلم ومصادرة حقه في التفكير والتقدير والنقد فيما يخص سير حياته وعلاقاتها ومواجهة متغيراتها ومستجداتها.

لقد أدى هذا الموقف الاستعلائي - من قِبَلِ كثير من طلبة العلوم الدينية القليلي البضاعة في العلوم الإنسانية ومعرفة سبل تنزيل معارف الوحي على واقع حياة الناس - إلى انصراف كثير من المفكرين إلى الفلسفات الدخيلة والموروثة من حضارات وثقافات الأمم الأخرى التي دخلت الإسلام، دون منهج يهتدي به هؤلاء المفكرون في خوض غمارها، علماً بأنّ جُلَّ تلك الفلسفات والمورثات ترجع إلى تهويمات ميتافيزيقية عارية عن الهداية الربانية؛ مما كرَّس صراعاً وتقابلاً موهوماً في الفكر الإسلامي بين (العقل والنقل)، وزاد من وهنِ عزم الأمة، وضعفِ فكرِها، وتشتيتِ جهدِها، وانتهى ذلك الصراع إلى تشويه مفاهيم الإسلام؛ لتغطيةِ عجزِ الفكرِ، وترويضِ العقل المفكر الناقد، والحطِّ من شأنه، فكان مفهوم (العبودية) من أهم المفاهيم التي تم تشويهها؛ ليصبحَ هذا التشويهُ الأساسَ الثقافي والفكري في تكوين «نفسية العبيد» في البناء النفسي لأبناء شعوب الأمة، وتكاثفت على الأمة أساليب الإرهاب وخطاباتها التي لجأت الصفواتُ السياسية والعلمية إلى استخدامها - وبكل قوة - لتطويع العقل المسلم. فالصفوة السياسة عاجزة لأنها منبتة عن الفكر، والفكر والصفوة الفكرية عاجزان لكونهما مُنْبَتَّيْن عن الممارسة. وإن العنف والإرهاب والترهيب كانا -وما يزالان - وسيلةَ العاجز الضعيف.

لا شك أنّ تشويه مفهوم (العبودية) - الذي هو مصدرُ اعتزازٍ للمسلم، ومنبعُ ثقةٍ بالنفس؛ ذلك لأن نفس المسلم مسلمةٌ ومتقبلةٌ للحق - قد جعل التجهيل والإلجام والتحقير مصدراً لمشاعر الذل والعجز والضعف ومهانة القدر والعقل؛ وبذلك يصبح التقليد والمتابعة بديلاً عن التفكر والتدبر،

ويصبح الخضوع بديلاً عن الاقتناع، ويكون القهر بديلاً عن الإرادة والخيار[١].

إنّ من المهم إدراكَ العلاقة بين المفاهيم الأساسية الإسلامية المتمثلة في مفهوم التوحيد، ومفهوم الإرادة، ومفهوم العبودية، ومفهوم الاستخلاف، ومفهوم التزكية، ومفهوم العمران.

فمفهوم التوحيد ليس قضية كهنوتية تقف عند أوصاف مجردة للذات الإلهية، يتولى فئات من البشر الحديث عنها بالنيابة، ولكنه مبدأ ديني، ومفهوم إسلامي، له دلالته في حياة البشر، وفي فهم معنى هذه الحياة، وفهم الغاية منها.

مركزية مفهوم التوحيد ودلالاته الحياتية

إنّ أهمية مبدأ التوحيد في الإسلام تتمثل في أنه يشكل إطاراً لفهم الحياة والكون، ويرسي مبادئ العلاقات الإنسانية والأسس التي ترتكز عليها، وإن أي إخلال بهذا المبدأ والمفهوم له آثاره الخطيرة في معنى الحياة الإسلامية، ونوعيتها، والغاية منها.

فمبدأ التوحيد يعني وحدانية الخالق، وهذه الحقيقة تعني وحدة خلق الكون، ووحدة الحياة والإنسان، وغائية الخلق والكون، وتكامله، لا تعارضه، ويعني قصد الخير في الخلق، فلا مجال للاستعلاء أو الجور أو الاستبداد بين البشر، وبذلك فإنّ مبدأ التوحيد يحتم التزام مبادئ العدل والشورى والمساواة في الحقوق، وفي الكرامة الإنسانية، وفي حرية الإرادة والمسؤولية الإنسانية.

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد أحمد، ترجمة ناصر أحمد المرشد البريك. النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية: اتجاهات جديدة للفكر والمنهجية الإسلامية. الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، الرياض ١٩٩٣م - الأصل باللغة الإنجليزية صدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي- هرندن- فرجينيا ١٩٨٦م.

وانظر كذلك كتاب: أبوسليمان، عبد الحميد أحمد. أزمة العقل المسلم. الرياض: المعهد العالمي للفكر الإسلامي والدار العالمية للكتاب الإسلامي. ١٩٩٤م .

ومبدأ التوحيد - على أساسٍ من مبدأ وحدة الخلق وغائيته الخيرة - يحتم التزامَ مبدأ استخلاف الإنسان بما أودع الله فيه من الإرادة والعقل والقدرة على التسخير، حيث يقع عليه واجب السعي الفردي والجماعي بالإصلاح في الكون، دون جورٍ ولا استعلاء، ولا استبدادٍ، ولا إفساد أو إسراف.

والغائية الخيرية وحرية الإرادة والمسؤولية الإنسانية تتمثل في مبدأ التوحيد، ومبدأ الاستخلاف، الذي ينبني عليه حتمية التزام مفهوم التزكية ومفهوم الإعمار، حيث إنّ على الإنسان فرداً كان أم جماعة السعي إلى تحقيق غايات الخلق الخيرة، فيسعى إلى التكامل والتفاعل البناء مع الكون من حوله، وفق ما أودع الله فيه من السنن، في النفس، وفي الكون.

وإقامة التفاعل البناء في النفس بين المعاني الروحية والأشواق الخيرة وبين النوازع والغرائز والحاجات المادية الإنسانية المسيِّرة للإنسان هو في تزكيتها تزكية النفس وأخذها بمبادئ الحق والعدل والخير، وَفْقَ ما أوحى الخالق به في رسالاته من هداية ومعرفة، وما أودع في الكون والمادة من السنن، فذلك هو الوسيلة والتجسيد والتعبير عن تفاعل الأشواق الروحية الضميرية الخيرة، والغرائز والشهوات، والحاجات المادية الإنسانية، وتحقيق الإعمار الصالح والإتقان والإحسان، وفق ما أوحى به الخالق من هداية ومعرفة، وما أودع في الكون من الطاقات والسنن.

وإن تزكية النفس والسعي بالإصلاح في الأرض والكون على أساس هداية الوحي وسنن الفطرة التي أودعها الله في الكائنات هو لبُّ مفهوم العبودية التي تعني: أخذ المسلم نفسه وتربيتها وترويضها وتزكيتها بما هو حق وعدل وصواب، فذلك هو "تعبيد" النفس للحق الذي هو صفة واسم لله سبحانه وتعالى، وهو السبيل إلى الإيمان والعمل الصالح المؤهل للاستخلاف والإمامة وخير الدارين.

وبهذا الفهم المتسق بين منظومة المبادئ والمفاهيم والرؤية الإسلامية الكلية يصبح مفهوم "العبودية" - كما عبّر عنه القرآن الكريم - مصدرَ عزةٍ واعتزازٍ وقوة وثقة في ضمير المسلم، وفي بنائه النفسي والوجداني، وليس استعباداً

للنفس الإنسانية، ولامصدراً لأحاسيس المذلة والمهانة والخنوع والسلبية في ضمير المسلم، وفي بنائه النفسي والوجداني، على غير مقاصد الإسلام وغاياته في الإصلاح والإعمار، ومن بنيت نفسيته على الذل والمهانة والخنوع في أي اتجاه فلن يستطيع معرفة معاني العزة والكرامة والمسؤولية في أي اتجاه.

وإلى أن تصبح مبادئُ الإسلام ومفاهيمه الأساسية أساسَ بناء العقل المسلم ومنطلق منهجه وثقافته ولب وجدانه، ودليل مسيرته وغاية قصده، وتربى أجيال الأمة على تلك المعاني والمباني الفعالة السامية فانه لا يمكن أن يتغير حال الأمة، أو تستعيد طاقتها ومكانتها، فتلك سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً، مهما كثر اللغط والتوسل على أعتاب الأعداء والطغاة والمفسدين والطامعين.

ومن المفيد في هذا المقام الاستعانة ببعض نصوص القرآن الكريم التي تصل القارئ الكريم بالمصدر الأساس لمبادئ الإسلام ومفاهيمه في التوحيد والعبودية والتزكية، وفي الاستخلاف والإصلاح والعمران، على النحو الآتي:

في التوحيد والعبودية والتزكية

تجعل آيات القرآن الكريم مبدأ الوحدانية مبدأً أساسياً لقيام الكون وأساساً لصلاحه وحفظه، فالله هو الواحد وهو الخالق وإلا كان مصير الكون الفساد، وهو بذلك مصدر المعرفة بحال الكون الذي يهدي الخلائق والإنسان في مسالكه ودروبه، وله وحده حق التوجيه والطاعة في أمر الكون، وفي غايته وصلاح أمره، وعلى طريق الإيمان بالخالق والإحسان في الأداء يكون الصلاح، وتكون العزة وحسن المآل في الدارين.

يقول الله سبحانه وتعالى في تقرير مبدأ الوحدانية ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٢]. ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٢].

ويجعل الله سبحانه وتعالى الإحسان وتعبيد النفس لله سبباً للصلاح ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٨٠-٨١]. ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١٨/ ١١٠] .﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ٨] .

والصلاح سبيل العزة في الدارين، يقول الله في كتابه العزيز: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٢٨] .﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٨٩/ ٢٧-٣٠] .﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ٢٥].

في الاستخلاف والإصلاح والإعمار

ومن المفيد أيضاً أن نذكر بعض الآيات التي يفصل القرآن الكريم فيها سبيلَ الهدى والصلاح، ومآل المستخلف المؤمن المتقن الصالح الذي يسعى بالصلاح، كما يفصل فيها القرآن الكريم سبيل الجحود والضلال، ومآل الجاحد الضال؛ ففي ذلك تبيان لمبادئ الحق ومناهج العزة والإصلاح والإعمار. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٢٤/ ٥٥] .﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٠/ ١٤] .﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ١١/ ٦١] .﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٠] .﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/ ٢-٣] .﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٦٥/ ٣] .﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٢٣] .﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:

٥٤/٤٩]. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٦/٨٢]. ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ١٦/٩٧]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ١٨/٣٠]. ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه: ٢٠/٧٥]. ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر: ٤٠/٥٨]. ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٨٥]. ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٢٨/٧٧]. ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٠٥-٢٠٦]. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٢٨/٥٩]. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١/١١٧]. ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١٨/١١٠].

وفي كتاب الله المزيد للمستزيد، كما أن في صحيح السنة - متناً وسنداً - كنوزاً من الهداية والتوجيه ما يزال الكثير منه ينتظر الجهود العلمية للإفادة منها في تربية النشء، وإصلاح منهج فكره، وتنقية ثقافته، وحسن توجيهه.

إنّ من المهم استعادة سلامة فهم المبادئ والمفاهيم الإسلامية الأساسية، وحسن عرضها، وتحريرها، وشرح حقيقة دلالاتها في حياة الإنسان المسلم: الفردية والجماعية، وإزالة كل ما علق بها من تشويهات وصبغات كهنوتية حرفية تحكمية، كما يجب إزالة كل ما علق من تشوهات بالرؤية الإسلامية

الكلية، حتى نحافظَ على فعاليتها وصفائها وما تعبر عنه من روح إيجابية إصلاحية عمرانية؛ تقوم على قيم العدل والشورى والتكافل والمسؤولية والكرامة.

التشوه الرابع: تشوه الخطاب

والتشوه الخطير الرابع الذي أضر بالعقل والوجدان والنفسية المسلمة هو تشوُّه الخطاب الإسلامي في عهد الفصام بين النخبة الفكرية الإسلامية والنخبة السياسية، وما أورثه هذا الفصام والعزلة من عجز فكري حوَّل فكر الممارسة والاجتهاد والتجديد والإبداع إلى فكرٍ مدرسي نصِّي مغلق، ينعدم - في عصوره المتأخرة - الاجتهاد، ويقوم على التقليد؛ بحيث ينتهى إلى أن يصبح النص الضعيف الذي قد لا يكون صحيحاً عند بعضهم أولى من الرأي، على الرغم من أن الرأي الذي يُعتد به هو بالضرورة مستندٌ إلى الاستحسان على أساس روح الشريعة، وكل هذا لابد من أن يظهر في نوعية الخطاب وأهدافه، وفي الآثار المترتبة عليه في بناء العقل والوجدان والشخصية المسلمة.

وتشوه الخطاب في تلك الظروف جاء نتيجة طبيعية حتمية لفكر العزلة والفصام بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية، ولا علاقة لذلك - في عمومه - بالنوايا، حيث تحول الخطابُ من خطابِ فكرٍ ونظرٍ وتدبرٍ واقتناعٍ وقدرةٍ على الاجتهاد والتجديد واحتواء متغيرات الزمان والمكان ومستجداتهما، إلى خطابِ إرهابٍ وقهرٍ وقمعٍ اعتمد - منذ ذلك الوقت - في كثير منه - على أكداسٍ من روايات أحادَ أصحاب "الغفلة" و "المدلسين" و"الحكواتية" وأصحاب الأغراض، وعلى سوء التأويل لنصوص خطاب قُصِدَ به الجاحدون والكفار والمستكبرون والمحاربون؛ ليصوبَ إلى عامة الأمة البائسة الغارقة في الجهل والفقر والمرض، والمرزوءة بإرهاب الصفوات السياسية المستبدة وتبديدها ومظالمها، فأضاف خطاب الترهيب الديني - وهو على هذه

الصورة - ضِغْثاً على إبّالة في سحق روح العامة؛ وليزيدَ طينَ عيشهم وذلَّ نفوسهم بِلَّةً، وليعينَ على إسلاس قيادهم ويذلَّ عزتهم، ويضعفَ عزمهم في التمسكِ بحقوقهم، والمشاركةِ في تدبير أمورهم، وصيانة مؤسساتهم، ورسم سياسات مجتمعاتهم، والتصرفِ بروح التكافل والإصلاح في مواردهم وثروات أوطانهم، ولم تأتِ عبثاً مقالة أبي ذر الغفاري رضي الله عنه - وهو من مدرسة الرسالة - إلى مؤسس دولة المُلْكِ العضوض، حينما وقف معاوية بن أبي سفيان على المنبر يخاطب الأمة - حول موارد الأمة وبيت مال المسلمين حيث يطلق عليه اسم "مال الله" - مستعيناً في ذلك بأدوات قهر القدسية؛ فيقفَ له أبو ذر معارضاً ومصححاً ومذكراً إياه بحق استخلاف الأمة في مواردها وثرواتها ومساءلة حكامها والعاملين عليها، بشأن حسنِ التصرف بها، وأدائِها إلى أصحاب الحقِّ فيها، قائلاً له: "بل مال المسلمين".

ليس عجيباً أن تصل الأمة إلى ما وصلت إليه من التمزق والسلبية والتخلف إذا كانت نظرةُ المسلم إلى المجتمع مغشاةً برداء مشاعر ضعف الفردية وانعدام الإحساس بأمن تكافل الجماعة، وكانت نظرتُه إلى العمل والسعي في الحياة سلبيةً مفرغةً من بعدها الحضاري والإعماري ومن مدلولها الروحي، وعندما تتشوه مفاهيم المسلم تصبح هذه المفاهيم أداة حطٍّ من قيمة عقله، ووسيلةَ هدمٍ لثقة الإنسان بنفسه. وليس عجيباً أن تصل الأمة إلى ما وصلت إليه من السلبية والتخلف وهي تعاني من إرهاب الصفوة الحاكمة التي لا تعرف وسيلة للتعامل مع معارضي سياساتها وأصحاب الرأي المخالف لرأيها إلا سياسة الردع والقمع، ونصب السوط والسيف والنطع، وفتح باب السجون للمعارضين، وما ذلك إلا بسبب عجزها عن احتواء المتغيرات، وافتقارها إلى القاعدة الفكرية التي تعينها على التطور والاحتواء وحسن الأداء، فإذا أضيف إلى الإرهاب السياسي وأغلاله وسجونه إرهابُ الخطاب الديني - المتمثل في جهنم ولظى الجحيم وأهوال القبر ويوم الحشر: الذي ينتظر المؤمنين عقاباً لهم على صغير خطاياهم وكبيرها، وهي عذابات تترصدهم في كل حركة وسكنة يتململون بها في لباسهم ومأكلهم ومشربهم -

أدركنا بعض أسباب خمود روح الأمة وغيبوبتها وسلبيتها وعجزها، وأسباب تفجرات أحداثها التي هي في جلها تفجرات العبيد البائسون اليائسون.

ومن الأمثلة المباشرة التي تقرب إلى ذهن القارئ بعض ما أصاب الخطاب الإسلامي من تشويهٍ هو ما شاهدته في مؤتمر إسلامي عالمي عن الوحدة الإسلامية، وكانت المحاضرة عامة والقاعة غاصة بالحاضرين والمشاركين، ولما كان الموضوع - فيما يبدو - ليس مما هو من معارف المتحدث وقدراته، فقد أخذت القاعة تتململ في متابعة الخطاب، وإذا بالمتحدث يتحول بالحديث - وبشكل مفتعل ومفاجئ، ودونما مناسبة واضحة - إلى الحديث عن الموت، وكيف سيلاقيه هؤلاء البشر، وما ينتظر المسيء منهم. فكانت أمامي صورة حية مذهلة معبرة عن سوء استخدام خطاب التذكير، وتحويله إلى خطاب إرهاب وتوعد يلغي به المتحدث عقل المخاطب في محاولة يائسة منه للسيطرة على القاعة وعلى جمهور المستمعين، وشل قدرتهم على النظرة الناقدة والمحاكمة الواعية لما يعرضه عليهم من خطابه وفكره.

ومن الأمثلة الفجَّة لأسلوب استخدام الإرهاب الفكري وسوء استخدام رموز القداسة ذلك الأسلوب الذي لجأ إليه أحد الخطباء في خطبة من خطب الجمعة، بشأن أمر من أمور الهيئة، وهو موضوع إطلاق اللحية، إلا أنّ ذلك الخطيب لم يكن لديه الشيء الكثير الذي يمكن أن يوضح به للجمهور الحكمة من إطلاق اللحية، ولم يحاول أن يصل إلى إقناع المستمعين بما يعرضه عليهم، علماً بأن كثيراً من الناس ممن يؤمون الصلاة خلفَ ذلك الخطيب هم من الذين يحلقون لحاهم، ويرون أنه أمر من شؤون الهيئة، وهو موضع خلاف واجتهاد، ولكن الخطيب آثر فرض وجهة نظره بإرهاب المستمعين؛ وذلك من خلال تحويل هذه القضية الهامشية، من كونها قضية من قضايا الهيئة، مثلها في ذلك مثل شعر الرأس وأزياء اللباس، إلى قضية عقيدة وإيمان، وكفر وعصيان، حيث إنه افترض أن حليقي اللحى هم بالضرورة منكرون للسنة، والمنكر لأمر النبي ﷺ منكر للدين، ومنكر الدين كافر.

ومن صور الترهيب غير الواعية ما تسمعه وتحسه في قراءة بعض الأئمة من حدة النبرة في توجيه آيات الوعيد وكأن القارئ يتقمص الذات الإلهية في توجيه الخطاب إلى من خلفه من المأمومين، ولا يدرك مثل هذا الإمام أو

القارئ أن الخطاب هو خطاب إلهي موجه إلى الإنسان قارئاً أو مستمعاً أو إماماً أو مأموماً، وعلى الجميع أن يقرأه وينصت إليه بخشوع وحس مرهف لا يستثنى من ذلك أحد، فأسلوب الدعوة والوعظ الصحيح هو من يخاطب نفسه بما يقول قبل أن يخاطب سواه، وهو خطاب مؤثر من منطلق الحب والترغيب والمشاركة في العمل الطيب قبل أي شيء آخر.

والإشكال في الأمر هنا هو الفكر والمنهج الذي ما زال يسمح - حتى اليوم لهذا اللون من الخطاب ومن التعليم - باستخدام النصوص وتوظيفها وتوظيف قدسيتها بشكل عشوائي دون تحقيقٍ علمي ومنهجية شمولية تتكامل فيها مصادر المعرفة، ودون تربية وتعليم ينشئ عقولاً واعية، ونفوساً ناضجة تدرك أطراف القضايا المطروحة في واقع الحياة والمجتمع، وتكون قادرة على إدراك أبعادها وأولوياتها وموضع المتغيرات فيها.

ولما كانت التربية وتعليم العقيدة والدين والثقافة بمثل هذا النوع من الخطاب المستخدم في تكوين العقلية وبناء النفسية المسلمة كان أثر التعليم الديني - في أغلب الأحيان -ضعيفاً وغيرَ إيجابي، ومن الممكن استقراء ذلك وملاحظته في ضعف استجابة عامة أبناء الأمة لما يلقى عليهم من مواعظ، كما يمكن تحسسه في عواطف الطفل نحو هذه المعارف وأساليب تلقينها وتعليمها.

يكفينا في هذا الموضع أن نشير إلى أنّ رسول الله ﷺ كان أباً وجداً ومربياً ناجحاً، وأنه لم يضرب طفلاً قطّ؛ لأنه كان حفياً رفيقاً بالأطفال والناشئة، وكان - في تعامله وتواصله معهم - مدركاً لطبائع نفوسهم، ومراحل نموهم، وما يناسب عقولهم من أنواع الخطاب، ولذلك لم يكن في حاجة - في منهجه التربوي الواعي، وفي تواصله الوجداني الفعال مع الصغار- إلى أن يضرب في حياته طفلاً قط.

ومن الأمثلة التي توضح ترفق الخطاب النبوي بالناشئة، وإدراكه مداخل نفوسهم، ما وقع بينه ﷺ وبين الفتى اليافع الذي بلغ الحِلْمَ وأقضَّ مضجعه ما استيقظ في جسده من نوازغ الإنجاب والعشرة، وأتى إلى الرسول ﷺ يستأذنه في الزنى، فهدّأ الرسول ﷺ مَنْ ثائرة من رأى في طلبه مجافاةً لأدب خطاب

رسول الله ﷺ، وأمرهم ﷺ أن يفسحوا له، وأدنى في رفق مجلسَ الفتى منه، وما يهمنا تربوياً هنا أنه أخذ الفتى بالرفق ولم يخاطبه خطابَ تهديدٍ ووعيدٍ، ولا خطابَ حرمةٍ وجحيم؛ لأن الفتى لم يأتِ ليطلب معرفة حكم، ولأن معرفته كما يقولون معلومٌ من الدين بالضرورة، ولكنه جاء يطلب حلاً ومخرجاً مما يعاني، ومن الواضح أن معرفته للأحكام لم تمنع منازعة نفسه معتلج طبعه في الليل والنهار، وأصبح يخشى لواعج نوازعها، ويخشى أن تنسى خوفها في لحظات تغمُّ فيه رؤيتها، ويغيب وعيها، وتضعف مقاومتها، ولذلك رأينا الرسول ﷺ - بفهمه لطبائع النفوس - قد بلغ أعماقَ نفس الفتى وطبعه، وأقام منه على نفسه حارساً، ومن ضميره وازعاً وضابطاً، حين استثار كرامة نفسه ومروءة عرضه، فسأله إن كان يرضى أن يُزنى بأمه؟ فأجاب إجابة الآنف الكريم: إنه لا يرضى ذلك. فسأله إن كان يرضى أن يُزنى بأخته؟ فكان منه بكل عزة النفس وكرامتها الجواب نفسه، وكرر عليه السؤال بشأن عمته وخالته، وكانت نفسه الأبية الكريمة ترفض تلك الخسة وذلك العار، فلفت رسول الله ﷺ نظرَ الفتى إلى الحقيقة التي ما كان يجب أن تغيب عن النفس الكريمة وهي أنها لا ترضى لغيرها ما لا ترضاه لذاتها، فقال له بكل الحب والتقدير لمعاناته النفسية: إنهن كلهن أمهات وأخوات وعمات وخالات(١) ودعا له فكان ذلك له قوةً نفسيةً ومانعاً وَوِجَاءً.

إنّ من الضروري إلى جانب المنهجية الشمولية التحليلية المنضبطة، وتكامل مصادر المعرفة في التعليم الإسلامي، إيجاد آلية شورية منتخبة مؤهلة علمياً لكي تميز الآراء والاجتهادات، وتختار للأمة الرأي الذي يرى فيه أهل

(١) روى أحمد في مسنده: ٢١١٨٥ عن أبي أمامة أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنى. فأقبل القوم عليه فزجروه. قالوا: مهْ مهْ. فقال: ادنه. فدنا منه قريباً. قال: فجلس. قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم.قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم.قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم. قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم؟ قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال: فوضع يده عليه. وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

الشورى - على أساس من العلم بثوابت الشريعة ومقاصدها وأحوال الناس - ما فيه صلاح الأمة - ويستجيب لأحوال النفوس وطبائعها، وما تتطلبه من الحاجات، ومايتوافر لديها من الإمكانات، ومايناسب الظروف والمتغيرات، مستنداً في ذلك كله إلى العلم والمعرفة والمنهجية الإسلامية المتكاملة. فيكون بذلك خطاباً شورياً له أولوياته، خطاباً مدركاً لمواضع خطواته في قيادة المجتمع وتوجيه مسيرته ونظام حياته، يكسب بمؤهلاته الشرعية والسياسية قناعات الشعوب، ويضم صفوفها، ويفجر طاقاتها، ويُحكِمُ نسيجَ علاقات مجتمعاتها.

هذا اللون من المناهج المعرفية العلمية الإسلامية حين يتكامل مع الآلية الشورية يوفر المناخ الذي يفسح المجال للاجتهاد والتجديد دون الآثار السلبية التي تجعل من الاجتهادات وسيلة إلى تشتت الولاءات، وأداةً لمزيد من تمزق الصف، وبلبلةِ النفوس، وسلبيةِ الاستجابة وذلك بسبب غيبة المنهج المعرفي العلمي السليم، وفكر تكامل المعرفة الإسلامية والإنسانية الكونية، وغياب آليات الشورى التي تعين على تمحيص الفكر والاجتهادات، وتنسخ -دون مخاطر هامة- مجالَ حرية التفكير والتعبير، وتشرع إسلامياً للأمة، بعد استقصاء كل رأي واجتهاد ومطلب، فيأتي التشريع عقدياً وسياسياً - موثوقا ممحصا- دليلَ حركة الأمة المتطور بتطور متغيرات أحوالها، وعلى أساس من هدي ثوابت دينها وطبائع الخلق وحاجات المجتمع.

إن مسحة الإرهاب التي أصابت الخطاب الإسلامي لم يقتصر أثرها على خطاب البالغين، بل امتد أثرها إلى كل ألوان الخطاب، ولاسيما خطاب الطفل وتعليمه الذي اصطبغ بمنهج الإملاء والاستظهار والمتابعة وقهر العنف المادي والمعنوي، وتوظيف رموز القداسة، لكبتِ روح النقد والفحص والتمييز والخضوع لمفهوم مقولة: "من علمني حرفاً صرتُ له عبداً".

التشوه الخامس: عقلية الشعوذة والخرافة

والتشوه الخامس الخطير الذي أصاب عقلية الأمة وترك آثاره المدمرة على

البناء النفسي وأسهم في انحطاطها، وفي غياب دورها العمراني الحضاري؛ هو تكوين عقلية الشعوذة والخرافة لدى عامة الأمة.

وعقلية الشعوذة والخرافة في معناها ودلالاتها الإنسانية والحضارية هي تشويه العقلية السننية وتدميرها لدى أبناء الأمة. وإذا أدركنا أن أهم وجوه التحدي الذي تواجهه الأمة في هذا العصر، إنما هو التخلف العلمي والتقني، أي ميدان تفوق وإبداع أعدائهم في كل ميدان تصدوا له ومارسوه، سواء أكان ذلك في ميدان السياسة، أو الاقتصاد، أو العمران، أو في ميدان القدرة على تطوير سلاح المنازلة والحرب والقتال.

والعجيب أن تفشو عقلية الخرافة والشعوذة في أمة القرآن الذي جاء يدعو إلى السعي والتفكر والنظر والتدبر والجد والإتقان والإحسان والاجتهاد والجهاد، وتتبع السنن، والأخذ في طلب الأمور بالأسباب.

إنّ من العجيب حقاً أن تنمو عقلية الخرافة والشعوذة في أمة دين الله ورسالة الحق ولدى أتباع محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم الذي لا تدع سيرة حياته وتصريف شؤون أمته مجالاً لأي شك في جدية أخذه بالأسباب وتدبير الأمور، وسعيه بالجد والاجتهاد في كل ما تصدى له، بل إنّ سيرة حياته وأداء رسالته كان فيها بشراً منوطاً باتباع الأسباب، وكان التعبير القرآني عن طبيعته البشرية على أبلغ ما يكون من الوضوح والجلاء، فهو بشر موكول إلى جهده وسعيه، إلا ما شاء الله من عنايته ورعايته التي يؤهله لها، وهو في ذلك مثل كل العاملين المخلصين، في جده واجتهاده وجهاده، فكان ينال من الأعداء وينال الأعداء منه ومن قومه، ويحظى بالنصر وتلحق به الهزيمة، وتعتوره أحوال الصحة والمرض، وينال منه الجوع والعطش، ويلحق برأيه - في غير أمر تبليغ الرسالة - الصواب والخطأ، إنه مبدع في التدبير والتخطيط وإدارة السلم والحرب: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: ٧/١٨٨]. ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ

عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٠]. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ١١٠]. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٤]. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/ ١١١].

فأمةٌ حياة نبيها وأصحابه كلها جهد وجهاد وكد وعمل وسعي بالأسباب في إيمان وثقة بالله وتوكل عليه، كيف أمكن لحملة هذه الرسالة، وتُلاة هذا القرآن، وأتباع هذا النبي الكريم أن ينتهي كثيرٌ منهم إلى التواكل والخرافة وتسيطر الشعوذة على عقولهم وخواطرهم، وتبدد إرادتهم الخرافاتُ والأساطيرُ وأشباح عوالم الأرواح والأمواتُ والجان والعفاريت، ويقعون فريسة الأفاقين والمشعوذين، ويقعد بهم الجهل والخرافة عن سبل العلم والبحث والتنقيب في ملكوت الله وسننه في تدبير الكائنات وتمكين الاستخلاف على أساس من العلم الذي يمكن الإنسان من أخذ زمام المبادرة والتحكم والتسخير للعالَم الذي يعيش فيه.

طلب السنن الكونية شرطٌ لازمٌ غيرُ كافٍ: التوكُّل والتواكل

وإذا كان خطاب القرآن في آلاف آياته موجهاً إلى القلب والعقل، يقيم الحجة ويدعو إلى العمل، ويلقي المسؤولية، ويأمر أمة محمد عليه السلام بالجد والسعي والجهاد والأخذ بالأسباب: «اعقلها وتوكل»[1] وأن الله سبحانه وتعالى هو: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/ ٢-٣]. ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٥]. ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾

(١) سنن الترمذي: ١٤٤١.

[النجم: ٥٣/٣٩]. فبالعمل والسعي بأسباب الخلق وفطرة الطبائع، وبطلب السنن الإلهية الكونية يتحقق التأهيل للحصول على الثمر، وتكون المسؤولية، فذلك شرطٌ لازمٌ، ودون ذلك لا يكون أصلاً أيُّ استحقاق لأي أحد، وليس في العجز والقعود عن طلب الأسباب والجري وراء الخرافة والأوهام ما يؤهل لاستحقاق أي ثمر في عالم حياة الإنسان، وليس في شيءٍ من أوهام الخرافة والشعوذة أي معنى من معاني التوكل والسعي واتباع السنن الإلهية الكونية التي لا بديل عنها في إدارة شؤون الحياة، ولأنّ حقيقة التوكل والدعاء ونفعهما إنما تكون بعد أداء العمل وبذل الجهد والسعي والكد والاجتهاد، ويقصد بهما طلب عون الله بشأن كليات أمور الكون التي لا ندركها، ولا يسعها علمنا، ولا سيطرة لنا عليها، والتي يملك الله وحده أمر علمها ومقاليد تصريفها، وذلك هو التوكل؛ أي العمل والسعي وطلب السنن والأسباب، ثم التوجه إلى الله بطلب العون والتوفيق منه، أما العجز والكسل والقعود عن طلب السنن والأسباب ثم القعود والتلوي بلَوْكِ الدعوات؛ فذلك هو التواكل والانحراف عن طريق الإسلام، وعن طريق السنن، أما إن لجأ المرء إلى ممارسة الشعوذات وطرقِ أبواب الدجالين والمشعوذين؛ فذلك هو الأذى والزيغ والضلالُ والوقوعُ في مزالق الكفر والشرك.

إنّ من العجيب المحير للعقول كيف أمكن مع تلك الرؤية الصافية والعقائد الهادية أن تتسرب عقائد الخرافة والعشوائية والقعود عن العمل وعدم إعمال العقل وطلب السنن وقيمها ومفاهيمها، إلى عقول المسلمين وثقافتهم؛ وهم أتباع الكتاب، والمطالبون بالقراءة والعلم، والمكلفون بالسعي والعمل؟، وأن تقعد بهم عقيدتهم ورؤيتهم الإسلامية عن تنقية عقولهم وثقافتهم ومعارفهم ومفاهيمهم وتأويلاتهم من كل آثار الخرافة والشعوذة في إدراك الفطر والطبائع، وعن طلب الأسباب في تسخير الكائنات.

وقبل أن نتعرض لما بين أيدينا من قضايا تتعلق بأمر الخرافة والشعوذة؛ فإن من المهم أن نورد مثالاً يوضح العلاقة الإسلامية بين الجد في السعي وطلب الأسباب، وبين الدعاء إلى الله والتوكل عليه في طلب الأمور والسعي لكسبها، وهذا المثل هو مثل الطالب الذي يُلقى عليه الدرس، وعليه أن يدرسه ويفهمه ويهضمه ويستذكره، وإلا فإنه بحسب سنة الأسباب لانصيب له من النجاح، تلك سنة الله التي أودعها قوانين الطبائع في أنه لابد من العمل والسعي وطلب الأسباب للحصول على الثمر، ولكن مجرد الاستذكار والجد فيه - وإن كان شرطاً لازماً للتأهيل للنجاح - فإنه وفقاً لحقائق نظام الكون وكلياته - لا يكفي لتحقيق النجاح؛ ذلك لأن النجاح لا يرتبط بالأسباب المباشرة فقط؛ بل يرتبط بما وراء ذلك من كليات أوسع وأعم من الأسباب المباشرة الضرورية لتحقيق النجاح وقطف الثمر، فقد يعوق الطالب حادث يمنعه من الذهاب إلى الامتحان أصلاً، وقد يذهب إلى قاعة الامتحان ولكنه يجد نفسه بعد أن سلَّم ورقة الإجابة أنه قد نسي - دون قصد منه - الإجابة عن سؤال من الأسئلة، وقد يجيب عن كل الأسئلة لكنه يجد نفسه أنّه قد أخطأ في إجابته عن واحد منها، ولم يتذكر الإجابة الصحيحة إلا بعد أن سلَّم ورقة الإجابة وغادر قاعة الامتحان، دون أن يعلم لماذا لم يذكر الإجابة الصحيحة وهو داخل قاعة الامتحان؟ كل هذه أمور كلية لا يمكن للإنسان حساب مثلها مقدماً، وليس للإنسان فيها من وسيلة - إلى جانب العمل - إلا التوكُّل على الله صاحب الأمر ومدبر الكون، ودعاؤه بطلب العناية والتوفيق، وهذا هو منهج الإسلام في الحياة، وهو معنى التوكل الصحيح في الإسلام، وهذا هو قصد الدعاء المخلص، وغاية التوسل الصادق إلى الله سبحانه وتعالى، وليس التواكل بالعجز والكسل وقصور الأداء.

إنّ العمل وطلب الأسباب على أساس من سنن الطبائع التي أودعها الله ما خلق من الكائنات شرط ضروري للتأهيل بهدف الحصول على الثمر، ولكن الوفاء بشرط السعي والعمل غير كافٍ وحده لضمان الحصول على النجاح، ولا هو وسيلة كافية في خاتمة المطاف إلى نيل أي شيء من الثمر إلا بعون الله

وتوفيقه، والدعاء إلى الله والتوسل إليه، وسيلة المسلم المباشرة في طلب العون والتوفيق من الله، وهو في الوقت نفسه روحية تشحذ الهمة، وتقوي العزم، وتعين على الصبر، وتخطي الإخفاقات، ومواصلة العمل والجهد بعزيمة وهمة متجددة، وأي شيء وراء ذلك -إسلامياً- هو جهل وخرافة وشعوذة، وهو وهم وضلال وسوء تأويل، يضر بالمرء، ولا يزيده إلا خبالاً وضياعاً وشقاءً ورهقاً.

الإرهاب والاستبداد والتخلف تربة الخرافة والشعوذة

لاشك في أنّ ما سبق أن ذكرناه من تشوهات ألمّت بالعقل المسلم وفّرت التربة الصالحة لفكر الخرافة والشعوذة، حين وقعت جماهير الأمة فريسة مظالم الاستبداد والإرهاب السياسي والترهيب الفكري، فاتسمت بالخنوع والسلبية، والانصراف تدريجياً عن خوض غمار البحث والتنقيب والبناء والإبداع؛ لتغرقَ في غمار الفقر والخرافة والجهل، وهنا يفقد الإنسان ثقته بنفسه، ويفقد زمام المبادرة في شؤون حياته، ويفقد التحكم في مقدرات عالمه.

إنّ من الطبيعي أن يجنح مثل هذا الإنسان في غمار عجزه وآلام معاناته صوب الخرافة والشعوذة، وما يروج لها من التأويلات والقصص والأساطير، ويعيرها أذناً صاغية، وتروج لديه بضاعتها، ويستنجد في جهالاته بأوهامها الرخيصة المخدرة، ضد ما يحيق به من الآفات التي لا يعرف بسبب جهله أسبابها، ولا يملك بسبب عجزه القدرةَ على شيء من دفعها، لأن ثقافته ونفسيته وقدراته قد أصابها الكثير من العطب، وحرمت من القوة العقلية السننية، ومن نفسية الإبداع والمبادرة، ومن القدرة على البحث والتقصي والتنقيب؛ التي لم تكن أمة من أمم الأرض أولى بها من أمة كتاب القرآن العظيم.

الكارثة في توظيف الدين والقداسة لخدمة الخرافة والشعوذة

وحتى يصبح المرض آفة، والحمى طاعوناً، والدمَّل سرطاناً، ويصبح التشوه عاهة، وحتى تمتد الجذور ويتوطن الداء، ويستعصي العلاج أمام كل التحديات والنوازل والكوارث التي تحل بالأمة؛ فلا تعود تنبت علماً، ولا

تثمر إبداعاً، ولا تتقن أداءً، فقد تم ذلك بإضفاء القداسة على كثير من الخرافات والشعوذات، وذلك بترويج كثير من موضوع الآثار والأساطير والإسرائيليات، وذلك بسوء استغلال بضع إشارات قرآنية وتأويلها في ضوء ما كان من سالف أحوال الإنسانية في بدائي عصور ما قبل الرسالة الإسلامية الخاتمة، الرسالة التي أوكل الله أمتها إلى كتاب القرآن وطلب المعرفة واحترام العقل، وحرر بها الإنسان من أي سلطان إلا سلطان إرادته، ومن أي سعي إلا سعي نفسه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ٧٢/٩-١٠]. فكل ما أورده القرآن الكريم من قليل الإشارات بشأن ممارسات ما سبق من الأمم وما عوملوا به في بدائيتهم من الخوارق؛ إنما يشير إلى تاريخ مضى، ومراحل سابقة في تطور حياة الإنسانية، وعقليتها وعلاقاتها، ولكن حينما اكتمل نضج الإنسانية، واكتمال دينها، ومنهج فكرها، ودليل حياتها. وأنزلت رسالة القرآن ونور هدايته للعقل الإنساني، وما أودعه الله فيه من الأسباب والأسرار، فقد تغيرت تلك الأحوال، وانتهى عهدها، على ما يفصّله القرآن الكريم ويبسطه من قضاياه، فقد تغير معها موقع الإنسان، ليصبح بعقله وعلمه هو الذي يتحكم وحده في عالمه، وليس لأحد من عوالم الكون الأخرى سلطان عليه يحاول من خارجه أن يتسلل إليه، أو يتحكم فيه، ولذلك ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٧٢/٩]. بل إن القرآن الكريم قد وضّح أنّ ما كان عليه الكهنة والمشعوذون في تلك الحقب إنما كان على وجه الحقيقة، وهماً وخداعاً للنفوس ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ٧/١١٦]. ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ۝٦٦﴾ [طه: ٢٠/٦٦]. ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٢٠/٦٩]، وأنه ما كانت لهم قدرة النفع أو الضرر إلا أن يشاء الله، وتأثيرهم الضار إنما هو بسبب ما يلجؤون إليه حتى اليوم من المكائد والحيل، وما يقدمونه للجهلة والمغفلين من المواد والمساحيق والأشربة والأطعمة التي تدس على أشكال

مختلفة نعلم معها اليوم أنّ القليل من بعض المواد له آثاره المادية والنفسية الضارة والمؤثرة، ولكن لا يسهل على العامة إدراك كيفية تأثيرها على وجه الحقيقة المادية في الجسد والنفس، أو بسبب أقدار الحياة التي تقع للإنسان دون أن يسعى إلى تدبيرها، وهو ما تدعوه العامة بالصدفة؛ فكم ينسى الناس ولا يذكرون فشل المشعوذين والمحتالين، ذلك الفشل الذريع الذي لاحدَّ له، ولكنهم يتناقلون بشغف ويروجون بانبهار ما قد يحدث صدفةً أو يشاع كذباً وتلفيقاً، يقول الله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٢] بل إن رسول الله ﷺ وقد وُجِّهت رسالته إلى العالمين، ومنهم عالم الجان والخفاء من العوالم الأخرى في الكون، التي هي فيما وراء عالمنا الإنساني الدنيوي، وبالأسلوب الذي يعلمه الله، فإنّه بحسب نص القرآن الكريم لم يَرَهُم ولكن أخبر باستماعهم له، فلم يتصل عالمه بعالمهم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ٧٢/ ١]. كما أنّ إبليس وإن كان - كما أخبر الله في القرآن، وكما نحسه جميعاً في أنفسنا - يستطيع الوسوسة للإنسان، إلا أنه لا قدرة له على الإنسان، ولا تحكم له في الإنسان، إلا أن يصغي الإنسان إلى وسوسته وينصاع إليه في قرارة نفسه خياراً وطواعية: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٤٢] أي بغوايتهم واتباع وسوسته. ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٩٩][1] ولقد أراد الله بالإنسان في عصر الرسالة الخاتمة خيراً لا شراً، فقد

---

(١) من المغالطات التي يقع فيها بعض الدارسين ويلج منها المشعوذون قضية المس، فالقرآن الكريم يتحدث عن (مس الشيطان) بعينه لا عما يتحدثون عنه من مسِّ الجن في وصف المرابين: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٥] .

ومن الواضح أن هذه صورة بلاغية تصف ضلال المرابي والعاصي لأمر الله بتخبطه في ضلاله وزيغه عن الحق، ولا علاقة لذلك بالأمراض العقلية والنفسية، فالمرابون في الدنيا وإن كانوا أهل زيغ وضلال إلا أنهم عقلاء ومسؤولون، ولا علاقة لتخبطهم العقدي بالأمراض=

خَلَّصَ له - بإذنه - عالمه من كل سلطة إلا سلطته وسلطة استخلافه، وجعله خالصاً له، يسخره ويعمره ويجلّي فيه إرادته، ويمحِّص به معدنه، بعمله وسعيه وحده، فما عادت هناك عوالم ولا أشباح تسيطر على عالمه، أو تشل، أو تلغي

= الجسدية العقلية والعصبية والنفسية، ولأن القرآن الكريم لم يترك شكاً في أن الشيطان لا سلطان له على الإنسان، وأن تأثيره يأتي من الاستماع إلى وسوسته واتباع زيغه وضلاله الذي يبعد الإنسان عن الحق ويجعله يتخبط روحياً ومعنوياً في الزيغ والضلال عن الطريق الإلهي المستقيم، فالتشبيه والصورة البلاغية هي في تصور التخبط والزيغ والضلال الروحي الذي يقع فيه المرابون، وكل من ينصاع لوسوسة الشيطان وزيغ ضلاله، بغض النظر عما إن كان ذلك تصويراً لحال ضلاله في الدنيا ومآله في الآخرة، وهذا أيضاً واضح جداً في تشبيه ثمر جهنم في ضرره وبشاعته وسوء منظره فكأنه رؤوس الشياطين ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥﴾ [الصافات: ٣٧/ ٦٥].

ومن الواضح أن المشبه به يكون عادة مما هو معروف ومألوف عند السامع، ولكن من المؤكد أن رؤوس الشياطين ليست مما يعرفه الناس، ولم يشاهدوه، فهو بكل تأكيد تشبيه بلاغي يعبر ويصف ما وقر في النفوس عن الشيطان من القبح والشر والأذى؛ فإذا شبَّه تخبُّط المرابي في زيغه وضلاله بمس الشيطان فذلك تشبيه بلاغي لاعلاقة له بمس الجان الذي يدعيه المشعوذون في وصف حالات بعض المصابين بالأمراض العقلية والعصبية والنفسية استناداً إلى أن القرآن الكريم حينما تحدث عن (مس الشيطان) و(تخبط) من يصيبه المس الشيطاني؛ فذلك سوء فهم وتأويل من أصحاب النوايا الطيبة، وهو للأسف سوءُ استغلالٍ وسبيلُ خرافةٍ وشعوذةٍ للدجالين الذين يصفون بعض الأمراض العقلية والعصبية والنفسية بأنها (مس الجان) دون أي دليل علمي على ذلك إلا زعمهم ودعواهم، أن لهم القدرة على (إخراج الجان) الموهومين فيتعلق بهم المكروبون الذين يتعلقون بأوهى الأسباب بحثاً عن خلاص أحبائهم الموجوعين عقلياً أوعصبياً أونفسياً؛ فيقع هؤلاء ضحية حيل هؤلاء الدجالين وأحابيل أقاصيص قدراتهم على الشفاء التي يتفننون في ترويجها. وكثيراً ما ينجم عن أعمال هؤلاء الدجالين كوارث فادحة تؤذي هؤلاء المرضى أشد الإيذاء. وإذا كانت بعض الأمراض العقلية أو النفسية أو العصبية من النوع الذي من غير السهل، أو من غير الممكن علاجه حتى الآن فذلك صحيح أيضاً بالنسبة للأمراض الجسدية؛ ولكن العلم بفضل الله يكتشف كل يوم علاجات لما استعصى علاجه قبل ذلك. أما القول أن أي مرض من الأمراض هو (مسُّ جانٍ) فهو مجرد ادعاء ودجل وشعوذة لا دليل عليه ولا برهان.

إرادته، وتدمر دوره، وتنفي مسؤوليته بإذن الله، أوتعبث به وتتركه عاجزاً، مسلوب الإرادة، فالإرادة إرادته، والفعل فعله، والمسؤولية مسئوليته وحده: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٩٩/٧-٨]. ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٤]. ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٥] ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾ [غافر: ٤٠/ ١٧] ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٠].

لقد كان من الأولى لمن خاضوا في الحديث عن عوالم الغيبِ الجَانّةِ الخافيةِ عن حواس البشر، والتي لا مجال لحواس عالم الإنسان وعقله الإحاطة بها، أن يقفوا عند محاكمةِ صحيح أخبارها من فاسدها، وتمييزه، وأن يلتزموا حدودَ الإشارات القرآنية ومقاصدها كما جاءت في السياق القرآني، ويكتفوا بذلك القدر وتلك المقاصد، ويلتزموا مناهج النظر الصحيح فيها؛ التي تعتمد القواعد المنهجية الكلية ومقاصد الشريعة، وآثار الزمان والمكان، وما تواجهه الأمة من حقيقة التحديات وما تعانيه من المشكلات.

وإن من أهم القواعد المنهجية التي يجب - في رأينا - التزامها في الأمور الغيبية هي قاعدة التواتر الذي يستحيل معه الكذب، لأن شؤون الغيب مما لا يمكن محاكمته إلى العقل والخبرة والتجربة من شؤون الحس والعلاقات الإنسانية، ولذلك فإن من الضروري أخذها من المصادر المتواترة التي لايمكن أن يلحق بها الكذب، ولو التزم الدرسون المقاصد والمبادئ في فهم المتون ونقدها، والتزموا دقة التحرير في اعتماد النص ونقد سنده؛ لو التزموا كل ذلك لجنبوا الأمة مفازة عظيمة وكبوة قاتلة، وجنبوها قهر قداسة كثير من النصوص من المكذوبات والمحرفات والمزيدات والإسرائيليات، ومن سوء التأويل وقسره الذي ساعد على سوق الأمة في ظل العجز والترهيب والاستبداد إلى فكر الخرافة وإلغاء العقل، وأسلمها إلى دعاوى الدجالين المشعوذين، ومكن لها في ركب العجز والتخلف والهوان.

المعوذتان نهايةٌ وحاجزٌ لا مدخلاً لفكر الخرافة والشعوذة

إنّ في الإيمان بالله، والتوكل عليه، وفي قراءة المعوذتين، حجاباً حاجزاً وطمأنينةً لنفس المسلم، ونهايةً لمعاناته؛ مما يحمي النفس ضد أية توهمات أو ادعاءات تصدر عن هؤلاء المشعوذين والأدعياء الذين لن يتوانوا كلما أمكن - في ظروف الضعف الإنساني - أن يتسللوا بكل الوسائل وبأي شيء من التوهمات والأكاذيب والحيل إلى نفس المسلم أو عقله. فالمعوذتان هما تعويذ وحماية بإذن الله، وليستا مدخلاً للشعوذة والخرافة؛ فهما بذلك خاتمة مطاف وقفل لأي مدخل من مداخل التوهم بأن عوالم الوجود الأخرى قادرة ومخولة بالتدخل في عالم الإنسان ومسؤولية خلافته وتسخيره، وكم هو مؤسفٌ أن تصبح المعوذتان - بخطأ التأويل وعدم إدراك الظروف عند بعض الغافلين أو الواهمين - مفتاحاً لباب الشعوذة والخرافة والإرهاب النفسي من قبل الخرافيين والمرتزقة وأصحاب الأغراض.

الدعاء والرقية علاقة وجدانية، لا مهنةً وتألّياً على الله

كذلك فإن من الأمور المؤسفة أن يكون الدعاء ورقي القرآن الكريم مما يفتح به بعض الناس باب الخرافة واحتراف الشعوذة، حين يتحول الدعاء إلى مهنة وحرفة ووسيلة إلى المال والجاه يخص بها بعض الناس أنفسهم، أو يخصهم الناسُ - عملياً - بوعي أو بدون وعي - بأمر القدرة الإلهية والوساطة بين الله وعباده في شفاء الناس وقضاء حوائجهم، والناس بذلك كأنهم قد حكموا لهم -من عند أنفسهم، تجاه الله- بصلاحهم وقربهم منه سبحانه وتعالى، وخصوهم باللجوء إليهم لقضاء حاجاتهم، وهم بذلك يتحكمون عملياً - مهما قالوا غير ذلك - في رحمة الله ويخضعونها لمقامهم وسلطانهم، ليصبح ذلك حرفة للمتشعوذين ومقاماً وسلطاناً بين الناس، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ٢/١٨٦].

لاشك في أن الله سبحانه وتعالى يسمع دعاء عباده، وهو يعلم سرائرهم ويكافئهم بحكمته على ذلك بما يستحقون، والمكروبون هم أولى الناس، قبل سواهم بالإنابة إليه، والتوجه إليه بالدعاء، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ٥٠/١٦] ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠] ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ٢/١٨٦]، أما سؤال الوالدين ومن يَتَوَسَّمُ فيه الناسُ الصلاحَ من أهليهم وأهل جوارهم، أن يدعو الله لهم، فذلك أمر مستحبٌ، إذا ما تم بتلقائية وبروح التواصل والبر والمودة، لا بروح الدجل وادعاء مكانة هي بمنزلة التحكم في رحمة الله واستجابته لدعاء عباده المؤمنين، ولأن في طلب الدعاء منهم معنى المشاركة الوجدانية العاطفية مع من هو معروف - في محيط المكروب - بالصلاح والإخلاص وحب الخير للناس؛ فيكون في ذلك راحة نفسية تعين على التحمل، وتبعث الأملَ في النفس، وهي مظنة الحب لله بمحبة من يُعْرَف بمحبته لله دون تظاهر، ولايدَّعي قدرةً، ولا يسعى إلى مكانةٍ وتميزٍ، ولايشرع باباً للكسب المادي أوالسلطان المعنوي؛ لأن من شرع مثل هذا الباب، وسعى إلى مثل تلك الغايات، وطلب مثل تلك المكاسب، وحرص على استمرارها؛ فذلك منه من باب الصنعة ومن باب الادعاء على الله، وتكون محصلة عمله داخلة في باب الدجل والفتنة، لا في باب الإخلاص والسعي بالخير والحب في الله.

إن من المهم ألا يكون طلب الدعاء ممن يُتوسَّم فيه الصلاح أداةً لإعفاء الذات من التوبة والعزم على الصلاح والتقرب إلى الله حتى يكون المرء أهلاً للاستجابة؛ والا تصبح مهمة الرجل أو المرأة الصالحة القيام بالدعاء والطلب من الله نيابة عنا، والا نعفي بذلك أنفسنا من مهمة إصلاح النفس والتقرب إلى الله؛ فطلب الدعاء من الصالح يجب أن يكون مصحوباً ببذل الجهد لإصلاح نفوسنا؛ فيكون دعاؤه وسيلةً إلى مزيدٍ من التقرب إلى الله، وليس وسيلةً للتهاون وغيبة الوعي.

وهكذا فإن طلب الدعاء من قِبَلِ المكروبين من آبائهم وأمهاتهم، وممن يعرف المرء من أصحاب الإخلاص والصلاح وعون أصحاب الحاجات؛ لايحقق الهدف إلا إذا تم بتلقائية وفي صلة وجدانية، وفي النوازل وفي عظيم البلايا من عامة الناس، فإن ذلك من دواعي الاستجابة بإذن الله، ويقوي روابط الحب والتكافل والتعاون بين أبناء المجتمع، ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٥].

أما إذا تحول الدعاء والرقية إلى مهنة واختصاص وحكر ووصاية وباب يقف الناس أمامه صفوفاً، دون الله، ويلجؤون به إلى المنقطعين والمختصين بالوساطة وجلب المنافع ودرء المضار، فانها تصبح ممارسات أقرب ما تكون إلى الشرك والشعوذة وتقويض أسس التوحيد والتقوى وقواعد السننية الإلهية ومسؤولية العمل والسعي وروح التوكل، وهو ما نشاهده اليوم شائعاً في كثير من البلاد، ولدى كثيرٍ من الناس، من ممارسات الشعوذة والخرافة والدجل، وهو أمر يتوهمه ويؤمن به كثير من عامة الناس، وكثيرٍ من أهل العلم - بحسن نية - بسبب سوء الفهم وسوء التأويل؛ الذي يستند إلى نصوصٍ كثيرٍ منها يعد من باب الأساطير والإسرائيليات والقصص الضعيف والمدخول والمكذوب، والذي يجد قبولا لدى الكثيرين بسبب الموروث من العقائد والفلسفات والتفسيرات الخاطئة التي لا ترتكز إلى منهجية قادرة على التفرقة بين الصواب والخطأ والحق والباطل، ولا تستند إلى مقاصد الشريعة وثوابتها، ولا إلى كلياتها وأولوياتها، ولا على الوعي بالمشكلات التي تعاني منها الأمة وثقافتها وإدراك التحديات التي تواجهها والآفاق التي تتطلع إليها، فلو التزم الفكرُ المسلمُ المنهجيةَ الإسلامية العلمية السليمة ما كان للخرافة والشعوذة - وما تورثه من تواكل وسلبية وعجز- سبيلٌ إلى فكر الأمة وثقافتها، وما كانت هناك مشروعية للمفاهيم والتفسيرات الخاطئة الشائعة في عالم اليوم بين كثير من أبنائها.

مواصلة الجهود لتحرير النصوص والمفاهيم والتفاسير وتنقيتها

إن ما يعاني منه منهج الفكر الغالب في الأمة من الجزئية اللغوية والنصية الحرفية التقليدية المستندة إلى رؤى وظروف تاريخية لا تتعلق بالسنن، ولا بالواقع الذي نعيشه، ولا بالتحديات والمشاكل التي نواجهها اليوم؛ يجعله اليوم كالأحجية التي تمزق صورة معقدة إلى أجزاء كثيرة متساوية، أو كالورق الذي تمزقه آلات تقطيع الورق، فيصبح من الصعب على من لا دارية لهم بكلية المطلوب أن يصنع من تلك المزق الصورةَ الصحيحةَ الأصليةَ وينتهي جهل الناس بحلٍّ الأحجية إلى صور مشوهة عديدة، كل صورة منها تختلف عن الأخرى، وكل صورة تمثل مزقاً غير متناسقة؛ بحيث لا يسهل أن يملك أي واحد صورةً تمثل الحقيقة كاملة، وهو ما نراه اليوم؛ حيث ترتفع في كل أمرٍ أصواتٌ لا تُعَدُّ، وبرؤى وأسانيد متغايرة متنافرة، لا يعلم الناس أيها يحوي الحقيقة والصواب، وكل واحد منهم لديه قول يسنده نص يدحضه قول آخر ونص آخر؛ بل إن بعضهم يصوغ في كل أمر صورة تناقض ما رصف قبل ذلك من صور، لا عن سوء قصد بالضرورة، بل هو نتيجة ما تراءى له من مزق النصوص، ولو التزم الفكر منهجاً شمولياً سليماً موحداً محرراً في الشكل والموضوع لانتهى البحث والحوار بأهل الفكر والعلم إلى حدود في الفهم يلتزمونها، لها قواسمها المشتركة التي تختلف في تفاصيلها وتطبيقاتها وأولوياتها بحسب الظروف الزمانية والمكانية، وبحسب الزوايا التي يتعاملون معها؛ مما يعني إثراء الفكر وتكامل الخبرات والتجارب.

المنهجية السليمة لا تسمح للأحداث والتطبيقات والملابسات الزمانية والمكانية أن تطغى على المقاصد والثوابت والكليات، وأن تضلل الجهود المبذولة لمواجهة المشكلات والتحديات، فلا تجد التفسيرات والمفاهيم الخاطئة والنصوص المحرفة والموضوعة والقصص والأساطير والإسرائيليات طريقَها إلى فكر الأمة وثوابتها وكلياتها وثقافتها وممارسات جمهورها.

ومن دون المنهج الصحيح المبني على المقاصد والثوابت فإن مجمل

النصوص في ظل الصور والظروف والتفسيرات التراثية المقلدة، تصبح كتوهمات المتأملين في الحبر المنثور على الورق، أو كالصناديق التي يحكم قفلها مجموعات رقمية معقدة غير معلومة تضيع الجهود في محاولة معرفتها، ويبقى أمر التوفيق في فتح شيء منها إلى الصدف التي يتشتت معها الفكر، ويضيع معها الجهد، ولا تُبنى بها حضارات الأمم.

ترويج فكر الخرافة والشعوذة وكتبها جريمة دينية

إن من الجرم في حق أمة القرآن واستخلاف الإنسان دينياً وفكرياً واجتماعياً أن يروج - في هذا العصر وأمام ما تواجه الأمة من تحديات - أي شيء يعوق روح العلم والعمل والجد والاجتهاد والأخذ بالأسباب وحمل المسؤوليات.

ومن الجريمة أيضا نشر بعض كتب العصور السالفة التي - على الرغم من كل الإخلاص وحسن النية - تخصّ ظروفاً وتحديات وسقوفاً معرفية سالفة، وكثير منها هو من باب أدبيات الخرافة والتخلف والانحطاط - تلصق زوراً بالدين والتراث، فنشر مثل هذه الكتب دون فحصها، وتنقيتها، وترويج مادتها باسم الدين بين الناس والناشئة، على ما ملئت به من الأكاذيب والأساطير وبعض شواذ الأحداث التي تخدع فيها الحواس، إن صدقت أقوال رواتها، وحسنت حقيقة ضمائرهم، لا مجرد مظاهرهم، هو من باب الجريمة والجناية على عامة أبناء الأمة.

إنّ أقصى ما يولي العقل المسلم السليم مثل هذه الكتب هو أن تصبح من قِبَل أصحاب الاختصاص مادة بحث ودراسة وتأمل وفهم الظروف التي كتبت فيها ودوافعها، لا مادة تروج بين عامة أبناء الأمة، فإن ذلك في الحقيقة شعوذةٌ ودجل للترويج باسم التراث وباسم الدين لكل من هبّ ودبَّ من الماضين، أو حتى بسبب نسبة بعضها حقاً أو باطلاً إلى بعض من نجلّ من أهل

العلم الذين أخطؤوا - إن صحتْ نسبتها حقاً إليهم[١] - فهم بعض هذه القضايا، ووقعوا في الخطأ بحكم الظروف التي أحاطت بهم، وكم من ظاهرة لم تكن مفهومة في الماضي، أمكن بالبحث العلمي والدرس فهمها وحل ألغازها بما حققه العلم من تقدم في الوقت الحاضر، كما أنّ الكثير من هذه الدعاوى قد اتضح كذبها وادّعاؤها. إنّ التعلق بالخرافات والأوهام وقصص الخوارق والأحاجي والألغاز وكاذبِ أو واهمِ المعجزات، ونشرها، والخلط بين ماضي الإنسانية ودور الخوارق فيه، وحاضر الإنسانية القائم على هداية الوحي ومنهج العلم والعقل، كل ذلك لا يخدم إلا أعداء الأمة، ولا ثمرة له إلا تدمير روح العلم والقدرة فيها، واستدامة ضعفها وعجزها.

يجب حماية الأمة والناشئة، وتحصينهم بالعقيدة الصحيحة، وبالعلم الصحيح، من مثل هذا الفكر الضار، ومن مثل هذه المواد الضارة، ووضعها - في كل ما يتعلق بالتربية والتعليم والإعلام - بعيداً عن أعين الناشئة والعامة وأسماعهم وأدبياتهم، وأن يتمَّ حفظ المواد السامة والضارة لدى أصحاب الاختصاص بعيداً عن أيدي الصغار والجهال.

تتقدم الأمم بالعلم والمعرفة لا بالخرافة والشعوذة

لم تتقدم الأمم بفعل السحرة وجهود المشعوذين، ولا على أيدي أعوانهم الموهومين من مردة الجان والشياطين، وإنما تقدمت الأمم وعمرت الأرض بما وهب الله للإنسان من العقل والمعرفة والقدرة وفقاً لما قدر في الكائنات من الطبائع والإمكانات.

---

(١) نحن نعلم أن بعض أهل العلم السابقين تنسب إليهم مئات من الكتب التي يستحيل على الواحد أن يكتبها في حياته، وتفسير ذلك أن بعض الناس ينسبون كتبهم إلى غيرهم من الأجلاء طلباً لترويج أفكارهم؛ مما يجعلنا ألا نقبل كل دعوى بنسبة كتاب أو آخر إلى بعض أهل العلم إذا كان ذلك الكتاب ليس على شاكلة فكرهم ومقاصدهم.

أما من أخذ بالعلم والمعرفة فقد قربت له المسافات، ونما له الإنتاج، وتيسرت له الجهود، وتقدمت لديه الصنائع والخدمات، وتوسع بين أبناء قومه نطاق العلم والتعليم، وعولجت في ربوعه الأمراض، وكوفحت الأوبئة. وبالجهل والخرافة زادت معاناة الشعوب وازداد فقرها، وفشا الجهل والمرض في ربوعها، وضاعت حقوقها، وذلت رقابها، وانتهكت حرماتها، وكان للأمة الإسلامية من كل ذلك - مع كل الأسى والأسف - القدح المعلى والنصيب الأوفر.

إنّ علينا أن ندرك طبيعة الظروف والعصور والمراحل الإيجابية والسلبية التي مرت بها الأمة الإسلامية، وطبيعة عقليتها وإمكانات خطاباتها في الماضي، فكثير من ذلك الخطاب - حتى الإيجابي منه - إنما ناسب زمانه ومكانه وثقافة عصره وإمكاناته، ولذلك فإن ترديده في ظروف عالم اليوم وتحديات اليوم وتَلقِّيه كما هو - دون فهم لخصوصياته - على أنه من مكنون التراث الذى نسعى لتلبسه على حاله وهيئته؛ يعد من أشد أنواع الجهل والغفلة، ولا يأتي من ذلك الخطاب إلا أشد الضرر، وليس عبثاً أن يقال إنّ من الخطأ (رواية) كل ما يقال، لأن "لكل مقام مقال"، وبعض ذلك المقال الذي تقبّله كثير من أبناء سالف الأجيال من الخطأ روايته وإشاعته وتداوله، ومن الجهل إضفاء قدسية التراث عليه في عالم اليوم.

إنّ على مفكري الأمة وعلمائها ألا يقعوا في حبائل المنهجيات الجزئية والحرفية؛ حتى يمكنهم أداء واجبهم في استنقاذ الأمة، وأن ينطلقوا في إصلاح هذه التشوهات من منطلقات كليات الشريعة ومقاصدها، مسلحين بالمعارف والمباحث العلمية، التاريخية والاجتماعية والنفسية والتربوية، وبأسلوب منهجي شمولي تحليلي منضبط (systematic) يجلي لهم طبيعة الرؤية الإسلامية الصحيحة وسبل تحقيقها في العالم المعاصر، كما يمكنهم من إدراك مواضع الأحداث والنصوص في عهد الرسالة وما تلاه من العصور، وإدراك بُعْدَي الزمان والمكان، وأثر ذلك في فهم دلالة ما صح من الأحداث

والنصوص، والتي يجب أن يعمل على تدقيقها وتمييزها بأدق وأسلم الموازين المنهجية لمعرفة ما خالط تفصيلاتها من خصوصيات المخاطبين بها - زماناً ومكاناً - في ثقافتهم وإدراكهم ونسيج علاقاتهم وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية، فكثيراً ما يضل الفهم حينما يُنْظَرُ إلى النصوص والأحداث على أنها في فراغ وكأنّ الراعي والمعلم والقائد يتحدث - حين يتحدث إلى قومه ويتعامل مع واقعهم - إنما يتعامل مع كل البشرية في كل زمان ومكان، وليس إلى أقوام وفئات وجماعات وأفراد بعينهم، تتفاوت قدراتهم ومداركهم وثقافاتهم وأمزجتهم وعاداتهم وتقاليدهم ومداخل نفوسهم؛ فيختلف ألوان الخطاب حتى في المكان والزمان الواحد، وللهدف الواحد، من فئة إلى أخرى، ومن وجهٍ إلى آخر، بحسب حال المخاطب، وبحسب الأولويات والمصالح والضرورات والقدرات التي يأخذها المتحدث والموجه في الحسبان، فما بالنا إذا تباعدت - على مدى القرون - أحوال الزمان والمكان.

وعي الآباء أساس البناء

ولعل من المفيد أن نورد هنا مثالاً من الأمثلة على تفاوت الخطاب، بسبب طبيعة الثقافة والإمكانات، وطبيعة المخاطب، مما يوضح أهمية أسلوب فهم كثير من خصوصيات النصوص التي لا يفهم أتباع المنهجيات الجزئية والحرفية التقليدية معها سببَ عدم تجاوب الناس مع خطابهم، ويقفون منه في سلبية وحيرة، يتلمسون مخرجاً يوفق بين ولاءاتهم النفسية وما يلقى إليهم من جزاف القول والتوجيهات.

هذا المثال الذي يسهل على المطلع على التراث أن يرى له نظائر كثيرة، فيما كان يوجه ويلقى إلى كثير من البسطاء الذين لابد من خطابهم، بما هو في حدود حسهم وإدراكهم، حتى تتحقق استجابتهم، مما يجعل خطابهم لا يصح أن يؤخذ مجرداً أو بعيداً عن خصوصياته وظروفه، وطبيعة المخاطَب، وطبيعة القضية المخاطَب فيها.

فالأمهات في مكة المكرمة - وفي ظني في كثير من البلاد الأخرى على عهد

طفولة جيلنا وما قبله من الأجيال - كن يتبادلن العديد من المفاهيم والأساليب التراثية التي اندثر كثير منها، بتغير الظروف والإمكانات والثقافة، ومن ذلك حرصهن على تلقين أطفالهن أنّ في كل ثمرة رمانة "حبة من الجنة"، والرمان - كما يعلم القارئ - مما يجود نوعه في بلاد الطائف من جبال الحجاز، إلا أنه إذا ما وقع على الملابس يترك بقع حمراء اللون يصعب إزالتها بإمكانات العصور السالفة، إن لم يكن الأمر كذلك حتى اليوم، ولأن طبيعة تكوين الرمان تجعل أمر حفظ حباته دون أن تنتثر من يد الآكل شذر مذر أمرا صعبا حتى على البالغ كانت فكرةُ أن في كل رمانةٍ حبةٌ من الجنة فكرةٌ خرافيةٌ ذكيةٌ، وكانت بمثابة الدافع القوي لدى الطفل - إلى جانب حلاوة مذاق الرمان - الذي يجعله يحرص على أكل كل حبة من حبات ما يأكل من رمان، وأن يحرص على البحث الدائب عما يسقط منها؛ فيتناولها بكل عناية وحرص، وإن هذه الفكرة الخرافية سهّلتْ - ولاشكَّ - مهمةَ الأم في حفظ ملابس أبنائها وأثاث منزلها من التلوث. وبالطبع فإنّ الطفل منا حينما تقدمتْ به السن أدرك أن "حبة الجنة" لم تكن إلا أسطورة، يضحك منها، ويقدر بها حذق الأم ولباقتها في دفع الطفل بلطف إلى أداء أمرٍ ما كان له أن يتم بغير ذلك، حيث يصعب على الطفل أن يدرك مرام أمه، أو أن يحرص عليه في تلك السن المبكرة.

ومن الناحية الأخرى فإنّ حرص الأم على حماية طفلها واللجوء - بجهلٍ - إلى الأسطورة والخرافة لتحقيق عاجل غرضها قد يكون له في أحوال أخرى أسوأ الأثر.

ومن ذلك ما كانت تلجأ إليه كثير من الأمهات الجاهلات بنفسية الأطفال، وبمسميات مختلفة من بلدٍ إلى آخر، من تخويف الطفل من الانطلاق بعيداً عن عين رعايتها ورقابتها، خوفاً عليه من الغوائل، خاصة في عتمة الليالي، في بيئات تكاد في الغالب تنعدم فيها الإضاءة أو الحركة، حيث ينطلق في الظلمة - في العديد من البيئات عادةً- كثيرٌ من "الهمّل" و"الحرامية"

و"طلاب الرذيلة" و"قطاع الطرق" من شياطين البشر، فكانت الأمهات لهذه الأسباب وللحرص الشديد على سلامة أبنائهن، يخوفْنَ أبناءهن الصغار من الخروج من الدار مع حلول الغسق وقرب الظلام؛ حيث يوهِمْن - لذلك الغرض - أطفالَهن بأن هناك كائناً جنياً يدعى "الدجيرة" يتزيَّا بزي النساء، ويختفي في مثل ثيابهن، وقد كانت المرأة في ذلك الزمان، تغطي كامل جسدها ووجهها، ولا يبدو منها شيء، وتلبس عادةً ثياباً منشاة ضافية فضفاضة جليلة الهيئة كانوا يدعونها في زمن طفولتنا "البرقع" و"الملاءة"، وتخبر الأمُ طفلَها أن هذا الجني المتستر كالنساء يمشي في "الأزقة" - كما كانت تدعى الطرقات الضيقة في "الحارات" بين "المنازل"- متخفياً بذلك الزي المخيف في هدأة الليل، وفي ظلام تلك الطرقات الضيقة، وأن الإنسان لا يستطيع أن يفرق بينه وبين المرأة الحقيقية إلا بأن رِجْلَ الجني لاتكون على هيئة رِجْلِ إنسان بل تكون على هيئة حافر حمار، ونستطيع أن نتصور حال الطفل لو اضطر للخروج من المنزل في الليل ولقي امرأة مقبلة عليه في الظلام في أحد هذه "الأزقة"، كيف سيكون عليه شعور هذا الطفل؟ وهل تراه ينتظر حتى يعلم إن كان لدى المقبل قدم امرأة أم حافر حمار؟ وكيف سيكون عليه حال قلبه وخياله وعقله الصغير حينذاك؟.

إن هذه الخرافة المرعبة - وما ترسخه في خيال الطفل الصغير من صورة مخيفة لهذه الجنية التي تجوب الدروب في الليالي - كفيلةٌ بأن تمنع الطفل من أن يفكر في تخطي عتبة الدار باختياره وحيداً مهما كان الحال في ظلام الليل، وليت الأمر يقف عند هذا الحد، ويقتصر على مرحلة الطفولة، ولكنه في الغالب قد يتعداه إلى أضرار نفسية قد لا تزول آثارها في نفس الطفل، وما تولده من مشاعر الخوف من الوحدة، ومن الظلام، ومن تصور الفضاء وكأنه عالم تتزاحمه كائنات خفية مرعبة يصورها له خياله، تترصده لتغدر به وتؤذيه. مثل هذه المشاعر والأوهام والأحاسيس تجعل الانزواء خلف الجدران هو

سبيل الأمن والسلامة، وهذا النوع من التربية -ولاشك- يشكل عاملاً من عوامل تمكين صفات الخوف والجبن، في نفس الصغير حين يشب ويصبح في عداد البالغين. وعندها علينا أن ننتظر الأجنبي كي يجوب قفارنا وجبالنا ووديانا وكهوفنا؛ فيرسم لنا خرائطها ومواقعها ومواطن الثروة فيه، ويكون أعلم بها منا.

بالطبع كثير من هؤلاء الصغار سيشب ويعلم أن تلك (الدجيرة) أو كما يسميها آخرون (السعلية) أو أياً كان مسماها، أو أية أسطورة كانت على شاكلتها؛ إنما هي خرافة وحيلة لإجبار الطفل على سلوك كان يهدف إلى سلامته والمحافظة عليه، إلا أنه لن يستطيع أن يتخلص من تلك الآثار النفسية الضارة التي يمكن أن تخلفها مثل هذه الخطابات والأساليب التربوية الجاهلة، وتجد كثيراً من البالغين أمام مثل هذه الأسباب والأساليب يسيطر عليهم الخوف الشديد من الظلام الذي لا أساس له من الواقع والحقيقة، ومن الوحدة، ومن الغرف المقفلة، ومن أصوات الرعد، والعواصف، والأمطار، وغيرها.

على كل الأحوال فإنّ مثل هذه الوسائل: الإيجابي منها والسلبي، لا نستطيع أن ندرك معناها وأسبابها ودلالاتها: سلباً أو إيجاباً، وأن نقومها التقويم الصحيح إلا إذا تصورنا ظروفها وبيئتها والمخاطبين بها والآثار المترتبة عليها، ولذلك يجب علينا ألا نكرر مثل هذه الأفكار والأساليب وأمثالها تحت أي شعار أو مسمى دون وعي بآثارها في ضوء أوضاعنا وحاجاتنا وإمكاناتنا التي قد تختلف ولا تتماثل مع الظروف والحاجات التي أملتها. وكم هو مؤسف أن كثيراً من الوعاظ والكتاب ينشر بشكل مباشر أو غير مباشر نصوصاً لها آثار سلبية، خصوصاً حينما تكون نصوصاً دينية، وقد تكون غير صحيحة أو محرفة أو لم تفهم ظروفها ولا دلالاتها أو أنه قد أسيء فهمها وتأويلها، وجُلُّ من يفعل ذلك يضر الأمة، خاصة فيما لو كان المخاطبون من الصغار والناشئة، وهو عندما يفعله إنما يفعله بسبب عدم الوعي بآثارها في المخاطبين، ولكونها وردت في كتب ما يدعى بالتراث.

مزيداً من الجهد في تحرير المفاهيم الأساسية

لقد بدأ الأستاذ الإمام محمد عبده - بعد أن تعرض للتحدي العلمي الأوربي، وتابعه عدد من العلماء والمفكرين - أمرَ التصدي في العصر الحديث لتنقية التراث من آثار الخرافة والشعوذة في العقل المسلم؛ وذلك بإعادة النظر في فهم النصوص وأدبيات التراث، في هذا المجال، وأعاد عرض هذه الإشكالات من زاوية معطيات العصر ومفاهيمه ومعارفه وإمكاناته وتحدياته؛ وذلك بدعوته إلى إعادة النظر في نصوص التراث وأساليب فهمها ونقدها وتأويلها، وإعادة صياغة الخطاب الإسلامي على ما كان على زمانه من المستجدات والمتغيرات والحاجات والإمكانات، وكانت الغايةُ من جهوده تنقيةَ الثقافةِ ودعم الروح والعقلية العلمية لأبناء الأمة. وعلى الرغم من جهوده وغيره من الرواد التي مثلت بداية هامة، إلاّ أنه ما زالت هناك حاجة ماسة إلى مزيد من الجهد، الذي يجب أن يكون منهجياً، يمكنه أن يرسي الأسس والمفاهيم العامة الضرورية المطلوبة لتحرير العقل المسلم من فكر الخرافة والشعوذة، وعلى أسس متينة، تليق بأمة (العلق) و(القلم) و(الحديد)، وفي عصر تجلية قدرة علم السننالتي لا تغيير لها ولا تبديل؛ فبالمنهجية العلمية السليمة تتوحد الرؤية ويتسع القدر المشترك، ودون المنهج العلمي السليم تمتنع على الأمة الرؤية الصحيحة المشتركة، وتتلاشى القدرة على تحرير الأفكار والثقافة والمواقف بشكل موضوعي مقنع فعال.

ولذلك، فإنه من غير المجدي إدارة الحوار بشكل عشوائي، وعلى أساس من المنهجية الجزئية أو الحرفية اللغوية، في أمر جوهري هام، مثل مقاومة فكر الخرافة والشعوذة وتمكين العقلية العلمية، لأنه وفي غياب ضابط منهجي لحوارات الفكر وخلافات الرأي، ستنتهي هذه الحوارت إلى متاهاتٍ من القضايا الجزئية التي لا نهاية لها، ولا تقود إلا إلى الفوضى الفكرية، وإلى حِدَّة الخلافات الوهمية، وتطرف المواقف الزائفة، والهروب من النظر العلمي إلى الحكم على النوايا، وتراشق الاتهامات، وتوليد العداوات؛ التي تمزق

الصفوف، وتضعف العزم، وتدمر الحس الجماعي، وتقيم حواجز العزلة وعدم الاكتراث بين جمهور الأمة وصفوتها المثقفة(١).

(١) من المفيد هنا أن أسجل تجربة في الدجل والشعوذة مرت بي شخصياً وأنا طفل، وقد تمكنتُ وبفضل الله من حل ألغازها وإدراك وجه الحيلة فيها، ليكون ذلك مثالاً لما يمكن أن يقع فيه عامة الناس من حيل الدجالين. وقد وقعت أحداث هذه القصة حينما كنت طفلاً في مكة المكرمة، في المرحلة الابتدائية، ففي مكة كان هناك - وفي ظني أنه ما يزال حتى اليوم - ما يسمى (المندل) وهو ادعاء بعض الدجالين أن لهم قدرة على معرفة المسروق وموضعه وسارقه، ويأتي ذلك على أشكال متعددة يقع الجهلاء والمكروبون فريسة لها، لأنها، وإن أخطأت في جل الأحيان إلا أنها تصيب في أحيان قليلة، كافية لأن يتشبث بها الجهلة والمكروبون، وحالات النجاح الاستثنائية لو أمعن الناس النظر في أساليب الدجالين لوجدوا أنها لاتعود إلى قدراتهم في علم الغيب ولكن إلى الأساليب والحيل التي يلجؤون إليها.
والتجربة التي مررت بها توضح شيئاً من ذلك، فقد سُرِق جارٌ لنا كانت داره لصيقة دارنا، وعلى الرغم من هذا الجوار لم تكن لنا به وبأسرته علاقة لاختلاف الاهتمامات والمشارب، وجاء هذا الجار إلى الوالد يرحمه الله يطلب منه أن يسمح له بأن أصحبه -لأنني طفل- إلى عمل (مندل)، وذهبت معه، وهناك مسَّ الرجلُ الذي يقوم بعمل المندل أرنبةَ أنفي للتأكد من أنني لم أصل إلى مرحلة البلوغ بعد، وبعد الوضوء صبغ ظفر إبهام يدي اليمنى بمادة سوداء لامعة ثم أشعل البخور وأخذ بالقراءة والتمتمة ووصف ما يجب أن أراه من وضع الكراسي وكنس الأرض ورشها بالماء، وبالطبع لم أستطع أن أرى من ذلك شيئاً، وبعد طول القراءة والتمتمة أشفقت على الرجل فأخبرته أنني قرأت آية الكرسي، وهذا يدل على أنني لكوني طفلاً لم أر مايمنع من مشاهدة (المندل) لأنه كان من الشائع أن هناك من رأوا المندل؛ فأخبرني أنه سيقرأ مندل آية الكرسي، ثم أخذ في الوصف من جديد ولكن دون جدوى، ومع طول التحديق في ظفر الإبهام، وشفقة مني عليه، ذكرت له أنني أرى خيالاً وأخذت أمعن النظر فتبينت أنه انعكاس لصورة وجهي، ولما أخذه اليأس مني أعلن انتهاء المحاوله وانصرفنا دون نتيجة.
وفيما بعد أخذت أتأمل فيماحدث، ولماذا لم أر شيئاً كما هو مفروض وكما يدعي الآخرون. واتضح لي السبب وذلك على الرغم من طفولتي وسني المبكرة إلا أنني كنت كثير القراءة، وكنت أكره حفظ المعلومات وأطلب الفهم وألجأ إلى التحليل في فهم دروسي وإجاباتي مما جعلني طفلاً لا يسهل الإيحاء إليه لكوني من النوع الذي يصر على الوصول إلى النتائج من خلال الاقتناع والفهم. =

إنني أدعو علماءنا ومفكرينا للاهتمام بالقضية المنهجية، والعمل على تنقية الثقافة مما أصابها من تشوهات وتلوث، ولاسيما فكرُ الخرافة والشعوذة والدجل، ودراسة النصوص والتراث دراسة منهجية لتحقيقها متناً وسنداً وشكلاً وموضوعاً، والاعتماد في ذلك على أسس مكينة من المقاصد والمنطلقات والتحديات؛ بحيث لا تترك لأخطاء المنهج، ولا لخطأ التأويل، مجالاً لأن تصبح الكلماتُ والإشاراتُ النصِّيةُ مشاجبَ ومداخلَ للسلبية والتواكل والخرافة.

من المهم في ختام هذه العجالة أن أضع أمام القارئ الكريم إطار المعالجة المطلوبة، والتذكير بمرتكزاتها الأساسية، ومرجعيات تلك المعالجة، ومعايير قياس نتائجها.

وهذه المرتكزات يجب أن تحكم كليات أي بحث في هذا المجال، وتضبط نتائجه، وهي مرتكزات -بدورها- يحكمها جوهر رسالة الإسلام ومبادئه الأساسية من: مبادئ التوحيد، والاستخلاف، والغائية الخيرة للحياة الإنسانية، ومبدأ المسؤولية الإنسانية على أساس العمل والسعي في الأرض وَفْقَ سنن السببية الكونية.

= كان عدمُ القدرة على الإيحاء إلي عاملاً في عدم نجاح المهمة المرجوة، وكان العامل الآخر أن الذي يقوم بالمندل كما علمت يصر على أن يتم المندل بواسطة (طفل) وأن يأتي صاحب المسروقات بالطفل، وبالطبع فإن الطفل الذي يأتي يكون عادة على صلة بصاحب القضية، وكثيراً ما يقول الناس أمام الأطفال أموراً يظنون أن الأطفال لا يدركونها أو يهتمون بها، إلى جانب أن الطفل لديه تصور عن الناس المحيطين به، وعن الأماكن وعن المسروقات؛ ولذلك حين يتولى الذي يقوم بالمندل الطفلَ فإنه يوحي إليه بما يريد، وعادة ما يتكلم الطفل بحقائق وخيالات قد تصيب وقد لا تصيب، وهو ما يفسر استثناءات نجاحات الدجالين، ولكن المهم في الأمر أنني لكوني طفلاً لم يكن لي أية علاقة بصاحب المسروقات ولا ببيئته أو بالأشخاص المحيطين به أو حتى إنه ليس لدي أي علم عن المسروقات ذاتها، ولذلك كان من المستحيل أن أعطي أية صورة أو خيالات عما حدث؛ مما يفسر الفشل الذي وقع فيه صاحب المندل معي، ولكنه بالمقابل يكشف دهاء حيل الدجالين التي يصعب كشف زيفها على البسطاء والجهلاء، والتي يجب أن يعصمهم دينهم وعقلهم من الوقوع فيها.

وأهم هذه المرتكزات التي جاء بها الإسلام وكليات الكتاب العزيز ونصوصه هي:

١- إن القضية في أساسها ليست قضية وجود عوالم أخرى في الكون من عدمها، فهذا أمر - في ذاته - لا يعني الإنسان وعالمه، وما يعنيه هو علاقة هذه العوالم والكائنات - أياً كانت طبيعتها - بعالمه، وتسييره لعالمه، ومسؤوليته عنه. ومن الواضح أن مبدأ المسؤولية، ومبدأ الأخذ بالأسباب، لايدع مجالاً لهذه العوالم الأخرى لأن تتحكم بالإنسان أو بعالمه. كما أنه يجب أن نفرق بين مختلف عوالم الغيب والخفاء، فمنها ما لا نعلم من أمره شيئاً، ومنها ما هو من الكائنات الدقيقة التي تخفى عن أعين الناس، وكانت - وما تزال - تسبب للإنسان الكثير من الأمراض والكوارث، ومنها ما ينفع الناس؛ أمكن أن يكشفها العلمُ اليوم، ويكشف أسرارها وآثارها، وفي طرقِ التعامل معها، واتقاء شرورها، وكل هذه العوالم هي عوالم "جان" أي عوالم "خفاء".

٢- إن الشيطان من عوالم الغيب، وذريته - ومن هم من جنسه من الجان - ليس لهم على الإنسان أي سلطان.

٣- إن أعمال السحر والشعوذة هي من باب الحيل والأوهام.

٤- إن الإنسانية مع بدء الرسالة المحمدية العالمية دخلت دوراً جديداً من النضج والأداء، أصبح فيها الإنسان كامل الرؤية وموضع المسؤولية، وانتقل من عالم الطفولة الإنسانية وعالم الجهل وعالم الخوارق، إلى عالم الكتاب والعقل والعلم والمعرفة والعمل وطلب الأسباب، فقد كشف - بطاقة العقل والعلم، وما يزال يكشف - أسرارَ عوالم الخفاء من الكائنات الدقيقة، فأزال بذلك كثيراً من أسباب عجزه وخوفه ورعبه، كما أزال العقل والعلم بكشوفاته العلمية كثيراً من وسائل الدجالين والمشعوذين ومدّعي السحر، في الإيهام والتمويه، وذلك بالكشف عن كثير من القوانين الفيزيائية وخصائص المواد، وعن كثير من أسرار النفس الإنسانية، وعللها، وما يؤثر فيها.

٥- لو أن المشعوذين والدجالين ومدعي السحر كانوا على شيء من الحقيقة لأغنوا أنفسهم ونفعوها، ولكنهم هم أنفسهم من فئات المحتالين للاستيلاء على أموال المستغفَلين، والسيطرة عليهم، وإنزال الأضرار المادية والمعنوية بهم.

أذكر وأنا طفل قرأت في مجلة الإثنين المصرية سؤالاً وجهته سائلة إلى المحرر من أن هناك من يدعي أنه يستطيع التوفيق بين قلبها وقلب زوجها، وأجابها المحرر أنه لو كان صادقاً لوفق بين قلبه وقلب محافظ البنك المركزي ولأغناه ذلك عن دراهمها المعدودة. والسؤال أين هؤلاء الدجالون من أعدائنا ومن مؤامراتهم وأسرارهم أم هم لا هم لهم إلا استغلال كربات الجهال والمخدوعين بادعاءاتهم وأكاذيبهم.

٦- إن مبادئ التكريم والاستخلاف والتسخير والمسؤولية تعني ضرورة تحكّم الإنسان بعالمه وحمل مسؤولية أفعاله في تسييره، وليس تحكّم عوالم الغيب والخفاء به.

٧- إن المحصلة النهائية التي ينتهي إليها كل بحث وفهم وتأويل لابد من أن تصل إلى الحقيقة القاطعة بأن ما يفعله المشعوذون والدجالون ومدّعو السحر لا يؤدي إلا إلى ما يضر بالإنسان ولا ينفعه من أكاذيب الدجل والخداع والأوهام، وإن ما قد يلجؤون إليه من المواد والإيحاءات النفسية ضارة ومؤذية، وإن تتبعها والوقوع في شِراكِها غفلةٌ وزيغٌ، وإن مزاولةَ دجلِها شرٌّ وكفرٌ.

وعلى كل الأحوال فإن من المهم أن ندرك أن أي فهم أو تأويل يتناقض أو يتعارض مع المبادئ والقيم والمنطلقات الإسلامية الأساسية يجب أن يرفض، وأن من يدعي القدرة والعلم بالغيب لايمكن قبول ادعائه أو التسليم به، ولا يمكن أن يتفق ادعاؤه مع المنهج الإسلامي العلمي السليم في شموليته وانضباطه، وفي حسن فهم ملابسات روايات الأحداث واجتهادات التراث في بيئتها المعرفية وأبعادها الزمانية والمكانية.

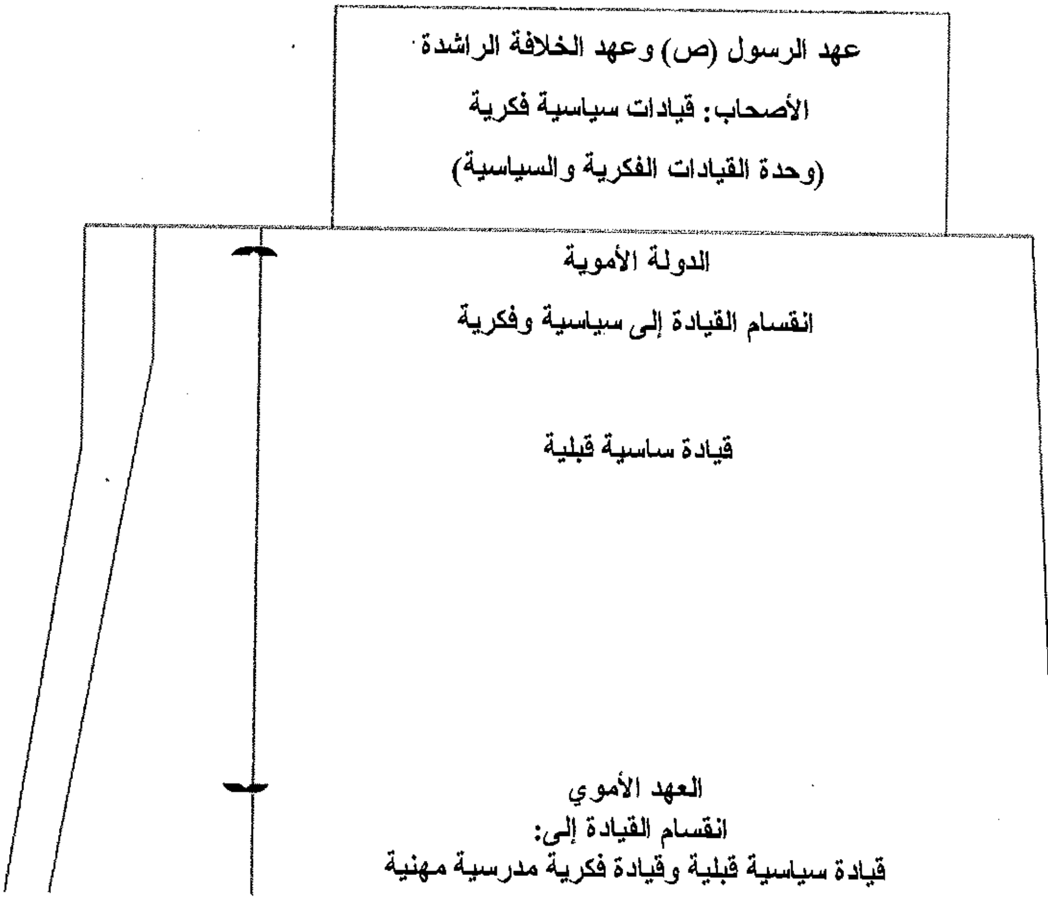
عهد الرسول (ص) وعهد الخلافة الراشدة
الأصحاب: قيادات سياسية فكرية
(وحدة القيادات الفكرية والسياسية)
الدولة الأموية
انقسام القيادة إلى سياسية وفكرية
قيادة ساسية قبلية
العهد الأموي
انقسام القيادة إلى:
قيادة سياسية قبلية وقيادة فكرية مدرسية مهنية

الشكل (٥)

في ضوء الكليات والمقاصد والمبادئ والمنطلقات، وفي ضوء التحديات والإمكانات، وفي ضوء الآفاتَ والأمراض التي تعاني منها الأمة؛ لابد من بذل أقصى الجهد في هذا المجال، وقفل باب الخرافة والشعوذة والدجل وكل ما يعوق انطلاق الروح العلمية والسببية، ويطلق قوة الإيمان والتوكل الإسلامي الصحيح، ولايترك أية فجوة تنفذ منها رياح الخرافة والشعوذة والدجل السامَّة إلى روح الأمة وعقلها ونفسية ناشئتها؛ فبالإيمان الصحيح والعقل السليم فقط تبنى الحضارات وترتقي الأمم.

التشوه السادس: العرقية «دعوها فإنها منتنة»

نشأتُ في مكة المكرمة، وفي أجوائها فتحتُ عيني على كل ألوان الناس وأجناسهم وسحناتهم، في الدار، وفي الجوار، وفي ساحات الحرم ورواقات بيت الله، هم مني وأنا منهم: إنسانيةً، ووطناً، وديناً، لايفرق بين واحد وآخر إلا مايحمله بين جوانحه من صفات وخصال.

لقد قرأ هذا الطفل في المنزل، وفي المدرسة، وفي بيت الله العتيق كتابَ الله عز وجلَّ، ودرس جملة من أمهات نصوص سنة نبيه ﷺ، وجال بقلبه النابض وعقله الغضّ في آيات الله ومعانيها، في وحدة الإنسان، وإخاء المسلم، وبرّ الرحم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ٤/١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: ٣٠/٢٢] ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ [النساء: ٤/٥٨] ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ﴾ [الأنعام: ٦/١٥٢] ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾ [النساء: ٤/١٣٥] ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ﴾ [المائدة: ٥/٨].

وقال عليه الصلاة والسلام: «كلكم لآدم، وآدم من تراب، لافضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى» «لايأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم» «يافاطمة بنت محمد إني لا أغني عنك من الله شيئاً» «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» «المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايسلمه، وكان الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» «المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً» «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وكان الطفل يقرأ ويتجول ذهنه في ضبابية وحيرة، في تاريخ الأمة، وفي صراعاتها، وصراعات قبائلها وشعوبها وأعراقها وألوانها، على غرار ما كان يجري في الأندلس، ولايكاد خياله يعي معنى هذه القبليات والعصبيات، وهذه الشعوبيات والعرقيات.

حتى إذا شبَّ وآذنت شمس الطفولة وبراءتها بالرحيل، وغادر الطفل بيضة أرض الحرم إلى فضاء الجزيرة وبلاد العرب، ثم طوَّف في أنحاء الأرض شرقاً وغرباً؛ حيث وجد الناس عناصرَ وعرقياتٍ وقبلياتٍ وشعوبياتٍ وقومياتٍ وعصبياتٍ وألسنةً وألواناً وحدوداً وقيوداً وغربةً وتوجساً وكراهيةً، حينها بدأ ذلك الصبي يدرك عمق مأساة الأمة الإسلامية، ويدرك معنى مأساتها، وأسباب هذه المأساة، ومدى بعد أبناء الأمة وشعوبها عن رسالة الإسلام، ورابطة الإسلام، ومفاهيم الإسلام، وقيم الإسلام، وثقافة الإسلام، وروح الإسلام..

لقد جاء الإسلام برسالة وحدة الإنسان وعالميته؛ التي جعلت منه كُلاً واحداً متكاملاً؛ ينطلق من إيجابية جوهره: روحاً وقيماً وعدلاً وتكافلاً وتراحماً تجسد في شريعة الرسالة، وفي مجتمع الرسالة، فكان مجتمعَ التوحيد والإخاء والعدل والرحمة، وكان مجتمعاً مُنَزَّهاً عن (نتن جاهلية) عصبيات العرقية والقبلية والشعوبية؛ حيث إخاء الإنسان ومواطنته وجوهره، فذلك

هو الأساس، وهو القاعدة التي يستقر عليها الإنسان روحاً وجوهراً، لافرق بين إنسان وآخر إلا بالتقوى، وتحملِ المسؤولية، وأداءِ الأمانة.

إن رسالةَ الإسلام، وقيمَ الإسلام، وثقافةَ الإسلام، هي رسالة التوحيد والإخاء والعدل والتراحم، تتلاحم وتتداخل فيها دوائر الانتماء البشري من النفس الواحدة، إلى الرحم والأهل والدين والإنسانية، بروح العدل والبر، وتشمل الإنسان كل الإنسان، ولا غرابة في أن أبناء رسالة الإسلام وجيل الرسالة قد اتصفوا بأسمى صفات المحبة والإيثار ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٥٩/٩].

العرقية العنصرية تلوث عقدي ثقافي اجتماعي خطير

من المهم أن نفرق بين العصبيات والعنصريات الجاهلية، وبين صلة الرحم الإسلامية؛ فالعصبيات والعنصريات الجاهلية هي صفات حيوانية، وفرقةٌ وظلمٌ، وهي غير صلة الرحم الإسلامية التي هي رحمة وتواصل وعطاءٌ، يأخذ فيها القوي بيد الضعيف، والكبير بيد الصغير.

وصلة الرحم الإسلامية هي بذل وعطاء لا يشوبها ظلمٌ ولا فسادٌ، فهي صلة وعطاءٌ من المسلم لإخوانه الأقربين؛ يبذل لهم من نفسه وماله، ويرعاهم. وهي غير العرقية والعصبية التي ينحاز فيها الفرد إلى الآخر ليجورَ على حقوق الآخرين، ويمكّنَ لبني الجلدة والدم على حساب الآخرين لا لحقٍّ ولا لكفاءةٍ، ولكن لنسبٍ ورابطة عنصرية، يمنحهم ما ليس لهم ويهبهم ما ليس من حقهم؛ مما يشيع الفرقة والتظالم والبغضاء، ويقضي على الوحدة والإخاء وكفاءة الأداء، ولا بدَّ من أن ينتهي ويمكّن لكلِّ الضعف والصراع والفساد والتبديد والاستبداد.

ولهذا فإن الإسلام بقدر ما ينهى عن العصبية والعرقية، وبقدر ما يؤكد على معاني العدل والإخاء الإنساني ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا

قُرۡبَىٰٓۖ﴾ فإنه يوصي بصلة الرحم، ويدعو إلى البرِّ بذوي القربى؛ توثيقاً للروابط الإنسانية، وإشاعةً لروح المحبة والتكافل والترابط في المجتمع، بل إن الإسلام يتوسع في هذه الروابط ليخلق إخاء الرضاع، ويتوسع في حقِّ قربى الجار، ولكن كل هذه الروابط هي روابط إخاء وتراحمٍ لا يشوبها ظلمٌ ولا جورٌ ولا عدوانٌ على حقٍّ ولا إنكارٌ لكفاءةٍ، ولذلك مثلت ردة القبلية والشعوبية والعرقية العنصرية - مع انهيار الخلافة الراشدة وغلبة الأعراب والقبائل على جيش الفتح - تلوثاً ثقافياً اجتماعياً خطيراً مكَّن لروح الجاهلية، ونشر نتن القبلية والعرقية بين أبناء الأمة الإسلامية، ومزَّق نسيجها الاجتماعي والسياسي، وجعلها لقمةً سائغة للطامعين فيها والمستبدين بمقدراتها.

إن العرقية العنصرية من أخطر ما ألمَّ بالأمة من صور الانحراف العقدي الفكري والتلوث الثقافي الذي مزَّق الأمة على مختلف المستويات حتى أصبحت دماءُ البشر ألواناً وطبقاتٍ ودرجاتٍ، وأصبحت على مستوى الجماعات قومياتٍ وشعوباً وقبائلَ، وصارت على مستوى الأفراد دماءً وأنساباً، وقد أوجد هذا المناخ أسباباً للتعالي والاستعلاء والتسلط والتظالم؛ فتردّت الأمة في منحدراتٍ من الصراع والأحقاد والتمزق والتخلف.

ليس عبثاً أن أحد أركان الإسلام -الحج- هو في جوهره رمزٌ لوحدة الإنسان وإخائه؛ ويبدو ذلك جلياً حينما يتجرد المسلمون من كلِّ ما يمايز ويفرق بينهم؛ ليقفوا في يوم عرفة حاسري الرؤوس، في قطعتي قماش أبيض، لافرق بين كبير وصغير، ولا غني وفقير، وبأي لغة نطق، وبأي لون ولد، كلهم إخوة، وكلهم لآدم، وكل واحدٍ منهم هو إنسانٌ أولاً وآخراً.

ولكون عصبيات العرقية من مظاهر التلوث الثقافي فهي أيضاً مظهرٌ من مظاهر الفراغ الروحي والاستكبار الشيطاني، وهي النقيض الرئيس للوحدة والتكامل والتكافل والتراحم الإنساني، وعلى مختلف مستوياته، وهي نقيض معاني الإيمان والتقوى ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣].

إذا شئنا أن نستعيد روح الإسلام، ووحدة الأمة، وسمو الرسالة، لابدَّ لنا من العمل من أجل تنقية ثقافة أبناء الأمة وعقائدهم وقيمهم من "نتن" العرقية وتظالمها وتلوثها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/١١]، ولابد من إعادة قراءة واقعنا المعاش - بناءً على مفاهيم عهد الرسالة، وممارسات عهد الرسالة - وتخليصه مما هو فيه من سوء الفهم والتأويل، ومن أحابيل أصحاب الأغراض، ومغالطات أصحاب الأمراض.

إن العرقية هي التجسيد القبيح لتشويه الرؤية الإسلامية وقيمها في شريعة النور الروحانية، حيث الوحدة والإخاء والتعاون والتكافل، وحيث للحقِّ - في مواجهة شريعة ظلمة الغاب الحيوانية بما تشتمل عليه من التمايز والتناقض والقسوة والافتراس - قوةٌ طاهرةٌ صلبةٌ مقاومةٌ لقوة الأنياب والمخالب والعضلات.

عالم الحقّ والنور وعالم الغاب والظلام

ليست القوة مجالاً للتمايز بين عالم الحق والنور وعالم الغاب والجور والظلام، ولكن التمايز بينهما يكون في موضع استخدام القوة لديهما، أهيَ للحق أم للباطل؟ وللخير أم للشر؟ وللعدل أم للظلم؟ وللتراحم أم للتظالم؟ وللإخاء أم للتمايز؟ ولتعبيد الخلق للخالق أم لاستعباد الخلق للمخلوقين وإذلالهم.

إن وحدة الإنسان، ومجتمع الإنسان، وإخاء الإنسان، وتراحم الإنسان، في عصر عالمية المجتمع الإنساني، وما سخَّره الله للإنسان من السنن والطاقات، هي جوهر رسالة الإسلام الخاتمة إلى العالمين، فبها يكون الإخاء والتكامل والتكافل والحق والنور، وبغيرها يكون الظلم والجور والصراع والدمار.

وإذا كان لكل شجرة ثمرٌ، فثمرُ شجرةِ التوحيدِ الإخاءُ والعدلُ والتكافلُ،

وإذا كان لكل شيء ضدٌّ ونقيض؛ فضد التوحيد ونقيضه التمايزُ العرقي والاستعلاءُ العنصري.

لاخير، ولاعدل، ولاسلام، في أرض الإسلام خاصةً، وفي أرض الإنسان عامة، إلا بالإخاء والتراحم الإنساني، لهذا ضَعُفَ الإخاءُ والتراحم، إن لم يكد أن ينعدم في عالمٍ تلوثتْ مجتمعاتُه وحضارته ونشأتْ أجيالُه على "نتن" تمايز العنصرية والعرقية وعصبياتها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠] ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٢] ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٠] ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٣] وصدق رسول الله ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[(١)].

إذا شئنا أن نستعيد - حقاً - حسَّ الأمة ومفهومَها، وإذا شئنا أن نستعيد مشاعر الوحدة والنصرة والتآزر والتكافل، وإذا شئنا أن نقضي على أسباب الفرقة والتمزق والتصارع، وإذا شئنا أن يكون الإيمانُ والتوحيدُ والعدلُ والتعاونُ والتناصرُ - حقاً - دينَنا، وأساسَ بنائنا، ومنبعَ وجداننا، وإذا شئنا القدرة والعزة والمنعة، فهي كلها تبدأ بوجدان الإخاء الإسلامي، تبدأ بتنقية الثقافة والتربية من سموم التمايز والعنصرية والعرقية وتظالماتها واستكبارها؛ لتعودَ الأمةُ وحدةً قويةً متماسكةً ضمن جملة من الدوائر المتداخلة المشتملة على معاني التواصل والتراحم والتكافل والتعاون والتناصر "ظالماً" أو "مظلوماً"[(٢)] بدءاً من الفرد والأسرة، ومروراً بالأهل والأقرباء والشعوب والأقوام، ووصولاً إلى الأمة والإنسانية، في البر والتراحم والإخاء، لا بالتظالم والقهر والاستكبار.

---

(١) رواه أبو داوود في السنن: ٤٤٥٦

(٢) روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». قالوا يارسول الله هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تأخذ فوق يديه» (صحيح البخاري: ٢٢٦٤).

إن روح التواصل والتكافل والتناصر على الحقِّ من شيم الشجعان الأبرار الكرام الأحرار، وهي تنبثق من منابع الوجدان الذي ينمو في تربة الطفولة الطاهرة الغضة الخصبة؛ فتنبثقَ عوداً وجذعاً صلباً قادراً على عطاء يانع غير مقطوع الثمر.

يجب أن تكون رؤية التوحيد ومشاعر الإخاء والتراحم والتناصر شائعة بين أبناء الأمة الإسلامية، دون جحود ولا قطيعة رحم، وأن يكون القضاء التام على جرائيم العرقيات والعنصريات والعصبيات الجاهلية على رأس قائمة أعمال المفكرين، واهتمام الآباء والمربين، وذلك لما تؤدي إليه من فسادٍ واستبدادٍ، وتظالمٍ وضعفٍ، وصراعٍ وتمزقٍ، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [يونس: ١٠/١٠٨].

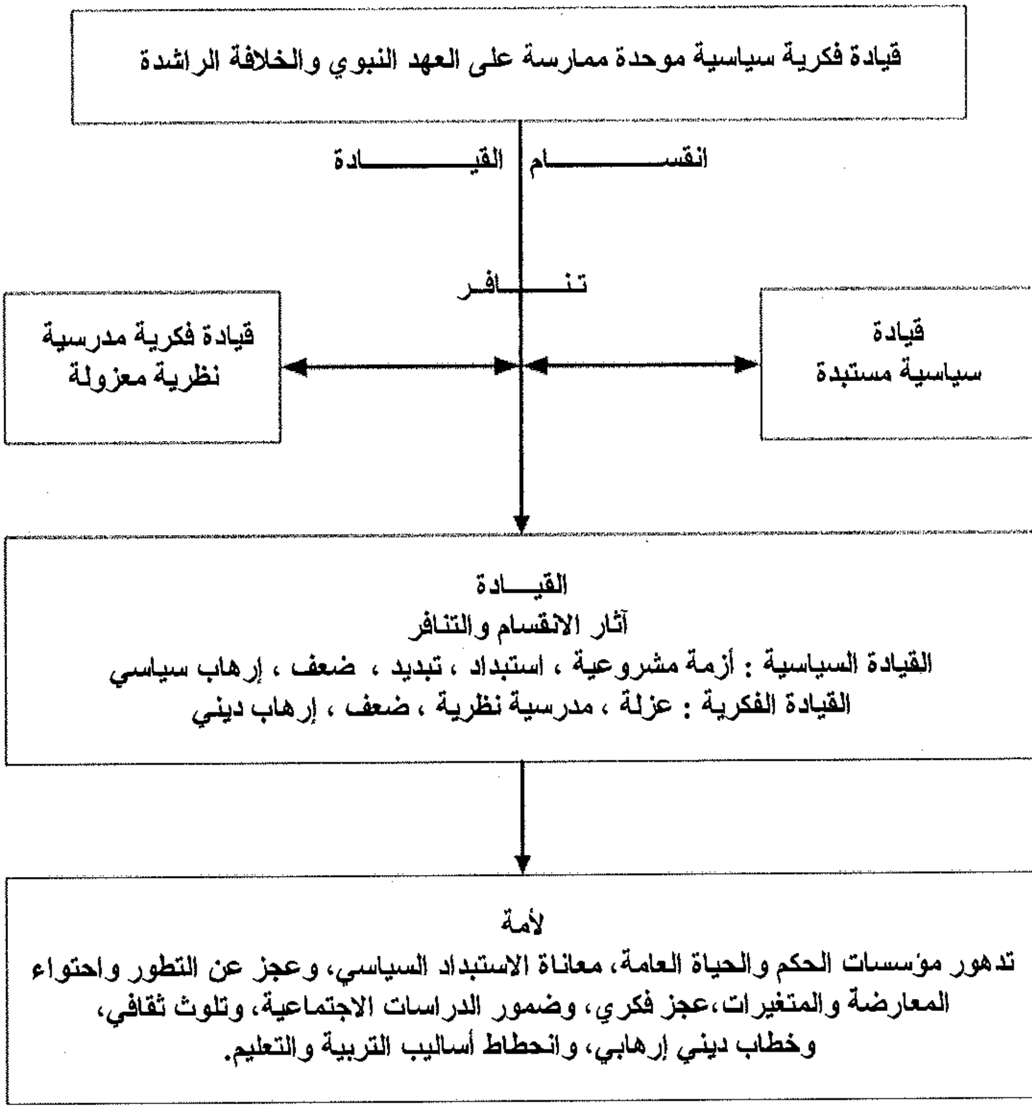

آثار انقسام القيادة
على الأمة ومؤسساتها
إلى سياسي قبلي، وديني مدرسي نظري

الشكل (٦)

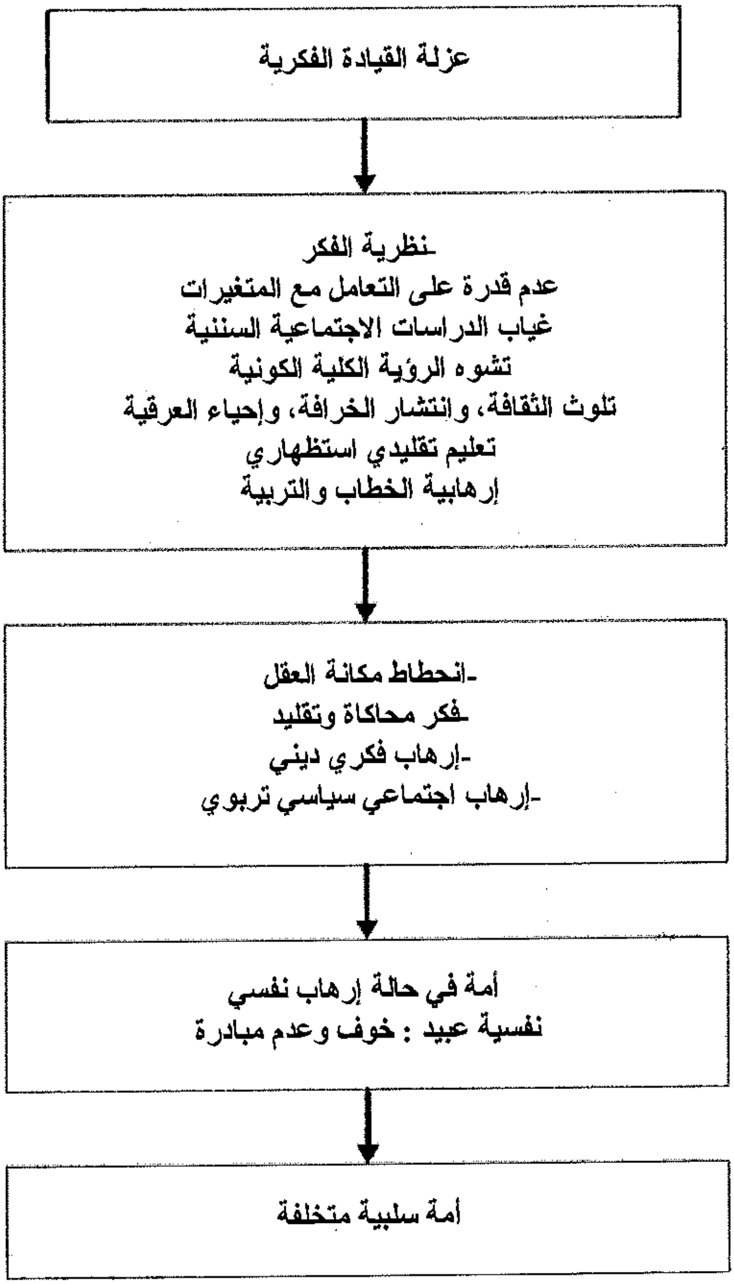

آثار العزلة والعجز الفكري

الشكل (٧)

آثار الانحرافات الفكرية في بناء الأمة النفسي

لم تتوقف آثار الصراع بين الصفوة الفكرية والصفوة السياسية، وما أدت إليه من عزلة الصفوة الفكريّة، على مجرد ابتعادهم عن الممارسة العملية، والغرقِ في جوانب شكلية ونظرية لشؤون سياسة المجتمع وتنظيمه الاجتماعي، ولا على مجرد قصر اهتمامهم على الشؤون الفردية لأبناء الأمة؛ بل إن الأمر قد تعدى ذلك إلى تغيرات جوهرية في فكر الصفوة الفكرية، وفي طبيعة رؤيتها للمجتمع، وإلى صبغ العلاقة بين الصفوة السياسية والصفوة الفكرية بصبغة العداء، وتعارض الأدوار، وتنازع النفوذ لدى عامة الأمة، فلم تعد علاقة أدوار ولا قضية أولويات وتكامل؛ بل أصبحت القضية في جوهرها قضية علاقة ذات صبغة سياسية، وقد جعل ذلك - بالضرورة - للخطاب الفكري والديني بُعْداً سياسياً صراعياً مستمراً، يوزع ولاءات الأمة وضميرها، ويفقدها الثقة - لأسباب مختلفة - في قياداتها السياسية وأنظمتها الاجتماعية التي بنيت على العرقية وعلى الحيف والاستبداد.

وكان أهم تلك الثمار المرة على الفكر الإسلامي وعلى اهتمام العلماء، هو غيبة البعد التربوي الصحيح وأدواته الثقافية والمنهجية النظرية والعملية، وتخلف مؤسساته التربوية التعليمية؛ مما أدى إلى ممارسات معرفية وتربوية كان لها نصيب كبير في تحطيم القواعد والأسس النفسية التي يقوم عليها البناء الاجتماعي والعمراني والحضاري للأمة.

لقد كان خطاب الإرهاب وسياسة الإرهاب هما الثمرة الملعونة للعجز الذي أصاب الصفوات المسلمة الفكرية والسياسية، لأن العنف - الذي يمثله ذلك الخطاب - هو وسيلة العاجز للتحكم في مواقف لا يدرك المعنيُّ بأمرها قوانينَ حركتها ولا مفاتيحَ دوران عجلاتها، وأصبح عامة أبناء الأمة - وهم حطبُ الصراع السياسي- بين الصفوة الفكرية والصفوة السياسية؛ التي كان

همها الحفاظ على مواقع الفرقاء وكسب ولاءاتهم والسيطرة على جموعهم.

لقد كان أساس الإشكال الذي انحرف بمسيرة مجتمع الرسالة هو ضعف العامل التربوي الإسلامي في تكوين الأعْراب الذين تم تجنيدهم في جيش الفتح، وكان ضعفُ الإعداد والتربية والتوجيه هو - في نهاية المطاف- أداةَ السوء التي أثارت الفتن وأسقطت دولة الخلافة الراشدة، ومكنت للفكر العرقي القبلي من إقامة الملك العضوض بكل ما حمله الفكر القبلي - والشعوبي لاحقاً - من تأثيرات عقدية وتغييرات سياسية واجتماعية واقتصادية، وعلى سبيل المثال فإن كافة وثائق منح الأرض على عهد دولة الرسالة؛ التي كانت مِنَحُها وإقطاعاتُها مِنَحاً واقطاعاتٍ أُعطيَتْ لاستعمال الممنوح فقط لا للتملك فقد احترقت في العهد الأموي؛ لتحولَ إلى ملكية مطلقة للأفراد والزعامات والأسر(١) وهو أمر يدل على مدى عمق التحولات والانحرافات واتساع مداها وبعدها عن سياسات العهد النبوي الراشد، وقد وضح القرآن الكريم ما كان عليه جل الأعراب من بدائية حضارية وضعف في التكوين العقدي والتربوي، مما استوجب العمل على إعادة تربيتهم وتكوينهم النفسي والاجتماعي والحضاري، ولذلك لم تقبل بدائيتهم الوثنية الاجتماعية الحضارية التي لا تليق بمجتمع الإنسان، وكان عليهم الدخول في مجتمع نظام الإسلام: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٤] ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩/ ٩٧] ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟

(١) انظر: Habibul, Sayed "A Historical Survey of Land Tenure and Land Revenue Administration in Some Muslims Countries, with Special Reference to Persia, in the Contemporary Aspects of Economic and Social Thinking in Islam. the Muslim Students Association of USA and Canada, Planfield, ind., USA. 1970

لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا
يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾
اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ
الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا
أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ٩/٧-
١٣] ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ
﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال: ٨/٥٦]. ولذلك بدأ الإسلام بتعهدهم بالتربية والتعليم، وعمل على إرسال البعثات التعليمية إلى ربوعهم ومنازلهم، إلا أن تلك الجهود والسياسات عرقلتها جسامة التحديات العسكرية الفارسية والرومانية التي كانت تطبقُ على دولة الإسلام شرقاً وغرباً، وتضطهدُ المسلمين، وتمنعُ الناس من حقهم في قبول رسالة الإسلام، وتناوشُ أطرافَ الدولة وتتربصُّ بهم، وتُعِدُّ العدةَ لتدمير الدولة والمجتمع وإعادة العرب إلى جاهليتهم والخضوع لسلطانهم.

وهكذا أدى الصراع السياسي، الخارجي والداخلي، إلى إهمالِ دُوَلِ الإسلام للجانب التربوي، وإهمالِ البعد المعرفي الإنساني الاجتماعي، في دراسة الطبائع والوقائع والمتغيرات في الزمان والمكان، وبالتالي عدم إدراك أهمية الطفل وتربيته كأساس للتغيير وتصحيح المسار؛ ذلك لأنّ الطفولة هي الأساس في تكوين عقلية الفرد وبنائه النفسي، وكان يجب النظر إلى العناية بالطفولة على أنها الوسيلة المهمة لاستدراك ما ألمَّ - على مدى القرون - برؤية المسلم الكونية من تشوه أفقدها الإيجابية وروح التضامن والبذل الجماعي، وأدى بها إلى السلبية، واللامبالاة، وإلى فقدِ الشجاعة الأدبية،

وفقدِ الرغبة في استخدامِ العقل، وطلبِ السنن، وتجديدِ طاقة الأمة ومؤسساتها، والارتقاءِ بإمكاناتها.

وهكذا لم تتح الفرصة أمام العقل المسلم الذي كان يعاني من الاستبداد والإرهاب والانغماس في الجوانب الجزئية والنظرية، لكي يواجه تفاقم تشوهات شخصية الإنسان المسلم وانحراف ممارساته الاجتماعية، فيوجه العناية العلمية اللازمة لتنمية علوم السنن الاجتماعية، وفهم الطفولة والعناية بالطفل وعلوم تربيته ونوعية ثقافته، ودراسة نفسيته ووسائل تنمية شخصيته وعقليته وقدراته، وجعلها قضيةً مركزيةً علميةً يبذل فيها جهد البحث والدراسة والملاحظة؛ لمعرفة طبائعها وسننها ومفاتيح أسرارها وكوامن طاقاتها، والأساليب والإمكانات والأهداف المناسبة المتطورة لمواكبة حاجاتها وتحدياتها. هذا القصور وهذا الإهمال يُعَدُّ من أهم الأسباب الحقيقة التي تفسر تخلف الأمة واستعصائها على الإصلاح والنهوض حتى اليوم، وهو ما يفسر في الوقت نفسه نجاح جهود النهضة الأوربية الحديثة التي جعلت - في ضوء رؤيتها الكونية العلمانية الليبرالية الجديدة، ومناهج معرفتها الحسية والعقلية - من القضيةِ التربويةِ المبنيةِ على أسسٍ علميةٍ تجريبيةٍ أساسَ نهضتها، وحجرَ الزاوية في تطوير طاقاتها.

❋ ❋ ❋

الفصل الثالث

الطفلُ: قاعدةُ الانطلاق

في تتبعنا فيما سبق لوجوه النقص والقصور في مسيرة الأمة الإسلامية وما اعتورها من الانحرافات والتشوهات، علينا ألا ننسى أنّ عطاء الإسلام للإنسانية وتفاعله معها قد استمر، على مرِّ العصور، وعلى الرغم من كلِّ الظروف. وأن القاعدة الإسلامية البشرية العريضة ظل يسري في أوصالها على الدوام - بمقدارٍ من التفاوت بين فترة وأخرى، وقطر وآخر، حسبَ حالِ كلِّ قطر وجيلٍ - كثيرٌ من روح الإسلام وعقائده وقيمه ومبادئه الأساسية، هذه البقية من روح الإسلام هي التي تفسر ما بقي في كيان الأمة وهويتها، من قوةٍ وطاقةٍ وقيمٍ وغاياتٍ ساميةٍ، إذا ما قورنت - لقرون عديدة - بالأمم الجاهلية والوثنية من حولها، مما جعل الأمة الإسلامية - برغم كل التشوهات والانحرافات التي أصابت عقليتها ونفسيتها وأنظمتها - هي الأمة الأسمى والحضارة الأعلى، والقوة الأعظم لأمد طويل وقرون عدة، قدم خلالها علماء الأمة ومفكروها وفلاسفتُها وصُنَّاعها، ألواناً وآفاقاً جديدة للتقدم والرقي والإبداع العلمي والحضاري، ما تزال الإنسانية مدينةً له فيما حققت من منهج علمي تجريبي وإنجاز حضاري كبير. وما كان للحضارة الإنسانية أن تتابع مسيرتها التي حققتها اليوم، وأن تصل إلى ما وصلت إليه دون ذلك التراث العلمي الحضاري العريق، وأن ذلك كله يجب ألا يصرف نظرنا النقدي هنا عن تلمس الأسباب التي أضعفت روح الدفع الإسلامي،

وسمحت بتخلف الأمة وانحطاط أدائها، في الوقت الذي انطلقت فيه الأمم الأخرى متقدمة ومتحدية أمة الإسلام، ومتحكمة في مقاديرها على الحال المؤسف الذي نراه ونشاهده اليوم.

ولقد أدرك علماء الأمة ومفكروها وقادتها أنّ الأمة قد أصاب بناءها وأداءها خللٌ خطيرٌ، قد أضّر بحالها، وبلغ بها مبلغاً من البؤس والتخلف والتمزق جعلها في حاجة إلى تكاتف الجهود لإصلاح حالها، وإقالتها من عثرتها، لكن المؤسف أنّ هذه الجهود وإن خففت من سرعة التدهور إلا أنها لم تمنع تعاظم الداء؛ حتى تأخرت الأمة، وانهارت قواها؛ ليتقدمَ سواها، وينهضَ، ويمسكَ دونها بدفة العز والمنعة والقوة.

حركات الإصلاح الإسلامي والحاجة إلى التقييم

وإذا أمعنا النظر في تاريخ الأمة، سنجد أن محاولات الإصلاح قد تعددت، وتصدى لها العديد من العلماء والمفكرين والقادة والسلاطين، على مدى القرون، على أسس وغايات: دينية، وسياسية، ومدنية، ومن أهمها محاولةُ أبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م) الذي صرف همه إلى تصحيح مسار الفكر الإسلامي، وتخليصه من تهويمات الفكر الفلسفي الإغريقي الميتافيزيقي: الذي ضلّلَ الفكرَ الإسلامي، واستنزف طاقته فيما لا جدوى منه في رؤية الإسلام، وأدى إلى تشتيت جهود العقل المسلم الحياتية البناءة، وصرفها عن التركيز على إعمال العقل والجوارح في شؤون الشهادة بالإعمار الصالح الاستخلافي لهذه الدنيا، وفيما كُشف "تهافت الفلاسفة" ذلك البعد، جاء (إحياء علوم الدين) للعمل من أجل استعادة الأمة طاقتها الروحية؛ باستعادة العلاقة الإيجابية والتمازج بين المعرفي الشرعي والوجداني الإسلامي، وبتخليص العقل المعرفي الشرعي من تشوهات الفلسفة الميتافيزيقية الإغريقة وتحريفاتها، والتزام الشرعي الإسلامي ممتزجاً - وَفْقَ رؤيته - بالزهد الإسلامي، منزَّهاً من انحرافات التصوف الفلسفي الحلولي

الذي ورثه المسلمون من الفلسفة الميتافيزيقية اليونانية. وللأسف فإن تلك المحاولة لم تنجح لأنها لم تكن إصلاحاً منهجياً جذرياً لمنطلقات المعرفة الإسلامية، وبقيت جهوده الإصلاحية الرائدة في دائرة التأملات الفكرية النظرية التي لم تحقق متطلبات التغيير الجذري الفكري الاجتماعي الإسلامي.

وبعد الغزالي جاء مفكرون ومصلحون كثيرون؛ منهم شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية (ت٧٢٨ هـ / ١٣٢٨م)، والإمام علي بن أحمد بن حزم، والعلامة عبد الرحمن بن خلدون (ت ١٤٠٦م)، ومن هذه الجهود الإصلاحية، تلك الإصلاحات السياسية والإدارية والعسكرية، التي قام بها أمراء آل زنكي وصلاح الدين الأيوبي، والتي مكنت من تجديد قدر كبير من طاقة الأمة الروحية والمادية؛ مما مكنهم من هزيمة جيوش الصليبيين الغازية، وتحرير الأرض، واستعادة المقدسات، وبدخول القبائل التركية البدوية ذات القوة والشكيمة في الإسلام تجددت دماء الأمة، تلا ذلك قيام دولة بني عثمان وتنظيماتها الإدارية والعسكرية التي رفعت راية الإسلام في شرق أوربة، وإن رزحت بلاد العرب وما جاورها من بلاد المسلمين في ركودها وسباتها، واستمرت دولة الإسلام في أسبانية في تمزقها وتناحر قبائلها وأعراقها وأمرائها وملوك طوائفها، حتى دمرها الأسبان، ثم غرق العالم الإسلامي منذ القرن الثامن عشر الميلادي في التخلف والعجز والانحطاط، وتراجع أمام قوة الأوربيين المتنامية، ثم أخذت كوامن المقاومة والتطلع إلى الإصلاح والتغيير تتحرك في الأمة الإسلامية، ومن ذلك محاولة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥-١٢٠٦هـ / ١٧٠٣-١٧٩٢م) إحياء فكر ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ / ١٢٦٣-١٣٢٨م)، وحركة محمد بن علي السنوسي في ليبيا (١٧٨٧-١٨٥٩م)، وحركة الإمام محمد المهدي في السودان (١٨٤٣-١٨٨٥م)، وحركة عبد الحميد بن باديس الجزائري (١٨٨٩-١٩٤٠م) الإسلامية الإصلاحية التي أسست لجهاد الجزائر واستقلالها الذي تحقق عام

١٩٦٢م، ومنها إصلاحات سلاطين آل عثمان المدنية والعسكرية بدءاً بالسلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م) وانتهاءً بالسلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨م)، والإصلاحات المدنية التي أدخلها والي مصر محمد علي باشا (١٧٦٩-١٨٤٩م) على النمط الأوروبي في الجوانب الاقتصادية والزراعية والصناعية والتعليمية والعسكرية، وحركة جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧م) الإصلاحية الفكرية السياسية، ومدرسة الشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥م) في الإصلاح الديني والثقافي، وإجراءات الجنرال كمال باشا أتاتورك (١٨٨١-١٩٣٨م) العلمانية في تحديث تركية على النمط الأوروبي والتخلص من الشريعة الإسلامية؛ التي ألغى بها إعمال الشريعة وألغى الخلافة العثمانية، وأعلن قيام الجمهورية التركية عام (١٩٢٣م)، وأقام القانون السويسري مقام الشريعة الإسلامية. وحركة الإمام حسن البنا (ت ١٩٤٩م) الإسلامية السياسية الاجتماعية الإصلاحية التي انتشرت في مصر والبلاد العربية، وحركة الشيخ أبي الأعلى المودودي (ت ١٩٧٩م) الإسلامية السياسية الاجتماعية الإصلاحية في شبه القارة الهندية، إلى جانب سلسلة طويلة من المفكرين والإصلاحيين منهم: شاه ولي الله الدهلوي (ت ١٧٦٣م)، والعلامة محمد إقبال (ت ١٩٣٨م)، وخير الدين التونسي (ت ١٨٩٠م)، وعبد الرحمن الكواكبي (ت ١٩٠٢م)، ورشيد رضا (ت ١٩٣٥م) وسيد قطب (ت ١٩٦٦م)، ومالك بن نبي (١٩٠٥-١٩٧٣) وكثير سواهم.

وعلى الرغم من أن جل هذه الجهود والحركات الإصلاحية والتغييرية التي تنوعت وغطت كل الاتجاهات الإسلامية والمدنية في الجوانب العقدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت صحيحةَ المنطلقات، وسليمةَ الغايات، إلا أنّ من الواضح أن هؤلاء المصلحين والقادة والمفكرين - برغم كل البذل والعطاء وما حققوه من إصلاحات نفع -جلُّها- الأمة، إلا أنه من الواضح أنهم لم يضعوا أيديهم على أسّ الداء ومنبع البلاء، ولم يتمكنوا من

تحقيق مقاصدهم في أن يحركوا بشكل فعّال كوامن طاقة الأمة، وأن يصلحوا بناءها الفكري أو النفسي، وأن يسدوا ما بينها وبين الأمم المتقدمة من فجوة الأداء والقدرة والحضارة(١).

أمام هذه الحال التي كانت عليها الأمة، فليس للباحث والمفكر بدٌّ من أن يستمر في البحث والتنقيب، حتى يهتدي إلى سبب العلة أو أسبابها الهامة الكبرى المؤثرة، ويأخذ بأسباب علاجها، حتى يصح جسد الأمة ويتميز أداؤها، وتتصدى بنجاح لما تواجهه من تحديات، وحتى تستطيع في نهاية المطاف أن تقدم للإنسانية عطاءها، وتسترد عافيتها وحقوقها وكرامتها، وتسهم في بناء حضارتها.

الطفلُ الجنديُّ المجهول

وما نراه في هذا البحث هو أنه لم يبق الكثير مما لم يتطرق إليه الفكر الإصلاحي والحركات الإصلاحية الإسلامية بشكل جاد حتى الآن، إلا أن أهم الأبعاد والأسباب التي يجب الالتفات إليها هو قضية الطفل بصفتها وسيلة أساسية لإحداث الإصلاح والتغيير المطلوب؛ وذلك لما للطفل من قدرة على تلبس الأحوال التي توفر شروط الإصلاح والتغيير الذي تنادي به وتهدف إليه حركاتُ الإصلاح، وتؤدي إلى إعادة تأهيل الفرد المسلم، والمجتمع المسلم، وتمكنه مجدداً من امتلاك القدرة على مواجهة التحديات.

لو أنّ الفكر المسلم انصرف إلى الطفل وتربيته وبنائه النفسي والمعرفي ليكون أساساً لإحداث التغييرات الهامة وامتلاك الطاقات النفسية والقدرات المعرفية، ولو أن الفكر المسلم أمعن النظر في عمليات التغيير والنمو والتطور الملموس جسدياً ونفسياً لدى الطفل؛ لانصرف هذا الفكر إلى إدراك بُعْدِ

---

(١) لإدراك أبعاد هذه القضية الفكرية انظر كتاب:

أبوسليمان، عبد الحميد أحمد. أزمة العقل المسلم. الرياض: المعهد العالمي للفكر الإسلامي و الدار العالمية للكتاب الإسلامي. ١٩٩٤.

التغيير في النفس الإنسانية، وفهم أحواله ومتطلباته، ولكان ذلك أفضل مدخل ودافع إلى إحداث الإصلاح المنهجي للمعرفة الإسلامية، وتنقية الثقافة الإسلامية، وبناء العلوم الإنسانية الاجتماعية والتربوية؛ بهدف الحصول على القدرة العلمية التربوية، وتحقيق التغيير الاجتماعي، وإعادة بناء الشخصية المسلمة بأبعادها الفردية والجماعية؛ بما يمكنها من الحصول على القدرات النفسية والوجدانية والمعرفية اللازمة لإتقان الأداء ومواجهة التحديات.

ثقافة العامة وثقافة الخاصة: مرضٌ ما يزال ينخر البناء

ومن الملاحظ أن النزر اليسير الذي أولته الأمة للطفل وللتربية والتعليم في سالف عصورها كان ذا شقين متباينين:

الشق الأول: هو الشق الموجه لأبناء الخاصة، الذي جاء في شكل النصائح والتوجيهات المقدمة إلى مؤدبي أبناء الخاصة الذين يقومون بتعليمهم في دورهم، وفيها كثير من معاني الرفق والكرامة وحسن المدخل الذي يربى عليه أبناء السادة والصفوة من عِلْيَةِ القوم من السادة والأشراف وأصحاب الجاه والنفوذ والسلطان، وذلك لإعداد هؤلاء الأبناء لمراكز الرياسة والحكم والسيادة في المجتمع، ومن تلك الوصايا وصايا معاوية بن أبي سفيان، وعبدالملك بن مروان، والحجاج الثقفي، وهارون الرشيد، وسواهم كثير من سادة القوم وأهل الرياسة، وقد حفظتها لنا كتب التاريخ والتراث، ويعمل على تعليم هؤلاء الصغار أساتذةٌ يقومون بتربيتهم وتعليمهم علوم الدين والأدب والثقافة والرياسة.

الشق الثاني: وهو الشق الخاص بأبناء العامة، وكان تعليم هؤلاء يتم في (الكتاتيب) حيث يتعلمون فيها شيئاً من القرآن الكريم، وبعض مبادئ الحساب الذي يُعَدُّ أداة ضرورية لإدارة حاجات الفرد اليومية، وكانت حالة (الكتاتيب) وقدرة معلميها، ووسائل التعليم فيها - كما يحدثنا التاريخ - على قدرٍ كبيرٍ من السوء والمهانة، واعتماد الاستظهار واستخدام العقاب الجسدي

في تعليم هؤلاء الصغار. تلك كانت مناهج تعليم من يُدفَع إليها من الصغار من أبناء عامة الأمة، وكان تعليم هؤلاء الصغار في هذه "الكتاتيب" يتم بالنزر اليسير، على نفقة الآباء الذين كان كثير منهم يعيش في حالة من العوز والكفاف والفقر المدقع، ولم يعن بأمر هذه "الكتاتيب" وحالة التعليم المتردية فيها، ويصفها، ويتحدث عنها، ويأسى لأحوالها، إلا قليلٌ من أصحاب الفكر والعلم من أمثال الإمام الغزالي والعلامة ابن خلدون، وقد وجهوا النقد إلى حالها ووسائلها وانحطاط مستوى معلميها، حتى إن بعضهم كان ينصح الآباء بألا يعلم معلمو الكتاتيب أبناءَهم أيَّ شيءٍ من أمور العقيدة، وما ذلك إلا لانحطاط معارف هؤلاء المعلمين وفساد عقائدهم.

وكانت النتيجة سوء حالة تعليم عامة أبناء الأمة وانحطاط ثقافتهم ووسائل تربيتهم، ومن الواضح أن وجود نوعين من الثقافة والتعلم قد ساعد على ذلك.

ويلحق بهذين النوعين من التعليم نوعٌ ثالثٌ لإعداد الموظفين، ويتمُّ في عدد محدود من المدارس والحلقات الدراسية التي تُمَوَّلُ عن طريق الأوقاف ويؤمها قلةٌ من الشباب المنتقى ليكوِّنَ الصفوةَ العلمية الدينية، ويقومَ بأعمال الكتابة والخدمة في الدواوين، وفي أعمال الفتوى والقضاء؛ حيث يتلقون في تلك المدارس الدروس الدينية والأدبية واللغوية، ولاسيما دروس الفقه وأصوله التي كان لها أعظم الرواج بسبب الحاجة إلى أعداد كبيرة من أصحاب الفتوى والقضاء.

هكذا كان حالُ تعليم أبناء الأمة في الماضي - وهو ما يزال إلى حد كبير في الوقت الحاضر وفي جل البلاد الإسلامية إن لم يكن فيها جميعاً - على حالة مماثلة؛ حيث يسوء مستوى التعليم العام، وتنحط إمكاناته وأساليب أدائه، وهو الذي يحتضن أبناء عامة الأمة، أما أبناء الخاصة فإنهم يتعلمون على نفقة آبائهم في المدارس الخاصة والأجنبية، وهي مدارس يتوافر لها الكثير من الإمكانات والوسائل والأساليب التعليمية والتقنية التي لا تتوافر لمدارس

أبناء عامة الأمة، وهي في الوقت نفسه مدارس تسهم في تغريب عقلية طلابها؛ مما يضعفُ صلةَ كثيرٍ منهم بقومهم ودينهم وثقافتهم، ويضعفُ إدراكَهم لحقيقة مشاعر أمتهم وكوامن الطاقة والتحريك فيها، ويحولهم في جُلِّ الحالات إلى زعامات وقيادات فوقية مستبدة فاسدة مترفة تتمكَّن - بوسائل أجهزة القهر ومساندة الأجنبي وإغراءاته، وبما وقر في نفوس أبناء الأمة من التلوثات الثقافية والأمراض الوجدانية - من أن تُحْكِمَ قبضتَها على مقاليد بلادها، وتُخْمِدَ فيها كل قوى الحركة والقدرة والمبادرة والإبداع؛ لتنتهيَ حالُ شعوبها إلى ما نراه من العجز والفقر والجهل والتخلف بظلامه وظلاماته، وبطش الأجنبي الطامعِ بمقدراتها، والساعي إلى تبديد ثرواتها وانتهاك حرماتها ومقدساتها.

ولقصور الثقافة الإسلامية أصبح الطفل هو الحلقة المفرغة؛ التي يدور في رحاها عجزُ الأمة عن تغيير أحوالها وتجديد طاقتها، فإهمالُ شؤون تربية الطفل المسلم، وعجزُ الفكر المسلم في مجالها، وعدمُ إدراك أهمية التنمية التربوية والتعليمية للطفل في البلاد الإسلامية، والتقصيرُ المريع في توفير متطلبات هذه التنمية، هو أمرٌ - ولا شكَّ - من أهم أسباب العجز عن إحداث الإصلاح والتغيير المطلوب في إعادة صياغة العقلية والوجدان لدى الطفل المسلم؛ ليكون على مستوى التحديات، ويستجيب لاحتياجات الأمة، ويتفاعل معها عقلاً ووجداناً.

تنمية الوعي التربوي وإصلاح التعليم أساس الإصلاح

وحتى لا يظل المسلم فرداً مشوه العقلية والوجدان، لا يفيد معه -عندما يصبح بالغاً- خطابُ الإصلاح في تغيير واقع سلوكه، فإنه يجب الالتفات إلى الطفل المسلم وشؤون تربيته، وما يلزمها من إصلاح المنهج، وتنقية الثقافة، وتنمية الوجدان، حتى تتحرك فيه كوامن الطاقة، وتستعيد الأمة روح التضامن والتكافل، وروح العطاء والتضحية والبذل، وتتكون لديها قدرةُ إتقان العطاء.

إنّ من أهم ما نقع فيه من الخطأ أننا نجهد أنفسنا في خطاب البالغين، وفي وعظهم، في الوقت الذي نهمل العناية بنموهم وهم صغار، ولانسعى إلى إحداث التغييرات المطلوبة في بنائهم النفسي والوجداني بما يحقق تطلعات الأمة وهم في سنِّ التربية والتعليم والتأثير، حتى يشب عود الطفل المسلم على غير ما اعوج عليه عود من سبقه من البالغين الذين لن يستطيعوا - وقد اشتد عودهم ويبس - أن يغيروا أصول طباعهم وجبلاتهم، وهكذا يستمر الانحراف والعجز دواليك، عودٌ غضٌّ ندي يهمل؛ فيشب معوجاً، وعودٌ يابسٌ معوجٌّ لا يفيد فيه ولا ينفع معه نداء أو دواء.

إنّ الإدراك العقلي لدى البالغين لا يكفي - بالضرورة - لتحريك وجدانهم، ولا يؤدي إلى انفعالهم وتفاعلهم، فكم من جبان لا يعرف عنه شيءٌ من أوصاف الشجاعة إلا أنه يحفظ من عيون شعر الحماسة ما لا يعلمه كثير من الشجعان، وكم من طبيب يدخن بشراهة وهو يعلم عن أضرار التدخين ما لا يخطر ببال كثير ممن لم تمس لفافة التبغ "السيجارة" شفاههم، ولكم يثير الفزع في النفس ما ترى من متابعة كثير من أبناء المسلمين - مثقفين وعامة - لكثيرٍ من قنوات الأخبار، وكم يلتهمون من الصحف والتحليلات من كل المصادر، ولا ينقصهم إدراك عقلي لوجوه القصور في أمتهم وألوان الحاجة لديهم، ولكنك لا ترى لذلك أثراً في أفعالهم وعطائهم وسلوكهم وتصرفاتهم، وكأن الإنسانَ المسلمَ جهازُ مذياعٍ أو تلفاز لاينقطع عن اللغو والثرثرة، إلا أنه لانصيب له في الفعل والبذلَ والعطاء.

إنّ من أهم الأسباب لهذه الظاهرة المرضية أنّ الأبعاد العامة في بناء الشخصية المسلمة قد أهملت في مراحل التكوين المبكرة، وبُدِّدَتْ فرصُ بنائها، ولن يجدي الحديث عنها إلى البالغين شيئاً، فكل ما يحدثه التذكير والوعظ والإيضاح عند البالغ هو الإدارك العقلي، ولا علاقة لذلك بالانفعال الوجداني ما لم يكن ذلك قد تم غرسه بالفعل في أثناء الطفولة، مثله في ذلك مثل اللغة الأولى واللغة الثانية في تأثيرهما على النفس وانفعالاتها،

فالانفعال والإبداع لا يكون عادةً إلا باللغة الأولى، ولذلك كانت أهميةُ إثراء اللغة الأولى - لكلِّ شعبٍ، بكل جديد، في مجال الثقافة والعلم - أمراً على غاية من الأهمية، وإلا استحال تمكن ملكات الإبداع وإتقان الأداء في نفوس أبناء الأمة، أما اللغة الثانية التي تعتمد في نفس الإنسان على الترجمة فلا يمكنها تحريك المشاعر والانفعالات بسهولة، ففي اللغة الأولى لا ينفصم اللفظ عن موضوعه، ولا يمكن تصور الموضوع دون استدعاء اللفظ، وإحداث التلاحم بين اللفظِ رمزاً والموضوعِ محتوىً هو سر الانفعال والتفاعل في اللغة الأولى. وعليه فإنّ التربية والتصورات والمعاني التي تبذر بالأسلوب الصحيح في مراحل النشأة البشرية الأولى تتمكن في لاحق عمر الإنسان من إحداث الانفعال وتحريك الوجدان الذي لابدَّ للإنسان من أن ينفعل ويتفاعل من خلالها.

الدرس الموسوي والتغيير الاجتماعي

ولعل من المهم هنا أن نذكّر بالعبرة التي تقدمها لنا القصة القرآنية للتجربة الإسلامية الموسوية، في إصلاح شعب بني إسرائيل، الذين استضعفوا واستعبدوا ظلماً وعدواناً في مصر الفرعونية، فأراد الله أن يمن عليهم وأن يصلح ما أفسده الظلم والقهر والاستعباد في نفوسهم، فلما أخرجهم نبي الله موسى عليه السلام إلى صحراء سيناء في الطريق إلى أرض الميعاد طلب إليهم أن يتوجهوا لأخذ الأرض وإقامة الدولة والمجتمع، وليستعيدوا حريتهم ويتحملوا مسؤولياتهم.

ولما كان القوم قد نُشِّئوا نشأة العبيد، وكوَّنوا نفسيةَ العبيد، لم يكن بإمكانهم أن ينهضوا بتبعات البناء وتضحياته ومبادراته، وكان لابد لهم من أن يجيبوه جواب العبيد في الخوف وعدم المبادرة، وذلك حين قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة: ٥/٢١-٢٢]. وعبروا عن السلبية

وعدم المبادرة - وهي الصفة الثانية لنفسية العبيد - بالتنصل من المسؤولية وإلقاء العبء على الآخر، الذي هو هنا سيدنا (موسى) عليه السلام الذي يوازي في لغة شعوبنا اليوم: (الحكومة)، أو الأمم المتحدة أو (المجتمع الدولي). وذلك أن العبد - نتيجة وضعه وتكوين نفسيته - يصبح سلبياً، ليست له مصلحة ولا حق في أخذ المبادرة، وكل ما يقدر عليه هو أن ينصاع للأوامر، فهو (العبد المأمور)، وهكذا كان الشقُّ الثاني وهو جوابُ بني إسرائيل لموسى عليه السلام جوابَ التخاذل والتخلي عن المسؤولية وإلقائها على عاتق (الآخر) وهو هنا سيدنا موسى ورب سيدنا موسى عليه السلام ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٢٤]. ولما كان موسى عليه السلام يعلم أنّ التقريع والنداء والوعظ لن يغير من مباني طباع هؤلاء البالغين (العبيد) شيئاً يذكر، ولن يوفر لهم الطاقة اللازمة والقوة والشجاعة التي يتطلبها البناء والمدافعة، فكان عليه أن يصرف جهده إلى الناشئة لكي يؤهلها، ويغرسَ في أساس بنائها الصفات المطلوبة لبناء الحضارة، وإقامة المجتمع، ومواجهة التحديات.

من المهم أن ندرك أن هناك فرقاً بين توجيه الوجدان والطاقة النفسية، وطبيعة بنيان الوجدان والطاقة النفسية، فالوجدان والطاقة النفسية يمكن توجيههما وإعادة توجيههما بناء على القناعات التي يمكن أن تتغير وأن تتبدل حسب ما يتعرض له المرء من إدراكات وتجارب، فيؤمن الكافر، ويقلع المعتدي، ويهتدي الضال، أما أصل طبيعة الوجدان والبناء النفسي فلا تقبل التغيير؛ حيث إن الشجاع لا يصبح جباناً، والبخيل لا يصبح جواداً، والحر الكريم لا يصبح دنيئاً لئيماً، ومثل ذلك فإن جندي الجيش الجيد وعضو العصابة المجرمة الباطش يتمتع كلٌّ منهما بصفتين أساسيتين مشتركتين من صفات البناء النفسي هما الشجاعة والولاء، لكنهما يختلفان في الوجهة، فجندي الجيش رجل خير يقوم بحماية الأمة والوطن، ورجل العصابة رجل

شر يسخر نفسه للجريمة والأذى، وقد يهتدي رجل العصابة الضال ويرجع عن غيه وعدوانه، وقد يضل رجل الجيش والأمن ويسعى بالشر والفساد، وقد كان الشجاعان الفاروق عمر بن الخطاب وأبو جهل عمرو بن هشام بطلين وقائدين: أحدهما بطل الهداية والإسلام، والثاني بطل الكفر والجاهلية.

ولذلك كان قرار سيدنا موسى عليه السلام بتوجيهٍ إلهيٍّ - لعلم الله بالطبائع، ولعلمه بمجال بناء القوم النفسي - أن يتوجه إلى العمل الجذري لتحقيق الإصلاح وإحداث التغيير على مستوى العقل وعلى مستوى القلب والوجدان، وعدم تعجل الثمر؛ وذلك بالعمل على إعادة تربية القوم، ولذلك توجه جهده إلى الناشئة وبنائها على الأسس السليمة ثقافة وعقلاً ووجداناً؛ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ٧/١٤٥]. كما ألزم سيدنا موسى عليه السلام - بتوجيهٍ إلهيٍّ - جيلَ "العبيد" من بني إسرائيل البقاءَ في صحراء سيناء أربعين عاماً على ما في ذلك من المشقة والعناء؛ حتى يكتمل بناء جيل مؤهل متخلص من آثار تشوهات العقل في الوجدان والنفس والناجمة عن عهد الاستعباد .﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٥/٢٦]، فكانت النتيجة بناء جيل الأحرار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٤٩] ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥١]. وفي هذه التجربة الربانية درس وعظة وعبرة لكل من يدرك الطبائع ويكون على علم ودراية بعلوم النفس والتربية والمجتمع.

لهذا كان غياب الطفل في أن يكون محوراً تربوياً علمياً هاماً في مشروع التغيير الاجتماعي وإصلاح الأمة، وكان الاقتصار على توجيه الخطاب

الوعظي إلى البالغين، تعجلاً لقطف الثمر؛ إنما يعبر عن أزمة الفكر في الأمة، وعن الغفلة عن دور المعرفة والبحث والدرس والقياس والتجريب في علوم الطبائع وتكاملها مع معارف الوحي، لذلك يجب أن ندرك أن هذا الغياب وهذه الغفلة هما من أهم الأسباب التي عَوَّقَتْ حتى اليوم بلوغَ مشروع الخطاب الإسلامي غاياتِهِ الساميةَ على الرغم من تمادي الزمان، وتعدد دعوات الإصلاح والتغيير، وتعدد أساليبها ومنطلقاتها، وعلى الرغم من جسامة الخسارة والتضحيات التي بذلها المصلحون - وما يزالون- في سبيلها.

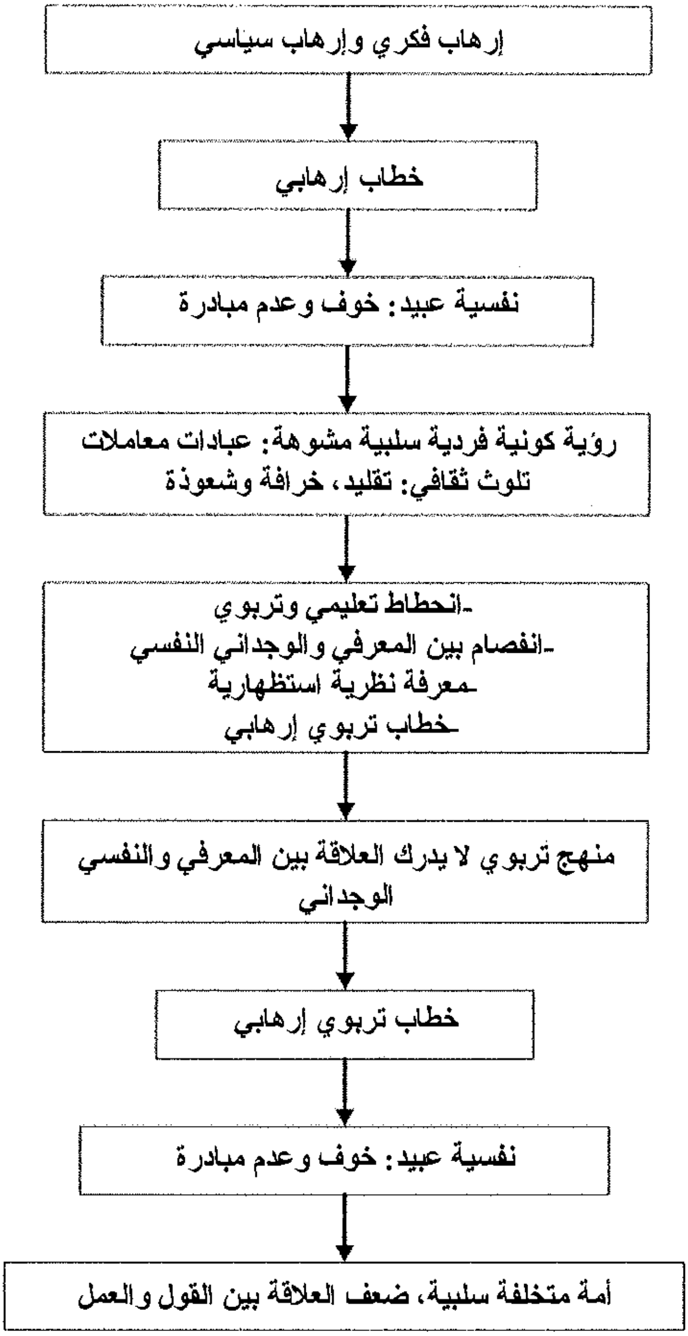

آثار الارهاب على نفسية الأمة وأدائها

شكل ٨

موقع الفكر من مشكلات الأمة الكبرى

لاشك في أن المشكلات والأزمات التي تعاني منها الأمة كثيرةٌ وُعديدةٌ، وكذلك الأسباب التي تنشئها وتغذيها، ولكن هناك -في جل الأحوال- مشكلات كبرى تُعَدُّ الأمهات لكثير من المشكلات الأخرى التي تتفرع عنها وتتأثر بها، كما أن هناك أسباباً كثيرة تسبب هذه المشكلات وتغذيها، ولكن المهمَ في غمرة المشكلات المتراكمة المتراكبة والأسباب المتشابكة التنبهُ إلى الأسباب الأساسية التي لا يمكن التعامل مع تلك المشكلات بفاعلية دون التصدي لها؛ لتكونَ منطلقاً للعلاج والتغلب على باقي الأسباب.

ومن الواضح أنّ العالم الإسلامي واسعُ الأطراف، غنيٌّ بالموارد البشرية والمادية، له جذور تاريخية وحضارية، ممتلئ بالتطلعات، واعدٌ بالقيم والمبادئ، ومع ذلك فإنّه عالم متخلف، وفي حالة مريعة من التمزق، تتوزعه العداءات والصراعات، مما مكّن لقوى كثيرة لا تقاربه حجماً ولا وفرة موارد ولا سمو أهداف وغايات، من أن تتغلب عليه وتقهره، وتسلبه حقوقه، وتتحكم في مقدراته بسبب تمزقه، وفقد روح الإخاء الصادق والتضامن المخلص بين دوله وشعوبه، ولعل بعض الأدبيات الشعبية تصدق في التعبير عن واقع هذا الحال بما قد يغني عن ألف مقال، فمن ذلك ما يروى من أنّ أحد الأعراب سُئل عن أحد الرجال إن كان يحبه، فكان جوابه أن (نعم)؛ "فإنه ليس بجار ولا قريب !! " بحيث أصبح حال الأمة من التمزق والتناحر يجري على تناسب عكسي لما يجب أن تكون عليه علاقاتها وصلاتها وروابطها؛ التي تنمي وشائج التضامن، وتوثق دواعي المحبة، فيما بينها.

وإذا كان الأصل أن يكون "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه" و"من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته"[(١)] وأن "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً"[(٢)] و"مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم

(١) صحيح مسلم: ٤٦٧٧.

(٢) صحيح البخاري: ٤٥٩.

مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[١] فكيف نفسر هذا الحال الرديء المعكوس المنكوس؟ وبأي دينٍ أو عقيدةٍ، أو بأي عقلٍ ومنطقٍ، أو بأية فائدةٍ ومصلحةٍ، يمكننا فهم هذا الحال وتبرير واقعه؟!

والإشكال الثاني الكبير في شأن تخلف الأمة وضعف أدائها، وما ينجم عنه من ضعف وفقر وتخلف وفساد وانحطاط على الرغم من أنّ عالم الأمة يمتد من المحيط إلى المحيط، ويحوي في أحشائه كل الموارد، وعلى أديمه كل أجناس البشر وألوانهم ولغاتهم، وقد كانوا بالأمس أرق الأمم وأغناها وأقدرها، وأصحاب لواء الحضارة .﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٢٤/٥٥] ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/١١٠]. فكيف يحدث ما يحدث، والأرض هي الأرض، والقوم هم سلالة القوم، هم يتخلفون ويتقدم غيرهم، ويضعفون ويقوى عدوهم؟

تعددت الرؤى لفهم هذه الظاهرة، كما تعددت المشاجب التي نسبت إليها هذه الظاهرة، وفشلت - على ما نرى - جميع الحلول التي بنيت على هذه الرؤى والمشاجب، ولذلك لابد لنا من رؤية أشمل وأعمق، حتى نفهم الظاهرة ونحيط بأسبابها العميقة والجوهرية دون أن يختلط ذلك في أذهاننا بأسبابها الثانوية وأعراضها المرضية.

الإسلام مصدر ما بقي في الأمة من خير

وأول سؤال في عالم حضارة الغرب العلمانية - بتراثها الحضاري وتجربتها الخاصة - يتعلق بالدين والدور الذي لعبه تاريخها الحضاري؛ فنرى معه

(١) صحيح مسلم: ٤٦٨٥.

المستشرقين والمستغربين والعلمانيين يتوجهون من منطلقه بالاتهام لدين الإسلام في أنه السبب فيما ألمَّ بالأمة من التمزق وما تعانيه من الصراعات.

والإسلام هو أهم الأسباب التي لا يتوانى العلمانيون جهلاً، وأصحاب الأغراض من المستشرقين كيداً، في الإسراع إلى نسبة كل مشكلة أو نازلة تنزل بأرض المسلمين إليه، مهما كان ذيل الإسلام فيها طاهراً، وإسهاماته فيها إيجابية، وسجله التاريخي فيها حافلاً.

والحقيقة الناصعة في مجال الوحدة والتكافل هي أن كل إسهاماتٍ إيجابية في تاريخ المسلمين تدعم وحدة المسلمين وتدعو إليها، فإنها ترجع إلى الإسلام وقيمه، فهو الذي وحّد أصلاً قبائلهم وشعوبهم، وسوّى وآخى بينهم، وجعل من كل سلبيات العنصرية إيجابيات تدعو إلى التساوي والتآخي والتضامن. فكل البشر من نفس واحدة، وتباينهم شعوباً وقبائل سبب ومدعاة للتعارف والتفاعل والتكامل، واختلاف ألسنة البشر وألوانهم هي من مظاهر عجائب خلق الله وآياته وبديع صنعه في تسوية الإنسان وكمال خلقه، وليس شيء منها أداة أو وسيلة للتعالي والاستكبار والتناحر والعداء، فإنّ أكرم الناس عند الله "أتقاهم" و"أحبهم" إليه "أنفعهم" لخلقه يشمل العدل وفق شريعة الإسلام أقصاهم وأدناهم، ﴿فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٢] ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٥/ ٨] ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٣] ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٥] ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٠].

ولو تقصى المرء موقف الإسلام من وحدة الأمة وحرصه عليها ودوره في مقاومة عوامل التفكك والتمزق والصراع في كيانها، ولسوف يظل صدى القرآن الكريم والسنة النبوية وسجل تاريخ عهد الرسالة في بناء الأمة

وسياساته في العدل والتضامن والتكافل وتأليف القلوب وإرساء أسس السلام الشامل والأمن الجماعي في المجتمع، يثير في نفوس المسلمين بسبب ما هم فيه - على غير هدى الإسلام - من التمزق والصراع، أسى وألماً ولوعةً وندماً وتطلعاً لا ينقطع إلى الوحدة والوئام التي يدعو إليها الإسلام. ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ٤٩/٩-١١].

وهكذا فإنّه لا مجال لإلقاء مسؤولية التمزق والصراع على الإسلام؛ بل إنّ الإسلام ذاته داعية إلى الوحدة والتوحد، وهو عنصر رئيس من عناصر مقاومة التمزق والصراع، إنه دينٌ يأمر بالوحدة والوئام، وينهي عن التمزق والخصام.

فإذا لم يكن الإسلام وقيمه ورؤيته الكونية السبب في التمزق والصراع في صفوف الأمة فهل السبب يكمن في تعدد الأعراق والأجناس واللغات والتقاليد وتباعد البلاد والأطراف؟ وهل ذلك هو السبب في التمزق والتنازع؟ وهل الاستعمار وتآمر الأجنبي ودسائسه وأحابيله وعدوانه أسباب أخرى للتمزق والتباغض والعداء والصراع بين دول العالم الإسلامي وشعوبه؟

الاستعمار مضاعفة ومرض

ونحن - وإن كنا نعلم أن الاستعمار وسياساته وتدابيره وكيده وعدوانه كان وما يزال من الأسباب التي أسهمت وتسهم فيما آل إليه العالم الإسلامي من حال بائس - إلا أننا في الوقت نفسه نعتقد أن الاستعمار ونجاح سياساته الظالمة العدوانية إنما هي أعراض مرضية مكنت لها تربةٌ مريضةٌ بأمراض

أخطر وأعمق تكمن في صلب كيان الأمة، تحطم حصانتها، وتمكن لسياسات الاستعمار منها، وأنه لا يمكن التخلص من سياسات الاستعمار ولا التخلص من قدرته على تمزيق صف الأمة، وإلقاء العداوة بين صفوفها، وإثارة الحروب والصراعات بين دولها وشعوبها، إلا إذا قُضيَ على الأسباب الكامنة في كيان الأمة التي تضعف حصانتها، وتجعلها قابلَة لنفاذ سياسات الاستعمار فيها ومؤامراته عليها.

وحتى ندرك سطحية تلك الأسباب وثانويتها لابد لنا من فهم أشمل وأعمق للظواهر المرضية في حنايا كياننا وتلافيف نفوسنا؛ ولتوضيح هذه القضية فإنّه من المفيد أن نأخذ أمثلة ونماذج إنسانية شبيهة بصفات أمتنا، وما حلّ بها من نكباتِ تسلطِ الاستبداد والاستعمار؛ لنرى كيف واجهتها تلك الأمم، ولنرى آثارها مقارنة بفعلها فينا، وما إذا كانت هذه الأسباب في ذاتها كافية لتفسير ظواهرنا المرضية وآثارها في كياننا، وسوف نختار ثلاثة أمثلة لها مع أحوال الأمة الإسلامية أوجه شبه عديدة، وهي: الصين والهند وأوربة.

مقارنات في قضية الوحدة الإسلامية: الصين، والهند، وأوربة

الصين

ولنبدأ بالصين، لأنّ الصين وتاريخها تكاد تكون في كثير من الصفات توْءَم العالم الإسلامي، كماً وكيفاً، وسعة وتنوعاً، وتاريخاً.

فالصين عالم يضم - كالعالم الإسلامي - أكثر من خمس البشرية، وهو عالم مترامي الأطراف من بلاد الثلج والصقيع في منشوريا إلى عالم الصحارى والغابات الممتدة حتى حواف بلاد الاستواء. وهي تضم شعوباً وقبائل كثيرة العدد، مختلفة الأعراف والأعراق، بل إن لغاتها تتعدد ولا يجمعها لسانٌ منطوقٌ واحد، فالتواصل اللغوي بين شعوبها إنما يتم عن طريق التعرف المشترك لصور آلاف الكلمات الصعبة المعقدة؛ ذلك لأن اللغة الصينية لغةُ صور، وهي في ذلك كاللغة الهيروغليفية الفرعونية القديمة البائدة. وهكذا فقد

يلتقي اثنان من أبناء عالم الصين ومع ذلك يصعب بينهم التفاهم الشفوي لاختلاف لغاتهم المنطوقة، وبسبب اللغة المصورة المكتوبة يستطيع كل المتعلمين من أبناء الصين فهمها لغةً ووسيلةَ تواصل مشتركة فيما بينهم. والصين ذات تاريخ طويل حافل، مرّ بشعوبها الأباطرة وأمراء الإقطاع، ودار بينهم الكثير من الحروب والصراعات، ونال شعوبها الكثير من المآسي والمظالم، كما أنشب الاستعمار أظافره فيها وأخضعها لحكمه ومظالمه ومطامعه على نحو ما ألمَّ بالعالم الإسلامي من حكم السلاطين والأمراء والإقطاع والاستعمار.

وبقيت الصين - بفضل ثقافة شعوبها ووجدانهم وحسهم الجمعي - مجتمعاً وكياناً ودولةً واحدةً، وما يدور اليوم من صراع بين دولة الصين وجزيرة تايوان ليس هدفه في الحقيقة الانفصال وتمزيق وحدة الصين ولكنه صراع بين الفئات والمصالح تحت غطاء المشروعية، وما يُبقي على استمرارية هذا الصراع وخروج جزيرة تايوان عن وحدة الدولة والتراب الوطني الصيني الأم ويؤججه هو مصالحُ الأجنبي وسطوةُ صواريخه وأسطوله.

الهند

والمثل الثاني هو دولة الهند، فالهند أيضاً تجمّع إنساني هائل قارب في تعداده خمس البشرية، وتعدى المليار نسمة، يغطي شبه القارة الهندية من جبال ثلوج الهملايا حتى مشارف خط الاستواء، ويضم العديد من الشعوب التي تتباين بكثرة أعراقها وألوانها ولغاتها وعقائدها، و قد مرّ بالهند – مثلما مرّ بالصين والعالم الإسلامي – استبدادُ الأباطرة وأمراء الإقطاع، وعسفُ الاستعمار؛ بل ربما كان بعض ما مر بهذه البلدان في بعض الأحوال ما هو أدهى وأمرّ.

وأرض دولة باكستان المسلمة، كانت جزءاً من عالم الهند، وما تعانيه الهند من المشكلات العرقية واللغوية والدينية والاجتماعية والاقتصادية أضعاف ما

تعاني منه باكستان، وإذا بقيت الهند دولة واحدة فإنّ العيد القومي لدولة بانغلاديش المسلمة هو يوم الانفصال عن دولة باكستان التي قامت باسم الإسلام، وما يدور من صراعات بين أقاليم دولة باكستان يثير القلق على مستقبل وحدة هذا البلد المسلم.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه هنا أنّ المحللين السياسيين يعزون الحروب الهندية الباكستانية في الحقيقة إلى رفض الهندوس وثقافتهم ووجدانهم وحسهم الجمعي قبول مبدأ انفصال أي جزء من أرض شبه القارة الهندية عن دولة عالم الهند الكبرى.

أوروبـة

والمثال الثالث هو قارة أوربة واتحاداتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية الناجحة، وكلنا يعلم تاريخ أوربة وما نشب بين دولها وشعوبها من صراعات استعمارية وقومية كبرى على مدى القرون، وكيف أشعلت صراعاتها أوار نيران حروب عالمية قُضي فيها على الملايين من البشر.

نجد هذه القارة - بتاريخ صراعاتها، وتعدد ثقافاتها وأعرافها وأعراقها ولغات شعوبها، وما ووجهت به من التحولات والتغيرات الكونية - قد تبدلت مصالحها من الصراع والمواجهة إلى الوحدة والتكتل والتضامن والتعاون للبناء والتنمية، وللتمكن من مشاركة التكتلات الاقتصادية والسياسية العالمية الكبرى في اقتسام الغنائم والأسواق والموارد، وقد نجحت بالفعل في سبيل تحقيق مصالحها من بناء أوربة المتحدة بأجهزتها ومؤسساتها وتكتلاتها وعملتها الموحدة (اليورو) التي تهدف إلى اقتسام الغنائم مع الدولار لكونها عملةً عالمية ومستودعاً للمدخرات العالمية؛ ولتستولي من خلاله على الثروات الهاربة والمسلوبة من بلاد الشعوب الصغيرة الفقيرة، وفي مقدمتها بلاد العالم الإسلامي، بضمان عملات اقتصادياتها الكبرى التي لا تكلفها كالدولار - على وجه الحقيقة- إلا ثمن الورق الذي تطبع عليه. فلماذا أمكن لأعداء الأمس من شعوب أوربة أن يتحدوا من أجل هذه المصالح، وأن

يلأموا ما بينهم من جراح؟! وكيف أمكن أن تؤلف مصالحهم ما بينهم من عداوات وتمحو ما بينهم من ثارات؟! لا يمكن أن نجد تفسيراً لهذه الظاهرة إلا من خلال دور الحس والوجدان والثقافة الجمعية لدى هذه الشعوب التي مكنتها من التكتل على الرغم مما كان بينها، خدمةً لمصالحها العامة.

وباتحاد أوربة يكون قد اكتمل الهلال الرهيب المكوَّن من اتحادات عالمية كبرى تحيط بالعالم الإسلامي والإفريقي الضعيف الممزق والمكون من اتحادات الصين والهند وروسيا وأوربة وأمريكا، ويمثل العالمُ الإسلاميُّ والإفريقي أمامها، بل وعالم أمريكا الجنوبية أيضاً منطقةَ نفوذٍ وصراعٍ وفريسةً تتكالب عليها الضباع.

إن هذا الوضع المؤسف الدامي للعالم الإسلامي والإفريقي - في الوقت الذي يمثل مأساة إنسانية لأبنائه - يمثل بؤرة تنافس وصراعات بين القوى العالمية، ومن المهم للإنسانية ملء فراغه وقيام اتحادات عالمية إسلامية وأفريقية تأخذ فيه موضع الشريك للقوى العالمية، وبذلك يتجنب العالم مخاطر حروب مدمرة لم يعد من الممكن التكهن بآثارها وآثار أسلحتها على مستقبل الإنسان والحضارة الإنسانية.

ومن الواضح من الأمثلة التي أوردناها سالفاً أنّ الأسباب التي نعزو إليها أسباب فرقة عالمنا الإسلامي وتمزقنا وصراعنا فيما بيننا، وتمكين الأعداء منا، لا تكفي ولا تفسر وحدها ما نحن فيه من تمزقات وصراعات، فعلى الرغم من وجود تلك الأسباب عند سوانا إلا أنهم لم ينتهوا إلى ما انتهينا إليه؛ بل إنهم قد انتهوا إلى الوحدة والتضامن، وإلى عكس ما نحن فيه من صراعات وتمزق.

وبالطبع فإنّ بلاد العالم العربي لا تستطيع أن تباهي بما هو أفضل من حال سواهم من شعوب المسلمين، حيث تتوزع بلاد العرب - وهم بمنزلة القلب من الأمة، على كل ما بينهم من وشائج وروابط - أكثر من عشرين دولة، بينهم من الصراعات ما يستنزف طاقتهم، ويشتت شملهم، ويمكِّن لأعدائهم، ولا جدوى معها - حتى اليوم - في جمعهم ولا في جامعتهم.

ولعل من المفارقات العجيبة أنّ كثيراً من الاتفاقات الاقتصادية والسياسية التي وحدت أوربة قد تم عقد مثيلات لها بين البلاد العربية في اتفاقات أسواق مشتركة، وتخفيض الرسوم الجمركية، وتشجيع التجارة والتبادل التجاري بين الدول العربية، واتفاقات دفاع مشترك، وبالطبع فلم يتحقق على أرض الواقع شيء من هذه الاتفاقات، وظلت الحواجز بين بلاد العرب وشعوبهم قائمة، تعلو وترتفع جدرانها، والصراعات تزيد وتتفاقم، وكأن أي أمر يتم الاتفاق عليه هو الأمر الذي يغلب الظن أنه لن يرى النور، أو لن يتحقق في واقع علاقات الأطراف العربية!!!

الدين والعقل والمصلحة كلها تأمرنا بالوحدة والتكافل

فإذا كان الدين لا يأمرنا بالتمزق والصراع بل يحضنا على الوحدة والتآخي، وإذا كان العقل والمصلحة لا يأمراننا بذلك بل يحضاننا على الوحدة والتكتل والتناصر، فلماذا نفعل فيما بيننا عكس ما يمليه علينا الدين والعقل والمصلحة، لذلك لابد لنا من البحث، أولاً على أعماقٍ أبعد، في داخل الذات، وليس خارجها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٣/ ١١].

والتمزق والصراع من الأمراض الاجتماعية التي تتعلق بالجانب الجمعي في الشخصية الإنسانية، وهو الذي يجب أن يكون موضع البحث والتقصي، ومعرفة الأسباب التي أدت إلى تشوهات الجانب الجمعي في شخصية الإنسان المسلم.

فكلنا يعلم أنّ الوحدة والتكتل والتعاون والتضامن هي من أهم مكونات الجانب الجمعي والعام من جوانب الشخصية الإنسانية، وسلامة تكوين الجوانب المختلفة للشخصية الإنسانية - الفردي منها والجمعي على حد سواء - أمر ضروري لاستقامة الشخصية الإنسانية وتوازنها، وبالتالي استقامة المجتمع وتوازنه.

فالكائن الإنساني - في أصل طبعه الإنساني - فرد يتعلق تصرفه بإرادته وحمل مسؤولية وجوده، والقيام بواجبات هذا الوجود، روحياً ومادياً، وهذا الأمر لا يتأتى مادياً ولا معنوياً إلا من خلال الجانب الجمعي في تكوين الإنسان، وبالتالي تكوين المجتمع الذي هو أمر ضروري لوجود الإنسان واستمراره المادي، بدءاً بالأسرة، أمّاً وأباً، وانتهاءً بالمجتمع الذي هو وسيلة الفرد ومجاله للعيش والبقاء.

ومن خلال المجتمع وعلاقاته والأداء الإنساني فيه، وبواسطته، يتحقق لأعضاء المجتمع الوجود المادي والتسامي الروحي والسمو القيمي. فالكائن الإنساني لا يوجد، ولا يمكن له أن ينشأ أو يبقى، فرداً بطبيعة قدراته وحاجاته، وبسبب طفولته الإنسانية الطويلة؛ حيث لابد له من مجتمع، ينشأ في حمايته ورعايته، وهو من خلال علاقاته الاجتماعية يعبر عن إرادته، ويحقق في مجاله مكنون نفسه من المشاعر والقيم والغايات، ويمحص بهذا التفاعل معدن نفسه، ويحقق بنوعية تفاعله ومدافعته في المجتمع معنى وجوده، فلا حقَّ ولا عدلَ ولا خيرَ ولا حبَّ ولا بذلَ ولا إيثارَ ولا رحمةَ ولا إحسانَ ولا تميزَ ولا إتقانَ إلا في مجتمع، ومن خلال التفاعل الاجتماعي الذي يمثل البُعدَ الجمعي في حياة الإنسان. ولايكون الإنسان على الحقيقة إنساناً إلا بالمجتمع، وفي المجتمع، ومن خلال أدائه فيه.

الخلل الجمعي في ثقافة الأمة: فاقد الشيء لا يعطيه

إنّ أي خللٍ في رعاية الجانب الجمعي في تكوين شخصية الفرد لابد من أن يكون له آثاره السلبية البعيدة على أداء الفرد ونوعية حياته ووجوده، روحياً ومادياً، وبذلك تحدد طبيعةُ الجانب الجمعي في شخصية الفرد جودةَ أورداءةَ طبيعةِ المجتمع، ونوعية علاقاته ومؤسساته، وتؤثر في مدى توازنه واستقراره وقدرته على أداء مهامه في رعاية الحياة الإنسانية لأبناء الأمة وترقيتها.

فإذا لاحظنا خللاً في الأداء الجمعي لأفراد المجتمع، وتقصيرهم في رعاية

علاقاته ومؤسساته والمشاركة الإيجابية البناءة في احتياجاته ومتطلباته، وجب علينا النظر والتدقيق في فكر ذلك المجتمع وثقافته ومناهج تربيته، فإنّ خلل الفكر والثقافة - وبالتالي مناهج التربية - هو الأساس في تشوه الرؤية الاجتماعية السليمة، والإدراك المتوازن للجوانب والحاجات الفردية، وكذا الجوانب والحاجات الجمعية، ومصير المجتمع المختل لابد له من أن ينتهي إلى التدهور والانحطاط والسير على طريق الاندثار. فالطفل الإنساني يكتسب فهم نفسه وعلاقاته وأدواره الفردية والجمعية من مصدرين: المصدر الأول منهما فطري ينبع من إحساسه بحاجاته ومدركات فطرة عقله، والثاني ينبع من كليات مفاهيم ثقافة مجتمعه. وعلى مدى سلامة هذه الكليات والثقافة وتوازنها وتجاوبها مع حركة واقع المجتمع، وحاجاته، وإمكاناته، ومتغيراته، وتحدياته، يتوقف توازن الفرد الذاتي والجمعي، وسلامة أدائه، ومدى قدرته على النجاح في مواجهة ما يتعرض له من تحديات، وبالتالي مدى قدرته على إثراء ذاته ومجتمعه مادياً وروحياً.

والجانبُ النفسي الوجداني الروحي في مرحلة الطفولة بطبيعة دورها الأساسي في بناء الشخصية الإنسانية أمرٌ أشملُ وأهمُّ من الجانب المعرفي فيها؛ بل إن الجانب المعرفي في هذه المرحلة (مرحلة الطفولة) هو تبعٌ ووسيلة من وسائل بناء الجانب النفسي والوجداني، وذلك لأن البناء النفسي والتفاعل الوجداني عند الإنسان لا يتم ولا يتشكل إلا في مرحلة الطفولة، بينما نجد أن التكوين المعرفي هو عملية متطورة مستمرة مدى حياة الإنسان، لا تتوقف ولا تنقطع "من المهد إلى اللحد"، فاكتساب المعارف عملية تبدأ ببدء الحياة ولا تنتهي إلا بنهايتها، فيما نجد أن التكوين النفسي والوجداني للشخصية الإنسانية إنما يتم ويتبلور في مراحل الطفولة حتى نهاية مرحلة المراهقة وانتهاء العقد الثاني من عمر الإنسان.

ولذلك يجب إعطاء الجانب التربوي النفسي والوجداني والروحي في المنظومة الثقافية التربوية لأية أمة الجانب الأعظم من الأهمية، والتأكد من أنّ

الجوانب الثقافية المعرفية التي تقدم للطفل إنما هي بالدرجة الأولى وسيلة للبناء النفسي والوجداني والروحي، وصياغة نوعية العقلية عند الناشئ، إلى جانب دورها المعرفي الذي يتكامل مع الجانب الوجداني في بناء قدرات الطفل، ولذلك يجب - في سبيل تقديمها واستخدامها - ملاحظة أثرها على تكوين الجانب النفسي والوجداني والعقدي، وعلى منطلقات ومفاهيم العقلية الأساسية، وأن ترصد آثارها بحيث تكون آثاراً نفسية ووجدانية وعقلية إيجابية؛ لأنه لا يمكن بعد انقضاء مرحلة المراهقة إحداث تغييرات أساسية في الطبيعة النفسية والوجدانية للإنسان، فالعمل على إصلاح البناء النفسي للمجتمع يجب أن يستهدف مرحلة الطفولة أولاً وأساساً؛ من خلال تنقية كليات المدخلات الثقافية والمعرفية، وتقديمها بأسلوب تربوي سليم، يراعي الأساليب التربوية العلمية الصحيحة في تكوين عقليات الناشئة ونفسياتهم ووجدانياتهم؛ بهدف تحقيق الصحة النفسية والوجدانية، وتوازن الجانب الفردي والجانب الجمعي في تكوين شخصية الفرد بصفته عضواً في الأمة والمجتمع.

الجانب الجمعي في الفكر الإسلامي

وإذا دققنا النظر في تاريخ فكر الأمة، ولا سيما الجانبُ الجمعي الخاص بتكوين الشخصية المسلمة من هذا الفكر، ولو تابعنا مسيرته سنرى توافقاً مدهشاً - طرداً وعكساً - بين إيجابية المجتمع وسلبيته، وسلامة أدائه الإنساني الحضاري.

فالروحُ الجمعي على عهد الرسالة كان على أفضل حالاته وأعلى مستوياته، وإحساسُ أفراد المجتمع بانتمائهم ومسئوليتهم وتضامنهم - بصفتهم أعضاء في جسدِ الأمة والجماعة - كان على أشد ما يكون من الإحساس والتفاعل الوجداني: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٥٩/٩].

وهذا الروح الجمعي القوي الفعّال لم يأت من فراغ؛ بل جاء من أصل النشأة العربية القبلية الحرة البسيطة التي لم تكبلها ولم تحطمها أنظمة الظلم والاستبداد، وزادَ فيها وعمقَّها ورحَّبَ مداها وفعَّلها روحُ الإيمان التوحيدي الاستخلافي الإسلامي الذي نجح الإسلام في العهد النبوي على تحويل التضامن والتكافل القبلي إلى تكافل وإخاء إسلامي، بني على العدل والتضامن، فهذا رسول الله ﷺ رأس حكومة المجتمع الإسلامي يرسي قواعد نظام عادل يرعى أبناء المجتمع، ويصون كرامتهم الإنسانية، ويحفظ حقوقهم، مسلمين كانوا أم غير مسلمين، حتى بلغ به الأمر أن قدم ضمان الدولة للديون، رعايةً وتشجيعاً للتعاون بين أفراد المجتمع، فلو توفى المدين وكان ما ترك لا يفي بديون الدائنين فإنّ الدولة تفي الدائنين حقوقهم: "من مات وترك مالاً فلورثته، ومن مات وترك ديناً فعليّ سداده". ولذلك ضحى المسلمون في سبيل الأمة وبذلوا وآثروا، فلا غرابة في هذا المجتمع - في حال حاجة المجتمع حين طلب رسول الله ﷺ إلى المسلمين أن يتبرعوا - أن يتبرع الأصحاب بأموال كثيرة، وبالطبع فقد كان ممن تبرع أبو بكر الصديق، الرجلُ الحصيفُ ذو الرأي الصائب والفهم النافذ[1].

---

(١) من المفيد أن نستعرض مع القارئ شيئاً من شخصية أبي بكر وحكمته لنعلم دلالة فعله في فهم روح مجتمع عهد الرسالة، فأبو بكر لحكمته وحصافة رأيه ونفاذ بصيرته ورباطة جأشه كان هو الذي صحبه رسول الله ﷺ، لهذه الصفات، في رحلة المخاطر والمخاوف، والحاجة للعقل والتدبير والحيلة، ولم يصحب رجال القتال والمعارك، وهو الرجل الذي كان بذهنه الصافي بدهي الإيمان برحلة الإسراء والمعراج النبوية، وهو أيضاً الرجل الذي وقف - فيما رواه أبو داوود وأحمد - بقلب شجاع، وإيمان بيّن، وذهن صاف في لحظة الحزن والفجيعة المذهلة بوفاة الرسول ﷺ، والرسول ﷺ أحب وأقرب إليه من أي أحد سواه، ليعيد الأمة إلى رشدها، ويهديها إيمانها، ويبصرها دينها، ويخاطب الأمة والأجيال من ورائهم في صفاء التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده: "من كان يعبد الله فإنّ الله حي لايموت، ومن كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات"، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٤]. حتى قال عمر والمسلمون الذاهلون المفجوعون معه، فيما رواه ابن=

وكما تصدق المسلمون فقد تصدق أبو بكر رضي الله عنه، لكنه لم يتصدق

= ماجة، "فلكأني لم أقرأها إلا يومئذ". وهو الرجل الذي قاد بنجاح ونفاذ بصيرة سفينة دولة الإسلام الفتية عشية وفاة رسول الله ﷺ بمهارة ومداد رأي ونفاذ بصيرة وسط ثورة الأعراب السياسية ضد الدولة والاستعصاء على الخضوع لقيود الاجتماع الحضاري، فكان الذي أدركها حينذاك هو أبو بكر رضي الله عنه، فيما غاب ذلك عن كثيرين، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك حين قرر أبو بكر بعزم ودون هوادة ضرورة إخضاع هؤلاء الأعراب، وردهم إلى قواعد الاجتماع الإنساني الحضاري، وقمع شوكة حركة ثورتهم السياسية وردتهم الحضارية، فلم يسمح بأي تساهل في أداء الحقوق العامة، ودفع زكاة الأموال: "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة". فقد وعى أبو بكر بعقله الرصين ونافذ بصره دلالة حرب مشركي العرب الوثنيين البدائيين دون سواهم من أصحاب الحضارة من يهود ونصارى ومجوس؛ بهدف إدخالهم في مجتمع الإسلام الإنساني الحضاري ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٤]. ولذلك وجدنا عمر - لما يعلمه ولما يعلمه الأصحاب معه من ثبات جأش أبي بكر ونفاذ بصره وبصيرته - ينصاعون طواعية لرأيه دون إكراه، ثقة منهم بحكمته وحصافة رأيه وإدراكه ما خفي عليهم وما غابت عنهم حكمته، وما كان لأبي بكرٍ من وسيلة لإكراه أحدٍ إلا ثقة الناس بحصافة رأيه ونفاذ بصيرته. روى البخاري عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله؟ فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة و الزكاة، فإنّ الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه. فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق.

ومن النماذج الفريدة التي تدل على قوة البعد الجمعي في جيل الأصحاب، وبمعانٍ ورؤيةٍ يصعب على أجيالنا - التي ضعف فيها البعد الجمعي - أن تعيها وأن تخطر على بالها، وهذا النموذج رواه الدارمي في سننه (انظر طبعة إحياء السنة ١/ ٤٠): "عن عكرمة رضي الله عنه أن أم أيمن جعلت - وقد توفي رسول الله ﷺ - تبكي، فقيل لها: يا أم أيمن تبكين على رسول الله ﷺ؟ قالت: إني والله ما أبكي على رسول الله ﷺ إلا أن أعلم أنه قد ذهب إلى ما هو خير له من الدنيا، ولكني أبكي على خبر السماء انقطع. قال حماد: خنقت العبرة أيوب حتى بلغ ههنا". فهذه أم أيمن في شيبتها وقد فقدت حبيبها وسندها وهي ترد حين ترد على من =

في لحظة الحاجة والعسرة بفضلة ماله ولا بكثير من ماله، بل العجيب أنه تصدق بكل ماله، ولم يترك مدخراً لأبنائه!! فلماذا يفعل ذلك رجل في حكمة أبي بكر ورجاحة عقله؟ وسأله رسول الله ﷺ، فيما رواه أحمد: "ماذا تركت لأبنائك"؟ ليعلم كيف فعل أبو بكر في هذا الظرف العسر، فأجابه أبو بكر (بكلمتين اثنتين فقط عبّر ولخص بهما - في صفاءِ ذهنٍ، وعمقِ رؤيةٍ، ونفاذِ بصيرةٍ - طبيعةَ النظام الاجتماعي وبُعدَه الجمعي وأسلوبَ أدائه فقال له: "لقد تركت لهم الله ورسوله".

ظن من لم يدرك أهمية البعد الجمعي أن إجابة أبي بكر رضي الله عنه وكأنها فقط تعبر عن عمق إيمانه بالله، ولا شكَّ في أن إجابته وفعله إنما يعبران عن عميق إيمان أبي بكر رضي الله عنه، مثلُه في ذلك مثلُ أفاضل الصحابة، ولكن ما قاله أبو بكر رضي الله عنه هو أبعد من ذلك، فهو يعبر عن رؤية أبي بكر رضي الله عنه وإدراكه لطبيعة النظام الاجتماعي الذي ينتمي إليه، إنه مجتمع تلاحم وتكافل لا يضيع فيه فقير، ولا ضعيف، ولا حاجة فيه للبخل والشح والكنز، فالفرد للكلِّ، والكلُّ للفرد، وهم في ذلك متضامنون إخاءً وبذلاً وتكافلاً.

وهنا تتضح لنا بعض المفارقات الهامة بين مجتمع عهد الرسالة ومفاهيمه وأدائه، ومفاهيم عهود الطغيان والعزلة التي ضعف فيها البعد الجمعي في نظام المجتمع، وانعكس ذلك على غفلة الصفوة الفكرية عن فهم معنى هذا

= يواسيها بتذكيرها أن رسول الله ﷺ بخير يلقى الله في حال خيرٍ من حاله في هذه الدنيا، فيأتي جوابها ليس باهتمامات وعواطف فردية؛ بكاءً لفراق عزيز غالٍ تفقده في شيبتها وضعفها وحاجتها إليه، ولكنها تبكي أولاً لحال الأمة وحاجة الأمة وقد انقطع خبر السماء، وتبكي أم أيمن رضي الله عنها، ويبكي معها أيوب، لا لأنفسهم وعواطفهم وكليم قلوبهم، بل يبكون - بشكل رئيس - لأمر الأمة، ومصلحة الأمة، وحاجة الأمة.

بمثل هذا البعد الجمعي، والحرص العام على مصلحة الأمة وحاجة الأمة، أنجز ذلك الجيل ما أنجز، ومن دون هذا البعد في شخصية المسلم فإنه لا مجال لإحياء الأمة، والسعي الصادق في حاجاتها وكرامة أبنائها وعزتهم.

البُعْدِ ودلالات ما يتعلق به من النصوص والمعاني، لأنه " ليس من رأى كمن سمعَ "، وليس أوضح دليلاً ولا دلالة من التجربة. وما كان لمجتمع الطغيان والتبديد والاستبداد الذي لم يشهد مجتمع العدل والكرامة والتكافل أن يدرك - وقد غابت تجربته وفلّت أداة معرفته - ما في النصوص من معانٍ ومن دلالات " فكل إناء بما فيه ينضح".

ولذلك كان فهم مفكري ومنظري العزلة في أن إجابة أبي بكر إنما هي تعبير عن إيمانه وتوكله على الله، ولا شك ولا ريبة لدى أحد في عظم الطاقة الروحية لأبي بكر ﷺ، مثله في ذلك مثل كثيرين غيره - ممن بذلوا الكثير، من الأصحاب - في إيمانهم وعظيم توكلهم وثقتهم بالله، إلا أن هناك بُعْداً آخر، وهناك قضية هامة أخرى عبرت عنها عبارة أبي بكر الصديق ﷺ، يدركها من يدرك طبيعة النظام الذي عاش أبو بكر رضي الله عنه في ظله، وأسهم في بنائه، عبر عنه أبو بكر ﷺ بجملته الموجزة في إجابته عن سؤال رسول الله ﷺ وكشف عن عميق فهمه لأبعاد الموقف، وأنّ القرار الذي اتخذه ليس قراراً عشوائياً، ولا مجردَ انفجارٍ عاطفي يغشاه بعدها ندمٌ وأسفٌ، ولكنه قرارٌ واعٍ سليمٌ مدروسٌ، فهو قرار يؤدي به أبو بكر واجبه الجمعي في دعم جهود المجتمع، وتلبية ندائه في ساعة الحاجة، وهو في الوقت نفسه ليس في خوف من شبح الحاجة والحرص على حفظ شيء من المدخرات لمواجهة النوازل والملمات؛ وذلك لإيمانه المطلق بالله، وثقته به أولاً وآخراً، ولكن أيضاً لإيمانه وثقته بحكومة المسلمين ونظام كفالتها ورعايتها لأصحاب الحاجة، ولذلك فهو لن يدخر شيئاً عند حاجة المجتمع، لأن هذا المجتمع الذي يمثل رسول الله ﷺ فيه رأس النظام، هو ضمانة وضمان حاجته إن ألمت به ملمة، أو نالته عسرة، فلن يهان ولن يذل، هو أو من يعول، والمجتمعُ هو الذي يضمن ديون المحتاجين حتى بعد مماتهم؛ تشجيعاً على التواصل والتراحم «من مات وترك مالاً فلورثته، ومن ترك دَيْناً فعليَّ سداده» ولذلك فإن أبا بكرٍ كان على ثقةٍ من

أنه سوف يجد رسول الله ﷺ والمجتمع من ورائه يلبون حاجته وحاجة عياله، ويحسنون إليهم، ويجبرون كسرهم، (تركت لهم الله ورسوله)، فهو ليس في حاجة إلى أن يحجب المال عن مجتمعه في ساعة العسرة. ودون فهم ذلك النظام وفهم طبيعته فليس بالإمكان فهم هذا الحوار القصير الوافي الدلالة بين الرسول ﷺ وأبي بكر الصديق إلا لأصحاب العلم الاجتماعي وأهل الخبرة، وإلا لمن كان يعيش النظامَ ويدرك طبيعةَ أدائه.

أما حين تدهور البعد الجمعي وأصبح احتجاناً للأموال، واستئثاراً بالخيرات، واصطناعاً للأعوان، وهضماً للحقوق، وظلماً للمحرومين والفقراء وأصحاب الحاجة، بحيث لم يعد لأفراد الناس إيمان ولا ثقة بالمجتمع ونظامه، وأصبح كل فرد هو ضمان نفسه وأبنائه، لا يهتم إلا بنفسه وبهم، لا يُعوّل على المجتمع ولا يُعوّل عليه المجتمع، ولم يعد بينه وبين المجتمع على الحقيقة علاقة تضامن تقي الفرد والمجتمع من الغوائل وتذود عنه الارزاء؛ فلا غرابة إن رأينا جُلَّ أبناء شعوبنا اليوم يتهربون -عن عمد وقصد- من أداء كل حق عام، ويبخلون -عن سعة- عن كل حاجة عامة، وتتهدم أمامهم المؤسسات، وتُضيَّع الحاجات والمهمات، وهم يقفون موقف المتفرج الذي لا يعنيه من الأمر شيء، وكم تؤلم المقارنة بينهم وبين أبناء الشعوب التي تعنى بتربية الحس الجمعي ويقوى فيهم حس البذل والعطاء.

الآثار الخطيرة لضعف البعد الجمعي في الثقافة والتربية

مع ضعف البعد الجمعي في شخصية المسلم في الثقافة والتربية لأبناء الأمة في عصور التخلف والانحطاط فإنه لا غرابة إذا شاهدنا انتشار الاستبداد والفساد، وشحت الأيدي بالبذل والعطاء؛ فتهدمَ المجتمع ومؤسسات المجتمع، وساد ساحتَه النزاعُ والصراعُ.

مع ضعف البعد الجمعي في شخصية المسلم، لا غرابةَ أن تنهار مؤسسات الأمة العامة، وأن يتمزق نسيجها، وينهار بناؤها، وأن يَصعُبَ أداء الحقوق

العامة، ودفعَ الضرائبِ، وأن تشُحَّ الأيدي بالتبرعات والنفوس بالتضحية، ففي الوقت الذي يسعى الفرد لكي يوفر لنفسه ولأبنائه كل ما يستطيع من الحاجات والكماليات فهو في ذات الوقت لا يلقي بالاً إلى حاجة الأمة ولا إلى حاجة الفقراء والمعوزين، ولا حاجة أبنائهم، لأنه يعلم أنه وحده ضمانُ نفسه وأهله لو ألمت به أو بهم الحاجة، وأنه لن يلبي حاجته أحدٌ، ولن تلحظ حاجته عين، ولن يرتفع لبؤسه حاجب، وليس له ولا لأبنائه ومن يعول - حين الحاجة- إلا ألم الحاجة وذل السؤال، ويصبح لسان حاله "من لا يَرْحَم لا يُرْحَم".

ليس عجيباً مع ما آل إليه تربية البعد الجمعي في بناء شخصية أبناء كثير من الشعوب الإسلامية في عصور الانحطاط أن تفشو ظاهرة التسول؛ حيث تطالع المارة أطلال الوجوه الكالحة لأبناء الشوارع الكالحة، وأجسامهم الهزيلة، وثيابهم الممزقة، في كل منعطف ودرب، دون أن يرتفع صوت حق عن حال هؤلاء وحاجتهم، أياً كان - في لغة الإسلام والتكافل الاجتماعي - عِرقهم أو طبقتهم، فلو أنّ المجتمع ونظامه كفل لأصحاب الحاجة والمحرومين في المجتمع حَدَّ كفافِ الكرامةِ الإنسانية لاختفى ذلُّ السؤال وتشرد الأطفال الذين يشكلون مرتعاً خصباً للجريمة والرذيلة. إنّ تفشي هذه الظواهر، وتفشي الصمت عنها، هو من أبرز الأدلة الظاهرة للعين، والمؤذية للضمير، والشاهدة على ضعف البعد الجمعي في الأمة، وعدم سلامة أداء النظام الاجتماعي وحمل تبعاته.

ليس غريباً مع ضعف البعد الجمعي في بناء الشخصية المسلمة تفشي الفساد الاجتماعي، وما يتبعه من تفشِّي الفقر والجهل، وتردي الخدمات، والهرب من أداء الحقوق والواجبات العامة، والنظر إلى المال العام على أنه مال مباح لمن يقدر على الفوز به دون سواه، ويلحق بتلك الأمراض الاجتماعية مرض التخلف عن حماية مصالح الأمة، والذود عن كيانها، وإخلاص الأداء لها، ويمتد المرض إلى خيانةِ أمانتها، وافتراسِ حرماتها، وتمزيقِ أوصالها، والصراعِ على سلب خيراتها.

هكذا كان البعد الجمعي في بناء الشخصية المسلمة على عهد الرسالة قوةً في

البناء، وقوةً في الأداء، حققت - في زمن يسير - من الإنجاز والعطاء ما لا يزال في ذاكرة الزمان والتاريخ صفحاتٍ منيرةً بالإصلاح والقوة والعطاء.

وبإسقاط عهد الخلافة الراشدة وغلبة روح الجاهلية القبلية على الساحة السياسية بروحها العرقية، وعصبيتها الجاهلية، ونزعة مغالباتها الحيوانية، بعيداً عن مبادئ الحق والعدل والإصلاح والتي أفرزت حميةً وعرقيةً واستئثاراً وتعالياً واستباحةً للحقوق غنيمةً للغالب، كل ذلك أدى - وبسرعات متفاوتة - إلى تراجع قوة الدفع الروحي الإسلامي، وتفشي الصراعات، وتغالب الكواسر، وسيل الدماء، فهزلت الروح الإسلامية وهزل معها البعد الجمعي، ووهنت معها ريح الأمة إلى أعراق وقبائل وشعوبيات وممالك وإمارات، وهزم معها وانزوى الأمناء على عهد الرسالة؛ منعزلين بعيداً عن سياسة الأمة وفسادها ودمائها، عاكفين على الدرس والذكر في المساجد والمدارس والزوايا.

لم تقف خسارة الأمة عند خسارة الجولة بين بقايا أمناء عهد الرسالة وتلامذة مدرسة المدينة من العلماء للغلبة والعصبية؛ بل تعدتها -للأسف البالغ- إلى فَلِّ عدة المقاومة، وهدم القدرة على إعادة بناء مشروع الإصلاح على هدي سياسات عهد الرسالة، فليس المهم فشل أي محاولة أو محاولات للإصلاح بعينها، ولكن المهم ألا يصبح ذلك الفشلُ أو تلك الهزيمةُ نهايةَ مطافٍ واستسلامِ عجزٍ وخورٍ.

وللأسف فإنّ فشل محاولات رجال مدرسة المدينة وورثة عهد الرسالة على مدى قرن الحكم الأموي انتهى بهم إلى العزل والعزلة التي كانت - عدا استثناءات محدودة - أقربَ إلى الاستسلام للعجز والخور ورسم مجال محدود في التأثير على الأمة في خاصة شأن الأفراد وتعاملاتهم الفردية.

لقد أدى هذا الاستسلام إلى تأصيل السلبية الاجتماعية في فكر الأمة

وضميرها، وإهمال البعد الجمعي في تكوين أبناء الأمة، وتدمير أسسه وقواعده؛ لتصبح مؤسسات الحكم والسياسة في ضمير الأمة -وبسبب من واقع أحوالها وفكرها- موضعَ الشَّك والريبة، ولا تتمتع لدى جمهور الأمة بالمشروعية. لقد تولد ذلك الموقف السلبي من فشل المواجهة والهزيمة في المنازلة، وبدل أن يتبين رجال مدرسة المدينة - وهم الأولى بالحكمة والسداد- خطأ أسلوب العنف في المواجهة من أجل الإصلاح والتغيير، وأن عليهم البحث عن أساليب أسلم عاقبة وأكثر جدوى، وذلك من خلال معرفة طبيعة الخلل والأساليب الفعالة لإعادة بناء الشخصية الإسلامية وتعديل مسار توجهاتها وتقوية عوامل الجانب الجمعي الخيِّر فيها، فقد استمرت العزلة والمواجهة بأشكال مختلفة دون أن ينتبه العلماء والمفكرون إلى دور الطفولة في إعادة صياغة شخصية الأمة وعقليتها وبنائها النفسي بشكل طبيعي وسلمي، وبقي شأن تربية الطفل مقصوراً على جوانب تعليمية تلقينية معرفية دينية ذات صبغة شخصية محدودة، ولم تجد الأساليب التربوية الوجدانية المؤثرة التي تجعل كلاً من الطفل والناشئ - وهما محور التغيير - سبيلَها إلى الفكر الإسلامي التربوي، وإلى مفاهيم التربية الإسلامية الصافية.

وهكذا انصرف الجهد لاستمرار الصراع والرفض، ولكن بشكل سلبي، واستمر كل فريق في حفر خنادق مواقعه، وتوفير الوسائل، وتجنيد الأعوان، للحفاظ ما أمكن على هذه المواقع التي استمرت واستمرت معها قدرات الأمة في التدهور والهبوط.

فالحكم والسياسة والشؤون العامة والأموال هي إقطاعية الصفوة السياسية القبلية العرقية الشعوبية العسكرية، أما خاصة شؤون الفرد وتعاملاته الفردية فهي منطقة نفوذ الصفوة الفكرية الدينية. وأصبح الأعوانُ والجندُ والأموالُ وسائلَ الصفوة السياسية الحاكمة، والمساجدُ والزوايا وحلقاتُ الوعظ والإفتاء وسائلَ الصفوة الفكرية الدينية، وأصبح العامةُ في صراع الصفوات فريسةَ الظلم والقهر والجهل والفقر، وغدا المجتمع المسلم

مرتعاً خصباً للشعوذة والخرافة وخدر الاستسلام لغيبة الوعي وللدروشات ذات الصبغة الصوفية الحلولية.

ضرورة بناء البعد الجمعي في الثقافة والتربية

وكانت الكارثة أن تأصّل - دون وعي - على يد الصفوة الفكرية هذا الوضعُ المريضُ؛ حيث أعيد بناء الرؤية الإسلامية الكلية لتعكسَ هذا الواقع الذي ينزوي فيه البعد الجمعي في فكر الأمة ثقافةً وتربيةً وتعليماً، ويُهمَل أمره، وتصبح العزلة والانطواء سمة الحياة الاجتماعية، وتصبح غايتها "العبادة" في مفهومها الفقهي، ويصبح الإنسان المسلم سلبياً نحو الحياة بعد أن فَرّغها من بعدها الروحي؛ فغدتْ مجردَ "معاملات" وضوابط قانونية للعقود، لا سعياً، وإتقاناً، وعمراناً، وقياماً ووفاءً بمسؤوليات الاستخلاف في الأرض.

لقد أصبح كتاب الفقه الإسلامي هو حلقة الوصل بين ثقافة الخاصة الفكرية وثقافة عامة الناس؛ أي إنه أصبح في الحقيقة دليل تكوين عقلية المسلم وأساس بنائه النفسي. هذه المكانة الهامة المركزية في العصور المتأخرة لكتاب الفقه في ثقافة المسلم تجعلنا ندرك مدى الضرر الجسيم والعاهة الدائمة التي أصابت تكوين العقلية المسلمة والنفسية المسلمة حين أهمل كتابُ الفقه البُعْدَ الجمعي العام من خطة توجيهه وعرضه، وحين جعل شؤون الذكر والمناسك والشعائر هي (العبادة) وهي (البعد الروحي) في حياة البشر، وهي الغاية والهدف، مما جرَّد الحياة والعملَ والسعيَ - عملياً في حياة عامة الأمة - من البعد الروحي؛ حيث تم اختزال الحياة والاستخلاف إلى مجرد (معاملات).

وبهذه الرؤية الكلية الشائهة، وهذه العزلة والانطواء والسلبية تجاه الحياة وتفاعلاتها ومتغيراتها؛ لم يعد من الممكن مواصلة البحث في شؤون الحياة وسننها ومتغيراتها، وصعب التعرف على مفاتيح الإصلاح والتغيير والتطوير

فيها، ولهذا لم يكن بإمكان مشروع الإصلاح الإسلامي أن يتنبه إلى أن بناء البعد الجمعي في مرحلة الطفولة هو أداة التغيير الفعَّال، وهو السبيل الناجع إلى إعادة بناء المجتمعات، وتلافي القصور في كيانات الشعوب والأمم، وأن الأسرة هي مفتاح نجاح هذه الجهود التربوية وأساس نجاحها.

لن تستطيع الأمة أن تصحح مسيرتها إلا أن تصلح قاعدة انطلاقها وأساس تصورها؛ فتكون لها رؤية متكاملة متوازنة في أبعادها الفردية والجماعية، وتكون لها رؤية إيجابية علمية حضارية في حركتها ودوافعها.

وإلى أن يتم إصلاح كتب الفقه والثقافة والتربية الإسلامية؛ حتى تصبحَ دليل فهمٍ وفقهٍ وثقافةٍ وتربيةٍ شموليةٍ صحيحةٍ، تمثل قاعدة وعي حضاري شاملٍ متكاملٍ إيجابي، وأن تنتج فكراً وثقافةً وفقهاً حضارياً؛ يُعنى بتكوين العقل والنفس والشخصية المسلمة الفردية والجماعية، وتطويرها وتنميتها تربوياً منذ باكورة نشأتها وخضرة عودها، ومراحل طفولتها، ويفاعتها، فإنه لا مجال ولا أمل في شخصية إسلامية تتمتع بالقوة والتضامن والمبادرة والإبداع، وتكون قادرة على أن تضع الأمةَ الهاديةَ في مقدمة مصاف أمم التقدم والريادة والقيادة[1].

---

(١) لو رجعنا إلى ماكتبه العلماء في قضايا الحكم والسياسة لوجدنا جلّه نظرياً، أو يتعلق بالترتيبات الإدارية، ويتسم بروح الوعظ والنصح للحاكم، ويوجه إليه، وكثيراً مايكتب إهداءً له، ولم تكن هناك كتابات تُوَجَّه إلى الأمة لكونها الأصل في الأمر وهي المرجع فيه وفي كل مايتعلق بشؤون الشورى فيها وفي ما يخص حقوقها وحقوق أبنائها وواجباتهم ومصالحهم السياسية. ومن ذلك ما قرره الإمام الماوردي قاضي القضاة على عهد بني العباس في كتابه (الأحكام السلطانية) - خضوعاً لواقع ممارسات أمراء الجند الأتراك الذين تسلَّطوا واغتصبوا الحكم، وحفاظاً على ما تبقى من رسم الخلافة وقانون الشريعة - من أن البيعة تنعقد باثنين قياساً على عقد النكاح!!

ولاستكمال الفائدة ارجع إلى كتاب (العنف وإدارة الصراع الساسي في الفكر الإسلامي بين المبدأ والخيار: رؤية إسلامية) للمؤلف، الذي يوضح أهمية التزام الشورى في إدارة سياسة=

التغيير الاجتماعي والخطاب التربوي

إذا كنا قد سلَّمنا بأنّ الأمة في الوقت الحاضر قد باتت متخلفة منهكة ممزقة مستضعفة، وإذا كنا قد سلَّمنا بأنّ الأمة غنيةٌ بمواردها المادية، وبمبادئها وقيمها السامية الأخلاقية الروحية، وإذا انتهينا إلى أنّ تخلف الأمة وتراجعها لابد من أن يرجع في جوهره إلى ما أصاب فكرها من ضمورٍ وعجزٍ ناجمٍ عن عصور الفصام والصراع بين النخبة السياسية والنخبة الفكرية، وما أصاب تصور الأمة الكوني من جراء ذلك من تشوه، وما أدى إليه ذلك في مناهجها وعلومها ومعارفها الإنسانية من أحادية وتسطيح وجمود وجزئية، وإذا كنا قد شاهدنا على مدى القرون كيف أن محاولات الإصلاح والنهضة لم تتمكن حتى اليوم من تحقيق أهدافها السامية في تجديد طاقة الأمة وتصحيح مسارها؛ فيصبح السؤال الملحُّ هنا هو: كيف المخرج؟ وكيف يمكن تجديد الطاقة وإصلاح المسيرة وإحداث التغيير؟ وما الأسلوب الإصلاحي المهم الذي لم يلجأ إليه - بشكل فعَّال - مشروع الإصلاح الإسلامي حتى الآن، ضمن ما لجأ إليه من الأساليب والوسائل؟.

وعلينا أن نبدأ من البداية، وهي ماهية الإشكال، وماهية المطلوب، وماهية التحدي الذي تواجهه الأمة، وإذا كان لبُّ الإشكال القدرة على التغيير، وإذا كان لبُّ الإشكال هو السلبية وغيبة المبادرة والإبداع، وإذا كان لبُّ الإشكال هو الاستكانة والخنوع، وإذا كان لبُّ الإشكال ضعف الطاقة الوجدانية والشجاعة الأدبية وضعف الكرامة الإنسانية، وإذا كان الإشكالُ غيبةَ العقلية العلمية الإبداعية وروح الفعل والمبادرة، وإذا كان الإشكال في

= المجتمع، والتزام الوسائل المدنية والسلمية في تصحيح المسار السياسي في المجتمع؛ لأن ذلك يحمي الرحم الاجتماعي من التمزق، وينضج حركات الإصلاح، ويرشدها، ويحقق في النهاية الاستقرار السياسي للمجتمع.

النهاية - وبشمول - هو غيبة إنسان الكرامة والشجاعة والبذل والنصرة القادر علميا ومعرفيا، إذا كان ذلك هو الإشكال، فالجواب أن المطلوب لابد من أن يكون هو التغيير في طبيعة البناء النفسي والوجداني لهذا الإنسان، ولا بد من العمل على تشكيل العقلية العلمية الإبداعية الإيجابية البناءة المسلمة بكل ما تمثله هذه العقلية من مبادئ وقيم ومفاهيم وتصورات توحيدية استخلافية سامية.

وإن التغيير الإنساني الجذري الذي يشكل طبيعة البناء النفسي والوجداني والعقلي للإنسان إنما يتم بالوسائل التربوية السليمة، وخلال مرحلة الطفولة، أي في العقدين الأولين فقط من عمر الإنسان.

إذا لم تستقم تربية النشء في التكوين الوجداني والتصورات الكونية الاجتماعية والبنية المعرفية، حتى تتسم بالتكامل والتوازن والإيجابية والعلمية في مرحلة النشأة؛ فإنّه لا مجال للتغيير الفعّال أو تصحيح جادة المسار فيما بعد، وقد صَلُبَ العودُ وجفَّ واعوجَّ، فلا يصبح عندها الفرد قادراً على إجابة النداء، وحسن الأداء، ومواجهة التحديات، فقد تم إرساء عمد بنيان كيان النفس، وضَحُلَتْ ينابيعُ الوجدان والبذل والعطاء، وتشوهت أسس المفاهيم وكليات التصورات، وكل جهد للتغيير إنما هو رقمٌ أو نقشٌ على الماء، لا يقع معه النداء إلا على أذنٍ صماء، وقلبٍ فارغ، وعزمٍ هامد، وتدبيرٍ عاجز؛ فلا ينتهي النداء حتى يضمحل أثره مثل ذوبان أثر الخط على الماء. ونظل ننادي ونصرخ -في كل أمرٍ وفي كل موقفٍ- أننا تنقصنا الإرادة، وتنقصنا العزيمة، وأننا في حاجة إلى العزيمة، وفي حاجة إلى الإرادة، وتمضي السنون والقرون دون أن تأتي هذه الإرادة ولا تلك العزيمة؛ ذلك لأن الإرادة والعزيمة هما من أمر الوجدان، والوجدان لا يتكوَّن بأمرٍ، ولا يتشكل بقرارٍ، ولكنه يتكوَّن فقط في مرحلة الطفولة، ويتشكل بالوسائل التربوية الصحيحة.

إننا نخطئ حين نظن أن الإدراك العقلي المعرفي الذي يوجه للبالغ يكفي وحده - من دون مخزون الطاقة الوجدانية في النفس - لدفع النفسَ الإنسانيةَ

إلى العمل والبذل والمصابرة والتصميم وتحمل المتاعب؛ بهدف إنجاز المطلوب وقهر التحديات.

وهكذا يستحيل التغيير الحقيقي، وتفشل جهود الإصلاح الطموحة في تحقيق أهدافها؛ لأن خطاب البالغين لا يغير قواعد بناء أنفسهم، ولأننا بقصر خطابنا على البالغين لا نحدث التغيير التربوي الضروري في نفوس الناشئة. وبهذا القصور في العناية التربوية بالطفل فإن جهود الإصلاح والمصلحين تدور في حلقاتٍ مفرغة من خطابٍ إلى البالغين لا يغير، وتغييرٍ في الناشئة لا يحدث، ويبقى الإصلاحُ على مر الأجيال قفرَ المسار بعيدَ المزار، ويظلُّ دائماً في المخيلة من باب المغيّب المأمول.

كيف نفهم الخطاب الإسلامي التربوي

لقد تعدَّدَ الخطابُ الإسلامي على عهد الرسالة بتعدد المقامات، وتعدد المخاطبين، وتعدد الأحوال، والأبعاد والغايات، فكان بذلك خطاباً فعّالاً مؤثراً. وكان من أهم أسباب ضعف الخطاب الإسلامي اللاحق ضعف خبرة أصحاب هذا الخطاب، وضعف إدراكهم لأبعاد ذلك الخطاب، ولأحوال المخاطبين وحاجاتهم؛ مما جعلهم كثيراً ما يخطئون فهمَ ذلك الخطاب، وفهمَ حقيقته ودلالاته ومقاصده، مما خلط تلك الأبعاد في خطابهم، وشوهه، وأضعف أثره، وحوله إلى خطاب نظري، كثيراً ما تكون آثاره على غير ما قصد إليه، فكانت ثمار نتاجه مرة على غير ما أُمِّلَ منه.

ضعف الدراسات الإنسانية أدى إلى خلط الأبعاد والمجالات

إن ضعف الدراسات الإنسانية في عصور الأمة المتأخرة قد أدى إلى ضعف الفكر الإسلامي، وإلى خلط الأبعاد والمجالات المختلفة، وقد لمستُ في قضايا عديدة آثار خلط الأبعاد والمجالات والأحوال، وكان آخرها ما بسطتُ جوانبَه في دراسة تناولت قضية العنف وإدارة الصراع السياسي من منظور إسلامي، وقد صدرت في كتاب عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيّنتُ

فيه أن من أهم الأسباب التي عوقت مسيرة الإصلاح والتصحيح الإسلامي قضية الخلط بين بُعْدِ إدارة الصراع السياسي داخل المجتمع، والصراع السياسي الذي يدور بين المجتمعات، أو بمعنى آخر الخلط بين مفاهيم السياسة الداخلية والسياسة الخارجية، فكان المسلمون بهذا الخلط كمن يضعون السيف في غير موضعه، ويصرفون الأمر إلى غير غايته، وقد سبق أن بيَّنتُ هذا الإشكال المنهجي في الفكر الإسلامي في دراسة صدرت في القاهرة عن (نظرية الإسلام الاقتصادية) تناولتُ فيها قضية أسس الاقتصاد الإسلامي ومبادئه الأساسية، والسياسات النبوية التي اتخذها النبي ﷺ لتطبيق تلك المبادئ في ظروف عصره وإمكانات زمانه، ومعرفة المؤثرات في تلك السياسات ومقاصدها، وكيف نستفيد منها في رسم سياساتٍ تناسب ظروفَ عصرنا وإمكاناته، وبيَّنتُ في ذلك البحث أن من أهم أسباب الأخطاء في فهم مقاصد الاقتصاد الإسلامي وأسباب انحرافات تطبيقاته اللاحقة، هوالخلط بين قواعد الاقتصاد الداخلي وضوابطه، وقواعد الاقتصاد الخارجي وضوابطه، ولذلك لم يكن مستغرباً أنّ ذهناً إسلامياً نيّراً هو ذهن ابن حزم الأندلسي يفتي بأنّ حديث مزارعة رسول الله ﷺ ليهود خيبر على نصف الثمر قد نسَخَ كل أحاديث تحريم المزارعة في المدينة، والتي كان الرسول ﷺ قد وصفها بأنها ربا، وكان سبب النسخ عنده أن ذلك آخر ما فعله الرسول ﷺ مع اليهود في خيبر بشأن المزارعة، من دون أن يتبين ابن حزم أنه خلط بين البعد الداخلي والبعد الخارجي للاقتصاد، فالقواعد والاعتبارات التي تؤخذ في الاقتصاد الخارجي هي غير القواعد والاعتبارات التي تؤخذ في الاقتصاد الداخلي، والخلط المنهجي بينهما يؤدي إلى خطأ النظرة وخطل الفكر[(١)] وإذا كان من الصعب على الدارسين خاصة

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر السياسي الإسلامي بين المبدأ والخيار: رؤية إسلامية. دمشق: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار الفكر. ٢٠٠٢م.

وكذلك كتاب: أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة. القاهرة: مكتبة الخانجي. ١٩٦٠م. =

من غير أصحاب الخبرة والدراية بتسيير شؤون المجتمعات والدول وتخطيط اقتصادياتها وإدارتها، أن يتبينوا هذه الفروق الدقيقة، فإنّ الفكر الفلسفي النظري في ظروف زمان ابن حزم وطبيعة المعرفة وأُحادِيَّتها قد فوَّت على هذا الذهن النابه أن يلتفت إلى أنّ تصرفاً واحداً ومع قوم غير مسلمين، وفي كيانٍ ومجتمعٍ منفصلٍ ومفاصلٍ ومعادٍ لمجتمع المسلمين، يطلبون أن يستغلوا أرض المسلمين التي سوف يجلون عنها، يصعب أن يكفي هذا الاتفاق معهم على المزارعة، وفي تلك الظروف المغايرة لظروف المدينة؛ لإلغاء سياسة ثابتة على مدى سنين داخل مجتمع المسلمين في المدينة، فتأتي ممارسةٌ وحيدةٌ في ظروف مغايرة لكي تبيح ما كان ممنوعاً، وتحل ما كان محرماً، وتجعل الربا فجأة ودون مقدمات حلالاً طيباً. ولو كانت طبيعة المعرفة في ذلك الوقت ومنهجيتها، ولو توقف ابن حزم وكثيرون غيره من الفقهاء عند كثير من الكليات، ولو ميّزوا بين مختلف القضايا في دراسة دقيقة منهجية تستند إلى الخبرة والتجربة والممارسة، لأدركوا كثيراً من تلك الفروقات، وميّزوا بين مختلف الأبعاد، ولكان فهمهم للخطاب الإسلامي أعمق، والإفادة منه أكبر، ولما كان للخلط والتشويه فيه ثغرة ومنفذ إلى ما عانت منه الأمة وما تزال تعاني، ولاسيما ما نحن بصدده وهو الخلط بين خطاب البالغ العقلي المعرفي، وخطاب الطفل واليافع النفسي الوجداني التربوي.

تعدد الخطاب بتعدد المخاطبين

وإذا دققنا النظر فإننا نجد أنّ خطاب الوحي الإسلامي قد تعدد بتعدد المخاطبين، وبتعدد أبعاد الوجود، وبتعدد الحاجات؛ فهناك الخطاب العام، والخطاب الكوني الأزلي، وهناك الخطاب الزماني والمكاني الحركي، وهناك

= وكذلك: AbuSulayman, AbdulHamid Ahmad. "The Theory of the Economics of Islam," Journal of Economics and Management, 6, no. 1 & 2 (1998): International Islamic University IIUM, Kuala Lumpur.

الخطاب العقلي التفكري، وهناك الخطاب النفسي الوجداني الوعظي للمؤمن، وهناك الخطاب الزاجر المتوعد للمكابر المعاند، وهناك الخطاب المرشد الموجِّه المبشر للمؤمن العامل، وهناك الخطاب التربوي الراعي الودود الموجَّه إلى الطفل والناشئ، وهناك خطاب السعة، وهناك خطاب الضرورة والحاجة، وهناك خطاب السياسة والحكم، وهناك خطاب البسطاء، وهناك خطاب القادة الحكماء، وهناك عامة خطاب البشر، وهناك خطاب النبوة والرسالة، ولكل خطاب طبيعته ومقاصده التي يجب أن تؤخذ في الحسبان في فهم ما يلابسه من الظروف والمؤثرات وتأويلها؛ ولذلك فإن النظر إلى تعدد الخطابات بتعدد المخاطبين على أنه قضية صدقٍ وكذب، أو قضية ناسخٍ ومنسوخ، فتلك نظرة تدل على السطحيةِ وضعف الفكر.

لذلك فإن من أخطر ما يقع فيه الفكر في بناء المجتمع والحضارة هو تسطيحُ الخطاب في توليد الفكر وبناء المجتمع. وقد تحدثنا فيما سبق عن خطابٍ واحدٍ تختلط فيه الأبعاد وتتلاشى بسببه طاقة البناء والتأثير؛ لما يسوده ويسري في حناياه من الإرهاب النفسي الديني الذي صبغ الفكر الإسلامي في عهد العزلة والفصام إلى جانب الإرهاب المادي السياسي الذي صبغ سياسة الحكم؛ وذلك بسبب ما أصاب الفكر والحكم من ضعف وتدهور، وبسبب الفصام بين الفكر والسياسة، وغيبة الممارسة عن الفكر من جانب، وغيبة الفكر عن الممارسة من جانب آخر.

وفي جو العزلة والفصام كان لابد من أن يقع الفكر الإسلامي في الخلط بين الخطاب الزماني والمكاني لعهد الرسالة، والخطاب الأزلي الديني الإلهي، أي خلط الثابت بالمتغير، وكان لابد - بسبب العجز الفكري - من خلط خطاب الزجر والوعيد والتهديد بخطاب الإرشاد والتوجيه، وخلط خطاب الكفار بخطاب المؤمنين، وخلط خطاب النبوة بخطاب الحكم والسياسة، وخلط خطاب القادة والحكماء بخطاب البدائيين والبسطاء، وخلط خطاب السعة بخطاب الضرورة، وخلط خطاب رعاية الطفل بخطاب مسؤولية البالغ وضبط سلوكه.

وقد كان ذلك الخلط أداة ضرورية أملاها العجز الفكري، وضمور الرؤية العلمية، وجزئية المنهجية النصية اللغوية الواهية الصلة بالدراسة العلمية الاجتماعية الشمولية السننية.

الآثار المدمرة لسوء توظيف قدسية الخطاب: نفسية العبيد

لقد أمكن بواسطة الخلط في الخطاب، وتوظيف القدسية لخدمته، أن يسود خطاب الإرهاب الفكري لفرض التبعية الفكرية، وتكميم الأفواه، وفرض الجمود، وتطويع النفوس لهذا اللون من الفكر والثقافة والصفوة التي تحمله. وقد استفادت السلطة السياسية الاستبدادية العاجزة من هذا الخطاب، ومن آثاره النفسية المدمرة، لكي تسلم العامةُ قيادَها، وتستسلم لأقدارها من التسلطات والمظالم والمفاسد، حتى تكونت لدى عامة الأمة "نفسية العبيد" التي أسلست القياد، وجعلتها تركن إلى قهر سيدها، وتحمي له سياج سجنها، وتنعى غياب جلاديها، حتى إننا رأينا - بعد زوال العهد الاستعماري وسط الفوضى الضاربة أطنابها - من كان يأسف على ماضي "السيد" الاستعماري، وانتهاء عهد السيد المستعمر، وما نشاهده كثيراً من خروج جموع عامة الأمة وهي تهرول على طبول أكاذيب الإعلام في جنائز "الكبار" من سادتها وجلاديها دامعة العين، تذرف أحاسيس الضعة والضياع.

إنّ خطاب الإرهاب النفسي، وتكميم العقل، وإخماد الفكر، وإنكار الخيار، وفرض الرأي والقناعة، باب ظاهره الرحمة بما يتلفع به من رداء القداسة، وصناعة السفسطات البلاغية الزائفة، وادعاءات المصالح الموهومة، أما باطنه - بغض النظر عن النوايا وعن الأسباب التي أملته - فهو في نهاية المطاف حَجْرٌ على العقل، وإنكارٌ للمعرفة، واستعبادٌ للضمير، وكهانةٌ على الروح، وسدانةٌ على التخلف.

لقد توجه الخطاب الإسلامي التقليدي بالإرهاب النفسي لدرء الانهيار والفوضى، وبغرض تكريس تحكم الصفوة في جمهور الأمة وإخضاعه لواقع

ذلك الفكر وسطوته، وقد استهدف الخطاب جمهور البالغين، وأهمل خطاب الصغار والناشئة، وهمّشه وصبغه - كما صبغ خطاب البالغ - بلغة الوعيد والإرهاب، وكان من أهم أدوات هذا الخطاب خلط خطاب المؤمن بالكافر، وخلطُ الثابت بالمتغير، وتوظيفُ علوية قداسة النص لإرغام العقل المسلم على تجاوز رؤية الواقع وتلمس السنن، حتى تقبل النفوسُ والعقولُ المسلمةُ المتناقضاتِ، ويستسلم المسلمون لما "يضرهم ولا ينفعهم" من الخرافات والأساطير؛ فضاع - ضمن ما ضاع - الاهتمام بالخطاب النبوي الودود الوجداني النفسي التربوي للطفل وفهمه وإدراك وسائله ومراميه والذي يربي فيه الإيمان والشجاعة وروح الجهاد والمبادرة؛ حتى تصبح اهتمامات السيرة النبوية(١) ونصوصها مما يكاد ينحصر في شؤون خاصة النفس والذكر ووصف الغزوات.

الخطاب التربوي والخطاب القانوني: نظام العقوبات نموذجاً

سنختار خطاب نظام العقوبات الإسلامية نموذجاً لتوازن الخطاب الإسلامي، وتعدد أبعاده وإيجابية أهدافه في مساعدة الإنسان المسلم على ممارسة الحياة - فرداً وجماعة - في إيجابية وأمن وطمأنينة، والأخذ بيده - في حدود طبيعته الإنسانية البشرية - للنماء والعطاء والوفاء بالمسؤوليات وقصد

(١) يجب إعادة كتابة كتب السيرة النبوية لأغراض تعليم الناشئة؛ بحيث تركز على ذات الرسالة ومقاصدها ومناهجها، في ضوء واقع المجتمع المسلم وإمكاناته وحاجاته وما يواجهه من تحديات، لكي نضع أمام الناشئة مثالاً ونموذجاً حياً؛ فتمثل (مكة) مرحلة إرساء القواعد والمفاهيم وإعداد القيادات وتمحيص المعادن، وتمثل (المدينة) مرحلة بناء المجتمع والأمة والمؤسسات، وفي أثناء ذلك وقعت أحداث ومعاناة، وقامت حروب ومعارك وغزوات. لا أن تكون السيرة مجرد سردٍ لسلسلةٍ من الصراعات والمعارك والغزوات حتى ليبدو الرسول وكأنه محارب وغاز من غزاة التاريخ كما يروج لذلك المستشرقون بمقولة انتشار الإسلام بالغزو (الفتح) وحد السيف، وبذلك تصبح الرسالة هامشاً والمعارك والمناوشات أصلاً؛ بينما يجب أن تصبح الرسالة أصلاً، والمعارك والغزوات هامشاً أملته الظروف وعوارض التاريخ.

الخير والبر والكرامة. نختار هذا الخطاب لانه أكثر من أي خطابٍ آخر، خاصة في العصور المتأخرة، أدى - لدى الأصدقاء والأعداء على حدٍّ سواء- إلى كثيرٍ من الخلط وسوء الفهم وإغفال دلالات النصوص، والذي يجب أن يكون على أساسٍ من فهم الطبيعة البشرية، ومقاصد الشريعة في توجيهها والتعامل البنَّاء معها؛ بهدف تحقيق ممارسةِ حياةٍ خيِّرةٍ فعَّالة.

إن المتأمل في طبيعة النفس البشرية والباحث الدارس لخفاياها، وكذلك المتأمل في خطاب العقوبات في الإسلام، يدرك حقيقةً معنى الخطاب الإسلامي وتنوعه والغاية من كل أنواعه بما في ذلك خطاب العقوبات؛ يجد الخطابَ الإسلامي خطابَ أمنٍ وطمأنينة، لا خطاب رعب وإرهاب يشرع في يد السلطة؛ لتسلطه على رقاب الناس، وتثير الذعر في نفوسهم، وتتصيد به أخطاءهم، وتتبع عوراتهم، ويكون بذلك أداةً بيدها لتحكم قبضة الإرهاب في نفوسهم، وتكون نفسية العبيد في وجدانهم، وليس عبثاً ما أولاه الإسلام في هذا الخطاب من اهتمامٍ؛ لضمان العدل، وطمأنينة نفوس الناس، وبالطبع فإن سواه من ألوان الخطاب أولى، وليس عبثاً ما يشترطه هذا النظام في شهادة في جرائم الجنس وعقوبة الفشل في إثباتها؛ ذلك لأنّ العقوبة في جرائم الجنس هي في الحقيقة للإشهار، وليست للجرم ذاته فحسب، شأنها في ذلك شأن كل ما هو على شاكلتها من جرائم نوازع النفس وشهواتها وطباعها؛ التي لا تملك النفوس ضمانة التحكم الدائم فيها، والتي مرد أمرها في النهاية إنما يعود إلى التربية والضمائر، وذلك على عكس جرائم الدماء والأموال التي يقصد فيها الفعل ومنعه، وتتبع المعتدين حماية للناس من عدوانهم وجرائمهم[١].

إنّ غياب التفكر والتدبر العلمي المنضبط في السنن والواقع والوقائع أدى إلى خلط الخطاب، كما أدى إلى إهمال خطاب الطفولة، وعدم إدراك أبعاده التربوية؛ بما يعني تجاوز الطفولة وعدم فهمها، وفهم طبيعتها، وفهم تطور

(١) انظر أبو سليمان، عبدالحميد، مجلة التجديد، الجامعة الإسلامية العالمية، عدد

مراحلها، ومعرفة دورها في التأهيل والتغيير، وبالتالي فهم النهج النبوي وخطابه في الحرص على حقوق الطفل، ونهج تربيته، ونوعية خطابه، ودلالة ذلك الخطاب.

كاد خطابُ الإرهاب النفسي الذي ساد فكرَ الأمةِ ألا يترك في عقلية الأمة إلا خطاب العقاب والإرهاب للطفل، ويبرره، ويجعله مشجباً يعلق عليه تعديات العجز والتسلط والقهر، وذلك من خلال نصٍّ - إن صحَّ ومن دون تجاوز في اللفظ - يكون مقصوداً بالتعامل مع حالة شاذة استثنائية، ومن ذلك أنه قد يضطر القائم على أمر الطفل أخذ طفل العاشرة بشيء من العقاب إذا ما أصّر الطفل - على الرغم من متابعة الأسرة له بالتعويد والترغيب - على عدم الصلاة: "علموا الصبي الصلاة ابن سبع سنين و اضربوه عليها ابن عشر"[1] بل إن هذا الحديث نفسه يوضح للناس أنه لا يصح عقاب الطفل بدنياً على أي أمر مهما كان هاماً قبل أن يميز، ويعي أبعاد المسؤولية، ويبلغ من العمر عشر سنين، وهو - بالطبع - ضربٌ غير مبرح أقرب مايكون إلى الصفق اللطخ غير المؤذي أو المرعب إظهاراً لجدية الأمر وأهميته، بعد الأخذ بكل الوسائل التربوية الممكنة، والتي قلما تفشل إذا ما نُفِّذتْ بعلمٍ وفهمٍ؛ مما يجعل الأمر من باب توضيح أهمية أمر الصلاة وجديتها، وليس حقيقة الفعل وأن اللجوء إلى الضرب عادة ما يكون تعبيراً عن العجز وعدم الرغبة أو القدرة على التواصل واتباع الأساليب التربوية القائمة على فهم الطفل وحاجاته في المرحلة التي يمر بها، وإلا فكيف يفهم أن يظل الطفل - وقد اتبعت معه الوسائل التربوية في غرس العقيدة في نفسه وتعويده الصلاة بالقدوة منذ نعومة أظفاره - مقلداً للكبار، ثم الاهتمام بالأمر والحرص عليه ثلاث سنوات، في كل يوم خمس مرات، ثم يظل الصبي تاركاً للصلاة غير متعود عليها، وغير حريص عليها، بل ويصر على إهمالها، ولا يقوم مع القائمين لأدائها.

---

(١) سنن الترمذي: ٣٧٢.

إن سيطرة هذا النص الخاص - إن صحَّ في الحقيقة نصُّه وضُبِط لفظُه - في هذه الحالة الخاصة، وفي جو خطاب الإرهاب، أُتُخِذَ مفهوم العقاب وسيلةً أساسيةً عامةً للتربية، ووسيلة تسيطر على مفهوم الأمة للطفولة، والتهوين من شأنها، واستصغار أمرها وإهمالها، وأخذ نفوس الصغار الغضة بالإرهاب والعقاب، حتى تصبح مدخلاً عاماً لمفهوم عقيم للمعرفة باقتصارها - لأطفال عامة الأمة - على استظهار شيء من نصوص القرآن الكريم اللازمة لإقامة الصلاة، وقليل من الحساب اللازم لتصريف شؤون الحياة اليومية، كما أدى ذلك إلى تغييب حقيقة كبرى من حقائق عهد الرسالة وهي أنّ رسول الله ﷺ الذي كان أباً وجداً ومربياً ناجحاً لم يضربْ طفلاً قط في حياته؛ لأنه كان رحيماً ودوداً صبوراً في معاملة الأطفال يرعى حالهم، ويتلمس حاجتهم، ويدرك طبيعة نفوسهم وقدراتهم والمراحل التي يمرون بها، ويخاطبهم على قدر عقولهم ومداركهم، فلم يكن مثله في حاجة إلى أن يضرب طفلاً قط في حياته، فسلاحه الرعاية والحب والصبر والتسامح والمتابعة والخوف الإيجابي في علاقة المتحابين(١).

(١) روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير - قال: أحسبه فطيماً - وكان إذا جاء قال: يا أبا عُمير، مافعل النغير - نُغَر كان يلعب به - فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلي بنا (صحيح البخاري: ٥٧٣٥)
وروى أحمد في مسنده عن عبد الله بن الحارث قال: كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله وكثيراً من بني العباس ثم يقول: من سبق إلي فله كذا وكذا. قال فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلزمهم (مسند أحمد: ١٧٣٩).
- وروى أحمد في مسنده كذلك عن أبي هريرة قال كنا نصلي مع رسول الله ﷺ العشاء فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا رفع رأسه أخذهما بيده من خلفه أخذاً رقيقاً ويضعهما على الأرض، فإذا عاد عادا، حتى إذا قضى صلاته أقعدهما على فخذيه. قال فقمت إليه فقلت: يا رسول الله أردهما، فبرقت برقة فقال لهما الحقا بأمكما، قال فمكث ضوءها حتى دخلا على أمهما (مسند أحمد: ١٠٢٤٦). =

لم يقصد الإسلام قط إلى إرهاب نفوس الناس وخلق (نفسية العبيد) فيهم، كما أنّ العقوبات لم يقصد بها إرهاب نفوس الناس وتسقّط هفواتهم؛ ولكنها عامل من عوامل دعم إحساس جمهور الأمة بالأمن، ورعايتهم، والحفاظ على حقوقهم، وذعم قوى الخير في النفوس، وتنفيرهم من الشر والجريمة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٣٢] ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٥/٣٢]. وهو تحذير لمرضى النفوس وليس إرهابا الأبرياء، وآخر الدواء الكي، ولذلك فإن الأصل أن تُدرأ الحدود بالشبهات، لأن غاية العقاب مكافحةُ الجريمة، وليس تصيدَ الهفوات ولا عقابَ الناس وإيلامَهم في حدِّ ذاته، وكل ما أدى إلى ذلك دون الحد - ولو بإسقاط العقاب - فهو أولى، ولذلك كان الحض على العفو في الرقاب وتجاوز القصاص، ما دام العفو يتمُّ طواعية ولاتُخشى معه ثارات الانتقام، وفي تاريخ قضاء عهد الرسالة وعهد الراشدين خير شاهد ودليل على ذلك.

وليس في ذلك تهاون في الشريعة؛ بل إن ذلك من سماحة الشريعة ورعاية الحياة، ولاخوف من أن يقاس عليها - خطأً - أمر الذكر والصلاة، لأن عقوبات الحدود هي الحد الأعلى، وإذا تحقق الأمن المطلوب دونها فهو أولى، أما الصلاة ففرائضها هي الحد الأدنى للذكر وليس لحدها الأعلى قدرٌ إلا طاقة المرء وحاجته النفسية دون غلو أو إفراط.

= - وروى أحمد في مسنده عن رافع بن عمرو الغفاري قال كنت وأنا غلام أرمي نخلاً للأنصار فأتى النبي ﷺ فقيل: إن هاهنا غلاماً يرمي نخلنا، فأتي بي إلى النبي ﷺ فقال: «يا غلام لم ترمي النخل»؟ قال قلت: آكل. قال: «فلا ترم النخل وكل ما يسقط في أسافلها»، ثم مسح رأسي وقال: «اللهم أشبع بطنه». وروى الترمذي في سننه عن أنس قال خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أفٍّ قط، وما قال لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً (مسند أحمد: ١٩٤٥٣).

الخطاب النبوي التربوي نموذجاً

دعونا نرى كيف عامل رسول الله ﷺ الحفيد الصغير الحسين بن علي كرم الله وجهه، وهو النبي الإمام القائد حينما كان قائماً يؤم جماعة المسلمين في المسجد، وقد صحبه حفيدُه إلى المسجد؛ إذ يعلو الطفل ظهر جده وهو ساجد، فيترك النبي ﷺ الطفل يلعب على ظهره برهة ثم ينزله قبل أن يرفع من سجوده. وحين يسأله الأصحاب عما دعاه إلى إطالة السجود يجيبهم إجابة تربوية بالغة بأوجز عبارة وأعمقها: "ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته"[(١)] أما ما أمكن أن يدركه فكر العزلة وتهميش الطفولة، فهو فهمٌ مسطح يسيرٌ لا يمت بصلةٍ إلى الإدراك النفسي التربوي لأبعاد الموقف الذي يقوم على احترام طفولة الطفل، وتقدير حاجتها، والحرص على الاستجابة الصحيحة لها، فدلالة تلك الحادثة وذلك المشهد والدرس ليس فقط في أن الرسول ﷺ يحب الأطفال، ذلك لأن مشاعر حب الرسول ﷺ لحفيده لا يبرر - في حدِّ ذاته - ذلك الموقف مع إطالة السجود بالناس وهم خلفه، لكي يعبر الرسول ﷺ من خلاله لحفيده عن حبه دون أخذه في الحسبان الناسَ من خلفه، إذ إنه لا غرابة ولا تميز في حقيقة أنيكون الرسول ﷺ هو من يحب ابن ابنته حتى يحاول رسول الله ﷺ إظهاره للناس، فذلك في الأصل من طبع كل سويٍّ من البشر؛ لكن ما عبّر عنه رسول الله ﷺ في إجابته لمن سألوه لا يُفْهَمُ إلا إذا فُهِمَ المشهد كاملاً حتى يمكن إدراك أبعاد التوجيه النبوي النفسية والتربوية.

فالمشهد يضع الطفل إلى جانب جده وهو يصلي إماماً بالناس، ثم خرَّ هذا الجد إلى الأرض ساجداً، وكل ما يعيه الطفل من الموقف هو نزول الجد

---

(١) سنن النسائي: ١١٢٩.

الحبيب الودود إلى الأرض، وهو غيرُ مدرك لما يعنيه الموقف لعالَم الكبار من أنها صلاةٌ وأن جدَّه إمام، وأنّ الحركة حركة سجود، وأن جمع المسلمين خلف جده يتابعون حركاته، فكل هذا ليس في وسع الطفل وعيه وادراكه، وليس هو مما يهم عالمه، فكل ما يعيه ويعنيه أن جده نزل إلى الأرض، فما كان منه إلا أن سارع فرحاً إلى اعتلاء ظهره للّعب والمداعبة.

وهنا تأتي حكمة رسول الله ﷺ وإدراكه لطبيعة عالم الطفولة ومداركها وأساليب التعامل الودود معها، وهي فرصةٌ عمليةٌ يُعلِّم فيها رسول الله ﷺ أصحابه درساً بليغاً عن عالم الطفولة وخطاب عالم الطفولة، فأطال السجود، ولم يسرع إلى إنزال الطفل اللاعب عن ظهره، لأنّ الطفل لن يدرك من ذلك الموقف إلا أن جده قد طرده وأبعده، خاصة وأن الجد في صلاته لن يتبادل مع الطفل الحديثَ، ولن يشرحَ ويوضحَ له ويزيلَ من نفسه شيئاً من رهبة سكون الموقف، ولذلك نجد الرسول ﷺ يطيل السجود ليعطي الطفل فرصة اللعب والاستمتاع باعتلاء ظهر جده، ثم ينزله وهو فرح عن ظهره، وقد لاعبه، وأنست بذلك نفسه، غيرَ مطرودٍ ولا مستوحشٍ[(١)].

وحين يذكر الأقرع بن حابس لرسول الله ﷺ وهو يراه يُقبِّل حفيده الحسن، أنه ما قبَّلَ أحداً قط من أبنائه العشرة، فيقول له ﷺ: "من لا يَرحَم لا يُرحَم"[(٢)] وقد يُظَنّ أنّ المقصود فقط رحمة الله؛ إلا أنه من الوارد هنا أيضاً من الناحية النفسية التربوية أنّ من لا يرحم الصغير ويقسو عليه في طفولته

---

(١) رواه أحمد في مسنده: ٢٦٣٦٣:

قال ثنا محمد بن أبي يعقوب عن عبد الله بن شداد عن أبيه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشي (أي بعد الزوال) الظهر أو العصر وهو حامل الحسن أو الحسين فتقدم النبي ﷺ فوضعه ثم كبر للصلاة فصلى فسجد بين ظهري صلاته سجدة أطالها قال: إني رفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت في سجودي فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس: "يا رسول الله إنك سجدت بين ظهري الصلاة سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك"؟ قال: "كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته".

(٢) صحيح البخاري: ٥٥٣٨.

فسوف تناله قسوة قلب الصغير حين يكبر، أي: إن من لا يرحم الطفل صغيراً فلن يرى أيضاً من الصغير رحمة في كبره وشيخوخته، وهكذا تتعاقب الأمراض والعلل النفسية على مر الأجيال والنفوس بسبب الجهل والقسوة.

ولكن مع قصور فهم الطفولة، وإهمال دراسة أطوارها، والاحتفاء بحاجاتها، لم يكن من الممكن وعي الدرس النبوي ووعي أبعاده التربوية التي لا تقف عند حد مجرد التعبير الغريزي عن محبة الوالد لولده؛ بل تتعداها إلى تعليم الأساليب الصحيحة في التعامل مع الطفولة بمنهج الحب والود والعناية والرعاية التي تنمي المشاعر الإيجابية وحس الكرامة والثقة بالنفس.

ولننصت إلى رسول الله ﷺ يخاطب الصبي عبد الله ابن عمه العباس فيقول له: "يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءٍ كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف"[١]

فماذا نجد في هذا الخطاب؟ نجد معنيين تربويين أساسيين هما لبنة كل تربية سليمة للإنسان الحر المؤمن المعبّد للخير والإصلاح. أولهما إقامة علاقة حب وود وتساند نفسي بين الفتى وربّه سبحانه وتعالى الذي يكلأ المسلم ويحفظه ويرعاه، وثانيهما هو تنمية روح الشجاعة والإقدام على أساس من حس القلب، واقتناع العقل، ومسؤولية الضمير، ومبادرة الاستخلاف "وإن أفتاك عنه الناس"[٢]

---

(١) رواه الترمذي في سننه: ٢٤٤٠ وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرج الإمام أحمد بسنده عن وابِصَةَ بن معبَدٍ صاحبِ النبي ﷺ قال: جئتُ إلى رسول الله ﷺ أسأله عن البر والإثم، فقال: جئتَ تسأل عن البر والإثم؟ فقلت: والذي بعثكَ بالحق ماجئتك أسألك عن غيره! فقال: "البِرُّ ما انشرحَ له صدرُكَ، والإثمُ ما حاك في صدرِكَ وإن أفتاك عنه الناس". المسند ج٤، ص ٢٢٧، وأخرجه الدارمي في كتاب الرقائق، باب في البر والإثم، ٢/ ٣٢٢

ليس في خطاب النبي ﷺ - لمن يعي طبائع النفوس والمراحل التي يمر بها الطفل - دعوة إلى التصرف بنزق وتهور وانعدام مسؤولية؛ لأن غاية خطابه ﷺ للطفل إنما كان يستهدف تكوين الشجاعة والكرامة والثقة بالنفس، أما الفعل وأثره ومسئوليات صاحب القدرة والأهلية من البالغين فهي مجال خطاب العقل والمسؤولية وطلب الأسباب، فالإقدام والتوكل لا يكون في حساب البالغ المسئول إلا بعد أن "يعقل" الأمر بالحرص على اجتهاد الأخذ بالأسباب[١] الخطاب النبوى هو خطاب تربوي للطفل ينضح بحب الصغير واحترامه، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يمر بالصغار إلا سلم عليهم[٢] فالبالغ اليافع الكريم من الرجال والنساء هم أنفسهم أولئك الصغار الذين كانوا في طفولتهم موضع الاحترام والثقة والتقدير، فإن شئت أن ترى بالغاً كريماً فنشِّئ صغيراً على الكرامة والاحترام والثقة والتقدير.

وهذا الصبي اليافع الذي أخذت تمزق جسده وفؤاده سياطُ الشهوةِ يستأذنه في الزنا مفصحاً عما فاجأه من لواعج نفسه فلا يتهدده النبي ﷺ ولا يتوعده، لكنه يخاطب نفسه ومكامن العزة والأنفة فيها، ليقيم منها حارساً على خوالجها وتطلعاتها، في الوقت الذي يزجي للشباب الذي لا يقدر على تكاليف الزواج النصح للأخذ بالأسباب، ومنها الصوم فإنه "وِجاء" وعون للشباب على أنفسهم، وفي الوقت نفسه يدعو إلى التبكير بالزواج، وتخفيف أعبائه، ومساعدة الفقراء وإعانتهم على تأمين تكاليفه.

هذه هي طبيعة الخطاب النبوى التربوى للطفل، يدعو فيه إلى إظهار العناية والرعاية، وإظهار الحب والمودة والرفق بالصغير. ففي الطفولة - ومن خلال

---

(١) روى مسلم في صحيحه: ٤٨١٦ عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز) وروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رجل: "يارسول الله أعقلها وأتوكل أم أطلقها وأتوكل؟ قال: اعقلها وتوكل".

(٢) صحيح البخاري: ٤٠، عن أنس رضي الله عنه متفق عليه.

الحب والتشجيع والعناية والاحترام - تنمو النفوس، وتنمو قدراتها وطاقاتها على العمل والبذل والمبادرة والنخوة والكرامة.

بل إن عنايةَ رسول الله ﷺ تبدأ بالاهتمام بأمر الطفل قبل أن ترى عيناه النور؛ ويكون ذلك في حسن اختيار الوالدين المؤهلين لحسن تربيته " أنكحوا الصالحين والصالحات"(١) "تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء..."(٢) و"تزوجوا الودود الولود"(٣)

لقد ضيع المسلمون الخطاب النبوي التربوي الرؤوم في خطاب الطفل، وأحلوا محله خطاب الاستهانة والقسر والترهيب، فلم يحفلوا بدراسة الطفولة وتنميتها واستنبات القدرات والطاقات النفسية والجسدية الكامنة فيها، ولم يوظفوها لتحقيق التغيير واستعادة الطاقة؛ فذلّت شعوبهم، وخمدت مكامن الطاقة فيها، واستقدموا القبائل والمماليك والأغراب والأعداء للذود عن أنفسهم وحماية بيضة دولهم، وليقمعوا شعوبهم ويجعلوها وأنفسهم - في خاتمة المطاف - فريسةَ سلاحِ جندهم وقهرِ أعدائهم.

❋ ❋ ❋

(١) سنن الدارمي: ٢٠٨٦.
(٢) سنن ابن ماجة: ١٩٥٨.
(٣) سنن النسائي: ٣١٧٥.

الفصل الرابع

الحل الأساسي: بناء الطفولة

كما سبق أن ذكرنا من أنّ العوامل الفاعلة في القضايا الكبرى لابد لها من أن تتعدد، وأن الجهود لحل الإشكالات الكبرى لابد لها من أن تتنوع، وفي كل الحالات علينا أن ندرك أن كل عامل وكل جهد إنما يتوقف وزنه وأولويته على طبيعة الموقف، وعلى ظروف الإشكال والتحدي والعلاقات المحيطة به. لذا فإنّه ليس فيما يقدمه هذا البحث، من رؤيةٍ ومن حلولٍ، لتفعيل مشروع الإصلاح الإسلامي، مايلغي أهمية العوامل الأخرى الكثيرة المؤثرة في أزمة الأمة وقصور أدائها، ولايلغي أهمية الجهود ومنطلقات العمل والإصلاح القائمة على مختلف الجبهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدعوية والدفاعية، وإنما يقصد به استكمال الأدوات المعرفية والفكرية والثقافية والتربوية، حتى يتم التعامل مع كل العوامل المؤثرة في الموقف، واستكمال كل الجهود المطلوبة لتحقيق النجاح في حل الأزمة، واستعادة طاقة الأمة ودورها الحضاري الرائد، مهما كان مذاق العلم بأوجه القصور حنظلاً، وكان طعم النقد الذاتي مراً.

والعامل الذي يستهدفه هذا البحث بالاهتمام هو في المحصلة الطفولة التي انتهى إلى أنها كانت وما زالت هي البُعد الغائب المهم في الفكر الإسلامي، الذي حال دون تفعيل مشروع إصلاح الأمة وتحريك كوامن طاقة التغيير فيها. إنّ غياب دور الطفولة في بناء المجتمع منذ ما بعد عهد الرسالة كان وما

يزال سبباً وعاملاً رئيساً في تدهور المجتمع المسلم، وتوزع جمعه، وتنازعه، وتبدد قواه، وفشل الجهود في التغيير وإصلاح الخلل، وسبب إخفاق تحقيق مشاريع الإصلاح الحضاري الإسلامي حتى الآن.

لقد حاولنا في الصفحات السابقة أن نرسم صورة للبيئة السياسية والاجتماعية والفكرية، وأن نوضح الأسباب التي أدت إلى ضعف الاهتمام - في الفكر الإسلامي - بالطفولة ودورها في التغيير الاجتماعي من جهة، وعلاقة ذلك بتردي الأداء الاجتماعي والتراجع الحضاري من جهة أخرى.

فقد أدى الفصام بين النخبة الفكريّة والسياسية - وما نتج عن ذلك من عجز - إلى سيادة فكرٍ نصّيٍّ نظريٍّ، ونتج عن ذلك سفسطائيةٌ مدرسيةٌ في (ثقافة الخاصة)، وسطحيةٌ وخرافيةٌ في (ثقافة العامة)، و(نصّيَّةٌ استظهاريةٌ) في (منهج التعليم)، و(سلطويةٌ استعلائيةٌ قهريةٌ) في (منهج التربية)، و استبدادٌ وتبديدٌ وقهرٌ في مزاولة السلطة والحكم، وتمزقٌ وصراعٌ في علاقات المجتمع، وقصورٌ وانحطاطٌ في أداء الفرد والمجتمع، وتقهقرٌ وانهيارٌ في الحضارة والعمران.

طريق الإصلاح ومواجهة التحديات

على الرغم من أن أزمة الأمة في أصلها كانت سياسية اجتماعية ناجمة عن صراع التوجهات والفئات والعصبيات، فإنها تحولت إلى أزمة فكرية ثقافية حضارية تشوَّهَتْ معها الرؤيةُ والثقافةُ، وخمد معها الفكرُ، ثم كانت الكارثة حين تحولت إلى أزمة نفسية وجدانية تربوية تتعمق وتتوارث، وتقعد بالأمة عن القدرة على الاصلاح والتجديد، واستعادة زمام المبادرة والقدرة على مواجهة التحديات.

ولكي تحل الأزمة، ويتم الإصلاح، وتستطيع الأمة أن تتخطى العقبات، وتواجه التحديات، لابد لنا في هذه المرحلة من البحث والدرس، وأن نأخذ بالتفكيك والتحليل العكسي؛ بهدف معرفة جوهر التحديات، ووجوه قصور

الأداء التي تواجهها الأمة، لكي نتعرف على معالم وجوه التغيير والإصلاح المطلوب؛ حتى تتمكن الأمة من مواجهة هذه التحديات، واستعادة القدرة على إتقان الأداء، وتمكين دين التوحيد والاستخلاف والعدل والعمل والتكافل والأمن والسلام، من أداء دوره في التقييم والتقويم والعطاء الحضاري الإنساني.

التحديـات

وحتى تصبح الجهودُ فعالةً والإصلاحاتُ منتجةً، لابد لنا من أن نعلم ماهية التحديات الكبرى التي تواجه العقل المسلم والأمة المسلمة؛ ليكونَ ذلك دليلَ هداية وتوجيهاً لأعمال التغيير والإصلاح، ويكون المقياس نتائج حقيقية عملية، لا مجرد دعاوى وسرد تمنيات القدرة العلمية والتقنية (التكنولوجية).

والتحدي الأكبر الذي يواجه العالم الإسلامي اليوم، والذي يجب مواجهته والتغلب عليه قبل أي شيء آخر، والذي هو شرط للنجاح في كل شيء آخر، إنما هو تحدي (القدرة العلمية التكنولوجية) التي أخضعتْ قدراتها الهائلة شعوبَ العالم الإسلامي وقهرتها، وإن وسائلَ (العولمةِ)[1] ضاعِفُ من قدراتِ الأجنبي - بإمكاناته العلمية والتكنولوجية - على تحقيق مزيدٍ من التحكم في مقدرات الأمة وقهرها واستغلالها، وتهميش دورها وثقافتها، وتمزيق كياناتها.

وإن امتلاك (القدرة العلمية التكنولوجية) أمرٌ لا يكون باستيراد الأدوات

(١) يجب أن نفرق بين العالمية والعولمة؛ ذلك أن العالمية - في رأينا - هي صيغة تقرير حقيقة، ولذلك فهي في بنائها اللغوي تعني القدرات والوسائل العلمية التي تمكن بني الإنسان من التواصل والتعارف والتبادل والتعاون، أما العولمة وهي صيغة تعني الإقحام فهي المصطلح الذي يُقصَد به ما يجري اليوم من استخدام القدرات والإمكانات العلمية من قبل قوى التسلط والقهر في التسلط على الشعوب الضعيفة وقهرها والتحكم بمقدراتها وسوء استغلالها.

والمعدات وسوق جموع الشباب إلى غرف الدراسة، لكن ذلك يتم - بالدرجة الأولى ثقافياً ومنهجياً وتربوياً - بتطوير العقلية العلمية، وتنمية القدرة النفسية الإبداعية. لقد استوردنا كل الأدوات والمعدات، ولم تكن النتيجة إلا تكريس الروح الاستهلاكية لدى أبناء الأمة، وإهدار الموارد في شرائها، وحشد زرافات من (الحفَّاظ) التقنيين الذين يملؤون المكاتب بالبطالة المقنعة؛ ذلك لأن الإشكالية في جوهرها إشكاليةٌ فكريةٌ ثقافيةٌ تربويةٌ قبل أن تكون قضيةً ماديةً كميةً.

لابد لأي أمة تتطلع إلى الحصول على القدرة العلمية التكنولوجية من أن تمتلك فكراً إنسانياً اجتماعياً حياً، وعلوماً اجتماعية إنسانية حية، ومنهجيات علمية سننية تقوم على عقول بشرية نابهة.

ثقافة العلم والتقنية هي ثقافة سننية، ومنهجيتها منهجية سننية، ولكن ذلك وحده لا يضمن ثقافةً وحضارةً علميةً روحيةً خيّرةً، فلكي تكون ثقافة علمية إنسانية حضارية روحيةً خيّرةً لابد لها من أن يكون هدفها التنظيمي الاجتماعي والإبداعي العلمي هدفاً خيّراً؛ يستند إلى هداية ثوابت الإيمان بالله الحق، وعلى أساس مبدأ غائية التوحيد الأخلاقية، وقيم العدل والتكافل والسلام، لا أن يكون همها الاستكثار والاستكبار وتوليد أسلحة البلاء والدمار. ولكي تتمكن الأمة من مواجهة تحدي (العلم والتقنية) لا بد لها من التصدي لإشكالاتها الثقافية والتربوية حتى تستطيع أن توفر الشروط المنهجية والتربوية اللازمة للنجاح في امتلاك القدرة العلمية التقنية.

الإشكال الثقافي: فضُّ المعارك الوهمية وتصحيح المفاهيم

الإسلام دين العقل والاقتناع والعلم

والإشكال الأول في هذا المقام هو الإشكال الثقافي، وهذا الإشكال لابد من التصدي لتشوهاته ووجوه قصوره؛ التي تغوص في أسس العقلية العلمية، وتشوش المناهج السننية، وتوهن الطاقة الفكرية.

لابد للأمة من أن تستعيد ثقتها بنفسها، وبقيمها ومبادئها وأبنائها، ولقد قام عهد الرسالة على الإيمان المبني على الاقتناع والشورى واحترام العقل، وقد خاطبت الرسالة العقل والضمير والوجدان، وسلكت طريق الاقتناع العلمي، وحاربت طريق الجهل والمتابعة العمياء، إنه خطابٌ سألَ الأصحاب عنه، وجادل الأصحاب فيه، واعترض الأصحاب عليه، وآمن الأصحاب به، آمنوا إيمان فهمٍ وسلَّموا تسليم اقتناع، لا إيمانَ خوفٍ، ولا استسلامَ رعبٍ وفزع، فكانوا هداة عاملين ومجاهدين أقوياء.

كان احترام عقل الإنسان واحترام اقتناع ضميره هما الصخرة المكينة التي بُني عليها عصر الرسالة، وكان تحريرُ الإنسان وتحرير ضميره غايةَ الإسلام وغايةَ فتوحات الإسلام ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٩] ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ٧٥] ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠] ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٤].

عقوبة الردة لا تتعلق بالإيمان أوالاقتناع

وما فزع أحد على عهد رسول الله ﷺ من تهديد الموت لمن يرتد؛ لأنهم كانوا يدركون أن الإيمان لا يكون إلا عن اقتناع، وأن ذلك أصل من أصول الدين ومقاصده ومنطلقاته، ولا يمكن ولا يصح فرضه على إنسان، وأن التهديد لم يكن يتعلق بالإيمان والقلب، ولكنه كان خطاباً ليهود تآمروا أن يدخلوا الإسلام تظاهراً، ليخرجوا منه، فتنةً للناس، فهي قضية مؤامرة وكيد، وليست قضية إيمان واقتناع، ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/

٧٢] لذلك لم يروا في ذلك، تهديد المتآمرين ووعيدهم إلغاءً لحق الإنسان في اقتناعه وإيمانه، ولم يأخذوا أحداً من أهل الكتب والحضارات بالقهر والقسر في نظام حياته أو عقيدته، ليس فقط لعلمهم أن من آمن عن اقتناعٍ وعلمٍ، ما كان له أن يستبدل بدين التوحيد والاستخلاف ومسؤولية قصد الخير خرافةَ الشرك والوثنية، وجهالةَ الإلحاد والجحود، بل لأن هذه العقلية آمنت بالإنسان، وبحقه في تقرير مصيره، وهو أمر غير حال القبائل الوثنية العربية التي كان نظامها الاجتماعي في حالة بدائية، وكان الأمر بالنسبة لها ليس أمر عقيدة واقتناع؛ بل أمر تنظيم اجتماعي حضاري ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨/٩] ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤/٤٩] وهذا غير ما آل إليه المتأخرون الذين فقدوا - في متاريس الدفاع ضد الهجمات الجاهلية - الثقةَ بالإنسان، وعقل الإنسان، وحق الإنسان، وانكفؤوا في لهيب الدفاع عن الذات والمقدسات إلى الحرفية النصِّيّة المجردة من إدراك الجوهر وراء الزمان والمكان، ومن ذلك أن أصبحت الردة "حداً" لا "تعزيراً"، وأصبح الإيمان بذلك مشوباً بشبهة الجبر والقهر، كما أصبح الانتساب بالدم إلى قوم النبي ﷺ سبباً لإجبارِ العربي البدائي الوثني على الإسلام وعلى نظامه الاجتماعي، وليس لبدائية مجتمعه وهمجية قيمه وعلاقاته، على عكس مجتمعات القيم والأنظمة الاجتماعية الحضارية ومن على شاكلتهم من أصحاب الكتب والحضارات من اليهود والنصارى والمجوس، ومن كان في الحضارة على طرازهم[١] وإن أَخْذَ قبائل العرب بمبدأ "إما حرب أو إسلام" إنما هو أخذ بيد هؤلاء البدائيين - رحمةً بهم - إلى مجتمع

(١) أبو سليمان، عبد الحميد أحمد، ترجمة ناصر أحمد المرشد البريك. النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية: اتجاهات جديدة للفكر والمنهجية الإسلامية. الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، ب ت. ص ٢٠٢-٢١١

الحضارة والنضج الاجتماعي والكرامة الإنسانية، وليس تنكُّراً لمبدأ حرية العقيدة.

القديم الجديد في المنهج: الديني والمدني

هذا المثل يقودنا إلى إشكالية الجزئية والحرفية النصِّيَّة وضعف الضبط المنهجي في علاقات الأولويات والمبادئ والمنطلقات بالتفاصيل والأحداث في ثقافة الأمة، ودورها في تشويه العقلية العلمية، لأنه إذا لم تواجه هذه الإشكالية بصراحة علمية كاملة سوف يظل الحوار الفكري حواراً عقيماً يدور في حلقات مفرغة تكرس التقابل والتعارض والاستقطاب بين مثقفي الأمة ومفكريها، بين تقليدي وعصري، وديني ومدني وعلماني، وتُتْرَكَ الأمة - بين صراع دِيَكَةِ مثقفيها - في غيبوبةٍ وجمودٍ.

إنَّ كثيراً من (الأجهزة) الدينية سيطر عليها إحساس الخوف بالخطر بسبب الهجمة الثقافية الغازية، وبحكم ضعف القدرة على مواجهتها، لذلك أصبح السائد في خطابها مسحة (الترهيب) والهجوم المعاكس على المدني والعلماني، ووصم المخالفين له بالخروج والمروق، هذا من جهة، كما أن عدم اقتناع المدني بمقولات الديني ومناهج فكره وخطابه أدى بدوره إلى إرهابية خطاب المدني والعلماني وعدوانيته، ووسم الديني جزافاً بالتخلف والجهل؛ لأنه لا ينحو منحاه في انبهاره وتقليده الأعمى (للآخر).

هذا التصادم أدى إلى استقطاب هدّام صرف المدني والعلماني الجاهل عن معرفة مكنون دينه وحضارته؛ ليقفَ من الدين والتاريخ موقفاً يتراوح فيه بين العداء وعدم المبالاة، كما صرف الديني في الوقت نفسه عما حققته الحضارة الإنسانية من معارف، خوفاً منه على دينه وتراثه وتاريخه من روح الهزيمة والاستسلام للمستورد من العلوم الإنسانية والعقلية، وبذلك أصبحت الأمةُ مشلولةً موزعةً بين مدرستين مدرسة دينية حرفية تقليدية، تقابلها وتعارضها مدرسة مدنية علمانية تقليدية حرفية مستغربة، وقد بُني جوهر قصورهما وتعارضهما - في كثيرٍ من وجوهه - على الخوف والعجز والجهل.

لابد من نزع فتيل الإرهاب الفكري في الخطاب لدى كل الأطراف من أصحاب الفكر والمعرفة، ولابد من إزالة عجز الجهل في جوانب فكر المتعارضين. هذا هو السبيل إلى فتح باب الحوار وإعمال الفكر في القضايا المطروحة القائمة أمام الأمة والتحديات المشرعة في وجهها، وأن يحل محلَّ التصادم روحُ التكاتف في بناء المشروع الحضاري الإسلامي للأمة، المشروع المرتفع على قوائم عقيدة التوحيد والاستخلاف، وقيم العدل والتكافل والسلام، وأداة العلم والعقل، وأداء الإتقان والإحسان، وهي قيم ومبادئ سامية، ومطلب صادق لكل مخلص من أبناء الأمة، وهدف يسمو على الأنساب والانتسابات.

مطلب (الكادر) المدني المسلم وغايته - من حيث المبدأ - هو الحصول على قدرة العلمي السنني، ومطلب (الكادر) الديني الإسلامي - من حيث المبدأ - هو هداية قيم الإسلام السامية، ولا يتعارض - في الحقيقة مطلب وموقف (الكادر) المدني المسلم مع الغايات والمقاصد السامية للكادر المدني المسلم، ولكن الإشكال يأتي- في الحقيقة - حين ينطلق الفريقان في الحوار على غير أساس منهجي، ومن منطلقات وتصورات ومخزونات فكرية قاصرة مشوهة، لا تمثل قاعدة صالحة لفهم مشترك أو حوار بناء.

يجب تمهيد أرض الحوار ابتداءً، ومن ثم الاتفاق على الثوابت، والاتفاق على الأهداف والغايات، وعرض الإشكالات الأساسية لدى كل فريق بما يسمح بتبادل وجهات النظر، وتبادل المعلومات المتعلقة بقضايا الخلاف والإشكالات المطروحة، وإدراك جوهرها، وإيجاد الحلول المقبولة المناسبة لمعالجتها إشكالاتها؛ بما يقيم أرضاً وأهدافاً مشتركة مبنية على الثوابت والغايات المشتركة، وبروح تقبُّل الآخر، وإدامة الحوار المثمر، والتعاون الخير معه، في وحدة حضاريه إنسانية.

يتفق المسلمون وجمهور المدنيين المثقفين على الإيمان بالله الخالق الأوحد، وهداية الوحي، ومقاصده في قيم العدل والخير، وكرامة الإنسان، ومسؤولية

العمل، ويتفقون على طلب السنن، وواجب السعي، وإتقان الأداء، ومسؤولية الفعل.

يتفق جمعهم على سمو رسالة الإسلام، ويتفق جمعهم على مثالية عهد الرسالة، ويتفق جمعهم على أن الأمة قد انحرفت عن مسار عهد الرسالة، وعن مقاصدها النبيلة، ويتفق جمعهم على أنّ الأمة فقدتْ قدرتها وضعفتْ عزيمتها، وانهارتْ مؤسساتها، وتمزق صفها، وسلبتْ حقوقها، وقهرتْ شعوبها، ودنستْ حرماتها.

يتفقون على ضرورة امتلاك القدرة في العلم والتقنية، وامتلاك أسباب القوة المادية والمعنوية، وضرورة الإصلاح، وتحريك كوامن الطاقة في الأمة، والتزام مكارم الأخلاق.

ولكن هذا الاتفاق يصبح أقرب إلى الأماني والتمني حين لا يؤهل الأطرافُ أنفسَهم للحوار والتواصل بشأنها، على أساس من العلم والمعرفة بما في يد كل طرف من الأطراف، سواء أكان ذلك في ميدان الدين والتراث والتاريخ الإسلامي أم في ميدان التراث الإنساني في علوم السنن الاجتماعية ومناهج النظر والبحث العلمي فيها.

إن الأمة الإسلامية تعاني في الحقيقة من علمانية عجيبة تتساوى فيها الحالة الفكرية للمدني وللديني؛ التي تنجم عن إصرار كل فريق منهما على الجهل بالآخر، وبحصيلة علم الآخر وفكره وقدراته، مما يحيل الحوار إلى منابذة الجهلاء وملاحاتهم، ويؤدي إلى تعميق الخلافات فيما بينهم، وسد منافذ اللقاء؛ فيغيبَ ضميرُ الأمة، ويخمدَ عزمُها.

لنبدأ بخلق جيل جديد من العلماء والمثقفين الذين يتحلون بعلم الوحي والشهادة، وبإدراك مقاصد الدين وقيمه، وكنوز التراث ودروسه وعبره، وبمعرفة علوم الإنسان والاجتماع والمواد، ومناهج السنن التجريبية؛ وليأخذَ العلماءُ والمثقفون مناهجهم بتوسيع دائرة معارفهم، وامتلاك ناصية الحوار

والتعاون المثمر، وعلى الجامعات ومراكز البحث العلمي أن تقدم المناهج وتهدي إلى المصادر، وتطور المواد اللازمة لثقافة المسلم في جوانبها المعرفية الدينية الإلهية والسننية الإنسانية، وقد شهدتْ الساحةُ العلميةُ في هذا المجال جهوداً جادة رائدة جعلت التأصيلَ، وإسلاميةَ المعرفة، وإصلاحَ مناهج الفكر، قضيةً مطروحةً على الساحة العلمية الثقافية في العالم الإسلامي؛ بحيث تتبلور على أساسها أدبيات وحدة ثقافة الأمة وغاياتها، ومناهج فكرها، وأساليب تربيتها، وهي جهود يجب تنميتها وتطويرها.

من المطلوب أن يجلس الفرقاء معاً مزودين بالعلم بمعرفة مقاصد الدين وقيمه وطاقات علوم السنن، وأن يدرسوا الأسباب التي تحول دون تمثل عامة الأمة لقيم دينهم وغاياته، وتحول دون تمكنهم من حسن الأداء وقدرة العلم والتقنية، وكيف تنقّى ثقافة الأمة من فكر الشعوذة والخرافة والخزعبلات؟ وكيف يواجهون شيوع السلبية والخنوع وضعف البُعْدِ العام في بناء شخصية أبناء الأمة، ودورها في إخماد روح القوة والشجاعة والمبادرة والبذل والنصرة في أدائهم؟ وكيف تحول دون الاستجابة الفعلية الوجدانية لمتطلبات مواجهة التحديات؟.

لو تحاور علماء الأمة وعقلاؤها ومفكروها في هذه الظروف الحرجة، وعلى مختلف مشاربهم ومدارسهم، وهم يستحضرون الأساس المشترك من مقاصدهم ومبادئهم؛ لكان أمر لقاء الفكر وإصلاحه يسيراً، ولأمكنهم التعاون على وضع الخطط العملية التي تسع تعاون الجميع لإصلاح الخلل، وبناء القواعد، وتشييد مستقبل الأمة والأجيال.

اهتمامات المدنيين وملاحظاتهم المنهجية

من أهم القضايا التي يختلف فيها الفرقاء الدينيون التقليديون والمدنيون المستغربون على غير أساسٍ هو: هل يعني التزام المدنيين وطلاب المعارف الإنسانية المنهجَ العلمي السنني هو بالضرورة إنكارٌ لعوالم الغيب وتصريف الله لشؤون الكون وفق حكمته وغاية خلقه بما لا يحيط بكلياته منطق الإنسان

وإدراكه؟ وهل يعني التزام العقل والسببية إنكارٌ للغيب وما يتعلق به من أقدار الله في تصريف شأن الكون؟. وينشأ هذا الخلط على الجانبين كما يلي:

أولاً: حينما يتحدث الدينيون عن الدعاء والتوكل والتسليم والحكمة الخفية لأقدار الله في تسيير شؤون الخلق يلقون عادةً بالنصوص والشواهد، ويقدمونها في خطاب وعظي، ويعرضونها مبتورةً عن صورتها الكلية، مُنْبَتَّةً عن اطرها المعرفية، وعن أبعادها الزمانية والمكانية، ودون أن يلقوا بالاً إلى السنن في الخلق وآثارها في الوقائع؛ لأن جلَّ فكرهم لا ينفعل بقوى الحركة والفعل في المجتمع، فيأتي وقع قولهم في آذان المدنيين وكأنه غيبة وعي وإلهاء عن واقع الحال، فالدينيون حيناً يتوجهون إلى شعوب الأمة ويدفعونهم إلى ما يجب أن يفعلوه - جزافاً - لتغيير أحوالهم والتصدي لتحدياتهم، وفي أحيان أخرى يقع قولهم وكأنه مجاراةٌ لمشاعر جموع الناس المأزومة، فيكون مجرد تفجير لإحباطاتهم، دون إدراكٍ أو تقديرٍ لواقع حالهم، وإمكانات طاقتهم، مما يفجر على غير هدى أزماتهم؛ فتزدادَ معاناتهم، وتنهكَ كياناتهم، وتبددَ طاقاتهم، وتضيعَ جهود البناء والإصلاح.

ثانياً: وتأتي اعتراضات المدنيين والعلمانيين والمسغربين في آذان الدينيين وكأن تساؤلاتهم المشوبة بالرفض والتقليل من شأن مقولاتهم والدعوة إلى الإعراض عنهم ومتابعة الأجنبي المستعمر وكأنّها إنكارٌ لقداسة الدين وما يتلوه الدينيون من نصوص، وإنكارٌ لعالم الغيب ولوجوه قدرة الله وعنايته في تصريف شؤون خلقه.

وإذا كانت الأطراف عامة - ومن زوايا مختلفة - في الحقيقة على اتفاق في المبادئ والمنطلقات التي تؤمن بالله وسننه وتدعو إلى التدبر والعمل: "احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز"[1] فيكف يحدث هذا الخلطُ مع وجود هذا القدر المشترك بين أبناء الأمة انطلاقاً من مظنة غيبة الوعي من جانب،

(١) رواه مسلم في صحيحه: ٤٨١٦.

ومظنة الإلحاد والجحود من جانب آخر؟ وكيف يقوم هذا التعارض والاستقطاب؟ وكيف ينقطع الحوار بينهم؟ وكيف تتعارض المواقف، وتثور الصراعات العقيمة؟.

إن مرد هذا الخلط وهذا اللغط أن مُحْكَمَ القول والمنطلقات في الدين أصبحت دلالةُ كثيرٍ منها تضيع في حرفيات أكداسٍ من الروايات المتعلقة بأحداثٍ ومواقف تناثرت على مدى نصف قرن من الزمن، هو عهد النبوة والخلافة الراشدة؛ التي استندت رواياتها إلى سلسلة جموع غفيرة من الرواة، تفاوتت درجات وعيهم وإدراكهم، وزوايا رؤيتهم، وسلامة طوياتهم، على مدى قرنين من الزمان، على اختلاف البلاد والصفات والمشارب والولاءات، وما تعرضوا له - وتعرضت له أجيالهم - من حروب وصراعات، وما توزعتهم من مصالح وتحزبات وعصبيات وآراء وغايات؛ مما جعل مهمة التدوين والتحقيق، والموضوعية، والمؤثرات الواعية وغير الواعية فيها، من أصعب المهام، بعد مضي هذه العقود والقرون؛ التي يهولك أن ترى معها مدى الجرأة في التطاول على مقام الرسالة بالتحريف والكذب والوضع؛ ويصعب معها الضبط الكامل والتوثيق الدقيق، ويعسر التأكد من سلامة مداخل الرواية التي لا حصر لها؛ وقد أدى ذلك في مجال الرواية إلى وقوع كثير من الخطأ والخلط والتهاون والتدليس، والادعاء والكذب والكيد، بسبب ابتسار القول، أو عدم إدراك المعاني، أو خطأ السمع، أوخلط السمع، أو النسيان، أو الهوى، أو طلب السمعة، أو بسبب الغفلة، أو الدس، الذي ينم عن كثير منها مايمكن أن يلحظه المتدبر للتفاوت والخلط والتعارض حتى في أقوال الراوي الواحد، الأمر الذي يمكن أن يتضح عند محاكمات نقد الفحوى والمتن التي يعلم طلاب العلم منها الكثير، ويزداد هذا القدر بزيادة من يتناول النصوص من أصحاب العلم والاختصاص بالسنن والطبائع والوقائع بالبحث والدرس والتمحيص، لأن مَنْ جمع علم النصوص

وأحداث التاريخ، وخبر- في الوقت نفسه- السننَ والأحوالَ في مجاله، كان أقدر على إدراك المقاصد، وإلحاق الجزء بالكل، والتطبيق بالمبدأ، وإدراك وجوه القصور، ومداخل الأخطاء والتحريفات، وسوء الفهم أو القصد، وهو ماتنبه له ولمنهجه العلمي في عصر متأخر العلامةُ ابنُ خلدون يرحمه الله.

إن من المهم لأهل العلم والمعنيين بدراسات توثيق النصوص أن يدركوا أن أمر النظر في النصوص، ولاسيما نصوصُ السنة، والاهتمام بأمرها، وبحث قضاياها، وما يترتب عليها من الآثار، لم يعد مقصوراً على أصحاب الاختصاص في علم الرواية وعلم الفقه والقانون وحدهم؛ بل أضيف إليهم فئتان من الناس:

الفئة الأولى هي فئة عموم الأمة الذين أصبحوا - بسبب انتشار الثقافة، ووعيهم بمجريات شؤون حياتهم وما يؤثر فيها - يطلعون ويقرؤون ويهتمون بكثير من النصوص، وبأشكال مختلفة، وكثيراً ما يكون أثرُها في إطار ثقافتهم المعاصرة سلبياً.

الفئة الثانية هي فئة أصحاب الاختصاص العلمي في مختلف شؤون الحياة المادية والإنسانية الاجتماعية، الذين يحاكمون النصوص إلى خبراتهم وعلومهم وحصيلة معارفهم السننية، وبذلك أصبح فحص النص على أيدي هؤلاء يتم على أسس علمية سننية لا يقف عند شكليات الرواية وحرفيات السند، بل تتعداه إلى المتن والتطرق إلى فحواه ودلالاته، ورده إلى أصوله وظروفه ووجوه الحق والإمكان فيه، والكشف عن الخفي من الظروف والأسباب والملابسات الممكنة في أمره، مما يوسع نطاق الدراسة والبحث والنظر، ويمتد بها إلى جوانب علمية موضوعية أوسع وأبعد من مجرد الاهتمامات بشكليات الرواية أو آليات بناء الأحكام.

اهتمامات الجمهور بشؤون حياتهم وما يؤثر فيها، واهتمام علماء السنن بتمحيص الفكر، يجب أن يقدَّر وينمَّى، لا أن يقابل بالإنكار والرفض بحجة

التخصص الضيق؛ ذلك لأن نطاق البحث العلمي ذاته ووسائله قد اتسعت وتغيرت، وكثير من طلبة علوم الدين والتراث على جهل بها وبأدواتها ووسائلها. ومن حق الناس أن يحاكموا - على ضوء ما يلمسونه واقعاً في حياتهم - أهل الاختصاص في نتائج مقولاتهم، وأن يردوهم إلى كتبهم وحلقات درسهم ومعاملهم وأجهزة إحصاءاتهم وحاسباتهم لإعادة النظر المتعمِّق، ومعرفة وجوه القصور، وأخذ واقع الحياة ومقاصد الشريعة ومصالح العباد في الحسبان.

على الرغم من كل وجوه النقد الجزئية فإن الوسائل والإمكانات العلمية قد تعاظمت بشكل أعطى إمكانات هائلة للبحث والنظر والتمحيص، يجب الاعتداد بها، والاستفادة منها في إعادة صياغة علوم النصوص ومناهجها ووسائلها، بما يحققُ وحدةَ المعرفة وتكاملها، وينقي الثقافةَ الإسلامية، ويمكِّنُ لهداية الألوهية والوحي، ويحولُ دون إساءة استخدام قدسية النصوص: ذلك الاستخدام الذي يؤدي - بغض النظر عن الأهداف والغايات - إلى إبقاء حالة التخلف والجمود، وتيسير سبل تبرير فكر الخرافة وترويجه؛ مما يدمرُ العقليةَ العلمية الإسلامية، ويعيقُ مشروعَ الإصلاح الإسلامي.

الإمكانات الحديثة والمنهجية الشمولية في قضايا نقد المتن والسند

إن ما روي من الأحاديث والسنن المعتبرة هو في حدود المائة ألف حديث، كثير منها تعددت رواياته بزيادة أو نقص أو اختلاف في اللفظ، وقد تتعارض الروايات ولا تستوي جميعها في مستوى الثقة بالرواية، فمنها الصحيح، ومنها الضعيف، بل ومنها ما قد يعده بعضهم من الموضوعات، وكثيراً ما يختلف تقويم النص الواحد والرواية الواحدة بين طلاب علم الحديث إلى حد يثير الحيرة والتساؤل عن مدى موضوعية المنهج، ودقة تطبيقه، ومدى الحاجة إلى إعادة النظر فيه، والإفادة من إمكانات العصر العلمية في تطويره، وبرغم ذلك فإنّ هناك مئات الألوف من مزعوم الحديث التي رُفِضَتْ، ولم تروَ، حتى

إن الإمام أحمد يرحمه الله يستقر بين يديه ما يقارب الخمسمائة ألف حديث لا يقبل ولا يروي منها إلا حوالي الخمسين ألف حديث، ليست كلها صحيحة، بل كثير منها يُعَدُّ من الضعيف، وهذا أمر هام ومؤلم يوضح الكمَّ الكبير من الروايات المكذوبة التي لا يُعْتَدُّ بها، ومعرفة هذه الحقيقة، والتي وإن ألقت ضوءاً على مدى الجهد الذي بذله علماء الحديث، والصعوبات التي واجهوها، يوضح لنا الحالة النفسية والذهنية وقساوة الصراعات والتيارات التي كانت قد سرت في كيان الأمة، ووجدت في التعبير الديني وسلاح القداسة وسيلةً رائجةً للمقارعة والانتصار، وسمحت بالتحريف وبدس الإسرائيليات والخرافيات وسواها من الأهداف والأغراض العقدية والسياسية، وسمحت برواية هذا الكم الهائل من مزعوم السنة والحديث وتداوله، كما تدل أيضاً على الحالة النفسية لدى كثير من الرواة في تلك العصور التي تولَّدت لديها رغبة شديدة في الرواية وطلب السمعة وتصيد النصوص وتداولها، بأي صورة كانت، دون الحرص - في كل الحالات - على تحري وجه الدقة والتمحيص المطلوبين، وليصبح كثيرٌ منها مطيةً لكل صاحب غاية أو غرض، ووسيلةً لتضليل العامة والأمة، وتشويش رؤيتهم، وتلويث فكرهم وثقافتهم.

ومن المهم كذلك ملاحظة أن جُلَّ النصوص المروية عدا عشرات من الأحاديث والسنن الفعلية التي تابعها - بحكم طبيعتها - جمهور الأمة لا يرق إلى درجة التواتر الذي يمكن الجزم بصحة الواحد منها، واستحالة الخطأ أو الكذب فيه، بل إن كثيراً من المروي لا يسهل أن يفهم لماذا يُروى آحاداً وهو بسبب طبيعة عمومية موضوعه وأهميته وطبيعة سعة مجاله كان من الواجب أن يكون متواتراً، بل إن بعضاً من هذا - لشدة الغرابة - لا يخلو من التفاوت والتعارض - حتى للراوي الواحد - في اللفظ وفي المبنى مما لايقبله العقل في كثير من الحالات.

لقد زهد شيوخ عهد الرسالة وقادتهم في رواية الحديث، والحرص على

عدم إشاعة تداوله لإدراكهم خطر سوء فهمه بسبب عدم إدراك الناس للظروف الزمانية والمكانية التي صاحبت أحداثه، والتي دونها يصعب إدراك القصد والدلالة. ولذلك فإن حرص هؤلاء الأصحاب على عدم الرواية أو الإقلال منها أمر يجب فهم حكمته ودلالته عند التعامل مع النصوص، خاصة مع ندرة ما صحب الرواية مما يلقي الضوء الكافي على الظروف الزمانية والمكانية والمقاصد التي تعلقت بها.

إن ما جرّ إلى روايات الآحاد والإكثار منها لدى المتأخرين، صحيحها وضعيفها - وبذلك القدر من التهافت - إلى جانب الأغراض السياسية والعقدية، هو أيضاً فكر العجز والعزلة؛ بهدف تغطية عجز الفكر بقهر القدسية، وهي ظاهرة تفاقمت طردياً مع عجز الفكر والنظر وقلة الخبرة والتجربة، فكلما زاد العجز الفكري وعدم القدرة على الاجتهاد لمتابعة المتغيرات ازدادَ طلبُ النصِّ على حساب الفكر والنظر المقاصدي؛ مما يفسح المجال للتقليد الحرفي، حتى أصبح بعضهم يفضل الأخذ بالنص الضعيف على الأخذ بالرأي. والرأي في الشريعة ليس القول الجزاف ولا اتباع الهوى، ولكنه تلمس روح الشريعة ومقاصدها حين لا تتوافر النصوص المباشرة، ولا يسعف القياس عليها في تحقيق مقاصد الشريعة ومصالح الخلق.

وما دار من خلاف حول كتابة الحديث - نهياً عنه أو سماحاً به- يدل على اختلاف وجهات النظر في أصل سلامة الإكثار من الرواية دون دراية، خشية سوء الفهم لعدم إدراك ظروفها المكانية والزمانية وما يتعلق بمجالاتها، فهل هي أحاديث من باب البلاغ؛ أي تبليغ الرسالة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة: ٥/٩٢]؟ أم هي أحاديث وتوجيهات تتعلق بدور الرسول ﷺ في الحكم وإدارة الدولة والرعية والتعليم والتنوير فيما يخص الناس والمجتمع، بحسب حال الناس وإمكاناتهم، وما يعرض لهم من حاجات وظروف وأحداث، يجتهد لهم فيها بحسب حالهم على ضوء هدي الشريعة المنزلة: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي

﴿ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٤/٥٩]؟ أم هي طاعة في أمرٍ بعينه لن يفصِّله القرآن الكريم لِيُبيِّنه الرسول ﷺ ويفصِّله من باب السنة الفعلية، وهو ما نصَّ عليه القرآن بعينه بشأن الصلاة والزكاة: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: ٢٤/٥٦]، فالصلاة والزكاة ركنان من أركان الدين لم يتعرض القرآن الكريم لتفصيل أمر أدائهما، على عكس الصوم والحج اللذين وضَّح القرآن الكريم أساسياتهما في نصِّ متنه، وبذلك كانت السنة النبوية ولاسيما الفعليةُ منها هي المصدر الأساس بشأن أداء الصلاة والزكاة، أما ما كان من قول الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله متعلقاً بشؤون الحياة ومطالب العيش «فإنما أنا بشر»[(١)] .

كما يجب ملاحظة موقف الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة ورجال الصف الأول منهم بشأن مَنْ تجرَّأ من آحاد الناس على رواية أقوال النبي ﷺ وتوجيهاته التي تعاملت مع الأحداث في ظروف بعينها، والحرص على بقائهم في المدينة حتى يتحدثوا فقط إلى مَنْ عاصر العهد وكانوا يدركون ملابسات الروايات.

كما يجب تفهم كليات ما ورد عن الرسول ﷺ ذاته في النهي عن كتابة حديثه أو السماح به، وما نمَّ عنه ذلك النهي أو السماح من مقاصد، بقصدٍ مجرَّدٍ عن العصبية للرأي والمذهب والصنعة، وعلى ضوء ما نعلم مما اعتور الرواية من إشكالات وعقبات. كل ذلك أمر يستحق التفكر والتدبر، ويعين على النظر في تحرير المنهج، لمواجهة ما أصاب ثقافة الأمة من عيوب، وما

(١) روى الإمام مسلم بسنده عن رافع بن خَديج أنه قال: (قَدِمَ نبي الله ﷺ المدينةَ، وهم يأبرون النخلَ يقولون يلقّحون النخلَ، فقال: "ماتصنعون"؟ قالوا: كنا نصنعه. قال: "لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً". فتركوه، فنفَضتْ أو فنقَصَتْ. قال: فذكروا ذلك له. فقال: «إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيءٍ من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيءٍ من رأيٍ فإنما أنا بشرٌ». كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ماذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي ٤/ ١٨٣٥ حديث رقم ١٤٠.

تواجهه من تحديات، وما انتهى إليه كثيرون من سوء وعشوائية استخدام النصوص، وجعلها مشاجبَ للخرافات والأساطير والأغراض والأهواء وانتصارا للعداوات، ووسيلةً لقهر ضمير الأمة وإلجام عقلها وإرهاب وجدانها، وأداةً للحرب والصراعات، وعوناً وأداةً بيد الأعداء.

فإذا أضيف إلى إشكالات الرواية ما نلحظه من ضعف نقد المتن؛ لأن النقد الفعال إنما ينبع من دراية الناقد العلمية بطبيعة الموضوع وخبرته فيه، وهو ما لا يتوافر لكثير من الدارسين في مجالات الرواية، حيث تقتصر دراساتهم عادة على جوانب لفظية وشكلية وقواعد مستظهرة، بل يكاد القول - عند كثير من المتأخرين - أن يكون "يُعْرَف القول بالقائل"، بدلا من "يعرف القائل بالقول"، حتى رأينا - بسبب ضعف ملكة الدراية والنقد - كيف يروى للقائل القول ونقيضه بما لا يتفق -في كثير من الأحيان- مع روح الشريعة ومبادئ العقل أو الرؤية العلمية السليمة، وقد بلغ ضعف ملكة التدبر والنقد حد إهمال قياس صحة متن الأحاديث بمقياس القرآن الذي هو الكلمة الجامعة المقدسة المحكمة الحاكمة والبينة المتواترة: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨/٦] ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١/١١] ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٢/٧] وهكذا تراجعتْ - في عصور انتشار فكر العزلة - مكانةُ القرآن الكريم الذي تتصف جُمْلَتُه بعموم التوجيه وتجريده ليكون منبعاً للفهم والتوجيه والهدى - على اختلاف الأحوال والمواقع والأزمان - وتصدر موقعَه كثيرٌ من نصوص الآحاد ذات الأبعاد الزمانية المكانية الصحيح منها والضعيف - دون فقه - طلباً لراحة العقل من عناء التفكر والنظر والاجتهاد ومواجهة المتغيرات والمستجدات، يتضح هذا حينما نقارن الكمَّ الضئيلَ من نصوص السنة؛ الذي استدل به الأئمة المجتهدون، وفي مقدَّمتهم أبو حنيفة النعمان، والكمَّ الهائل الذي تعلو به - دون علمٍ أو درايةٍ أو تمحيصٍ - حناجرُ عامة صغار طلبةِ العلمِ.

كثير من هذه النصوص كان - في الحقيقة - من الأمور التي يصعب ضبطها وتحقيقها ومعرفة حقيقة رجالها الذين لم يرهم مدونو النصوص، ولم يعاصروهم، مِمَّنْ سبقوا عصرهم من رجال أسانيدهم، وما عُرفوا لديهم إلا بالسماع عنهم في عصور عمَّتها الأهواء والفرق والحروب والفتن.

ومن ناحية أخرى فإن كثيراً من النصوص التي يدور حول نقد متنها خلافٌ هو أمر ما يزال وكأنه مفازةٌ لمن يخوض في بحثها والحديث عنها، حيث تتعارض نصوصها ومايلحق بها من الزيادات بحيث تغيم بشأنها المفاهيم بسبب مناهج الفهم الحرفي؛ فتهدم بها - دون وعي - منطلقات الشريعة وأولوياتها، ويتجرأ بالفتوى والوعظ والتعليم بها من لم يبلغ تأهيله الدرجة المطلوبة من التمكن من علوم الشريعة واللغة ومن علوم السنن والخبرة بالأحوال والطبائع والمتغيرات، فضلاً عن أصحاب الأغراض والأهواء، كل هذا أدى ومازال يؤدي إلى الإضرار بثقافة الأمة؛ ويساعد على إشاعة الشعوذة والخرافة والسلبية والإرهاب، ويعصف بالروح العلمية والجمعية، ويقضي على روح التفكر والتدبر والمعرفة الإسلامية. فلا غرابة - إذاً - أن نرى الإنسان المسلم عاجزاً، وأن نرى عالما - في عامته - قد أصبحت تحكمه الأشباح، وإذا بالسنن والمقادير تعصف بها شعوذة المشعوذين، وسحر السحرة، وموهوم سطوة المردة والجان.

نماذج في نقد المتن: علم الغيب وتلوث الثقافة

ولا بأس في هذا المجال المهم من مَثَلٍ يدل على مايواجهه الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية من إشكالات، فنحن نعلم أن المسلم يسعى متوكلاً قوياً بإيمانه، كاسباً بعمله، لا مكان عنده لكهانة ولا عرافة ولا تنجيم ولا عيافة (الخط في الرمل) ولا طيرة ولا طرق ولا سحر ولا جبت، ولا أي شيء على شاكلتها من أمور الشعوذة والخرافة[1] ومع ذلك نجد صحيح مسلم يروي عن

---

(١) روى أبو داوود في سننه: ٣٤٠٨ بإسناد حسن عن قبيصة بن المخارق رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "العيافة والطيرة والطرق من الجبت، وقال: الطرق هو طرق الطير تيمناً أو تشاؤماً، وقال أبو داوود العيافة الخط (في الرمل)، وقال الجوهري في الصحاح الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك". ارجع إلى منهل الواردين شرح رياض الصالحين للدكتور صبحي الصالح، طبعة استانبول، ص ٩١٣.

معاوية بن الحكم أنه قال: قلت: يا رسول الله إني حديث عهد بالجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهان، قال: (فلا تأتهم). قلت: ومنا رجال يتطيرون. قال: "ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدهم»[١] قلت: ومنا رجال يخطون. قال: «كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك»[٢] فيأتي هذا النص وكأن رسول الله ﷺ يقر "الخط" وما يؤدي إليه - مما يقصد إليه السائل ولا شكّ - من زعم كشف الغيب الذي يعارض صريح القرآن، أما إن كان الرسول ﷺ قد قصد إلى شيء غير ذلك فهو بالتأكيد ليس مما يعلمه السائل أو قصد إليه، وإذا صح ذلك فإن الأمر يدعو إلى العجب من أن رسول الله ﷺ وهو من يوحى إليه لا يعلّم الناس الوجه الصحيح لضرب الرمل حتى يفيدوا، ويفيد رسول الله ﷺ من هذا الوجه العجيب المؤدي - حسب هذا النص - إلى العلم بالغيب، وحتى لا يقعوا - بسبب جهلهم بالوجه الصحيح لخط الرمل - فريسةً لاستغلال الدجالين والمشعوذين، إن مثل هذا النص بهذا الفهم الصادر من رجل علم شرعي ومكانة شرعية يُعْتَدُّ بها يقدم دعامة ويفتح منفذاً ويصنع مشجباً "شماعة" لأصحاب الأغراض، والقرآن الكريم قد وضَّح - دون لبس - وجه الحقّ في هذه الأمور، وصدق الله ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٨] ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾

---

(١) أي لا يمنعهم.

(٢) يشرح الدكتور صبحي الصالح في منهل الواردين شرح رياض الصالحين، ص ٩١٤ (أي المراد أن الخط في الرمال لا مانع منه إذا كان علماً موافقاً لما نقل نقلاً صحيحاً عن الأنبياء ولا سيما إدريس، أما إذا كان كهانة دجلاً فهو مرفوض. وأصل الخط أن يخط الضارب بالرمال ثلاث خطوط ثم يضرب عليهن بشعير أو نوى، ويقول يكون كذا وكذا، ومن الواضح أن الرسول الكريم ينهى عن كل ضروب الكهانة. أما تسامحه بالخط في الرمال فمرده نسبة هذا إلى بعض الأنبياء كإدريس عليه السلام).

[الجن: ٧٢/ ٢٦-٢٧] ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٩].

ولا يختلف عن هذا كثيراً ما رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: سأل رسولَ الله ﷺ أناسٌ عن الكهان فقال (ليسوا بشيء) فقالوا: يارسول الله إنهم يحدثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً، فقال رسول الله ﷺ: (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه فيخلطون معها مئة كذبة). وفي رواية للبخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب، فتذكر الأمر قضي في السماء فيسترق الشيطان السمع، فيسمعه، فيوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مئة كذبة من عند أنفسهم).

وهكذا وفقاً لحرف هذا الحديث فإنّ الكهان يعلمون شيئاً من الغيب، يسمعه الجان والشياطين، ويوحون به إليهم، ثم هم يضيفون لما علموا من الغيب ما شاؤوا من الكذب، والقرآن الكريم يجزم أن الغيب لا يعلمه إلا الله، ويقرر أن الحال قد تغيَّر، وأن الاستماع منع، ولم يعد ممكناً مع الرسالة الخاتمة وبلوغ الإنسان مرحلة الرشد والمسؤولية الكاملة التي يحمل بها أمانة استخلافه وإدارة شؤون عالمه، فلا يعلم الغيب أحدٌ إلا الله: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [الجن: ٧٢/ ١] ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ٧٢/ ٨-١٠] ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: ٧٢/ ٢٦-٢٨] ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٦٧/ ٥] ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ١٨] ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٠] ﴿قُلْ

لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾] ا﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٢٧/٦٥].

إذا كان القرآن الكريم يوضح بأجلى صورةٍ أن عالم ما بعد رسالة "الكتاب" قد بلغ فيه الإنسان مرحلة الرشد، وأصبح يحمل كامل مسؤولية قراره وإرادته، وهذا لا يعني عدم وجود عوالم أخرى، فذلك من شأن الله، فإن المهم أن الانسان في عهد الكتاب والعلم والعالمية أصبح بإذن الله وعنايته، هو- وليس سواه - يدير عالمه ويُسْأل عنه، وأنه لا مجال بعد رسالة "الكتاب" لأية قوةٍ من قوى العوالم الأخرى أن تتدخل بغير أقدار الله وسننه في مجرى حياة الإنسان وعالمه، حيث لايمكن لأحد أن يطلع على غيب مجرى حياة عالم البشر ينفذ منها للتحكم في سير حياتهم، فقد أُحْكِمَ الرصدُ، وأُحْكِمَتْ حمايةُ الرسلِ وما ينزل إليهم من الوحي، ومن اجترأ على محاولة استراق السمع فإنه مقضي عليه من قِبَلِ نظامٍ مُحْكَمٍ من الشهب والرجوم الثاقبة التي لا تعجز ولا تخطئ، وأن الله بذلك أرادَ بالإنسان الخير والرشد والحماية من الشر، ومنع تسلط العوالم الأخرى على عالمه وإعاقته عن حمل مسؤوليته، وليس عبثاً أن رواية سورة الجن كانت بصيغة الماضي (كنا) أما (الآن) فإنّ الأمر قد تغيَّر، بل إنّ إخبار الرسول ﷺ عنهم وعن عالمهم كان بالرواية لا بالمشاهدة "قل أوحي إليَّ". ومع ذلك فإنَّ الحديث الذي أوردناه آنفاً يبدو وكأنه يناقض الصورة القرآنية ويجعل الملائكة - على الرغم من النظام المحكم لمنع الجان من استراق السمع - وكأنها تتهاون، أو لا تدرك، أو تعجز، أو لا تأبه لإذاعة سر الغيب الذي أخبر الله أنه قرر أن يحفظه ولا يطلع عليه أحداً، إلا من ارتضى من رسول، فيحميه ويحمي ما يوحي إليه به من الغيب، وهو ما لا يبدو أنه من المناسب أن نقوله أو نظنه عن ملائكة الله المقربين الذين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦٦/٦]. يقرر ذلك دون لبس أو غموض قول الله سبحانه وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا

يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: ٧٢/٢٦-٢٨].

فإن صحت مثل هذه النصوص، وما أظن كثيراً منها يصحّ بحرفه من باب الدراية ونقد المتن لما لحق بها من عيوب الرواية التي لم يتنبه لها علماء الحديث، وجَلَّ من لايخطئ ولاينسى، ولم يستدرك عليها أحد من أولئك العلماء، فهل هي إذاً مما يمكن تأويله على أنها حوارات قُصِدَ بها أشخاصٌ بعينهم، وعقليات بعينها، أراد النبي ﷺ أن يصرفها عن إلحاق الضرر بنفسها ولكن بأسلوب ومداخل تناسب عقولهم وقدراتهم النفسية والعقلية، وبعضهم كان من البدائية على قدر كبير، ويكون الأولى بمن رواه ألا يرويه إلا أن يوضح الظرف الذي صاحبه ويفسره، ولذلك ليس أمام من يصر على أن يقبل في مثل هذا الأمر رواية الآحاد إلا أن ينظر إليه من باب خطاب الناس على قدر عقولهم، وبما يعقلون في مثل هذه الحالات العملية، وبذلك تكون نصوصاً ذات طبيعة خاصة هي في ضرورات خطاب الناس، وتكون من باب أخف الضررين بهم، روى البخاري عن علي رضي الله عنه أنه قال: "حدثوا الناس بمايعرفون، أتحبون أن يُكَذَّب الله ورسوله" وروى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه "ما أنت بمحدثٍ قوماً حديثاً لاتبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"، إن علينا أن نحكِّم ليس فقط نقد السند؛ بل ونقد المتن، وأن نحكِّم التأويل ومنهجه بحيث يكون القرآن الكريم ومقاصده ومفاهيمه هي الحَكَمُ في قبول ماسوى القرآن الكريم من النصوص والاجتهادات والتأويلات، ونسد بذلك - وعلى أساس من روح الشريعة - كل باب يتأتى منه الخلط والتشويه، ويكون مشجباً للخرافة والشعوذة والتلوث الفكري والثقافي. وإن السنة النبوية الصحيحة كنز غني، ولسنا في حاجة إلى زيادته بما لانجزم بصحته، أما ما صحَّ معناه ولم يثبت سنده من النصوص قبلناه فقط من باب الحِكَمِ والآثار نظراً لما يصح من معانيه ويتفق مع روح الشريعة.

لا مجال في عالم اليوم لفكر الخرافة باسم الإسلام

ومع انتشار المعرفة فإنه لامجال في عالمنا اليوم لفكر الخرافة والشعوذة وممارسات الدجل، والمعوذتان كافيتان لوضع حدٍّ قاطعٍ لأية هواجس نفسية عند مَنْ سيطرتْ عليهم - لأسباب نفسية وثقافية - عواملُ الخوف من أية أضرار مادية أو غير مادية مازال يخشى بعض الناس منها نفسياً، وتوسوس بها صدورهم، وتهوّلها لهم مصادفاتُ الأحداث، وكذبُ الكذابين، وتهويلُ المتحدثين المتحذلقين، وحيلُ المشعوذين، ومكائدُ الدجالين؟ وحتى على عهد ما قبل الرسالةِ الحضارية العالمية، رسالةِ الكتاب والعلم والقلم، أخبر القرآن الكريم بحقيقة الأمر ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠/٦٦] ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢/١٠٢]. فالقرآن في هذا الأمر صريح واضح من أنه لا يمكن أن يأتي من الدجالين والسحرة والمشعوذين نفعٌ في النفس أو المال أو الولد أو الدين، ولا يأتي منهم إلا الضررُ الروحيُّ والنفسي والمادي، ومن يطلب النفع أو درء الضرر من وراء ذلك إنما يطلب الوهم والسراب. ولو كان الدجالون والمشعوذون في أي ثوب يرتدون أو حيلة يصطنعون قادرين على جلب النفع لجلبوه لأنفسهم، واستغنوا بقدرتهم عمن سواهم، وأي دعوى غير ذلك إيغال وجرأة في استغفال البسطاء والمكروبين والمقامرين والطامعين[(١)].

إن من المهم أن ندرك أن المعوذتين هما في جوهرهما دعاء إلى الله تعالى لتحصين عقل المسلم وقلبه مما وقر فيهما لأي سبب من الأسباب من تدليس

---

(١) مما أذكر أنني قرأت - في إحدى المجلات وأنا طفل، ولم ينمح أثره من ذاكرتي حتى اليوم - سؤالاً سألته قارئة إلى المحرر عمّن يدعي قدرته على التوفيق بين قلبها وقلب زوجها المعرِضِ عنها؛ فكان جوابه أنه لو صدق هذا المشعوذ لكان أولى به أن يستغني عنها وعن أمثالها ويوفق بين قلبه وقلب "محافظ البنك المركزي".

المشعوذين، أو الأوهام والأمراض النفسية، أو من تأثير الموروثات، أوبسبب بعض البلايا والكروب التي لايعلم وسيلة علمية سليمة - حتى اليوم - للتخلص منها؛ فتكون المعوذتان هي لجوء إلى الله القادر المحيط بكلٍّ شيءٍ طلباً لعونه وحمايته من تلك الأوهام والوساوس والشرور والأضرار، أي إنهما وسيلة للحماية الربانية، وحصن رباني من كل الشرور، ونهاية لكل الأوهام، وليستا وسيلةً ولا مدخلاً لانحراف العقيدة وفساد العقل وضلال السعي، وليستا وسيلة لمزاولة الشعوذة والدجل، ولامشجباً تعلَّق عليه الإسرائيلياتُ والخرافاتُ والأساطيرُ والأكاذيبُ، وسوءُ الفهم والتأويل، وموروثات العقائد والفلسفات الضالة.

فسورة الناس هي قرآن ودعاء يستعيذ فيها الإنسان بالله، ويطلب عونه ضد وسوسة الشياطين والأبالسة من الإنس ومن الجن، وواضح أنه لا علاقة لها بقضايا أوهام السحر وما يلحق به، ولكنها يتعلق بالدس والوسوسة والإيحاء إن كان من شياطين الإنس، أو من إبليس وذريته مما يوسوسون به من الشر والأذى وارتكاب المعاصي في قلوب الناس، وما يلقونه في عقولهم وقلوبهم، وهم ليس لهم - فيما عدا ما يحسه الناس في نفوسهم من الوسوسة - أي سلطان على أحد، وقد أفلح من عصاهم، وخاب من تبعهم وأطاعهم وخسر.

أما معوذة (الفلق) فهي دعاء يستعيذ فيها الإنسان المؤمن بالله من شرار الخلق، ويستعين فيها بالله عليهم، وعلى كيدهم، وعلى شرهم، ويستعيذ به ضد أذاهم ومكرهم، ومنهم المشعوذون والدجالون الذين يمارسون أعمال ما يدعونه سحراً أو قدراتٍ وإمكاناتٍ خفيةً خاصة، وهي فئة شريرة من الناس تتعلم هذه الممارسات التي قد يتوارثها بعضهم عن بعض في عصور الظلام وكهان معابد الحضارات القديمة، ومنهم كهان الفراعنة وملوك بابل، والذين كانوا - في الحضارات القديمة قبل الحضارة اليونانية - يخصون دائرتهم الخاصة

بعلومهم، ولايطلعون عليها أحداً من العامة، وهي تتضمن ولاشكَّ في بعض الأحيان قدراً من العلوم والمعارف التي كانوا يسخرونها للشعوذة والدجل وغش البسطاء، وهي ممارسات عُرِفَتْ في الحضارات القديمة على مثل عهود الفراعنة وملوك بابل وآشور؛ بل إن فئات من بعض شعوب الغجر حتى اليوم تمارس هذه الأنواع من الدجل والشعوذة والحيل، وتتفشى فيها ممارسات الفواحش والسرقات، ولذلك فإن ما يمارسه هؤلاء قد يكون له - في بعض جوانبه - أضراره بسبب المواد التي يعطونها للمتعاملين معهم على أشكال مختلفة تؤذيهم، وتؤثر فيهم بتعاطيها، أو من خلال تلويث ما يستعملونه منها: من مشروبات وأحجبة وما إليها، ونحن نعلم اليوم أن القليل جداً من بعض المواد التي قد ترى أو لا ترى بالعين المجردة قد تؤثر على من يتعرض لها وتضره ضرراً شديداً، وعلى أية حال فإن جلَّ آثار دجل هؤلاء الدجالين وشعوذاتهم نفسيٌّ، ونحن نعلم اليوم الأثر الكبير للإيحاء النفسي في التوهم الذي يجلب في جلِّ الأحوال الضرر النفسي والعضوي على أصحابه، ولذلك فإن الإيحاء ومزاولات الطب النفسي - إذا لم يكن من يتولاه حسن النية وعلى علم بما يفعل، ولم يكن من أصحاب الاختصاص في العلاج النفسي - فإنه يكون شديدَ الضرر، ومن المؤسف له أن بعض الناس يلجؤون إلى هؤلاء المشعوذين طلباً للعلاج أو النفع، أو سعياً للإضرار بالآخرين والكيد لهم، وهؤلاء لايجلبون لأنفسهم ولمن حولهم ولأمتهم إلا الخسارة والضرر، ومعوذة (الفلق) للمؤمن هي دعاء إلى الله واستعانة به ضدَّ كيد الحاسدين والكائدين؛ الذين يتمنون ويعملون على زوال النعم عمن عداهم، وضدَّ كيد المشعوذين ومن يلجأ إليهم، وضدَّ تدبيرهم وأذاهم، وهو أمر غير توهم البسطاء عن امتلاك المشعوذين بعض القوى السحرية الغيبية التي في إمرتهم، ولذلك فإن على سلطات المجتمع محاربة هذه الفئات الطفيلية الضارة وأمثالها، وتوعية الناس

وتحصينهم ضد دجلهم وشعوذتهم وخرافاتهم وممارساتهم المؤذية، حمايةً للناس، ودفاعاً عن الدين والأمة.

عالم ما قبل الرسالة المحمدية وعالم مابعدها

لاشكَّ أننا ندرك من مجمل الوحي، ومن واقع المرحلة الإنسانية التي نمر بها، أن عالمما قبل الرسالة المحمدية يختلف عن عالم ما بعد الرسالة المحمدية؛ حيث كان عالم ما قبل الرسالة المحمدية عالماً متسماً بالخوارق والمعجزات، كما كان متسماً بالخرافة، فيما أصبح عالم ما بعد هذه الرسالة متسماً بالكتاب والعلم والسنن.

ولعل من المفيد هنا أن نناقش فهم بعضهم لما ورد في القرآن الكريم بصدد تسخير الشياطين لنبي الله سليمان، وبصدد "الملكين"[(١)] ببابل هاروت وماروت، وجعل ذلك مشجباً يتكئ عليه الكثيرون لتمرير قدر هائل من فكر

---

(١) يذكر محمد بن يوسف الشهير بابن حيان الأندلسي الغرناطي (٦٤٥ - ٧٥٤هـ) في كتابه (البحر المحيط) في قراءة "الملَكين" قوله "قرأ الجمهور بفتح اللام، وظاهره أنهما ملكان من الملائكة، وقيل هما جبريل وميكال، وقيل ملكان غيرهما هما هاروت وماروت.
وقرأ ابن عباس والحسن وأبو الأسود الدؤلي والضحاك وابن أبزى "الملِكين" بكسر اللام، وقال ابن عباس هما رجلان ساحران كانا في بابل؛ لأن الملائكة لا تعلم الناس السحر، وقال الحسن هما علجان ببابل العراق، وقال أبو الأسود هما هاروت وماروت، وهذا موافق لقول الحسن، وقال ابن أبزى هما داوود وسليمان على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والسلام، وقيل هما شيطانان، فعلى قول ابن أبزى تكون "ما" نافية، وعلى سائر الأقوال في هذه القراءات تكون "ما" موصولة.
ومعنى الإنزال القذف في القلوب، وقد ذكر المفسرون في قراءة "الملَكين" بفتح اللام قصصاً كثيرةً، وأوردوا قصصاً عجيبة غير معقولة سن الفسق والغرام والكفر، وأنهما في بابل يعذبان، مما يناسب تلك الفترات التاريخية وتقبلها لكثير من الخرافات وتصيد الروايات والعجائب؛ بسبب تفشي الجهل والخرافة وعجز الفكر. وعلى كل حال فقد انتهى ابن حيان إلى ما يتفق مع ابن عباس رضي الله عنه حين لخص كل تلك التهريفات التي ما يزال كثيرون يتقبلونها وأمثالها فقال: "وهذا كله لا يصح، والملائكة معصومون". انظر البحر المحيط لابن حيان – نشر دار الفكر - بيروت ١٩٩٢م – المجلد الأول – ص ٥٢٨.

الخرافة والشعوذة، والتغرير بالعامة والبسطاء، والإيقاع بهم في شباك وأحابيل الأدعياء والمحتالين والمشعوذين والدجالين.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٢].

ولو أمعنا النظر في الآية السابقة لوجدنا أنها تتحدث عن أمور وأحداث وممارسات تمت قبل الرسالة المحمدية التي هي رسالة الكتاب والعلم والعقل والبحث والتدبر والعالمية والإنسانية. فالإنسانية قبل الرسالة المحمدية كانت في جوهرها إنسانية بدائية، مجزَّأة إلى أقوام معزولة ومحدودة العلم والمعرفة، وقد توالت على تلك الأقوام والأمم الرسالاتُ والتوجيهُ؛ بما يأخذ بيدها نحو الترقي الإنساني، وصولاً بها إلى المرحلة المحمدية العلمية العالمية، ولذلك كانت الخوارق إحدى متطلبات المرحلة البدائية، وكانت وسيلةَ الأنبياءِ والرسل في توجيه حياة أقوامهم والوصول بواسطتها إلى قلوبهم وعقولهم التي هي في جملتها ساذجة، وإيجاد اقتناعات محددة لديهم نحو الرسول والرسالة، وهو ما توضحه سورة الجن في القرآن الكريم، كما توضح الفرق بين ما كان وما هو كائن الآن مع إنسان الرسالة المحمدية الخاتمة.

وتوضح آية سورة البقرة (١٠٢) الآنفة الذكر أن ما سُخِّر لسليمان من أعمال الشياطين، وما سخر من قوى الطبيعة، وما ذُكر في مواضع أخرى من القرآن الكريم، هو من باب العون الإلهي والخوارق النبوية، دون أي مساس بعقيدة سليمان ولا بإيمانه، ودون أي سعي منه غير مشروع للتواصل مع العوالم الأخرى والشيطانية منها خاصة؛ لأن من يوصف بأنه من الشياطين -

سواء أكانوا من الإنس أم من الجن - يجب أن يكونوا كفاراً مستكبرين عاصين لأمر ربهم؛ بما جعلهم يستحقون هذا اللقب.

أما أمر "الملكين ببابل هاروت وماروت" فإنه أيضاً يتعلق بفترة ما قبل الرسالة المحمدية بشأن الخوارق وعلاقة عالم الإنسان البدائي بالعوالم الأخرى حقاً أو وهماً في تدرجه صوب الكمال الإنساني، والاستقلال، وتحمل كامل المسؤولية عن أدائه ضمن دائرة الصراع بين الحق والباطل، والنور والظلام، في نفسه، وفي عالمه، ولذلك فإنه من غير المناسب أن يُفهَم النص القرآني - حتى عن تلك الفترة- من أن الملائكة هم ذاتهم يعلمون الناس الشر والكفر، وهو ما لايليق بالملائكة، ولايقبله الحس الإسلامي المرهف السليم، وهو ماذهب إليه الصحابي الجليل ابن عباس رضي الله عنه، كما ذهب إليه ابن أبزى وابن حبان، والقراءة الأوْلى هي "المَلِكين" بكسر اللام، وليس المَلَكين بفتح اللام، وقد أشارت القراءات إلى صحة قراءتها بالمَلَكين بفتح اللام: مثنى مَلَك بفتح اللام أيضاً، وجمعها ملائكة، وبكسر اللام: مثنى مَلِك بكسر اللام، وجمعها ملوك، وقراءة المَلِكين بكسر اللام وجمعها ملوك هو في رأيي الأوْلى، ويكون المقصود عندئذٍ هم ملوكٌ عبادٌ كهانٌ، فيصبح المعنى أنهم كانوا على شاكلة كهان معابدِ الحضارات القديمة التي كانت سائدة قبل الحضارة اليونانية، وكانوا يختصون أنفسهم بالعلوم والمعارف التي تمثل لهم مصدر قوة وإبهار أمام عامة الأمة، على شاكلة ما ترويه قصة سيدنا موسى عليه السلام مع سحرة فرعون الذين كانوا بحيلهم يوهمون العامة ويخدعون أبصارهم وحواسهم، ولذلك علموا قدرَ موسى عليه السلام حينما رأوا الحبال والعصي تتحول حقيقة إلى ثعابين حية تسعى، وذلك على عكس اليونان الذين بدأوا أمرَ إشاعة علومهم ومعارفهم بين العامة في حلقات تعليم مفتوحة.

ومن المتصور أن هؤلاء الملوك الكهان العباد حينما كانوا يعلمون الناس مالديهم من علوم ومعارف مما تعلموه وما ألهمهم الله به، والتي -بلاشك أن

بعضها إذا أُسيء استخدامه تكون ضارةً - كانوا يحذرون تلامذتهم من هذه العلوم والمعارف الملهمة والمتوارثة التي إنْ أساءوا استخدامها يكونوا فتنةً، ويكونوا قد مارسوا الشر والأذى، وأضلوا الناس عن سواء السبيل، وقد أوضح القرآن الكريم أن سوء استخدام علومهم وقدراتهم في الأذى والضرر والتغرير هو كفرٌ بنعمة المعرفة، وضررٌ محضٌ لا نفع فيه، وأن لمن ارتكبه وقام به أو فعله سوء العاقبة، وهذا المعنى هو الجدير بالفهم، وهو اللائق بمقام ملائكة الله، وهو الأولى بالمعلِّمين الصالحين في ظروف تلك الحضارات السابقة وأساليب ممارساتها، والتي يجب أن يرفضها الحسُّ الإسلامي السليم، وقواعدُ نقد المتن الصحيحة التي تلتزم روح القرآن ومفاهيمه ومنطلقاته فيما تناوله من سير الأنبياء والملائكة والصالحين.

ولعل من المفيد أيضاً أن نذكِّر القارئ بحيل الحركة والصوت والضوء والترتيبات المسرحية في ألعاب السرك و"سحرة" المسارح، بل وفي العروض السينمائية التي لولا أننا نعلم علم اليقين أنها صور مفردة متتابعة وأنها تعرض بسرعة معينة تخدع العين؛ لأقسمنا أنها حركة حية حقيقية.

فالدجل والشعوذة وبعض العلم بخواص المواد ومداخل النفوس ألوانٌ مختلفة من الحيل والنصب والاحتيال، وتأتي باسم السحر حيناً، وباسم الدين أحياناً، وهي - وإن اختلفت في دعوى المصدر المادي أوالنفسي أوالديني - تتحد في الغاية والقصد، وهو غشّ البسطاء والجهلاء والمكروبين، واكتساب المال والجاه والمكانة من ورائهم، غير عابئين بما يسببونه لهم من الأذى والضرر والغش، وهي كلها أمور لا يليق بالمسلم المؤمن الموحد أن يقع بأي صورة من الصور في حبائلها فيفسد بذلك دينه وعقله وماله.

هذا مثال لما ينطوي عليه اختلاف النظر، وتضارب الفكر، وتعارض المناهج، من إشكالات ومخاطر، ومن آثار ضارة على عقلية الأمة، وهو أمرٌ قلما يجلس إليه أصحاب الاختصاصات العلمية المعنية، ويجلون وجوهه، ويسدون ثغراته، ويرسون بشأنه قواعد التعامل الفكري والتربوي الإيجابي

السليم، حتى لا تفسد في نهاية المطاف العقائدُ والعقولُ والعزائمُ، ولا تُصرف أو تنصرف عن هدى القرآن الكريم ومسؤوليات الاستخلاف.

ضرورة التصحيح المنهجي والتنقية الثقافية

كثير من النصوص التي تعد صحيحة قد لا تصح - في الحقيقة - لخلل أو آخر في الرواية أو في المتن، لكوننا لم نوفق لمعرفته حتى الآن بسبب قصور مناهجنا التي يجب تطويرها، خاصة في مجال نقد المتن، وفي مجال دراسة الرجال دراسة مقارنة في ضوء نقد المتن، وبعضها قد يصح، ولكن في ظرفه الخاص، الذي قد لا يعلم المطلع عليه اليوم حال المعنيّ به على زمانه، فيخطئ في فهمه، ويلوثُ - لسوء فهمه - به ثقافةَ الأمة، وعقليتَها، ويفتح - بقهر القدسية - باباً للخرافة والشعوذة التي تهدم المسؤولية الاستخلافية، والعقلية العلمية، والطاقة النفسية، لأبناء الأمة.

إن الغاية مما سبق ليس الجزم في أي أمر من هذه الأمور بالرأي الفصل، ولكن الغاية منه فتح الباب لحوارٍ علميٍّ منهجي رزين بين العلماء والمفكرين المؤهلين بمنهجية وعلم وثقافة متكاملة، تُحدَّد بها الغاياتُ والأهدافُ، وتُعالج أمورُها على ضوء روح الشريعة ومقاصدها وواقع الأمة وأحوالها وإشكالاتها، وتُحرَّر الثوابتُ، وتُحتوى المتغيراتُ، وتُواجَه التحدياتُ، وبذلك نعمل جادين على تحرير مناهج فكرنا وإصلاحها والانتفاع بما جدَّ من الوسائل والإمكانات، وننقي بها ثقافتنا، ونسد بذلك الطريق على غير مكتملي الأداة وعلى مرضى النفوس وأصحاب الأغراض؛ فيسحب البساط من تحت أرجلهم، وينزع سلاح قهر القداسة وخطاب الإرهاب من أيديهم، ولا يمكنوا من الاستمرار في الإضرار بعقل الأمة وثقافتها ووجدانها. عند ذلك فقط يمكن أن تستعيد الأمة عافية رؤيتها، وقيمها وفكرها ووجدانها، وتستعيد قدرتها على جدية الأداء العلمي وإتقانه.

الإشكال التربوي: النهج والمنطلق

والإشكال الأكبر بعد الإشكال المنهجي والثقافي بسبب أحادية المعرفة وما أنتجته من تلوث ثقافي، إذا شئنا العمل الجاد من أجل تحقيق قدرة الأمة على الإصلاح والتغيير، والعمل على تمكين مشروع الإصلاح الإسلامي من أهدافه السامية؛ هو الإشكال التربوي.

لقد أنجبت الأمة عدداً كبيراً من المفكرين وقادة الإصلاح الذين كتبوا وجاهدوا ولفتوا الأنظار إلى كثير من العيوب التي تعاني منها الأمة، وإلى كثيرٍ من الصفات التي يجب التخلص منها، ومع ذلك لم توفق الأمة حتى اليوم إلى إحداث التغيير المطلوب، والتخلص من العيوب والأدواء التي ما زلنا نعاني منها، والظن أن هذه العقول النيرة لم تتنبه بما يكفي إلى البعد التربوي للطفولة، الذي هو أساس التغيير، وبقي الطفل والبعد التربوي - إلى حدٍّ بعيدٍ هامشياً في فكر الأمة، وسياساتها، ونشاطها الفكري والاجتماعي.

وكما سبق أن أوضحنا فإنّ الإشكال التربوي هو ثمرة الإشكال الفكري؛ حيث إن العقل المسلم- في عزلته - لم يستطع إدراك طبيعة المتغيرات بسبب ما توالى عليه من أحداث، وما صحب تلك الأحداث من تحديات علمية عسكرية وإدارية وسياسية شدت إليها انتباه قيادات الأمة السياسية والفكرية، فلم يلتفت معها إلى أهمية بُعْدِ التربية في حماية أسس بناء الأمة، وتوجيه التغيير الاجتماعي، والملاحقة الإيجابية للمتغيرات.

وبانحطاط الفكر التربوي -بصفته جزءاً من انحطاط الفكر السنني الاجتماعي الإنساني- تشوّهتْ دون قصدٍ الرؤية الاجتماعية الكلية، وتمكنت السلبيات والمفاسد الاجتماعية؛ بسبب تفاقم داء الاستبداد والقهر في السياسة والفكر والتربية، لأنه لا شورى ولا عدل ولا قدرة دون ثقافة وفكر، كما أنه لا تنمية ولا تطور دون تربية وتعليم.

ومجتمع القهر والإرهاب والاستبداد هو مجتمع التفرد والتسلط الذي ينتفي

فيه دور الآخر ومشاركته، ويستبد فيه كل فرد بمن هو دونه ويستعبده، فكل فرد له نفسية العبد، وهو مصاب بداء الخضوع لمن هو أقوى منه، وفي الوقت نفسه بما يعانيه من المهانة والخسف، إذا اقتدر كان - بحكم ما ألف - نخاساً وطاغيةً على كل من هو دونه وأضعفُ منه، ولا يربط على وجه الحقيقة بين أبناء مجتمع العبيد تكافلٌ ولا تعاونٌ، ولكنها فردية وأنانية وتلهف على المنافع، وتفانٍ في التبعية، والخضوع والاستبداد، في سلسلة لا تنتهي إلا عند السيد الأكبر والطاغية الأعلى الذي يعبد ذاته، ويخضع بدوره للسيد القوي الأجنبي، ويستسلم بدوره لإرادته ولقهره والتسليم لأطماعه، وحرصاً منه على ذاته ومصالحه وملذاته لا يبالي بأن يفرّط في سبيلها بمقدساته وحقوق أمته.

ومن الطبيعي في مجتمع نفسية العبيد، وهرمية الاستبداد، وفكر الوصاية والتفرد، أن يأتي ترتيب الطفل - بضعفه - في أسفل سلم الأولويات، كمّاً ضئيلَ الحجمِ والقدرِ مهملَ القيمةِ والكرامةِ، وليس عدةَ المستقبل وبذرةَ التطور ومحطَّ الأمل وقِبْلَةَ الرجاء. فهذا الكائن الذي لا يفهم ولا يعي ولا يدرك، والذي هو في أسفل هرم الاستعباد يجب أن يؤمر وينهى ويسير وفق رغبات الأكبر سناً والأعلى قدراً من الإخوة والأقرباء والمعلمين، وعليه دائماً أن يلبي ويخضع، وليس لمثله أن يسأل أو لا يُسأل، ولا أن يناقِشَ، ولا أن يُناقَشَ، وعليه التزام الصمت والطاعة، لا تُحتَرَمُ آراؤه الطفولية، ولا يؤبه لرغباته الصبيانية، وعليه دون مساءلة أو اعتراض أن يقوم بالحفظ والاستظهار والتقليد والمتابعة، فتلك في مجتمع العبيد مناهج التربية ومفاهيمها، وأما الإرهاب والعقاب فهما وسائلها وأدواتها الأساسية، المعلن منها والمستتر.

ضرورة مراعاة العلاقة بين المعرفي والوجداني التربوي

ولذلك لم يكن هناك - مع هذا النوع من المناهج والوسائل في المعرفة والتربية والتعليم - مجال للخطاب النبوي للطفل، المبني على الرفق والود

والحب والعناية والاحترام والتشجيع، ولا مجال للدراسة العلمية الاجتماعية التربوية للطفولة وطاقاتها وإمكاناتها ودورها في الإصلاح والتغيير الاجتماعي والحضاري.

لذلك يجب أن يبدأ الإصلاح الفكري - بكل ما لديه من أدوات ثقافية وتربوية سليمة - بالاستثمار المكثف والمباشر لميدان التربية الذي - من خلاله - تتم إعادة تشكيل الشخصية المسلمة، وتحريرها، وبناء فرد سوي قويم يكون عضواً فعالاً في جماعة سوية قوية مستقرة متضامنة اجتماعياً، تشتمل على عقلٍ مفكرٍ متدبرٍ من الناحية المعرفية، ونفسية مؤمنة حرة إيجابية وكريمة تتحلى - من ناحية البناء النفسي وجدانياً - بالشجاعة والمبادرة.

وحتى يمكن أن نعيد بناء نفسية الطفل المسلم وعقليته، وإحداث التغيير الإيجابي الذي يمثل روح الإيمان والتوحيد والعطاء الاستخلافي على أسس علمية متطورة، علينا - لتحقيق ذلك - أن ندرك الثوابت والمتغيرات في منهج تربية الطفل المسلم، وأن ننمي ونعمق البحث العلمي التربوي في مجالاتها، في ضوء الثوابت الإسلامية، بحيث تتجاوب المناهج والوسائل والجهود والاهتمامات التربوية مع نمو المعارف والخبرات، ومع طبيعة المتغيرات والتحديات، ومع ما يتوافر لهذه الطفل من الوسائل والإمكانات والطاقات لتنمية الصفات والقدرات اللازمة للتفوق والسبق في ميدان القدرة والعطاء.

وحتى يمكن أن نحقق هذه القدرة، وأن نحقق التغيير الاجتماعي المطلوب، فإنّه لا يكفي أن نهتم فقط بطرح الرؤية الإسلامية الكلية ومبادئها العقدية الأساسية؛ بل يجب أن نضع حلاً علمياً منهجياً لتيه الخلط والتخبط بين الثوابت والمتغيرات، وبين ألوان الخطابات الإبلاغية والخطابات التربوية.

انحطاطُ الفكر التربوي تبعٌ لانحطاط الفكر السنني

مع غيبة العلوم الاجتماعية، وعدم الوعي بطبيعة المنهج النبوي التربوي، لم يكن غريباً غياب علوم التربية وأبحاثها ودراساتها في تاريخ الفكر

الإسلامي، وإن صورتَها الصحيحة - التي تفسر ما آلت إليه الأمة وقدراتها وطاقاتها - تعكسها أوصافَ كتاتيب أبناء العامة الأهلية، التي كان يتحمل عبء مصاريفها العامةُ والفقراء، وما كانت عليه أحوال هذه الكتاتيب، وأحوال معلميها المتردية، ومناهجها التعليمه البدائية، التي كانت تقتصر على تعليم شيءٍ من القرآن الكريم، ومبادئ الحساب، وكانت وسائلُها التربوية وسائلَ عقابية. ومما يفسِّر - من بعض الجوانب - تراجعنا الحضاري وتقدم سوانا هو أننا إن دققنا النظر نجد أن كل ما ناله تعليم عامة أبناء الأمة وتربيتهم من اهتمام المفكرين والعلماء وأبحاثهم لم يكن إلا نزراً يسيراً من التأملات المجردة، والملاحظات الناقدة لمناهج التعليم، وأحوال الكتاتيب، وأساليبها، ووسائلها، وإمكاناتها، وثقافة معلميها، وقدراتهم المتردية، التي كانت تنبئ عما كان عليه واقع تعليم الجمهور من أبناء الأمة دون أن تجد هذه الأصوات صدى، ولا أن تحرك ساكناً يدفع نحو النهوض بالتربية والتعليم، وإصلاح نظام الكتاتيب، وتوفير الوسائل اللازمة والتمويل العام الكافي المطلوب للارتقاء بمستواها، وذلك لما كان عليه الفكر والثقافة ومناهجهما المعرفية من القصور والعجز، وما كان عليه الحكم ومؤسساته من عدم الاهتمام بأمر عامة الأمة ولما كانت عليه تلك المؤسسات من فساد واستبداد جعلها تهمل أمر تعليم أبناء الأمة، ولم تولِهِ الاهتمامَ اللائق به، حتى إنها قد حمَّلَتْ تكلفة الكتاتيب وأعباء تسييرها عامة الآباء الذين كان جُلُّهم يرزحون تحت وطأة الفاقة والفقر وجور ضرائب الأمراء والحكام وإتاواتهم، لذلك فإن من الخطأ رسم صورة واقع التربية والتعليم في الأمة من خلال عدد من نصائح الخاصة والسادة والأمراء التى كانوا يوجهونها إلى مؤدبي أبنائهم في دُوْرِهِمْ، أو في بعض التأملات من بعض رجال الفكر والعلم، فكل ذلك لا علاقة له بواقع التعليم والتربية في لاحق تاريخ الأمة.

إن واقع انحطاط التربية والتعليم وتفشي الأمية بين أبناء عامة الأمة الإسلامية هو امتداد للممارسات التاريخية وما تمثله من تفشي العقلية التسلطية العرقية الطبقية الشعوبية في الأمة.

وتفشي هذه الانحرافات السياسية والفكرية في ممارسات قادة الأمة هو مما يعين على فهم تفشي ظاهرة التعليم الخاص والأجنبي للأبناء، وبالتالي انحطاط ثقافة عامة الأمة وانحطاط قدراتها في الوقت الحاضر في بلاد العالم الإسلامي[١].

بين الماضي والحاضر: الأسس والمنطلقات التربوية

القدوة: المنهج النبوي في التربية

وحتى نفهم دلالة ما انتهينا إليه لابد لنا من النظر والتدبر الموضوعي المنهجي فيما بدأنا به وبذلك نعلم حقيقة الأخطاء التي وقعنا فيها،

---

(١) عقلية التسلط والاستعلاء بين قلةٍ خاصة تتمتع بكافة ألوان الامتيازات التي تعزلها عن الأمة، وعامةٍ مسخَّرةٍ نصيبها الازدراء والإهمال وانتهاك الحرمات؛ تجعل العالم الإسلامي أكثر البلاد تخلفا وانتهاك حقوق الإنسان فيه من أهم وجوه تخلفه وضعف كيانه، مما يسهّل كذلك مهمة اختراقه والتحكم فيه.

وتفشي ظاهرة "خدم المنازل" ونوعية التعامل معهم، التي فشت في العالم الإسلامي، هي أيضاً صورة أخرى قبيحة لهذه العقلية؛ حيث تكاد تنتفي - عن هذه الفئة عند كثيرٍ من الناس، ودون أي وازع من ضمير - جُلُّ الحقوق الإنسانية في الكرامة، وفي الدخل، وفي الراحة، ومن منطلق نظرة استعلائية نحو كائنات منحطة، حتى إن بعضهم لايرى فيهم إلا "جنساً آخر" لايليق به إلا "الشدة" والمهانة. لايصح، ولايقبل، أن تبرز المهانة والقسوة في معاملة هؤلاء البؤساء لكونهم في أشد الحاجة إلى مايلقى إليهم من فتاتٍ حتى يُبقي على حياتهم.

لابد من تدبر أمر هذه العقليات والممارسات والتشوهات والانحرافات عن مبادئ الإسلام ومفاهيمه، في الإخاء الإنساني، وفي الإخاء الإسلامي، وفي العدل والبذل والإيثار، وفي نفوسنا وثقافتنا ومجتمعاتنا؛ وعلينا أن نواجهها بقوة وشجاعة في أصل تنشئة أبنائنا، وفي أصل بنائهم العقدي الوجداني؛ حتى نكون أمة قوية، وحتى نقضي على آفة التفتت وتجهيل جمهور الأمة وعامتها وإذلالهم وإضعافهم، وبالتالي إضعاف الأمة وتسلط أعدائها، وإذلال فئات عامتها وخاصتها، وقهرها.

إن انتقائية القراءة لتاريخ عهود تخلف الأمة لن يعيننا على إدراك آفات كياننا ومعرفة أسباب الضعف والانحراف التي تنخر في هذا الكيان، دون خوف أو وجل.

والأسباب التي أدت إلى تراجعنا، ونأخذ منها المواعظ والعبر، وإذا كان الخطاب القرآني أساس فكرنا ومنهج حياتنا فإن الخطاب والمنهج النبوي في التربية يجب أن يكونا أساس منطلقنا التي نستقيها من المصدر الأساس الذي هو السنة الفعلية، ومن سيرة حياته ﷺ، ومجمل توجيهاته، ومعالم شخصيته، وأساليب تعامله مع الناس من حوله، ويضبط فهمنا لدلالاتها منطوقُ القرآن الكريم، ومقاصده وقيمه ومبادئه، كما نتلمسها أيضاً في أوصافُ الرسول ﷺ: شخصيةً، وخلقاً، ورسالةً. وقد حدد القرآن الكريم معالم شخصية الرسول ﷺ بالرحمة والود وضبط النفس وحسن الخلق: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٧]. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٦٨/٤]. ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٩].

وروى مسلم عن ابن سعد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: "ما ضرب رسول الله ﷺ بيده امرأة قطّ ولا خادماً، ولا ضرب شيئاً قطّ إلا أن يجاهد في سبيل الله". وروى أصحاب الصحيحين عن أنس رضى الله عنه أنه قال: "خدمتُ النبيَّ ﷺ عشرَ سنين فما قال لي أفٍّ قطُّ، ولا قال لشيء صنعتُهُ لِمَ صنعتَهُ، ولا لشيء تركتُهُ لِمَ تركتَه"، وفي رواية "فما سبني ﷺ قط ولا ضربني من ضربة ولا انتهرني ولا عبس في وجهي ولا أمر في أمر فتوانيت فيه فعاقبني عليه، فإن عاتبني عليه أحد من أهله قال: دعوه لو قدر شيء كان". وروى الترمذي عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم". وروى ابن ماجة والحاكم عن رسول الله ﷺ أنه قال: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي". وفي رواية البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما خيّر رسول الله بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فما كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله تعالى".

وروى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "إنّ الله رفيق يحب

الرفق في الأمر كله". وأخرج الترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رجل لرسول الله ﷺ أوصني قال: "اتق الله حيثما كنت". قال: زدني. قال: "أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها". قال: زدني. قال: "خالقِ الناسَ بخلقٍ حسنٍ". وروى أبو داوود والترمذي أنّ رسول الله ﷺ قال: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء". وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال: "ما رأيت أو سمعت رسول الله ﷺ يحدث حديثاً إلا تبسَّم". وأخرج الإمام أحمد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

هذه أسس معالم شخصية المربي الأول للأمة الإسلامية، فهي تُحدد معالم نهجه وخطابه التربوي، إنه خطابُ الود والرحمة، ونهج اليسر، ومكارم الأخلاق، وكريم الخصال، وحسن الخلق، وقوة التوكل، والإحسان والإتقان، فهي شخصية وخلق ونهج أبعد ما يكون عن القهر والقسوة والقسر والظلم والاستبداد.

فما معالم هذا النهج وهذا الخطاب النبوي التربوي لنبي الرحمة ومكارم الأخلاق؟ وما ثوابت هذا النهج وهذا الخطاب؟ وما منطلقاتهما؟

الحبُّ والاقتناع والشجاعة منطلقات الخطاب التربوي النبوي

لقد كان الحب والمودة والملاطفة والرفق والرحمة واحترام المشاعر الأساسَ الذي ينبع منه النهج والخطاب النبوي التربوي لتنشئة الأطفال وبناء نفسياتهم وكيانهم الوجداني، ودون إدراك هذا البعد وأهميته في بناء الكيان النفسي والوجداني للطفل لن نستطيع أن ندرك وجه القصور في مشروع إصلاح الأمة، وأن نتبين أسباب عدم قدرته على تحقيق جُلِّ أهدافه الكبرى وبناء الأجيال القادرة على حمل أعباء التحديات التي تواجهها الأمة.

رأينا كيف خاطب الرسول ﷺ الصبي ابن عباس (، وكيف أقام بينه وبين الله علاقة حب وتواصل ورعاية، وكيف بَثَّ في نفسه الشجاعة والثقة بالنفس، وكيف حرص وهو في صلاته على رعاية نفس الصغير الذي اعتلى

ظهره، فتركه يلعب برهة دون أن يبادر إلى طرده وإنزاله دون انتظار عن ظهره.

لقد كان الرسول ﷺ يدرك الأساليب التربوية الضرورية لتنشئة الطفل ورعاية كيانه النفسي، وتنمية كيانه الوجداني، ولذلك لم يقتصر نهجه التربوي على معاني الحب والمودة والحنو التي هي أساس العلاقة الصحيحة السوية بين الآباء والأبناء التي منها تنطلق بقية العلاقات؛ بل كان يحرص فوق كل ذلك على احترام الطفل واحترام مشاعره، حتى إنه كان إذا مرّ بالصبيان سلم عليهم كالكبار، وكان يتفقد الأطفال كالكبار، ويؤانسهم ويهتم بمشاعرهم، ولا يهمل وجودهم في مجلسه، وكان يداعبهم ويوصي بإكرام الأطفال، ويحث على العدل فيما بينهم(١).

فالحب، مصحوباً بالعدل والإكرام والاحترام، هو أساس النهج النبوي

---

(١) عن عبد الله بن الحارث قال كان رسول الله ﷺ يصُفُّ عبد الله وعبيد الله وكثيراً من بني العباس ثم يقول: مَنْ سبق إلي فله كذا وكذا، قال ويستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلزمهم (رواه أحمد في مسنده: ١٧٣٩).

– روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير - قال: أحسبه فطيماً - وكان إذا جاء قال: يا أبا عُمير، مافعل النغير - نُغَر كان يلعب به - فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلي بنا (صحيح البخاري: ٥٧٣٥).

– وعن سهل بن ساعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتي بشراب فشرب منه وعن يمينه غلام (ابن عباس) وعن يساره أشياخ فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: لا والله لا أوثر بنصيبي منك أحداً (رواه مسلم في صحيحه: ٣٧٨٦).

– وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال "من قال لصبي هاك ثم لم يعطه فهي كذبة" (رواه أحمد في مسنده: ٩٤٦٠).

– وعن رافع بن عمرو الغفاري قال كنت وأنا غلام أرمي نخلاً للأنصار فأتي بي إلى النبي ﷺ فقال يا غلام لم ترمي النخل؟ قال قلت آكل قال فلا ترم النخل وكل ما يسقط في أسفلها ثم مسح رأسي وقال اللهم أشبع بطنه" (رواه أحمد في مسنده: ١٩٤٥٣). =

الذي يجعل خطابه وتوجيهه للطفل فاعلاً، ويجعل من قوة الحب ومن دوافعه الإيجابية، لا التخويف والترهيب، أكبرَ عون له على استجابة الأطفال من حوله لتوجيهه، وحرصهم على إرضائه، والتحلي بالصفات الحميدة التي يغرسها ويتعهدها في نفوسهم عن رضا نفسٍ، حباً له، واقتناعاً بما يريده لهم ومنهم، مما جعل التربية النبوية النموذج الأسمى في النجاح، حتى إنه ﷺ قد بلغ غاية الكمال؛ فلم يحتجْ إلى عنف اليد أو اللسان، ولم يضربْ ﷺ طفلاً قطّ، ولم ينلْ أحداً منهم بسبٍّ أو شتمٍ.

ويخطئ من يظن العنف والسطو باليد أو اللسان وسيلةً سليمةً في التربية، لأن اللجوء إلى الضرب والأذى الجسدي في الحقيقة دليلُ العجز وقصور الأداء التربوي للآباء والأمهات، وتحطيم لشخصية الطفل واحترامه لذاته ولعزة نفسه وكرامته وثقته بها، وما أقساه حالاً أن نرى في تقاليد بعض شعوبنا

= مما كان يلفت نظري وينال إعجابي ما كنت أراه من كثير من الأمهات الأمريكيات في تعاملهم مع صغار أطفالهم حين يصحبونهم إلى الأماكن العامة في الشوارع وفي الحدائق العامة وفي الملاعب وفي الأسواق، فكانت الأم حين ترغب في توجيه الخطاب إلى الطفل وتوضيح أمر له أو عتابه أو توبيخه على تصرف من التصرفات فإنها لا توجه الخطاب إلى الطفل علوياً بقامتها منتصبة عملاقة فوق رأس الطفل بل كانت تنزل وقد ثنت ركبتيها بحيث تصبح على مستوى قامته وجهاً لوجه معه ثم تأخذ في مخاطبته والحديث إليه.

ولا أنس امرأة في أحد الأسواق وقد ملأت عربة اليد بما اشترت من البضائع، وبعد أن دفعت الثمن وجاءت إلى باب السوق لتذهب إلى سيارتها، وكان عليها أن تقطع الشارع المحيط بالمحل إلى ساحة موقف السيارات، وكانت تمسك العربة بيد وتمسك باليد الأخرى يد طفلها الصغير، فالتفتت إليه وسألته إن كان يرغب في ركوب العربة أو يرغب في السير إلى موقف السيارات؟ فاختار السير، فأخذت في دفع العربة بيد، ويد الطفل في اليد الأخرى على ما في ذلك من العناء، فهي أعطت الطفل الخيار واحترمت رغبته. ولا غرابة مع هذا السلوك التربوي أن يحترم مثل هذا الطفل ذاته عندما يشب ويعتد بنفسه وينشأ متمتعاً بالشجاعة الأدبية والذود عن حقوقه ولا يسمح بتخطيها والعدوان عليها، فالخوف والرهبة وضعف الاعتداد بالذات هو التربة الخصبة للذل والاستبداد.

وتراثها سمات شريعة الغاب، وضعف روح الإسلام وخلقه؛ حين تشيع فيها ظاهرة تقبل السطو البدني من قِبَلِ الأقوياء والأكابر، ليس في حقِّ الصغار فحسب بل يغدو ذلك حقاً لصاحب كل سلطة وسطوة، ويخولهم ذلك حقَّ ضرب البالغين من الأتباع وانتهاك كرامتهم الإنسانية؛ مما يجعل ذلك في حقيقته رمزاً وتجسيداً للتدمير العقدي والحضاري والتربوي الذي أصاب الأمة التي كان يأخذ نبيها الغضب إذا ما امتدت يد رجل على مولاه، فلا يكف غضبه عنه ولا يكفِّر فعلته إلا إعتاقه[(١)] بل إنه يلعن من يؤلم ويؤذي حيواناً في غير ضرورة[(٢)] ولذلك فالعنف من غير حق وضرورة ليس من أصل خلق المسلم ولا مسلكه، فما بالك بالعنف في التربية !؟ لأن العنف في التربية دليل الجهل والعجز، وهو لا يأتي بخير؛ فهو يولِّد المقاومة والرفض، وقد تكون المقاومة والرفض بالثورة والعناد والانحراف، وقد ينجم عن العنف - في حالة الشدة، وعجز الطفل الضعيف عن إبداء المقاومة - تحطيم لشخصيته، وصبغها بالضعف والجبن والكراهية والميل إلى الحقد والأذى والكذب والخبث والنفاق والسلبية.

---

(١) روى مسلم عن أبي علي سويد بن مقرن رضي الله عنه أنه قال: لقد رأيتني سابع إخوة لي، ما لنا خادم إلا واحدة لطمها أصغرنا، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نعتقها، وروى مسلم عن ابن مسعود البدري رضي الله عنه قال: كنت أضرب غلاماً لي بالسوط، فسمعت صوتاً خلفي "اعلم أبا مسعود" فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني فإذا هو يقول: " اعلم أبا مسعرد أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام" فقلت: يا رسول الله: هو حر لوجه الله تعالى، فقال: "أما لو لم تفعل للفحتك النار، أو لمستك النار" (صحيح مسم: ٣١٣٦).

(٢) روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "عُذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض" (صحيح مسلم: ٤١٦٠) وروى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أ ن رسول الله ﷺ "لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً" (صحيح مسلم: ٣٦١٧). وروى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر عليه حمار قد وسم من وجهه فقال: "لعن الله الذي وسمه" (صحيح مسلم: ٣٩٥٣).

الحبُّ قوة ودافع: تربة العلاقات المؤثرة المثمرة

إنّ الحب يولد الثقة والطمأنينة والشجاعة، بل إن من مزايا العلاقة القائمة على الحب أنها تولِّد خوفاً إيجابياً يحرص فيه الطفل على مرضاة المحبوب: رباً وديناً ونبياً ووالداً ومعلماً؛ والحفاظ على مودتهم وحبهم، ولا تساوره المشاعر السلبية الناشئة عن الخوف السلبي والمرارة والتحدي والرفض التي يسببها القسر والعنف، وفَقد مشاعر الحب والاحترام والثقة بالنفس، وافتقاد أحاسيس العدل وكرم المعاملة.

ولقلة عناية جل جمهور الأمة بالقراءة والاطلاع التربوي من جانب، ولقلة المتوافر لهم علمياً وتربوياً واجتماعياً من المنظور الإسلامي من جانب آخر، نجد أنه كثيراً ما يخلط الآباء والأمهات والمربون بين مفاهيم الحب والحرية والنظام، وتبدو لهم هذه المفاهيم وكأنها أمور متعارضة متنافرة، وهي في الحقيقة متلازمة متآزرة.

فالحب لا يعني التدليل المفرط، ولا يعني الاستجابة لكل مطالب الصغير ورغباته، ولا الإغضاء عن كل أخطائه وهفواته وتجاوزاته، ولكن الحب الصحيح هو لُبُّ العلاقة التي تقوم بين الطفل والمربي تعبيراً عن مشاعر المودة والعناية والرعاية الصادقة الايجابية؛ التي تهدف إلى مصلحة الصغير، وتوفير كافة الأساليب لراحته ورعايته وتنمية قدراته وبناء نفسيته على أسس إسلامية إيجابية سليمة. وهذا يعني بذل الجهد والصبر لفهم نفسية الصغير والمرحلة التي يمر بها، ومعرفة الأساليب التربوية التي يجب أخذها في الحسبان حين التعامل معه؛ بحيث يندفع الصغير إلى السلوك السليم، وتكوين العقلية والنفسية المطلوبة، بطواعية واقتناع ورغبة، ودون حاجة إلى العنف أو الإرهاب أو السحق أو الإلجام الذي يجعل المطلوب من قبل المربي عبئاً، وكراهيةً، ورفضاً، ومقاومةً من الطفل، تعبر عن نفسها حسب الظروف التي يعيشها الطفل، فهي إما أن تكون على شكل عنادٍ ورفضٍ وتحدٍ وانحرافٍ، أو على شكل انطواءٍ وفقدِ ثقةٍ بالنفس، ومتابعةِ كراهيةٍ وخداعٍ وخبثِ طويةٍ.

الحرية قوة: حدودها وضوابطها

والحرية قد يفهمها كثيرون - بسبب جهل كثير من الآباء بالمفاهيم التربوية، وتقصير كثير من المثقفين والمفكرين والتربويين في أداء أدوارهم العلمية التبصيرية - على أنها إلقاء الحبل على الغارب لفعل كل ما يخطر بالبال، وتهواه النفس، وتقود إليه النزوات، وهذا فهم خاطئٌ وواهِمٌ، ولابد من أن ينتهي بالفرد والمجتمع في نهاية المطاف إلى الفوضى والفساد والتحلل والانهيار .

فالحرية الإنسانية لابد من أن تكون لها حدود وقواعد وثوابت تنبعث من طبيعة الإنسان وطبيعة مجتمعه، ولابد من فهمها ومراعاة حدودها، شأن الإنسان في ذلك شأن سائر منظومات الكائنات، فالإنسان ومجتمعه منظومة مركبة لها قواعدها وثوابتها وحدودها التي يجب مراعاتها، وعدم تخطيها، وإلا انهارت المنظومة كلها، يتساوى في ذلك منظومة المجتمع الإنساني مع منظومات الذرة والخلية والمجرة. ولكن هذا يعني أيضاً أن هناك مجالاً للحرية والخيار في حدود طبيعة منظومة المجتمع الإنساني؛ بحيث تكون لها حدودها، ولها قواعدها التي تناسب مكانة الإنسان ودوره في الاستخلاف والعمران والتعبيد والمسؤولية، وهي حق له، وواجب عليه للقيام بأعباء دوره وأداء مهمته في الحياة.

فليس لإنسان أن يحرم إنساناً آخر من حق الخيار ومسؤوليته، ولكن من واجب المجتمع أن يضع أعضاءه أمام واجباتهم ومسؤولياتهم، وأن يقوم بتعليمهم وتوعيتهم، وأن يفسح الطريق أمامهم لممارسة حريتهم المشروعة في القيام بواجباتهم ومسؤولياتهم، وأن يلزمهم حقوقَ المجتمع وحدود منظومته وثوابتها وقواعدها كما يقررها قانون المجتمع وشريعته، وَفْقَ مبادئ الشورى وحكمة جماعة الأمة، لأن جوهر الحرية هو القدرة - دون عوائق - على أداء الواجبات، وحمل المسؤوليات، والقدرة على تعبيد النفس للحق والقيام بأعباء الاستخلاف والعمران، على طريق الحق والعدل والإحسان، وليس من

الحرية في شيء تخطي القوانين والإخلال بالحقوق والمسؤوليات، والسعي في الأرض بالظلم والفساد، والسبيل إلى تثبيت قواعد الحرية وحسن ممارستها يكون بالتربية والتعليم والتوعية والتبصير بالمسؤولية المحددة المقنعة لعامة الأمة، على أساس المتفق عليه من الثوابت والقواعد والحدود، فالحجر ظلم، والانفلات فساد، وجماع أمر الأمة هو شريعة الشورى الإسلامية في المجتمع.

ولذلك لم يكن عبثاً وجود حرية الدين والعقيدة والفكر في الشريعة الإسلامية، ولم يكن عبثاً أن الشريعة والحدود لا تطارد الناس في أسرارهم وخاصة تصرفاتهم فيما يتعلق بطبائعهم وهوى نفوسهم، فذلك متروك لضمائرهم وتربية نفوسهم ومراجعة هفواتهم، ولا يؤخذون إلا بالمجاهرة وأذى الآخرين بإشهار المفاسد، بل أن الشريعة تعاقب من يراقب هفوات الناس ويتتبع عوراتهم ويكشف أستارهم، ويروع نفوسهم، ولأن هدف الإسلام ضمان حرية العمل الصالح والسعي في الأرض بالإصلاح، فليس في أي شيء من كل ذلك مما يمكن أن يفهم أو يفسر الحرية على أنها حق لأي إنسان كي يسعى بالظلم والعدوان أو الفساد، فذلك ما يأباه الإسلام، وتأباه الطبائع السليمة، ولا يتعلق بغاية الحياة الإنسانية وممارسة مسؤولياتها الاستخلافية[1] ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ١٩/٥٩].

والإسلام يتفق مع كل العقلاء على أن المقصودَ بالحرية إفساحُ المجال لكل إنسان لكي يحققَ مصالحه ويتصرفَ وفق اقتناعه بما لا يضر بالآخرين، سواء في ذلك الطرف الآخر للعلاقة أو المجتمع، وفي المدى القريب أو المدى البعيد، أي إن القصد من ممارسة الحرية الإنسانية هو قصد إيجابي في حدود المصالح المشتركة للجميع؛ التي تقررها القوانين وَفْقَ اقتناع الجماعة ورؤيتها الجماعية التي تتداولها على أساس الشورى الإسلامية، واحترام حق كل

(١) أبوسليمان، عبد الحميد أحمد. قانون العقوبات الإسلامي، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة الرابعة: العدد الرابع عشر، ص ١٧٧-١٧٨.

مواطن في إبداء رأيه الناصح، والتعبير عن قناعته الضميرية؛ تحقيقاً وإثراءً لمبدأ الشورى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨/٤٢]، لأن الأمر في النهاية يتعلق بحياة كل فرد وممارسة حق هذه الحياة ومسؤولياتها.

وما يفرق بين الإسلام وسواه من المجتمعات في العالم المعاصر أنه الدين الوحيد الذي يملك رسالة ربانية محفوظة، تقرر - عن العلم الرباني الكلي المطلق - ثوابتَ الصلاح والإصلاح للمجتمع الإنساني وكلياته في شبكة علاقاته الإنسانية، وفي مداها الآني والآجل، وهذا لا يتأتى إلا من خالق الكون وصاحب العلم الكلي بما خلق وأبدع، يشهد على صدقها علاماتُ النبوة للرسول ودلالاتُها ومصداقيةُ الرسالة على مدى الزمان والمكان:[1] ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣/٤١]. ولذلك لم يكن هناك بدٌّ أمام الأمم التي خذلتها رسالاتها المحرفة من الخلط والاضطراب وعدم القدرة على معرفة حدود حريات منظومة المجتمع الإنساني؛ بسبب افتقارهم إلى الثوابت، ولعدم قدرة الجزء على الإحاطة بالكل، وباءت محاولاتهم في معرفة هذه الحدود وتلك الثوابت بالإخفاق، وأصبحت أوربا عاجزة عن استبدال ما يتساقط من موروثاتها وتقاليدها من سالف تأثير المسيحية والإسلام، وأصبح إله كل فرد هواه، وتخبطت نظراتهم واقتناعاتهم، وتفككت عرى وشائجهم، وانتشر التبذل والفساد وانفلات الأخلاق فيما بينهم، وانهارت الأسرة، وانطلقت قوى العنف والشهوات المدمرة من عقالها، وأصبح كل فرد - بحسب معرفته وهواه - يقرر ما يأخذ وما يدع، دون حاجة إلى علم أو دليل، ودون قدرة على معرفةٍ موثوقةٍ بالعواقب أو حساب للآثار، وأصبح

(١) أبوسليمان، عبد الحميد أحمد. تأملات في ظاهرية ابن حزم وإعجاز الرسالة المحمدية، مجلة التجديد، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، السنة الثانية، العدد الثالث، ١٩٩٨م.

العقلاء - قبل سواهم - لهم في كل يوم رأي يضربون به على غير هدى أخماساً في أسداس. لقد حاول الغرب الكشف عن مفهوم القانون الطبيعي، لكنهم فشلوا، لأن تلك قضية كلية، لا يسعها ولا يحيط بها نظر الجزء، ولذلك فإنهم ما زالوا في كل يوم يخرجون بنظرية، وفي كل يوم يقومون باستدراك، وفي كل يوم يظهر مذهب ومدرسة. وأصبح الملموس فقط هو آثار التخبط في التفسخ والعنف والجريمة والعجز عن معرفة ثوابت منظومة المجتمع الإنساني وحدود حرية الإنسان، وما يجب التزامه من قِبَلِ أعضاء المجتمع للحفاظ على المنظومة الاجتماعية وحمايتها من التفكك والانهيار الذي لن يدرأه عنهم هديرُ الآلات وكثرةُ الأدوات وفتكُ الأسلحة والذخائر ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٣٠/٩]. ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [يونس: ١٠/١٣]. ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف: ١٨/٥٩]. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ٦/١١].

وإذا سلمنا بالحاجة إلى القواعد والحدود لضبط الحرية الإنسانية فلا تكون مفسدة ولا مخربة، وأن كل مجتمع في حاجة إلى تبين حدود الحرية وضوابطها، ووضع قانون عام يحدد -في شورى عامة ورؤية كلية موضوعية- حدودَ هذه الحرية حتى لاتعمَّ الفوضى وينتشر الفساد، وأن على كل أفراد المجتمع التزام هذه الحدود؛ لذلك نجد أن الغرب اليوم- على ماهو عليه من حال اجتماعي وأخلاقي - في أشد الحاجة إلى الوحي الإسلامي المحفوظ ليعينه على معرفة حدود الحرية في المجتمع وحدودها، أي إنه بحاجة إلى ضبط الحرية، أو إلى ضوابط الحرية.

أما الأمةُ الإسلامية والفكرُ الإسلامي اللذان مايزالان يرتبطان بالوحي المنزل وكلياته فإن جمود فكرهم وموروثاتهم وما انتهوا إليه من استعباد واستبداد

وجمود قضى على مفهوم الشورى والحرية في مجتمعاتهم، وأورثهم فكر الوصاية وخنوع نفسية العبيد؛ مما يجعلهم بادئ ذي بدء في حاجة إلى التخلص فكرياً وتربوياً من هذا الفكر الاستبدادي الموروث؛ لاستعادة حسّ الحرية الراشدة والشجاعة الأدبية الدافعة، وإقامة مجتمع الشورى ومؤسساته، أي إن الشعوب الإسلامية في حاجة إلى حرية الانضباط في مواجهة حاجة الغرب إلى انضباط الحرية.

جوهرُ النظام والانضباط: التعوُّد وحس الكرامة والمسؤولية

إن النظام والانضباط - تربوياً - لا يعني القسر والإذلال والإرهاب والتبعية والطاعة العمياء. إنّ النظام والانضباط من الناحية التربوية يعني بالدرجة الأولى تعويد النفس وتربيتها على أداء الحقوق، وتحمل المسؤوليات، وإمساك الإرادة الإنسانية بزمام النفس وقواها، ودفعها في الاتجاه الصحيح المصلح الذي يليق بالكرامة الإنسانية.

إنّ النظام والانضباط في مراحل الطفولة هو في جوهره تعويدٌ للطفل على أداء الواجبات، والتفاعل البناء الإيجابي مع المحيط الإنساني والبيئي الذي يعيش فيه، ويتأقلم معه، ويكوّن به العادات والمفاهيم السليمة للأداء الصالح في علاقاته المختلفة، وليس النظام والانضباط قهر إرادة الطفل وإرهابه وإرغامه على سلوك معين دون اقتناع مباشر منه، فذلك مهانة واستعباد، وليس أمام مناهج التربية السليمة أي عائق يحول دون تعويد النفس على تحمل المسؤوليات، وأداء الحقوق، وحب الخير والحق وحسّ الكرامة والأنفة من الفساد والرذائل، والرغبة في البعد عنها وتلافيها.

وفي الحالات المَرَضِيَّة التي قد تستدعي معاقبة الطفل عقوبة بدنية فإن ذلك يجب أن يتم ضمن برنامج علاجي تربوي يتعامل مع أسباب الحالة، وتلافي ماسبق فيها من تقصير، ومن ذلك ما يتعلق بالبيئة المحيطة بالطفل، وبالعوامل التي تسببت في حالته المرضية، وسابق أسلوب تعامل القائمين على

تربيته؛ وفي حالة الحاجة إلى عقاب بدني يتوجب ألا يتم ذلك إلا بواسطة أبويه أو بحضورٍ وتفويضٍ منهما، أو من قِبَلِ ولي أمر الطفل الذي هو في مقام الوالد لدى الطفل، لكون هؤلاء هم وحدهم المخوَّلون نفسياً سلطة عقاب الطفل بدنياً إذا اقتضى علاجه ذلك، فالوالدان هما اللذان يشكلان السلطة النفسية والتربوية الوحيدة التي يمكن لها أن تمارس هذا اللون من العقاب بأقل قدر ممكن من الضرر النفسي والبدني، وهو أمر يجب أن يتم التحقق والتأكد من الحاجة إليه بعد أن نستنفد كافة الأساليب الإيجابية، والتدرج حسب الحاجة في أساليب العقاب: من إعراضٍ، ولفتِ نظرٍ، وتوبيخٍ؛ وذلك إذا كنا فعلاً حريصين على سلامة نفسية الطفل والمحافظة على كرامته الإنسانية.

وشأن الطفل في موضوع العقوبة البدنية شأن عقوبة البالغ تماماً، فليس من الكرامة في شيء استصغار أمر الطفل واستضعافه، والاستهانة به وبكرامته، وإنزال العقوبة البدنية به كلما بدر منه خطأ صَغُرَ أم كَبُرَ، على غير الحال - عادةً - في التعامل مع البالغ، والأمر في ميزان الآثار النفسية والكرامة الإنسانية في حالة الطفل أبلغ وأشد لما تتركه تلك العقوبات في نفسيته وشخصيته في مرحلة التكوين من تشوهات وآثارسلبية مستقبلية مدمرة.

إن الطفل الذي تُمتَهَنُ كرامته بالعقاب البدني سيكون في الغالب - هرباً من العقاب وبسببه - هَيَّاباً من الآخرين، فاقدَ الثقة بالنفس، لاطموح لديه، وهو أقرب إلى صفات المهانة والكذب والنفاق والتهرب من المسؤولية؛ ولذلك فإنه من أجل المحافظة على سلامة بناء المجتمع وعلاقاته الصحية، والمحافظة على الحقوق والكرامة الإنسانية لأبنائنا، سواء أكانوا أطفالاً أم بالغين؛ فإنه يجب في حالة الطفل ألا توقع عليه العقوبة البدنية - عند الحاجة- إلا من قِبَلِ الوالدين وبأسلوب رمزي أقرب إلى الصفق واللطخ تعبيراً عن الغضب وعدم الرضا لخطأ كبير، كما أنه في حالة البالغين يجب ألا توقع العقوبة إلا وفقاً للقانون، وبموجب حكم من السلطة القضائية، ويتم تنفيذها فقط من قِبَلِ الجهة المخولة بتنفيذ العقوبات القانونية، صونا لكرامة الإنسان، وسلامة بنائه النفسي، والمحافظة على حقوقه، ومساعدته على استعادة صحته النفسية

وعلاقاته الاجتماعية السوية التي يتساوى فيها الطفل والبالغ؛ فمن جيد البذر ينمو باسق الشجر الذي يجود بأحلى الثمر.

لذلك يجب أن ندرك أن العقوبة البدنية ليست أداة من أدوات التربية السوية؛ بل هي وسيلة من وسائل علاج الحالات المرضية المنبثة عن الإخفاق التربوي والممارسات السيئة التي تفتقر إلى فهم نفسية الطفل، وضرورة التعامل معها على أسس من الحب، والصبر، والتعويد، والتبصير، والترغيب، والتشجيع، واستخدام أدوات التعزيز والتحفيز لدى الطفل، وانتهاج الأساليب النفسية السليمة؛ حتى لاينتهي الأمر بالطفل إلى أوضاعٍ مَرَضِيَّةٍ تتطلب لاحقاً الحاجة إلى العقوبات البدنية أو غير البدنية، مع ملاحظة آثارها السيئة ونتائجها السلبية.

إن الفهم الصحيح لمعاني الحب والحرية والانضباط عند المربي هو الذي يسهل عليه مهمة التربية وإدراك غاياتها وأساليبها التطبيقية في تربية الناشئة، وغرس القيم السامية فيها، وتعويدها على مكارم الأخلاق، والتبصير البناء قولاً وفعلاً بآثار السلوك والخلق القويم دون حاجة إلى العنف أو إلى أية صورة من صور الأذى البدني المحطِّم للشخصية والكرامة الإنسانية؛ فإن ذلك يمثل تربة خصبة ومرتعاً وخيماً لأمراض "نفسية العبيد" التي هي من أهم الأمراض التي تعاني منها الأمة عامة.

لنجاح التربية لابد للمربي من فهم طبيعة الطفولة والمراحل التي تمر بها، وطبيعة مدارك كل مرحلة من مراحلها، ومعرفة ما يقدر أن يعيه الطفل ويقدر عليه في كل مرحلة من المراحل؛ حتى لا يكلف الطفل فوق طاقته، ولا يخاطب بما هو فوق إدراكه، أو يترك هملاً حتى تفوت فرص تنميته وتقويمه، دون جهد ولا توجيه ولا إرشاد، مما يضيع فرصاً لا تعوض في تكوين عقلية الطفل ونفسيته ووجدانه، وذلك لأن لكل موسمٍ بذراً، ولكل صيدٍ موسماً، ولكل زرعٍ حصاداً.

إنّ غلبة الاهتمام المعرفي بحشو رأس الناشئة بالمعلومات واستظهارها، مع

ضعف الاهتمام بالجانب النفسي والوجداني، وعدم الربط بين المعرفي والنفسي الوجداني، وضعف ملاحظة آثار المعرفي النفسية والوجدانية في تكوين عقلية الناشئة ونفسيتهم وأخلاقياتهم، مثله في ذلك كمن يصب الماء الزلال في خزان الوقود، فيعوق الحركة ويتلف الطاقة، ولا يروي الغليل.

فالحب هو أرضية التربية، وهو التربة التي تنمو فيها العلاقات المؤثرة المثمرة، بها ينشأ الولاء والثقة والتعلق بين الناشئ والمربي، فبقدرِ حرص المربي على منفعة الطفل، والتواصل معه، والتلطف به، والتودد إليه، وتشجيعه، وتقدير جهده، يكون تعلق الطفل بالمربي، وثقته به، وحرصه على إرضائه ونيل ثقته، مما يجعل الطفل أرضاً خصبة للزرع؛ فتَسْهُلَ مهمة المربي الحصيف في الأخذ بيد الطفل، والمضي به قُدُماً على مدارج قدراته في السعي نحو الأفضل والأعلى والأجدر.

مراحل نمو الطفولة الأساسية ومنطلقات التعامل معها

والمربي القدير يهتم قبل كل شيء بالتعرف على الصفات والقدرات العقلية والنفسية والوجدانية والجسمانية للطفل؛ حتى يأخذ بيده لتنمية قدراته في تلك المرحلة، وتكوين عقليته وبناء نفسيته ووجدانه، من أجل بذر أسمى القيم، وتفجير أعلى الطاقات، وتنمية أفضل القدرات، وفي حدود خصوصية الطفل وإمكاناته الذهنية والنفسية والبدنية؛ بحيث لا يكلفه ما لا يطيق، ولا يترك طاقاته تضيع هدراً.

إن أصل **طبيعة الطفل دون السابعة** تستجيب للمناغمة والتعويد، وهذه المرحلة تتسم بالحاجة إلى تكوين أبسط الخبرات وتكرارها، وتتميز بضعف القدرة على التركيز والمتابعة والتذكر، ولذلك كانت المناغمةُ والحوارُ والملاعبةُ والصبرُ والتكرارُ أساسَ التربية في هذه المرحلة، ومن المهم فيها ألفة الطفل لمربيه، وحبه له وثقته به، وثبات خطة المربي ومعرفته لما هو مطلوب من الطفل حتى يتحقق عند الطفل حس الأمن، وتتاح له فرصة التعود، وهذا يكون حين لا تتعارض

توجيهات المربي ولا تتفاوت، ولا ينقطع خيط تعويداتها؛ بحيث يأنس الطفل، ويعلم ما هو مطلوب منه، فالتكرار والمتابعة والمصاحبة والمساعدة الصبورة المستمرة تعين الطفل على تحقيق المطلوب منه، وصولاً إلى تكوين المفاهيم والعادات المرغوبة في سلوكه، وفي علاقاته وتعامله مع الآخرين.

ثم تأتي **مرحلة التميز** في حوالي السابعة من العمر، وهي تستلزم جوَّ علاقةِ الحب والمودة والثقة والولاء الملموسة، والتعبير عنها بمختلف الوسائل، وبها يستمر المربي في المتابعة الصبورة، وفي تعويد الطفل على العادات والأساليب الصحيحة والأخلاق الحميدة في التعامل مع من حوله من الصغار والكبار، وتوجيهه إلى الألفة والمشاركة، واحترام حقوق الآخرين، والتعاون معهم، وبذل الجهد لإنجاز الواجبات، وربط مشاعره وإنجازاته الإيجابية بمدى تحقيق هذه الغايات في سلوكه، وفي علاقاته مع الآخرين.

ومع بلوغ الطفل سن العاشرة تبدأ - بتفاوتٍ - مرحلةُ النضج الجسدي والنفسي لديه، وعندها يجب أن يبدأ المربي بتعويد الطفل على تحمل تكاليف المسؤوليات، والتطلع الإيجابي للسبق والتميز، وفتح آفاق المعارف أمام نفسه المتطلعة إلى المعرفة والشغوفة بالاستكشاف، والمولعة بالإنجاز والإبداع، وبالرغبة في التميز وتحمل المخاطر؛ ولتحقيق هذه الأهداف يجب توفير كل وسائلها المدروسة، والحرص - في الوقت نفسه - على عدم تعرض الطفل - بسببها - لغير المحسوب حسابه من المخاطر أو الإحباطات.

وهكذا فإنّ الحب في كل مراحل الطفولة هو عماد التربية السليمة الناجحة، كما يجب أن يستأثر التعويد في الطفولة وضبط المنهج التربوي بنصيب الأسد.

أما **مرحلة المراهقة** ففيها يستولي على نفس الطفل حب المعرفة وطلب الاقتناع وحب الاستقلال، وتلمس الطريق بروح الاستكشاف والتسامي، في

الوقت الذي يتعرض لتغيرات جسدية ونفسية ووجدانية ليس له سابق خبرة ولا معرفة بالأساليب الصحيحة في التعامل معها، مما يثير الاضطراب في نفسه، وفي علاقاته، وتتنازعه الأحاسيس، وقد تدفعه إلى الانطواء واستيلاء مشاعر الخجل عليه، أو إلى العكس من ذلك فقد تدفعه إلى العصيان والصدام والانفلات، ومن خلال التواصل وإفساح الصدر والمجال لمشاعر الاستقلال والإنجاز والاستكشاف وطلب المعرفة في ظل الرعاية، وتوفير المناخات النظيفة، والمتابعة الرؤوفة، والتوجيه اللبق، والخُلطَات السليمة؛ يمكن تحقيق النتائج الإيجابية، وبها يتم التفتح والتحكم بالطاقات والقوى المتفجرة في كيان الصغير.

مع النضج وبلوغ ريعان الشباب وطاقاته وتطلعاته والجرأة في سلوك فجاج الحياة؛ فإنّ الثقة والتشجيع، وإلقاء عبء المسؤوليات على الأكتاف الشابة هي ما يحتاج إليه الشاب ليكوّن خبراته، ويشق طريقه في الحياة: عضواً قادراً نافعاً، وإنساناً مبدعاً متميزاً بالمبادرة والطاقة الوجدانية، والقدرة على تحمل المسؤوليات، بالقوة والأمانة اللائقة بالمسلم المستخلف.

إن عنصر الاقتناع والتشجيع والاحترام وإفساح المجال للمبادرة والإبداع وتحمل المسؤوليات هي أساس الجانب الجمعي في بناء الشخصية الإيجابية، وإذا تعهد المربون نفوس الأطفال والشباب بالعناية والرعاية في هذه المراحل، يكونون قد أفلحوا في بناء سواعد القوة والقدرة والأمانة، وصنعوا سواعد الصلاح والإصلاح وإلا فلا مجال دون ذلك لميلاد جيل حملة الرسالة، ولا مكان لمجتمع القوة والتكافل والشورى والكرامة.

صفات المربي الناجح

إن على المربي إذا شاء أن ينجح في مهمته أن يتسلح ويتلبس بالمعرفة والحب والإكرام والاحترام، وبالعدل والصبر والبذل؛ لأن هذه هي الأسس التي

لابد منها لتربية العقول والنفوس، وإعدادها لتحمل المسؤوليات وحملها، وهي التي تكوّن معادن النفوس في كل أمة وفي كل أرض: "تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا"[١].

فالتربية الصحيحة والمعدن النفيس والبناء النفسي القويم إنما يتعامل مع أصل طبع الإنسان وفطرته، بغض النظر عما إذا كان هذا الإنسان في جاهلية أم إسلام، فالإسلام والفقه بمقاصده السامية يوجه تلك الطاقة ويوظفها نحو الخير والإنجاز الخيّر، أما إذا لم يكن ذلك البناء النفسي وتلك الطاقة الوجدانية حاضرة فلن يجدي العلم والفقه في دفع العلم إلى العمل، ودفع الفكر إلى التضحية والبذل، إلا بالأدنى الأقل.

فالعلم والمعرفة ضروريان لنجاح المربي والتربية، ومن دون العلم والمعرفة بنفسية الطفل وبمراحل نموه لن تجدي عواطف الحب؛ بل ربما كانت السبب في ضياع الطفل وسوء تربيته؛ فينشأ عاجزاً مدللاً أنانياً نرجسياً، لا يستطيع أن يقيم علاقات سوية مع من سواه، وكما يقولون "عدوٌ عاقلٌ خيرٌ من صديقٍ جاهلٍ". وكم من دُبٍّ جاهلٍ قضى بكل الولاء والحب على صديق نائم ليزيل عن رأسه ذبابة يخشى أن تزعج منامه.

ومن دون الحب وتمحيص المودة والحرص على مصلحة الطفل، والرغبة والصبر على تحمل أعباء تربية الصغير لن يفلح المربي في تحمل أعباء التربية، ولن يكون قادراً على كسب ثقة الطفل وولائه ومودته وحرصه على تقبل توجيهه ونيل رضاه.

والعدل هو الأساس المتين الذي يستقر عليه الحب والتكريم والاحترام وفاعلية التوجيه ما بين الطفل والمربي، لأنّ العدل هو محك مصداق مشاعر

---

(١) رواه البخاري وأحمد وفي رواية أخرى للبخاري قال: "فعن معادن العرب تسألون؛ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" (صحيح البخاري: ٣١٠٤ ومسند أحمد: ٩٢٠١). وفي رواية للطيالسي وابن منيع والعسكري أنّ رسول الله ﷺ قال: "الناس معادن في الخير والشر، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" (مسند أحمد: ١٠٠٦٥).

المربي نحو الطفل، ولن يستطيع الطفل أن يصغي لتعابير الحب ولا لمظاهر التكريم إذا لم يصاحبها إحساس بعدل المربي، وعدم التحيّزِ وتمييزِ طفلٍ على آخر، أو فئة على أخرى، ذكراً كان أم أنثى، ولذلك فإن على المربي أن يحرص على العدل بين الصغار، وجعل الأفعال تسبق الأقوال في ترسيخ هذا الإحساس لدى الأطفال، وعليه أن يتلطف ويحسن التعامل مع الصغار حين تستدعي الظروف الموضوعية التفرقةَ في التعامل بين الأطفال والإخوان، وإظهار التفهم لمشاعر الطفل وأحاسيسه، وتوضيح الأمر له والمزايا التي يتمتع بها ويتميز بها عمن سواه، حتى في ذلك تتولد لدى الطفل ثقتَه بالمربي وبنفسه، ويقدّر ما يوليه إياه المربي من أحاسيس الحب والود؛ فأحاسيس الود والحب الحقيقية الصادقة هي أقدر اللغات على التواصل والاقتناع.

والصبر والتربية صنوان لا يفترقان، لأن العجز والقصور، والتجربة والخطأ، وحب الاستطلاع، والتجريب، هي من صفات الطفولة التي لابد من التعامل معها من قبل المربي بروح إيجابية، وهو الثمن الذي لا بد من أن يدفعه المربي لكي ينمو الطفل بتكرار محاولاته، والتعلم من أخطائه، واستكشاف طاقاته ومحيطه، ودون الحلم والصبر لن يثمر حبٌّ، ولن يفيد توجيهٌ، ولن تستقر عادةٌ، ولن يقوَّمَ سلوكٌ، ولن تنمو قدرةٌ.

ودون البذل والحرص على رعاية الطفل وتوفير حاجاته فليس هناك حبٌّ ولا إكرامٌ ولا عدلٌ، وبالحب والبذل والصبر كانت الجنة تحت أقدام الأمهات[(١)] ونال الوالدان مقام البر وحسن الصحبة[(٢)].

---

(١) فقد روي من حديث معاوية بن جاهمة أنه جاء النبي ﷺ فقال: يارسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك؟ فقال: هل لك أمٌّ؟ قال: نعم. قال: فالزمها فإن الجنة تحت رجليها (رواه النسائي في سننه: ٣٠٥٣)، والحاكم في المستدرك، وصححه ووافقه الذهبي، وأقره المنذري.

(٢) روى الشيخان أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله؛ من أحقُّ الناس بصحبتي؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك. (مسند أحمد: ٧٩٩٤).

إن المربي والمعلم الذي يتحلى بصفات **العلم والحب والبذل والصبر**، هذه الصفات المستقاة من صفات المعلم الأمثل عليه الصلاة والسلام يكون موضع الحب والإجلال والإكرام والذكر الحميد من أبنائه، ومن تلامذته وعشيرته. إن حسن اختيار المعلمين للأبناء وإكرامهم وتكريمهم يُعَدُّ من أهم واجبات الآباء والمجتمع. والأمم التي يحسن فيها تربية الأمهات، وتعزُّ مكانتهن، ويتميزُ معلموها؛ تتميزُ أجيالها ورجالاتها. والأمم التي تنحط فيها مكانة نسائها، وتتدنى تربيتهن، وينحدر فيها نوع معلميها وقدارتهم وإمكاناتهم، ويُحَطّ من قدرهم؛ تنحط ثقافة أبنائها وأخلاقهم وقدراتهم. وما استثمر الآباء والأمم فيما هو أهم وأعظم فائدة وجدوى من الاستثمار في مجال التربية والتعليم بكافة صوره ومجالاته، على مستوى الأسرة والأبوة، وعلى مستوى الحضانة والمدرسة والجامعة، وعلى مستوى المكتبات ووسائل الإعلام ونوادي المعرفة وتنمية القدرات.

لقد كان الرسول ﷺ المثل والقدوة في داره ومسجده وخطابه وتوجيهه وإرشاده وصحبته، وحري بالمسلمين أن يعوا دروس النهج والخطاب النبوي التربوي بشأن المرأة والطفل؛ لإعادة بناء الأجيال المسلمة على سمو الإيمان وقوته، وعلى جهاد العمل الصالح وتزكيته.

❊ ❊ ❊

الفصل الخامس

الأسرةُ المسلمةُ منبعُ الوجدان

وإذا كانت أهداف التربية الإسلامية السامية هي بناء "المؤمن الصادق" و"المستخلف الراعي" و"القوي الأمين" فإن هذه الأهداف لاتأتي إلا بطاقة قناعة الإيمان، وحسّ مسؤولية الاستخلاف، وشجاعة القلب، ونبل الصدق والأمانة وإحسان الأداء وإتقان العمل، وهذه معالم تبنى في الطفولة، وتتشكّل في أساس تكوين الإنسان الوجداني، ولذلك كانت الأسرة وسلامة العلاقة الأسرية هي القاعدة الأساس للنهج التربوي النبوي للطفل، وغاية خطابه، وذلك لأن الأسرة هي المحضن الأول والأهم للطفل البشري، نفسياً ومادياً، فالطفل البشري يولد غير قادر على تحصيل حاجاته وحماية نفسه دون عناية أسرية توفر له الحاجات المادية والنفسية وترعى طفولته، ولذلك كان بناء الأسرة ونوعية علاقاتها من أهم الأبعاد التربوية الإنسانية التي يتوقف عليها نوع بناء الشخصية الإنسانية، وقد أولى الإسلامُ والقرآنُ الكريم ونبيُّ الإسلام الأسرةَ وعلاقاتها أعظمَ الاهتمام، وعدها النواة الأساسية في تكوين الفرد والمجتمع، ولذلك فإن من المهم أن نتعرف إلى الرؤية الإسلامية في بناء الأسرة وعلاقات أفرادها؛ حتى يمكن أن نقيم دعائمها على الأسس السليمة: التي توفر المحضن التربوي السليم لبناء الطفل المسلم، وتزيل بعض ما لحقها من انحرافات أملتها التقاليد، وأعانت عليها الظروفُ وغبشُ الرؤية وجمودُ الفكر، خاصة في هذه المرحلة التي تمر بها الأمة والتحديات التي تواجهها اليوم.

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٢١]. ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٤]. ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ١٣-١٩]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٩-٤١]. ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٣١-١٣٢]. ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ١٥-١٦]. ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا

﴿وَلَا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٢٣-٢٤]. ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٨٤-٨٧].

وقال رسول الله صلى الله عليه و سلم "إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله" رواه أحمد. وقال رسول الله ﷺ "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي" رواه ابن ماجة والحاكم. وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع، لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك». وروى الترمذي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوا تكن في الأرض فتنة وفساد كبير». وروى أحمد وأبو داوود والنسائي والحاكم أن رسول الله ﷺ قال: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة». وروى الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

هذا الاهتمام بالأسرة في الإسلام، التي هي المحضن الأول والأهم في بناء الإنسان، ليس مستغرباً لأن الإنسان هو أكرم المخلوقات، وهو المستخلف في الأرض، ولذلك كان في حاجةٍ إلى التربية والإعداد، وكانت طفولته النفسية والبدنية طويلة الأمد؛ بل هي أطول طفولة في الكائنات الحية، تستغرق حوالي عقدين من الزمان قبل أن يكتمل عود الطفل الإنساني، ويكتمل بناؤه النفسي والجسدي، وهو خلال هذه الفترة يتلقى مختلف ألوان العناية والرعاية والتربية والتقويم والتوجيه والتعليم والتدريب.

والأسرة هي تلك القاعدة التربوية الإنسانية التي تحتضنه وتوفر له كل احتياجاته، ولذلك كان لها التأثير الأكبر في توجيهه وبلورة بنائه النفسي والوجداني إيجاباً أو سلباً، وتشكيله بالقدر الذي تمارسه أو بالكيفية التي تسمح للآخرين بممارستها معه من أجل بنائه والتأثير فيه.

لهذه الأسباب ندرك لماذا أولت الشريعة الإسلامية بناء الأسرة كل هذه الأهمية الكبرى؟ ولماذا جاء بناؤها وهديها وتوجيهها قائماً على ما تمليه الفطرة وعلاقاتها الإنسانية في الأبوة والأمومة؟ ولما كانت الأسرة الإسلامية مبنية على الأسس الفطرية في النفس الإنسانية التي تتسم بالثبات؛ لذلك تناولها التشريع الإسلامي بالتفصيل الذي يقرر الأسس الثابتة لبنائها، ويحدد علاقات أفرادها القائمة على ثوابت هذا البناء الفطري.

أسرار الشريعة في بناء الأسرة: الأسس والمنهج

ولهذا فإنّ التشريعات الإسلامية للأسرة لا يمكن فهمها ولا إدراك حكمتها إذا لم تفهم الجوانب الفطرية السننية في تكوينها، والتي تحدد وظيفتها تجاه أعضائها، وطبيعة الأدوار المتكاملة لهم. إن إهمالَ جانب الدراسات السننية الفطرية في تكوين الأسرة التي جاءت الشريعة الإسلامية لإحكامها، والاستجابة لمتطلباتها هو الذي يفسر ما تعانيه كثير من التشريعات الإسلامية المعاصرة من قصور في ملاحقة المتغيرات، وملاحظة مدى تأثيرها على الاسلوب الذي يؤدي به أفراد الأسرة أدوارهم وتفاعلاتها الاجتماعية.

فوظيفة الأسرة في رعاية أفرادها وتكامل أدوارهم هو الأساس الفطري الحيوي والنفسي لعلاقات أفراد الأسرة الإنسانية، وعدم إدراك المبدأ الإسلامي في تكامل أفراد الجنس البشري عامة، وأدوار أعضاء الأسرة بشكل خاص، يؤدي إلى عدم فهم بناء الأسرة المسلمة، وعدم إدراك أدوار كل عضو فيها. لذلك يخطئ من يملي التماثل في الأدوار على أطراف العلاقة الأسرية؛ لأنّ ذلك منطلق خاطئ من ناحية الحقيقة الفطرية، وتشويه للوظيفة

الأسرية، وجور على حاجات أطراف العلاقة وحقوقهم، مما يسيء إليهم، ودون الفهم السليم لدور الفطرة في بناء الأسرة المسلمة لا نستطيع أن ندرك طبيعة الشريعة الإسلامية المبنية على الاستجابة للفطرة التي تكمن في تكوين الأسرة الإنسانية وحاجاتها الوظيفية.

التوافق والتكامل اللذان يحققان التعاون والرعاية والود والرحمة بين الأبوين - ذكراً وأنثى - هو الأساس الذي تبنى عليه الأسرة الإنسانية، وإذا ما انتفت علاقة التكامل والتعاون والود والرحمة بين الأبوين تحطمت أسس علاقة الآباء بالأبناء؛ وذلك لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولن يحظى الطفل بالسلام والأمن والرعاية والتربية الضرورية لبنائه النفسي والمعرفي القويم، ولن يتأتى هذا إلا إذا حصل كل فرد في الأسرة على حاجته، وقام بدوره قدر طاقته، وفق قدرته؛ مما يهيِّئ لأفراد الأسرة ولأطفالها المناخ النفسي السليم، للإحساس بالأمن، ولتنمية طاقاتهم وقدراتهم.

إنّ ضعف المرأة الجسدي ورقتها العاطفية، قياساً بالرجل، مع تعلق الطفل مادياً ونفسياً بها، هو مما يجعلها ويجعل طفلها في حاجة إلى الرعاية والدعم، ويعوض ذلك ويقابله ضعف الرجل تجاه الجنس، قياساً بالمرأة؛ لأن في تحكمها في رغباتها حماية للمرأة ولنفسها ولطفلها، وبذلك جعل الله بيد المرأة زمام القرار الجنسي وعقلانيته فلا يؤثر على قرارها العقلاني في علاقتها بالرجل حضوره أو مظهره، بل تظل قادرة على اتخاذ قرارها وفقاً لإرادتها وما ترى فيه مصلحتها، وهي لا تفقد عقلانيتها وتحكمها في قرارها إلا حين تسمح للرجل بلمسها جسدياً، وعندئذ لا تعود قادرة على اتخاذ قرار عقلاني، وتنساق مع العلاقة بتأثير العاطفة لا بقرار العقل، بعكس الرجل الذي - لضعفه الجنسي تجاه المرأة - يؤثر فيه منظر المرأة، بل إن مجرد خيالها - قد يؤثر أحياناً- على قدرة الرجل في اتخاذ قرار عقلاني إرادي؛ مما يجعله ضعيفاً أمام المرأة، وسلسَ القياد لها، يتبعها، ويتبع طفلها تبعاً لها، ولهذه الحقائق في كيان المرأة والرجل، وعلى أساس منها، ولما فيه مصلحتهما

نظمت الشريعة علاقة الزواج والنسب على أساس من الخصوصية، وبها يتم انتماء الطفل للرجل، وولاء الرجل للمرأة والطفل، وعلى أساس من هذا التنظيم الحكيم يحمل الرجل - بما وهبه الله من قدرات العمل وتحمُّل المشاق - أعباء تبعات الأنوثة والطفولة، وعلى أساس من هذه الخصوصية وهذا الانتماء وهذا الولاء قامت العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس من الود والرحمة، لتكون الأسرة محضن حب وأمن لأبنائهما.

إن قوةَ الرجل وجَلَدَهُ وخلوَّه من مشاغل الأمومة الأنثوية - هو في رباط الأسرة - قوةٌ مُيسّرةٌ لتوفير حاجات المرأة والطفل ورعايتهما، ورقة المرأة وعاطفتها راحةٌ ورحمةٌ وسكنٌ للطفل الضعيف والرجل المرهق، ولذلك تعلقت النفقة بالرجل في الأسرة، ولا تعمل المرأة إلا بإرادتها، بحسب حالها وطاقتها، والمرحلة التي تمر بها، وطبيعة العمل المتاح لها، وأي جور عليها في ذلك أو غبن لحقوقها هو غبن وظلم لها ولحقها في العون، وفي الإحسان، وعلى غير مقاصد الشريعة وأسس الفطرة في التعاون والتكامل.

وهذه الفطرة تفسر المفهوم الإسلامي في مقدار عورة الرجل وعورة المرأة وحكمته، فهو ليس جوراً على المرأة، ولكنه رعاية وحماية لطرفي الأسرة، فعورة الرجل المحدودة هي تيسير لعمل الرجل دون خوف على فتنة المرأة أوتفريطها في حقوق علاقة الأمومة في الأسرة، لأن عقلانية قراراها مبني في أصل طبعها، أما شمول عورة المرأة لمفاتن جسدها وسترها فإنه حماية لها من تعديات الرجال وعدوانهم على دور أمومتها، وذلك لضعف الرجل الفطري في شؤون الجنس، وعاطفية تصرفاته، وهي بذلك أيضاً حماية للرجل من الفتنة والإضرار بأسرته وبحقوقها عليه.

إن هذه الأهداف السامية هي المقصودة بالتفاوت بين عورة المرأة وعورة الرجل؛ فهي تنبع من فطرة كل واحد منهما، وتستجيب لحاجاتهما، ولطبيعة الدور المتعلق بكل واحد منهما، ولذلك كانت الخصوصية لأطراف الخطوبة وقاصدي الزواج من النظر إلى ما ليس لسواهم. و من ذلك أيضاً حكمة منع

التعدد للمرأة لأنه يهدم الأسرة، ويضيع النسب، ويلغي دور الأبوة، ولأنه لن يؤدي إلى ثمرة، لأن المرأة لا تحمل إلا مرة واحدة ومن رجل واحد، وكذلك الحكمة في السماح بتعدد الزوجات للرجل حين الحاجة والقدرة بشرط القيام بالعدل، لأن التعدد للرجل لا يلغي النسب، ولا يهدم الأسرة؛ بل يعدد الأسر، فكل علاقة للرجل بالمرأة يمكن أن ينتج عنهما ثمرة، وكل طفل له أم وله أب ينتمي إليهما ويحظى برعايتهما، إلا أن التعدد المباح للرجال دون حاجة ليس من دواعي المحبة والوئام والولاء في الأسرة، ويحمل معه مخاطر الغيرة والتباغض بين النساء والأبناء، خاصة إذا جانبته الحاجة والقدرة والحكمة والعدل؛ فلا يكون الرجل - على كل الوجوه - رابحاً نفسياً وأسرياً إلا إذا كان التعدد لحاجة حقيقية تمس حياة الفرد أو كيان الأمة، على أن تتسم بالعدل وتسعى بالرعاية في كل الأحوال.

وبهذا قامت الأسرة على الود والرحمة، ففي المشاعر تقوم على الود، وفي التكليف تقوم على الرحمة، فلا يكلف الزوج زوجتَه عنتاً بما لا تطيق، ولا تعنت المرأة زوجَها بما لا يطيق، ولذلك لا يحق أن يُقْسَرَ أحد من أطراف الزوجية على البقاء فيها دون رغبته وإرادته، ولذلك أباح الإسلام الطلاق للرجل، والخُلْعَ للمرأة، إذا ما دبَّ بينهما الشقاق، وفُقِدَتْ بينهما وشائجُ المودة والرحمة، لأن فقد المودة والرحمة بين الزوجين أضر على نفسيهما وأبنائهما من الفراق، وفَقْدُ الطفل لأحد أبويه في مرحلة أو أخرى من حياته أهون من حياته بين أبوين هما في صراع وكراهية وقسوة وشقاق.

ولذلك اهتمَّ الإسلام، وفصَّل القرآن الكريم، ووعظ، ووعَّى الزوجين بطبيعة علاقتهما، وبحقوق كل طرف منهما وواجباته، وترك لهما بالود والتراضي والتكافل حرية التصرف في أنفسهما وممتلكاتهما دون حرج، بما لا إثم فيه ولا غش ولا تفريط في الواجبات. كما علّمهما وأرشدهما إلى سبل حل الخلافات، وتجاوز العثرات، قبل اللجوء إلى الفراق، وهدم الأسرة، وإيذاء الأطفال بالطلاق أو بالخلع. وحكمة التراضي - بما لا يزيد على ما

قدم الزوج للزوجة من المهر لخلع المرأة من الزوج الذي لم تعد ترغب في عشرته، أياً كان السبب الذي يدعوها إلى فراقه - ألا يكون المالُ سببَ طلبِ المرأة الطلاق أو الخلع، أو أن يكون من له تأثير عليها من القرابة سبباً في الفراق وهدم الأسرة، فهي تعيد إلى الزوج ما قدم، وعندها لا يكون الفراق سبباً لمغنم، أما في حالة طلاق الرجل للمرأة فإنه ليس فيه جائزة مادية له، ولن يعود عليه هذا الطلاق أو الخلع بنفع مادي؛ بل إنه سيعاقب مادياً بسبب فقده المهرَ وتحمل النفقة، فضلاً عما سيتحمله بعد ذلك من التبعات اللاحقة لبناء أسرة جديدة.

إن الأسرة في نظام الإسلام الاجتماعي هي المؤسسة الاجتماعية الأساسية التي توفر للإنسان أسباب الوجود الأساسية، وقد أقام الإسلام لها نظاماً خاصاً يناسب مهمتها، وأوكل إلى كل عضو فيه مهمة ومكانة تناسب دوره وحاجته التي تبنى على المودة والمحبة والرحمة والاحترام المتبادل.

دور الفرد بين الأسرة والمجتمع

إن الخلط بين أدوار الأفراد بصفتهم أعضاء في الأسرة، وبين أدوارهم في المجتمع ومؤسساته الأخرى أدى إلى كثير من سوء الفهمِ، وتنازعِ الأدوارِ، وإهدارِ الطاقاتِ، والتعدي على الحقوق.

فمقام الأب ومكانته ومركزه في الأسرة، ومقام الأم ومكانتها ومركزها في الأسرة، ومقام الابن ومكانته ومركزه في الأسرة؛ لا علاقة لأي طرفٍ من هذه الأطراف بمقام أي واحد منهم ومركزه في مؤسسات المجتمع الأخرى، فعلاقة الأبوَّة بالبنوة في الأسرة تتعلق بالأبوَّة ومكانتها في النفس، ومالها من الحب والتوقير، أما موضع أي عضو من أعضاء الأسرة في المجتمع فإنها هي الأخرى تتعلق بقدراته وطاقاته التي قد تفوق فيها قدراتُ الابن قدراتِ أبيه أو أمه وطاقاتهما، وكذلك فإن مقام الزوجة أو الابنة وقدراتهما وطاقاتهما في مؤسسات المجتمع قياساً بمقام الآخرين أباً أو أماً أو إخوةً أو أخواتٍ يتعلق

بقدرة كل واحد منهم وطاقاته، والخلط في هذا الأمر يؤدي إلى سوءِ الفهم، وإهدارِ الطاقات، وتنازعِ الأدوار، والتعدي على الحقوق، وزعزعةِ استقرارِ الأسرة، وسلامة أدائها، وعلاقاتها.

إن مكانة الرجل الزوج في الأسرة هو مقامٌ ومركزٌ يتعلق بهوية الأسرة وانتماء أعضائها، وتمكين ولاء الرجل للزوجة ولأبناء الأسرة، وتوفير مشاعر الأمن والطمأنينة له ولبقية أفراد الأسرة، لأن ولاءَ الرجل وانتماءَه للأسرة والزوجة والأبناء يتوقف في جوهره أصلاً على مدى ولاء الزوجة وإخلاصها للعلاقة مع الرجل، ومدى إعطائه حس الأمن والثقة في علاقته بها وبأبوة أبنائها، وبمدى إعطائه دور التحكم في إدارة العلاقة بالأطراف الأجنبية عن العلاقة الزوجية الأسرية؛ الأمر الذي ينعكس في انتساب الأبناء وولاء الأب لهم، وثقة الأبناء بانتماء الأب إليهم واتحاده بهم، وهذا كله يتعلق بخصوصية بناء الأسرة وعلاقاتها، ولا علاقة لذلك كله بقدرات أفراد الأسرة ولا بأدوارهم الأخرى في المجتمع.

إن من المهم أيضاً أن ندرك أن طبيعة المرأة بشكل عام - وفي جُلِّ أطوار حياتها الإنتاجية - تختلف عن طبيعة الرجل، ولا يغير من ذلك بعض الاستثناءات. فطبيعة المرأة تتميز بأنها ثنائية الوظيفة والاهتمامات والقدرات، بعكس الرجل الذي هو أحادي الطبيعة والاهتمام والقدرة، فالمرأة - بقدر ما هي قادرة ومؤهلة للعمل والإنتاج وتتطلع إلى الإبداع فيه - تبقى دائماً مشدودة إلى الأمومة ووظائفها ومتطلبات "العش والفراخ"، فهي لا تستطيع ولا ترغب ولا يوجد لدورها الحيوي العاطفي في حمل الطفل ورعايته على الحقيقة بديل؛ وإذا شئنا أن نوفر للأطفال النشأة السعيدة التي لا تعاني من الحرمان والانحراف والنزعات الإجرامية فإن متطلبات دور الأمومة يجب أن يشغل حيزاً نفسياً ومادياً كبيراً في حياة المرأة، وتحتاج فيه إلى عون الرجل ومساعدته ودعمه، وإن من الظلم للمرأة وللطفل تجريد المرأة من ولاء الرجل وعونه وحمايته ودعمه المادي والنفسي، لها ولأطفالها.

إن الرجل أحادي الدور والقدرة والاهتمام الذي يتعلق في الجوهر بالعمل والإنتاج، فالرجل قد هُيِّئ لذلك جسدياً ونفسياً، ولذلك يجب توفير كل الشروط اللازمة لكي يوظف قدراته للعمل خدمةً لضعف المرأة والطفل وحاجاتهما، ومشاركتهم له ثمار إنتاجه لسد حاجتهم، وتوفير الوقت والجهد اللازم للأم لكي تُعْنى بالصغار، حتى يبلغوا مرحلة النضج، في بيئة تتوافر فيها العناية والرعاية والتوجيه والتربية السليمة، هذا هو الأصل والمنطلق، وأي تعديل في مسار أداء كل منهما يجب أن يتم دون إخلال بالواجبات والمسؤوليات الأساسية لكل واحد منهما.

ولذلك فإنه لا مجال للتمايز والتعالي والصراع بين أدوار الرجولة والأنوثة، فلكل واحد من الطرفين دور متكامل له أهميته ومكانته في بناء الأسرة والمجتمع، فالمرأة في بناء المجتمع المسلم - بالدرجة الأولى - هي الأم، والأمومة التي هي أساس الأسرة، ومرسى بنائها، وعش أمنها وحنانها، وهي الأولى بالعون والبر والحماية، وهي كذلك أولى بقوة الرجل وطاقته وعطائه لحماية العش ورعايته والسهر على راحته، وكل تشريعات الإسلام إنما تسعى لتحقيق هذا الهدف والمقصد وأي فهم لأدوار الرجل والمرأة في المجتمع المسلم ينافي هذا الهدف والمقصد، هو انحراف عن أهداف الإسلام، وعن الفطرة السليمة، سواء أكان ذلك باتجاه الغرب إرهاقاً للمرأة والزامها العملَ، والمتاجرة بها جنسياً، وجعلها أداةَ تسليةٍ وعبثٍ فاجرٍ رخيصٍ، أم باتجاه الخضوع للأعراف والتقاليد في بعض بلاد العالم الإسلامي في إعناتها وإعضالها وسجنها والتضييق عليها وتجهيلها، بدلاً من تعليمها وتثقيفها ومشاركتها العبء، وإعدادها للقيام بمهمتها في رعاية الأسرة، وحسن تنشئة أبنائها، وتوفير سبل رعاية الزوج؛ بل واستثمار فائض طاقتها في خدمة الأمة والمجتمع، خاصةً مع ما يتوافر لها في عالم اليوم من الخدمات والوسائل التقنية، ممايوفر للمرأة وقتاً وطاقة يجب استثمارها في رفع مستوى معارفها وقدراتها، ونفع أمتها، ومجتمعها، ويكون ذلك بديلاً عن الفراغ والانشغال بالصغائر، والوقوع في حبائل السأم والملل وسفاسف الأمور وسوافلها.

إن إبعاد المرأة المسلمة عن الإسهامات الثقافية والدينية والاجتماعية الإسلامية هو الذي يفسر - في كثير من الوجوه - ضعف تربية الأبناء، وضعف دور المرأة المسلمة في المجال الإسلامي الاجتماعي مقارنةً حتى بالمرأة الهندوكية على سبيل المثال في البناء والتكافل الاجتماعي، على الرغم من أن المرأة الهندوكية مهضومة الحقوق ولاتتمتع حتى بالقليل من الحقوق التي كفلها الإسلام للمرأة المسلمة، إلا أن الفرق في ذلك أن المرأة الهندوكية لها أدوار فعَّالة، ولها حضور في النشاط الديني والاجتماعي الهندوكي. ويُذكر هنا ما سمعته من الإمام الحكيم الراحل الشيخ محمد الغزالي يرحمه الله في ذكرياته عن الطفولة والقرية إذ يذكر كيف كان يرى المرأة في كل مكان في القرية إلا في المسجد.

وكم أعجب حين أرى جُلَّ مساجد المسلمين في كثير من بلاد المسلمين لا موضع فيه للنساء، وإن وُجِدَ مكانٌ لهن فهو خلف ستر وحجب يصعب معه الحضور والمشاركة الوجدانية، ولا أدري - وهنَّ في أكثر ملابسهن ستراً، وكل من في جمع المسجد في خير الحالات النفسية طهراً وتوجهاً، حيث تقف صفوف النساء خلف صفوف الرجال أو أعلاها - ما الذي يخشاه من يضع صفوف جموعهن خلف الحواجز والموانع، وجموع الرجال والنساء سوف تنطلق بعد ذلك من موقع العبادة والطهر إلى الأسواق والأعمال رجالاً ونساءً؟! أليس في ألفة نفوسهم للاجتماع الروحي المهذب في المسجد ألفة لنفوسهم في التعامل المهذب خارج المسجد بدل أن تغيب صفوفهن نفسياً ومادياً في المسجد فلا يرى الرجل ولا ترى المرأة خارج المسجد إلا امرأة أو رجلاً لا علاقة لها في ذهن أو خيال أي منهما في أن الآخر هو رفيق عبادة وطهر!!.

وكم هو عجيب أيضاً أن يصل الأمر في كثير من مساجد المسلمين، وفي كثير من بلاد المسلمين، إلى أنه لا يسمح للمرأة بحضور صلاة الجمعة وخطبتيها أصلاً، ولا يُهيَّأ لها موضعٌ مناسبٌ فيها، وكأن الخطاب والحضور

والتذكير وعرض شؤون المسلمين لا يخصُّ المرأة في شيء، وكأنها ليس لها في المجتمع دور ولا شأن. إن منع المرأة من حضور صلاة الجمعة والجماعة هو سوء فهم لرخصة عدم إلزام المرأة حضورَ جماعات الصلوات، وذلك أن طبيعة مهمتها في رعاية الأسرة لا يمكنها من تنظيم وقت أدائها، فلا يمكن للأم أو من في موضعها تأجيل رضعة الصغير أو العناية به أو تركه دون رعاية أو انتظار عودته من مدرسته، وما إلى ذلك من شواغل "العش" و"الفراخ"، ولذلك لم تلزم المرأة بالجماعات، إدراكاً لدورها ورعايةً لها، خصوصاً في جماعات الليل والعتمة، أما إذا لم يكن من ذلك شيءٌ يشغلها ويحول بينها وبين حضور الجماعة، ولا سيما صلاة الجمعة وخطبتيها، فالرجل والمرأة أعضاء المجتمع، وهم معنيون به سواء بسواء، ومسؤوليتهم الدينية والاجتماعية لا تختلف قيد أنملة، وأثر الممارسة والخطاب له فيهما وفي أدوارهما يحتل الأهميةَ نفسها، فالأمر أمر تيسير وإباحة، لا أمر منع وإعفاء "فلا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله"[1].

الأمومة والعمل في نظام المجتمع المسلم المعاصر

من أخطر ما ابتلي به المسلمون اليوم في هزيمتهم الحضارية المادية أمام الغرب هو متابعتهم للغرب في كل أمر "حذو القذّة بالقذّة" دون وعي بخصوصيتهم وخصوصيتنا وبمقاصد شرعتهم وشرعتنا، ومن ذلك معاملة المرأة عندنا على شاكلة معاملتهم، على الرغم من أنه لا تقبل شرعتنا ولا نفسيتنا أي أمر ينتهي إلى تفكك الأسرة، أو المساس بعِرْضِ المرأة أو إرهاقِها وتعويقِ دَوْرِ أمومتِها.

إن إخراج المرأة إلى العمل بذات الشروط المطلوبة من الرجل، وبذات المتطلبات والترتيبات، على الشاكلة التي يتعامل بها الغرب مع المرأة، قد أدى

(١) رواه البخاري في صحيحه: ٨٤٩٠ وفي رواية لمسلم: ٦٧٣ "لا تمنعوا النساء حظوظهن من المساجد".

إلى تفككِ الأسرة، وإرهاقِ المرأة، والتفريط في عرضها، والمتاجرةِ بها، وتعريضِها لكل ألوان الاستغلال والانحراف.

إن المرأة ليست مثيلاً للرجل، فلكل منهما طبيعته وخصوصياته وحاجاته، وهما متكاملان وليسا متماثلين، ومعاملتهما على أنهما متماثلان فيها - بالضرورة - إجحافٌ بكل منهما، إجحاف بالرجل نفسياً وأبوياً في علاقته ودوره المحوري (القوامي) في حياة المرأة والأسرة وتوفير الأمن والرفاة لهما، وإجحاف بالمرأة على وجه الخصوص في دور أمومتها المحوري في حياة الإنسان ونشأته، وفي تربية الطفل، وفي السهر على بيت الأسرة وراحتها وهناءتها.

لذلك كان وما يزال على المجتمع المسلم ومفكريه وقادته أن يسألوا أنفسهم عن طبيعة دور الرجل والمرأة في الشرعة والمجتمع المسلم المعاصر، وكيف يمكن أن ينظم المجتمع المسلم لحماية هذه الخصوصيات وتحقيق مقاصد الشرعة الإسلامية، مع تحقيق الكفاءة، وتسخير طاقات المرأة والرجل على أكفأ وأفضل وجهٍ ممكن في خدمة المجتمع؛ بما يحقق مقاصده بأسلوب متوازن، ويمكّنه من الإفادة من طاقاته ومواجهة تحدياته بأفضل أسلوب.

ومن هنا كان وما يزال دور الأمومة ودور الأسرة من الأهمية بحيث يلزم حمايتهما من تسرب ألوان التفكك والفساد والانحلال، ويعطي لهما من الأولوية في التنظيم الاجتماعي بطريقة تختلف عن التنظيم الغربي؛ لاختلاف الغاية والمقصد.

لذلك علينا تنظيم سوق العمل بما يحقق الكفاءة ويوفر الظروف لأداء مختلف الأدوار المطلوبة من أعضاء المجتمع - ذكوراً وإناثاً - في العمل والإنتاج والكسب وتحقيق الذات، وفي بناء الأسرة ومزاولة دور الأمومة ورعايته أدبياً ومادياً.

لتحقيق هذا الأمر يجب دراسة سوق العمل، والإعداد له وتنظيمه، وتسهيل الأولوية فيه على ضوء الحاجات والقدرات والأدوار التي يطبقها ويؤديها مختلف أفراد المجتمع وفئاته، رجالاً ونساءً، والتي تنسجم مع غايات المجتمع وتحقق له خصوصياته.

وفي حالة المرأة فإن دور الأمومة الحيوي يُعَدُّ الأساس الهام للمجتمع، وإن بقاءه واستمراره بالشكل الفعَّال هو من أهم الاعتبارات التي يجب أن ينظم على أساسها سوق العمل في المجتمع المسلم.

والمرأة في دور الأمومة تحتاج إلى الرعاية المادية لكي تؤدي دورها في خدمة الأسرة والسهر على راحتها، كما تحتاج إلى الرعاية المعنوية للحفاظ على جوهر الأمومة في الحفاظ على عفتها وكرامتها.

هذان اعتباران محوريان في تنظيم المجتمع المسلم يجب تحقيقهما في تنظيم العلاقات الاجتماعية، وفي تنظيم سوق العمل وفي إرساء شروط المزاولة ورسم الترتيبات.

وفي مجال العمل في المجتمع المسلم فإن هناك مجالات عديدة يجب إعطاء الأولوية فيها للمرأة، ومن أفضل نماذجها التعليم في مرحلة الروضة وفي مرحلة التعليم الابتدائي؛ حيث تكون المرأة بطبعها أقدر على التعامل مع الطفل؛ ولا يتعلق هذا النوع من العمل بانشغالات خارج ساعات دوام العمل.

وحيث أن كثيراً من النساء قد يرغبن - باختيارهن - العملَ بنصف الدوام، وبنصف العبء الوظيفي أو التدريسي، وبنصف المرتب فإن توفير المرونة الاختيارية لساعات دوام العمل بشكل عام، ولاسيما مجالُ التدريس العام، بما يناسب دور الأمومة، سيعينهنّ على مزاولة العمل وتحقيق الذات، وتقديم خدمة أفضل في العمل وفي المنزل، وتوفير فرص عمل أكبر للآخرين، مع الإسهام - في الوقت نفسه - في أعباء الأسرة ومعيشتها. وهناك الكثيرات في بعض المجتمعات اللواتي قد لا يكنَّ في حاجة مادية ماسة؛ مما يدعو إلى الأخذ بهذا النظام، ولذلك فإنه ليس من الواضح لماذا لا يؤخذ بمثل هذا النظام في البلاد الإسلامية، وهو نظامٌ اختياري لا يفرض على أحدٍ وتطالب به كثيرٌ من النساء في العديد من الدول التي تتمتع بظروف اقتصادية مواتية، وهو في الوقت نفسه نظام يحقق لهذه المجتمعات كفاءة إنتاجية نوعية أفضل، ويمكن تنظيمه دون صعوبات؛ لأن العمل المدرسي يتم على شكل جداول يومية لكل

مادة توزع على المدرسين والمدرسات، كما أن كثيراً من الأعمال تقبل التقسيم وتناوب العاملين بكفاءة أكبر ودون عوائق تذكر.

وانطلاقاً من طبيعة المرأة ودورها الحيوي والاجتماعي فإن المرأة حين تبلغ العشرين تكون قد انتهت أو قاربت على الانتهاء من أعدادها المهني بالحصول على الدبلوم أو البكالوريوس، وهي في هذه السن أكثر ما تكون استعداداً أيضاً لمزاولة دور الأمومة، واكثر ما تكون قادرة - من الناحية الوراثية والطاقة الجسدية والنفسية - على إنجاب الأطفال الأصحاء، والقدرة على تربيتهم ورعايتهم نفسياً وبدنياً.

ولذلك فمن المهم توفير فرص العمل المرن المناسب لانشغال المرأة بالأمومة في هذه الفترة التي تمتد إلى حوالي الأربعين من عمرها حين يصبح أصغر أطفالها قادراً على الاعتماد على نفسه، ويكون قد تعدى الفترات الحرجة جسمياً ونفسياً؛ التي يحتاج الطفل فيها إلى رعاية مستمرة مرهقة تقوم الأم فيها - في حالة الأسرة الناجحة - بدورها في السهر على توفير الراحة والرعاية والتوجيه والمراقبة والمتابعة.

بل إنه بشكل أساس يجب في المجتمع المسلم أن يكون سن دخول المرأة الفعلي الأنسب إلى سوق العمل هو سن الأربعين، بعد أن تكون قد أدت دور الأمومة، واكتسبت بها خبرة عملية هامة في الإدارة والتربية والثقافة والنضج، وفي العلاقات الإنسانية التي نلحظها في النساء الأمهات اللواتي أدين واجب الأمومة، وتركن بصماتهن على قلوب أبنائهنَّ وعلى فرص نجاحهم في الحياة العملية، وهذا يعني أن يرحَّبَ بهن في هذه السن في ميدان العمل، ويعطين الأولوية، وتقدر مزاياهن، بل وتحتسب لهن الأمومة خدمةً كل عامين أو ثلاثة أعوام بعام خدمةٍ، وَفْقَ ما تحتسب به الخدمات والخبرات في ميزان التوظيف، خاصّةً وأن المرأة - بخبراتها من ناحية، وبطبيعة التغيرات البيولوجية التي تلحق بها في حوالي سن الخامسة والأربعين؛ بسبب انقطاع الدورة الشهرية وانتهاء فترة القدرة على الحمل - تصبح أكثر صلابةً وإيجابية بسبب تراجع هرمونات الأنوثة لديها، بعكس ما يحدث للرجل في مثل هذه

السن حيث يميل بعدها إلى اللين والدعة ورقة العاطفة، لذلك فمن المناسب أن تعطى المرأة حق التقاعد في سن الخامسة والستين أو حتى السبعين من العمر، فليس سراً أن المرأة أطول عمراً وامتن بناءً من الرجل في هذه السن المتأخرة.

إننا في ضوء التبعية الغربية التي تميل إلى المتاجرة بالمرأة وبأنوثتها، وتقلل من أهمية دور أمومتها، نسعى لنرهقها في سن الشباب، ونصرفها عن دور أمومتها في صدر شبابها، وربيع عمرها، وتفتح زهرتها، ثم نغلق الأبواب أمامها حين تنضج وتخلو من شواغل الأمومة.

ومن الناحية الأخرى فإن تنظيمَ سوق العمل - بحيث يكون قطاع أعمال النساء له استقلالية عن قطاع أعمال الرجال - أمرٌ ممكن على شاكلة استقلالية قطاعات الأعمال المختلفة، فذلك في جوهره عملية تنظيمية يعين عليها التكوين النفسي والقيمي للإنسان وللمجتمع المسلم؛ إذ إنه من المهم عدم خضوع المرأة في سوق العمل لسلطة الرجل الأجنبي المباشرة، بحيث لا يسمح لنمو العلاقات الشخصية الخاصة الحميمة من ناحية، ولا يسمح للإغراءات الوظيفية والمادية أن تسخَّر بهدف التأثير أو الضغط على المرأة؛ لأننا لو أمعنا النظر في علاقات السلطة الرئاسية والمرؤسية - حتى بين الرجال - لهالنا ما يمكن أن يكون لها من تأثيرات قد تدفع كثيراً من الرجال إلى الخضوع والنفاق وارتكاب المخالفات إرضاءً للرؤساء، وتلافياً وتجنباً لغضبهم وسلطتهم، وطلباً لنفعهم في المراكز والعلاوات والترقيات.

إن طبيعة الضعف البشري وطول المصاحبة بين الرجل الرئيس والمرأة المرؤوسة، ومعرفة نقاط الضعف والقوة فيما بينهما، وما يتعاور حياة الفرد من المصاعب وعلاقاته الأسرية من المتاعب، ولما في يد الرئيس من السلطات الإيجابية والسلبية، كل ذلك قد يجعل عِرْضَ المرأة أهمَّ ما يتطلع إليه الرئيس الرجل، وقد يكون في حالات الضعف هو أيسر ما تعطيه المرأة المرؤوسة للسيد الرئيس.

إن ما تتكشف عنه الحياة الوظيفية الغربية اليوم من ممارسات التعديات الجنسية يجب أن يكون نذيراً كافياً لنا، خاصة وأن شريعتنا وقيمنا وخصوصياتها تجعل الآثارَ المترتبة عليها في كياننا - على الرغم من فداحتها عندهم- أعظمَ وأبشع أثراً مما هي لديهم.

إن علينا أن نهتم بالتخطيط الاجتماعي اهتمامنا بالتخطيط الاقتصادي حتى لا ننتهي قبل أن نبدأ، ولأن حسن التخطيط الاجتماعي وفاعليته - حتى من الناحية المادية - ليس أمراً يسيراً فحسب؛ بل إن له مردوده الاقتصادي، وهو يؤدي في كثير من الأحوال إلى حسن استخدام الموارد، وتحقيق كفاءة الإنتاج.

إن علينا العمل بكل ما نستطيع لحماية الأسرة والمرأة، وتحقيق الكفاءة في العمل والإنتاج، بأساليب وتنظيمات ذات أصالة تحقق غاياتنا ومقاصدنا، وتمكننا من الانطلاق، وتعيننا على مواجهة العوائق والتحديات.

علينا العمل من أجل إحداث التكامل بين الجنسين، وعلينا رعاية أبنائنا وحماية كرامة نسائنا وتنظيم سوق العمل للإفادة من قدرات المرأة، دون تضييع واجباتها في الأمومة، وذلك بتنظيم يناسب شرعتنا وخصوصياتنا؛ بأفضل الوسائل الممكنة، وبأكبر قدر من الكفاءة، وبأقل قدر من الخسارة.

معالم الطريق في (سيناء) العصر

دور الأسرة

اتضح لنا فيما سبق أن الطفل والعناية بتربيته وتطوير مناهج هذه التربية وتنقية الثقافة والمفاهيم التي يرضع لبنها في سني صباه لم تكن في بؤرة الاهتمام العلمي والتطوير العملي لدى أهل المعرفة والفكر والقرار في العالم الإسلامي، بل لعلها أقرب إلى التأثر - بوعي وبدون وعي - بالممارسات والموروثات المتأصلة في حنايا النشأة والتصورات، لذلك شُوِّهَتْ وأُخمدت الطاقةُ الوجدانية في الأمة، وأصبحتْ جسداً خامداً يحتاج إلى علاج

وإنعاش، ويتمثل ذلك بتفعيل دور المرأة والأسرة، واستعادة الطفل وتنميته التربوية؛ بصفته عاملاً أساسياً في خطط التغيير والإصلاح.

والسؤال المهم هنا هو كيف يمكن للأمة أن تحقق هذه الغاية، وأن يستعيد الطفل "البُعد الغائب"؟ وكيف للأمة أن تكسب معركة تربيته وتنشئته إسلامياً؟ فيما هي أمة تعاني من تشوهات موروثها الثقافي، ومن سطحية ثقافة خاصتها وأحاديتها وغربتها في الزمان والمكان، مع قصور ثقافة العامة وانحطاطها، وهي في الوقت نفسه تعاني من هجمة الغزو الفكري الأجنبي والإعلام العالمي، ومن انبهار الصفوة السياسية والمدنية بقدرات الحضارة الغربية التكنولوجية وزخرفها المادي العمراني، وفي وضعٍ يجعلها تخضع للسياسات والغايات الاستعمارية ولوسائلها القهريّة التي تستغل انبهارها الحضاري، وجهلها الإسلامي، وفسادها السياسي والاجتماعي، وانفصالها عن أحاسيس شعوبها وهمومهم؛ لتبقيَ على جهالة الأمة، وتخلفها، وضعفها النفسي والمعرفي.

والجوابُ عن السؤال السابق - عن الوسيلة والأسلوب الذي يمكن بها تحقيق التغيير بكسب معركة الطفل، غايةً ووسيلةً للإصلاح والتغيير - يكمنُ في فهم دور الأسرة في تربية الطفل المسلم وتكوين ضميره، وصياغة وجدانه، وتشكيل بنائه النفسي.

الأنظمةِ والمؤسسات: دورٌ تابعٌ

من الواضح أنّ القطاع الإسلامي الإصلاحي في الأمة هو المعبر عن ضميرها ووجدانها؛ فبيده - على الحقيقة - مفاتيحُ محركات طاقاتها، ويملك القدرة على خطاب روح الأمة، وتقديم مشروع ناجح للإصلاح، وإعادة البناء، وإعادة التواصل مع عهد الرسالة، ومع رؤيتها الكونية الشمولية، وروحها الجهادية الإصلاحية، هذا القطاع لا يمكنه الاعتماد على الأنظمة وصفواتها السياسية لإصلاح التربية والتعليم بشكل جذري، ووفق المنظور الإسلامي؛ لأن مصالح الأنظمة - وبتأثير طبيعتها والقوى المؤثرة فيها - هو

الإبقاء على الحال القائمة التي يتمتعون فيها بما في أيديهم من المصالح والامتيازات، ويحرصون على استبقائها باستجلاب رضى القوى العالمية الكبرى المتحكمة فيهم، وعدم التعرض لمصالحهم ومكتنزاتهم ومتعهم وأنظمتهم، وبذلك تصبح الأنظمة في جملتها تابعة ومستجيبة لتوجهات الأمة؛ ولذلك فهي ليست الأصل في المبادرة في مثل هذا المشروع، وهذا لا يعني إهمالَ خطاب الأنظمة وقياداتها، والوقوفَ عن بذل الجهد في نصحها وكسب شيء من اقتناعها، والتعاونَ معها في حدود إمكاناتها، والسعيَ إلى التقليل من مقاومتها ومناوأتها للجهود المبذولة في سبيل الإصلاح.

والحديث نفسه يُقال عن الإعلام والدوائر الإعلامية، فإنّ نوعية الثقافة والمصالح التي تتحكم في الإعلام والمؤسسات التي تسيره - بطبعها - تقعد به عن التحمس لمشروع التربية الإسلامية وتحقيق أهدافها، إلا أنه تظل هناك مساحة واسعة يمكن للمفكرين والمثقفين المخلصين الإفادة منها في تمكينِ جهود الإصلاح الإسلامي الحضاري في الأمة، والاستفادةِ من وسائل الإعلام والاتصال الإلكترونية التي تعطي للأفراد والمنظمات مجالاً واسعاً من القدرة على الاتصال الحر بالجمهور، مخترقة بذلك مختلف أنواع الحدود والحواجز.

وإذا لم يكن من الممكن تجنيد الأنظمة بشكل فعال - في ظل الظروف التي تحكمها - من أجل تفعيل مشروع الإصلاح الإسلامي، فضلاً عن أن دعاة الإصلاح التربوي لن يجدوا للأمة "سيناء" قصيّةً يعزلون فيها جموعاً من صغار الأمة وناشئتها؛ لكي ينشئوهم التنشئة السليمة التي يتطلعون إليها كما فعل سيدنا موسى وأخوه هارون عليهما السلام في (سيناء) جزيرة العرب من قبل، وحيث إنه لم يعد - في عالم العولمة والاتصال الفضائي والإلكتروني والنفاث الصاروخي - مكانٌ لأحلام حواجز الحماية الثقافية والجمركية، فإنه - والحالة هذه - لابد للمشروع الإسلامي من مواجهة الواقع - بكل ما للآخر من تفوق مادي، ومن قدرات الغزو الثقافي الغربي - وجهاً لوجهٍ، ونوعاً لنوعٍ، وقدرةً لقدرةٍ، وثقافةً وحضارةً لثقافةٍ وحضارةٍ، وأن يتم التغيير

على الأرض، وفي المجتمع، وتحت أعين الأنظمة، ومناوأة قوى التخلف التغريبي والتقليدي الثقافية والفكرية فيها على حد سواء.

والحل الذي يمكن أن يتحقق في مثل هذه الظروف لابد له من أن يستند إلى دافع ذاتي فعّال؛ وهو دافع لابدَّ من أن يكون هو ذاته مفتاح تشغيل الآلات، أي إنه آليٌّ، ووجوده في الإنسان فطريٌّ، وهذا الدافع الذاتي الفطري هو الدافع الوحيد الذي يجعل الإنسان المسلم راغباً في الأداء، وقادراً عليه، وحاملاً (سيناءه) بين جوانحه أياً كان وضعه المادي والاجتماعي، فيعيد به تشكيل ذاته، ويعيد به تربية أجياله، وتشكيل نفوسهم، وتزويدهم بالطاقة والقدرة الحضارية الإصلاحية الإسلامية التي ينهضون بها أمتهم، ويقدمون بها نموذجهم وتحديات إصلاحاتهم للحضارة الإنسانية المعاصرة. فما هو ذلك الدافع الفطري؟ وما هو مفتاح تشغيل التغيير في المجتمع؟؟

دافع الفطرة الأبوي مفتاح تشغيل التغيير الاجتماعي

إن طوق الإنقاذ، و"سيناء" عصر العولمة، ودافع المسلم الذاتي، ومفتاح التشغيل من أجل التغيير الإيجابي في الأمة، يجب أن ينبع من نفس المسلم ولا يعتمد على أحدٍ إلا على الله ومن ثمَّ على نفسه ذاتها، دون أمر ولا إذن من النخب المسلوبة الإرادة، ولا من مصالحها المتعارضة. وهذا الطوق، وهذا المفتاح، وهذه الـ(سيناء)، إنما تتمثل في (الأسرة) محضن روح الطفل ووجدانه، ومصنع بنائه النفسي الذي يقوم على دعائم الدافعِ الذاتي الفطري، دافعِ (الأبوة) الذي يهدف دائماً إلى مافيه مصلحة الطفل وحده دون سواه، وعلى أساس من المفاهيم الواضحة للآباء، واقتناعهم بما فيه تحقيق مصالح أبنائهم وفلذات أكبادهم.

إنّ دافع الآباء الفطري لما فيه مصلحة الأبناء هو المفتاح الوحيد المتبقي في هذا العصر مُنْطَلقاً فَعَّالاً للإصلاح الثقافي والتربوي الإسلامي، والأمر عندئذ يعتمد على المفكر والتربوي والمصلح المسلم في ذاته وبجهده ليقوم بواجبه في

إمداد الآباء بالثقافة والأدبيات التربوية العلمية الإسلامية السليمة، والوصول إلى تحقيق اقتناع هؤلاء الآباء والأمهات بما فيه مصلحة أبنائهم، وكيفية إعادة تشكيل بنائهم النفسي والوجداني على أسس إسلامية سليمة توفر لهم سعادة الدارين؛ إيماناً وقدرةً وكرامةً. ولذلك فإن المفكر والتربوي المسلم هو في مركز القيادة، وهو القادر على تحريك مفتاح تشغيل آلية الإصلاح في المجتمع إذا ما قام بدوره في توليد الدافعية اللازمة والكافية لبدء حركة تشغيل هذه الآلية، وتحريكها.

إن بإمكان المدرسة - إن شاءت أن تلعب دوراً مهماً فعالاً في خدمة الأمة وتطوير نوعية الأجيال وقدراتهم - أن تقدم برامج تربوية للآباء، وإعدادهم لأداء دورهم بالقدر المتطور الذي تسمح به ظروف المجتمع الاجتماعية والحضارية، وأن تجعل تثقيف الآباء وتوعيتهم وتزويدهم بالمفاهيم والقدرات اللازمة جزءًا لا يتجزأ من برنامج عمل المدرسة ودورها في المجتمع.

ويستطيع التعليم العالي أن يسهم في هذه المهمة من خلال برامج دراسية إجبارية لمنسوبيها من الشباب؛ تُعِدُّهم لتكوينِ أسر إسلامية ناجحة، والقيامِ بدورهم في تربية أبنائهم وتوجيههم الوجهة الإسلامية الحضارية الفعَّالةَ السليمة.

إن المدارس والجامعات الخاصة الإسلامية هي - على الأقل - من المؤسسات القادرة على الإسهام في القيام بهذه المهمة؛ حيث تتضاءل العقبات التي تحول دون قدرتها على رسم البرامج التكميلية التي يجب أن تجعل لمهمةِ إعداد الآباء لإحسان تربية أبنائهم الأولويةَ الكبرى في خدمة مستقبل الأمة وترقية نوعيتها، خاصة أن آباء الأطفال في هذه المدارس عادةً ما يكونون من المثقفين القادرين على القيام بهذه المهمة إذا أحسن توجيههم تربوياً من المنظور العلمي الإسلامي في شكل قراءات ومحاضرات وندوات وورش عمل، والتي يجب أن يُعَدَّ تفاعل الآباء معها شرطاً من شروط قبول الطالب في المدارس الخاصة الجادة في خدمة الطلاب والأمة.

دور الوالدين التربوي الوجداني

إنّ فاعلية كل الأدوار في تربية الطفل والناشئة، في المدرسة والإعلام والمجتمع إنما يستند إلى موقف الوالدين، فهما اللذان يمنحان كل القوى والمؤسسات الاجتماعية إمكانية الوصول إلى الطفل، والتأثير فيه؛ بما يوفران لتلك القوى من المشروعية اللازمة في ضمير الطفل، إيجاباً أو سلباً، من خلال القيام بالدور المنوط بهم في الإشراف التربوي الفعال، وتهيئة أبنائهم للوجهة التي يرغبونها، أو بالسلبية والتخلي عن أدوارهم التربوية، وتسليم قياد أبنائهم لهذه المؤسسات دون حسيب ولا رقيب، لتوجههم وتصوغهم وفقاً للمخططات المرسومة لها وما تسهم به في كثير من حالات الأمراض الاجتماعية، وتعزيز التبعية الفكرية، والعجز التقني، والإرهاب والقهر النفسي، والاستلاب الثقافي والوجداني.

فالأسرة بيدها القوة والتأثير والمشروعية التي تحدد نوع التأثير الذي يمكن أن تمارسه المؤسسات وبقية قوى المجتمع على الطفل، وعلى بنائه النفسي والوجداني، وعلى قدراته المعرفية، والأسرة بمنزلة النظارة الملونة على عيني الطفل وبصره وبصيرته، يصبغ لونها ما حول الطفل من الوجود والبيئة، فلا يصبح المهم في الحقيقة وفي العمق ماذا يسمع الطفل أو يرى، ولكن المهم كيف يفهم الطفل؟ وكيف يعي ويدرك ما يسمع وما يرى؟ ولذلك يختلف الأطفال - فيما وراء قدراتهم الطبيعية - في كثير من توجهاتهم ونوعية معادنهم وسلوكهم، وهم يدرسون في مدرسة واحدة، وفي صحبة دراسية واحدة، وعلى منهج دراسي واحد، وعلى يد مدرس واحد، ويعود السبب في ذلك - في المكان الأول - إلى تأثير الأسرة والبيئة المنزلية ونوعية الاصدقاء - الذين يجب أن يسهم الآباء في اختيارهم - على البناء النفسي للطفل وطاقاته وتوجهاته الوجدانية.

قصور التربية والتعليم في الأمة

وإذا أدركنا أهمية الطفولة والتربية في إحداث التغييرات الجذرية المعرفية

والوجدانية فإنّ أول ما يخطر على الذهن، وما ينصرف إليه الاهتمام هو المدرسة والتعليم، وقد يأتي ثانياً تأثير الإعلام، أما الأسرة فإنها تأتي آخراً، ويكاد دورها يقتصر على مهمة التغذية وتوفير الحاجات والمتطلبات المادية للطفل من مأوى وغذاء وكساء.

وإذا قسنا مايُولى من الاهتمام ويصرف على المدارس والتعليم - على الرغم من ضآلته النوعية والكمية والنسبية في بلدان العالم الإسلامي- وما ينفق على الإعلام، مقارنة بما ينفق على دور الأسرة التربوي وترقية هذا الدور، وتثقيفه وترشيده وتزويده بالمفاهيم والوسائل اللازمة للأداء التربوي الفعّال؛ لوجدناه ضئيلاً لا يكاد ولا يستحق أن يذكر، عدا بعض الحديث الإنشائي والوعظي عن أهمية دور الوالدين بصفتهما قدوة للصغار والناشئة، وينتهي الأمر عند ذلك الحد، حيث لا يقوى الآباء على تغيير معادنهم، ولا يعلمون كيف يمكنهم -بأساليب عملية- تحسين معادن أبنائهم، وصوغها على غير شاكلتهم، على الرغم من حرصهم الفطري على العمل بكل ما يطيقونه لمصلحة أبنائهم وترقية نوعيتهم. والمؤسف أننا نجد أن واقع تصوراتهم لمستقبل أبنائهم في ضوء ثقافتهم وخبراتهم وتجاربهم الحالية، المتأثرة بالتوجهات المادية الفردية الاستهلاكية المحضة للثقافة الغربية بطبيعة خصوصياتها، والمرحلة التي تمر بها، وحاجاتها، والمقاصد والتصورات التي تحكمها؛ فأصبح هذا الواقع عندنا على الشاكلة الغربية مضافاً إليه أمراض عصور تخلفنا الثقافي، فليس لدى جمهرة الآباء عندنا إلا المزيد من تطلعات الأثرة والأنانية والحرص على لقمة العيش والاستهلاك وتكديس الأموال ما سنحت الفرص ومكنت الأحوال. أما المجتمع، والنظام العام، والمصلحة العامة، والتضامن الاجتماعي، والإخاء الإسلامي والإنساني، والكرامة الإنسانية، وحقوق الاستخلاف، ومجتمع القانون والقيم والعدل والإحسان ولذة المعرفة والإبداع، كل هذه أمست قضايا بلاغية بديعية جوفاء المعاني في عالم النفاق والصراع والقهر والظلم والفساد والتبديد والاستبداد.

لاغرابة في أن نجد المدارس ومؤسسات التعليم والإعلام - لاتؤدي - في عالمنا المهمات المرجوة منها في تخريج أجيال الكرامة من المواطنين الأقوياء الأمناء؛ الذين يتمتعون بالقدرة والمبادرة والأداء المتقن المتميز على مستوى العصر وتحدياته.

ولو نظرنا إلى مؤسسات التعليم العالي وإسهاماتها في إعداد الأجهزة والخبرات التربوية لوجدناها إسهاماتٍ فقيرةً محدودةً تقتصر على تخريج دفعات المدرسين الذين يفتقرون إلى الوسائل والبرامج والأبحاث والطاقات الفعّالة اللازمة لهم في تعليمهم وتدريبهم، بل إنّ مهانة مكانة المعلم وتدني مستوى معاشه والخدمات التعليمية المتاحة له تصرف (الأجهزة) المتميزة عن هذه المهنة وعن الانخراط في سلكها، كما أثرت سلباً على ولاء الممارسين لمهنتهم، وعلى الرغبة في إتقان أدائها.

وهكذا نجد أن المجتمع في النهاية ما زال - حتى اليوم - لا يقدّر دور الطفل والتربية في ترقية المجتمع ورفع مستواه، وتحريك كوامن طاقته الوجدانية والمعرفية الإبداعية، وتحقيق مشاريعه الإصلاحية والعمرانية.

لو قارنا نسبة ما تستثمره الأمم الحية المتطورة من الموارد على التربية والتعليم إلى مجمل ميزانية مصاريفها وإنتاجها القومي لأدركنا ضآلة ما تصرفه دول العالم الإسلامي في هذا المجال بالنسبة إلى مجمل مصاريفها وإنتاجها القومي؛ مما يدل على سوء توجيه التعليم وتدني فعاليته، بل إن مجمل نفقات التعليم إنما تمثل - عادةً - "بند" رواتب ضئيلة متدنية، تحط من كرامة المعلم، وتدمر ولاءه، وتقتل روح العطاء في نفسه، وتدفعه إلى ممارسات مريضة مرهقة، لكي يستخلص ويستكمل بعض دخله من آباء التلاميذ في المحاباة والدروس الخاصة، أما ما يتبقى من الموارد المخصصة للتعليم فإنما ينفق على مرافق متهالكة لا تعرف يد الترقية والتطوير إليها سبيلاً.

ولو نظرنا إلى المناهج ووسائلها التربوية، ومدى تدني وعيها بأهمية البناء النفسي والوجداني للطفل، وملاءمتها للمراحل والتحديات التي يمر بها الطفل

وتواجهها الأمة؛ لأدركنا السبب في سوء الأداء التربوي، وتردي الممارسات والمناهج التعليمية التي تقوم على الإرهاق والإرهاب والاستظهار، ويُحرم الطفلُ معها من النمو الوجداني والمعرفي والجسدي، ومن تنمية مهاراته بالمستوى الذي يوفره ويتطلبه العصر، وروح العصر، وتحدياته.

ولو نظرنا إلى الآباء - رجالاً ونساءً - وإلى نصيبهم من الثقافة والتثقيف التربوي لصدمنا بأمية تربوية تكاد تكون مطلقة حتى بين المثقفين بسبب ضحالة ثقافتهم، وفساد خبرتهم في الممارسات التربوية التي نشأوا عليها في الأسرة والمدرسة، والقائمة على السلطوية والإرهاب النفسي والعقاب البدني، ونهج المتابعة والاستظهار؛ مما يقتل لديهم كل تطلع معرفي ونقدي وإبداعي يتأجج فطرياً في جوانح الصغار، هذا من جهة، ومن جهة أخرى بسبب ضآلة الأدبيات العلمية التربوية الموجهة إلى الآباء التي تتوزع بين الجانب الفقهي القانوني، والجانب الوعظي التقليدي، والترجمات الأجنبية التي لا تتعلق بعقائدهم وثقافتهم وبيئتهم، ولاتقوم على البحث والدرس والاستقصاء الأصيل الذي يقدم دراسات علمية عملية عن الشخصية المسلمة، والثقافة المسلمة، وعن آثار العادات والتقاليد والممارسات التربوية والتعليمية في البيئة، ويعمل على توعية الآباء بوجوه القصور فيها، ويرشدهم إلى المفاهيم والوسائل والممارسات التربوية السليمة التي تُبنى الشخصية المسلمة على أسسها الإسلامية الثابتة، مع تزويدها بالمفاهيم الإيجابية والعقلية العلمية، والوجدان الحي الذي يمكنها من التميز، وإتقان الأداء، ومواجهة تحديات العصر[١].

(١) شهدت شخصياً قصة حادثة تصور مدى تخلف الفكر الإسلامي وتبعيته في إدراك دور المرأة والأم في بناء المجتمع والمشاركة الجادة في أدائه، وهو مثل يصور حالات كثيرة من قصور هذا الفكر وتبعيته في حالات مواجهة الكثير من المتغيرات وإدراك أبعادها وسبل مواجهتها وإعداد المسلم لها على مستوى التحديات والإمكانات: فقد كنت في أحد أيام الطفولة أستمع كالمعتاد إلى المذياع الذي كان في ذلك الوقت شيئاً جديداً ومثيراً، وكان ذلك صباح الجمعة الذي اعتدنا أن نسمع فيه افتتاح فترة الصباح للإذاعة بالقرآن الكريم لنستمع بعد ذلك إلى=

أهمية أدبيات الأبوة التربوية

وأهم هذه الحلقات في سلسلة أسباب الإصلاح - في الوقت الحاضر، في

= حديث الصباح الديني الذي كان يلقيه أحد علماء مكة المشهورين، وهو معروف بحسن الأداء والإلقاء وطلاوة الحديث، وكان حديثه في ذلك الصباح عن تعليم المرأة، وفجأة سمعت الوالدة يرحمها الله تقول: "هل تغير الدين؟" فسألتها عن سر هذا التساؤل فقالت: "أليس الذي يتحدث هو العالم فلان؟" قلت: "بلى" فقالت: "إنه هو الذي أفتى قبل ذلك بتحريم تعليم الفتيات الكتابة لأن ذلك سيكون لكتابة خطابات العشق والغرام" حتى إنها انصياعاً لفتواه ونصحه أخذت تضرب أصابع ابنتها الكبرى التي كانت قد تعلمت مبادئ الكتابة في الكتّاب في ذلك الوقت حتى تمنعها من الكتابة ومواصلة تعلمها، ثم قالت: "كيف هو اليوم ينصح بتعليم الفتيات ويحض عليه؟" وتساءلتْ بدهشة واستنكار وألَمٍ إن كان الدين قد تغير. فمثل هذه الفتاوى وما تحمل من حسم التحليل والتحريم وإرهاب القداسة من دون وعي ولا إدراك للمتغيرات والتحديات والإمكانات هي من أهم أسباب تخلف فكر كثير من (العلماء) والدعاة، عن تقديم الفكر المنهجي السليم، وإدارة الحوار على مستوى التحديات؛ ليكون الفكر الإسلامي في مقدمة الركب يقوده في المنعطفات نحو الصواب، لا أن يجره معه إلى الخراب لجموده وعدم إدراك المتغيرات.

وهناك مثال آخر على العجز المنهجي في توظيف الشمولية و التحليلية؛ بهدف إدراك المتغيرات وتمكين الأمة من القدرة على التعامل مع التحديات قضية ما يسمى بالتصوير الشمسي الذي أصر على تحريمه رجال الفتوى لأمدٍ طويل وما يزال كثير منهم يصرون حتى اليوم على تحريمه. وحتى حين حاول من يفتي بحله أن يبرر فتواه، كان التبرير شكلياً لا جوهر له؛ بل إنه جاء متأخراً قرناً من الزمان حيث يكاد يصبح عديم الجدوى. فمن أباحه أباحه على أساس أنه ليس عملاً يقوم به الإنسان مضاهاة لخلق الله؟! و لكنه حبس للظل، ولا أدري لماذا يبيح الإنسان لنفسه القيام بعمل يؤدي إلى صنع صورة من ظل الكائن الحي، فإن نقل الشيء نفسه ولكن بمهارة يده كان ذلك محرماً؟! فإذا أدركنا أن صور الحاسب الآلي الآن ليست حبساً للظل - وسوف تزداد أهميتها في العلم والتعليم والإعلام - أدركنا أن الفتوى تأخرت وما عادت تحل الإشكال في تمكين المسلم من استخدام وسائل العصر في سباق الحضارة والقوة والإنجاز.

والجواب الصحيح - كما أراه - يكمن في استخدام المنهجية الشمولية التحليلية لأننا لو نظرنا إلى الموضوع من ناحية الجوهر لأدركنا أن حكمة منع التصوير في العصور الماضية لأن رسم الكائنات الحية قبل عهد الثورة الصناعية العلمية التقنية واختراع التصوير الشمسي لا هدف=

مواجهة هذه الحال، وللأخذ الجاد بأسباب التغيير الوجداني والإصلاح الحضاري - التي يجب أن يوجه المفكرون والمثقفون اهتمامهم إليها هي حلقة الأسرة والأبوة: آباءً وأمهاتٍ ولهذا الأمر أسبابٌ عدة:

أولاً: إن للأسرة أهمية قصوى في تشكيل نفسية الطفل وعقليته وتكييف استعداداته؛ لأنها المنشأ والمحضن والملاذ للطفل: فعلى أساس رؤيتها ومحيطها وتوجيهها - إيجاباً وسلباً - يُكوِّن الطفل طبيعةَ مفاهيمه ورؤيته، فهي كالنظارة الملونة على عيني الطفل يرى بلونها، فلا يكون المرئي أو المسموع في ذاته هو الذي يشكل إدراكَ الطفل، ولكن إطاره الذهني والنفسي الذي تشكله الأسرة هو الذي يحدد طبيعة إدراك الطفل وفهمه لما يرى ولما يسمع.

وثانياً: الفطرة ودافع الوالدين اللذين يحرصان بالدرجة الأولى وبدافع الفطرة على تحقيق مصالح الأبناء، وترقية نوعية حياتهم ومستوى أدائهم،

= له ولا غرض إلا الناحية الدينية الوثنية. أما بعد الثورة الصناعية العلمية التقنية واختراع التصوير الشمسي والصور الإلكترونية فلم يكن الغرض منها دينياً وإنما أصبحت لطبيعة إمكاناتها ذات غايات علمية تعليمية إعلامية تقنية، ولا تمت إلى ما جاء من الأمر والنهي النبوي بشأنها إلاّ بمشابهة لغوية، ولأن ذات اللفظ الذي أطلق على الأهداف الدينية أطلق على الأهداف العلمية التعليمية التقنية كما هو الحال في حالات أخرى كثيرةكلفظ "السيارة" في القرآن الكريم الذي يعني قوافل نقل التجارة باستخدام الحيوانات - ولفظ "سيارة" في تعبير أهل الجزيرة العربية لعربات (آلات) النقل ذات الحركة الذاتية (أوتوموبيل) فلا يجمع بين «سيارة" الماضي وسيارة الحاضر» إلاّ اللفظ وعموم معنى الحركة والنقل، ومن الخطا النظر إليهما بمنظار واحد أو أنهما شيء واحد أو يسحب معنى واحد منهما وأحكامه على الآخر. وبمفهوم معنى المغايرة بين (تصوير) الماضي و(تصوير) الحاضر يجب أن ينظر إلى التصوير والرسم - أياً كانت وسيلته يدوية أو شمسية أو إلكترونية أو غير ذلك مما قد يتوصل إليه العلم والتقنية في المستقبل - إلى طبيعته في حد ذاته، وإلى استعمالاته بحسب الحال؛ فيقبل في حال إحسان الاستخدام، ويرفض في حال سوء الاستخدام، دون سحب النصوص وجلال القداسة في غير موضعهما، وأخذ النفس بمناهج البحث الصحيحة المناسبة، ومعرفة جوهر القضايا المطروحة ودلالاتها والغايات والمقاصد منها.

فدور الوالدين والأسرة هو أهم الأدوار التي تحدد مدى تأثير بقية الأدوار والمؤثرات والمؤسسات التعليمية والتربوية لدى الطفل وفاعليتها، وهي التي توجه وتعدل -بإسهاماتها الإيجابية- مسارَ تأثير تلك المؤسسات وفاعليتها.

وثالثاً: المفكرَ والكاتبَ والمصلحَ قادرٌ على الحديث والخطاب إلى الوالدين، وتكلفة ذلك في متناول اليد، ويعين عليه فطرة الآباء والأمهات في السعي لما يظنون أن فيه مصلحة أبنائهم، وبذل الجهد للحصول عليه، على عكس بقية الأطراف والمؤسسات التي لها مصالحها وتوجهاتها الخاصة؛ وتحرص على بقاء الأمر الواقع واستقراره، وأي تغيير إنما يجب أن يتم في إطار الحفاظ على الوضع القائم؛ لصيانته، وعدم الإخلال بتوازناته المعقدة، وبمصالح النفوذ والمتنفذين في المجتمع، وإن أي تغيير من قِبَلِ المؤسسات إنما يتمُّ للحفاظ على المؤسسات وعلى الأوضاع القائمة، وهي على أفضل الوجوه تستجيب لمطالب التغييرات الأساسية من جمهور الأمة، ولكنها بكل تأكيد ليست هي الجهات التي تبدأ بالتغيير أو تبادر به وتفجِّر طاقاته.

لذلك يجب الاهتمام من قبل المفكرين والمصلحين بالأسرة، وبدورها التربوي، وإنتاج الأدبيات اللازمة المقْنِعة العملية لتوعية الآباء والأمهات، وتعليمهم كيف يكونون آباءً قادرين على أداء دورهم التربوي، ومدركين للمعلومات والقدرات والخبرات والإشكالات والتحديات التي تواجههم، وتمكِّنهم من تشكيل نفسية الطفل، وتكوين عقليته، وصياغة معدنه، على أسس علمية صحيحة مجرَّبة، وعلى قواعد الثوابت القيمية والثقافية والوجدانية الإسلامية السليمة.

يجب النظر إلى الأسرة والأبوة والأمومة على أنها (سيناء) الأمة والعصر، حيث إن المفكرين والمربين من رسل الإصلاح الحضاري الإسلامي يستطيعون - بالجد والإخلاص المبني على العلم والدراية- أن يخاطبوا الآباء والأمهات؛ لكونهم أهم الأطراف المعنية بالدرجة الأولى بتربية الطفل مباشرة، ودون حواجز، وبأقل التكاليف، بل إن الآباء - إذا أُحسن خطابهم

- وتوافرت قناعاتهم بالأدبيات الموجهة إليهم، وما تقدمه من وسائل وخبرات عملية - فإنهم سوف يرغبون في السعي للحصول عليها، وفي دفع التكاليف اللازمة للحصول على هذه الأدبيات والإرشادات التربوية، ووضعها في محيط الأسرة موضع التنفيذ، وفي حياة جيلنا نماذج وصور كثيرة توضح كيف أمكن للآباء والأمهات أن يتخطوا بأبنائهم تلك الحواجز، وأن يقفزوا بهم قفزات حضارية واسعة في مدى جيل واحد؛ لأنهم تعرضوا لمفاهيم وتصورات أقنعتهم بقيمة التغيير المطلوب، وقدمت لهم بعض الوسائل التربوية المعلومات والخبرات المطلوبة لتحقيقها.

وباقتناع الآباء والأمهات يتصاعد التأثير والضغط العملي على مختلف المؤسسات الاجتماعية التربوية والتعليمية، لتحسين مستوى أدائها وتجاوبها مع كثير من تطلعاتهم، مما يسهم في تحسين أداء هذه المؤسسات في تربية الأجيال.

خطة الإصلاح التربوي تبدأ بالأسرة محضن الطفولة، وذلك بدراسة أحوالها وخطاب أركانها (الزوجين الأبوين)، لأنه إذا فسدت علاقة الزوجين تأثر دور الأبوين وفسد، ولذلك فأصل الاهتمام بتربية الأبناء يبدأ من الاهتمام بسلامة بناء الأسرة وعلاقات كل أطرافها في الزوجية والأبوّة.

فالأسرة والرابطة الزوجية يجب أن تتحقق فيها المودة والرحمة، ومالم تتوافر فيها هاتان الصفتان فلا يمكن أن يتوافر جو الحب والمودة والألفة وإحساس الأمن والسلام للطفل في الأسرة، ومن دون هذه المشاعر بين الأبوين لا يمكن أن تقوم تربية إيجابية أسرية، توفر الثقة في نفس الطفل، والثقة في المجتمع، وتنمي في وجدانه الشجاعة الأدبية، وروح المبادرة والإبداع.

الحب والحنان والرعاية والأمن شروط أساسية لنجاح الجهد العلمي التربوي واستخدام طاقة الحب في التوجيه الإيجابي للطفل؛ فحب الوالدين وحنانهما يولدان مشاعر الحب والتعلق والتطلع لدى الطفل نحو والديه،

وكما أن علاقة الحب من قِبَلِ الوالدين تنتج العناية والرعاية التي يمنحانها للطفل فإنّ علاقة الحب من قِبَلِ الطفل لوالديه تولد لديه الرغبة في الاستجابة لتوجيهاتهما وخشية إغضابهما، وطاقة الحب هذه - بشقيها الإيجابي: وهو الرغبة في كسب حب الوالدين. والسلبي: وهو الخشية أو الخوف الإيجابي من خسران حبهما وثقتهما وإعجابهما به - تدفعه إلى الاستجابة والاجتهاد لإرضائهما، وبذل الجهد وتوليد الطاقة ليكون عند حسن ظنهما.

إنّ المحب والراغب الواثق الراجي هو الذي يبذل نفسه ويصبر على عناء حاجته، أما الكاره أو الخائف فإنه يدبر ويعرض ويبذل أقل الجهد، وينسحب من الساحة ما أمكن، وهو ما نشهده صفةً غالبةً على أبناء أمتنا؛ فدون خطاب الحب ومشاعر الود وحسٌ الأمن فإنه لا مجال للحديث عن التربية الناجحة والأداء المتميز؛ لأن الحب الصحيح هو مادتها الأساسية التي تبنى عليها كل الجهود التربوية اللازمة للإصلاح والتغيير.

ولذلك يجب أن نبثَّ الوعي لدى الأزواج، وأن نهيئهم لفهم أدوارهم الإيجابية، وبناء علاقتهم على التواد والتراحم فيما بينهم أولاً إذا ما أرادوا أن تكون من صفات أبنائهم، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، والبيت المفكك المهدم المبني على الازدراء والتنازع والتربص والكراهية هو محضن لا يُؤمَلُ منه أن يحسن تربية صغاره، وأن يوفر لهم البيئة التي تنمي في نفوسهم ووجدانهم معاني الخير والبذل والمبادرة والإبداع. بل إنّ مثل هذه البيئة هي المرتع الخصب للكراهية والأحقاد والشر والفساد الذي يسوق إلى الانحراف والجريمة والحقد على المجتمع.

لهذا يجب العناية بأدبيات بناء الحياة الأسرية، والاهتمام بالأبحاث العلمية التي تخدمها، على أساس غاياتها ومقاصدها الإسلامية من النواحي النفسية والاجتماعية والاقتصادية؛ لأن حسن بناء الأسرة أمر هام ينبني عليه باقي كيان الأمة؛ ولأنّ الأسرة هي اللبنة الأساسية لبناء كيان الأمة. كما يجب أن تكون هذه التوعية وهذا الاهتمام بأدبيات بناء الأسرة جزءاً هاماً في جهود

المفكرين والإصلاحيين، وفي برامج التربية والتوعية والتعليم في الأمة؛ بحيث لا تكون هناك أمية بقواعد علاقات الأسرة ومسؤولياتها وفهمها والاقتناع بها على أسس علمية، ومن ذلك تقديم برامج دراسية تتعلق بها، ابتداءً من مناهج المدارس الثانوية، وبالتأكيد في البرامج الجامعية، كما يجب العمل على تيسير سبل الزواج للشباب وبناء الأسر، بل يجب تقديم مساقات جامعية خاصة متعلقة بتكوين الأسرة وعلاقاتها، والنجاح فيها إعداداً لهم لحياة أسرية تربوية ناجحة، تعتمد على الأدبيات العلمية التي ينتجها المفكرون والمختصون ومراكز البحث العلمي. ويكفي أن يلقي المرء نظرة خاطفة على كميات الأبحاث والكتب والدوريات والمؤتمرات والندوات والمساقات التي تتناول قضايا بناء الأسرة وعلاقاتها، وقضايا تنمية الطفولة ودراساتها التربوية في المجتمعات المتقدمة ومقارنتها بالنزرِ الضئيل الهزيل في هذه المجالات في المجتمعات المتخلفة، ولاسيما الناحيةُ العلميةُ الإسلامية في البلاد الإسلامية؛ لنتعرف على واحد من أهم أسباب التخلف.

وبالطبع فإنّ عواطف الحب وحدها، وبذل العناية بالطفل دون معرفة للسنن النفسية والاجتماعية على أسس علمية مدروسة لا يضمن حسن التربية والنجاح فيها، بل إن الحب الجاهل قد يؤذي أطرافه أشد الضرر، إذا أدى إلى التدليل المفرط الذي يولد العجز والأنانية، ومايترتب عليه من تشويه في قدرات الناشئ ومشاعره ومعاناته التي تدفعه في نهاية المطاف إلى التمرد والفساد والجريمة.

والتربية الناجحة تنجم عن المعرفة العلمية بطبيعة الطفولة العامة جسدياً ونفسياً، وتعرف طبيعة المراحل التي تمر بها؛ فتوفر لها حاجاتها، وتسوسها بما يتفق وطبيعتها، وتأخذ بيدها إلى التفوق، مع ملاحظة الفروق الفردية والظروف المحيطة بها، فتأخذها بالتوجيه والتشجيع، وتدفعها إلى الإتقان والتميُّز، ولا تحبطها أو تحملها ما لا تطيق.

فاعلية المعرفة التربوية: تجربة ذاتية

لعل من المفيد أن أورد مثالاً لدرس تربوي خبرته شخصياً يوضح كيف يمكن للآباء أن ينشّئوا أبناءهم في كثير من الأمور على غير شاكلتهم - وإن لم يكن سلوكهم في بعض وجوهه مما يرضونه لأبنائهم- وأن يزينوا لهم السلوك السليم الذي قد لا يتحلى به الأبُ، أو لا يقدر على التحلي به، أي إنه يبذر في ابنه ما ليس هو - بالضرورة - قدوةً صالحةً فيه.

فقد نشأتُ - والحمد لله - غيرَ مدخنٍ، ولم أتطلع في يومٍ من الأيام إلى تدخين التبغ، على الرغم من أن الوالد - يرحمه الله - كان يُدخن "شيشة" الدخان "الحُمِّي"، وكانت الوالدة - عليها رحمة الله - تدخن سجائر الدخان "اللف"، وبالطبع كان الصغير يرقب والديه، ومن المعروف في طبائع البشر أن الصغير مولع عادة بتقليد مَنْ حوله ولاسيما الوالدان قبل سواهما، ولكن الذي منع هذا التقليد السَّيِّئ في حالة هذا الطفل هو الحكمة التربوية التي عالج الوالد بها الأمر، فلو أنه أمسك "اللَّيَّ" صامتاً ينفث الدخان لجلس الصغير في مقعد والده كلما غاب الأب ليدخن "الشيشة" مقلداً له، ولو أن الوالد أبصر الطفل مدخناً وزجر في وجهه، وحتى لو ناله بعصاه، فلعله حينها يزداد تصميماً على تقليد والده والتشبه به وبقوته ورجولته وسطوته، وبالطبع فإن ذلك سوف يتمُّ سراً، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، وذلك لأمرٍ تربوي يسير جداً، وهو أن ذلك الوالد لم يجلس إلى مقعده مدخناً صامتاً شامخاً تلف رأسه سحب الدخان، بل كان يتكلم ويبادر بالكلام إلى صغيره، مقراً بخطئه في التدخين، معبراً عن ندمه وعجزه عن ترك هذه الآفة والعادة السيئة التي وقع فيها، سائلاً الله أن ينجيه منها، وكان الصغير يسمع هذا الاعتراف والندم والضعف باندهاشٍ، وفي إحدى المرات التي لا ينساها ذلك الطفل وهو يُعِدُّ "الشيشة" لأبيه وينظفها "بالسيخ" الذي لطخه "قطران" "الشيشة" والتصق به؛ حيث لفت الأبُ نظرَ الابن إلى ذلك "القطران" الذي ترسب في مسارب "الشيشة" من أثر الدخان الذي يسعى المدخن للتخلص منه وتنظيف

مسارب الشيشة "بالسيخ"، منه فقال للابن: انظر ياولدي إن مثل هذا "القطران" وأكثر، هو مما يترسب في صدري ويسبب لي "الكحة" التي يهيج بها صدري. وبالطبع فإن دلالة ذلك المنظر وذلك "القطران" الذي يلطخ "السيخ" لم تغب عن الطفل، والعاقل من اتعظ بغيره.

وهكذا، وعلى الرغم من أنّ الوالدين لم يكونا القدوة المثلى في هذا الأمر فإنهما بأسلوب تربوي فعّال أمكنهما حماية أبنائهم من الوقوع فيما وقعا فيه من الأخطاء.

هذا لا يعني عدم أهمية القدوة؛ بل إن للقدوة دوراً تربوياً مهماً في تربية الناشئة، فكثير من الصفات الخلقية والمعنوية تلعب القدوة فيها دوراً أساسياً، ولكن في الوقت نفسه؛ فإن المربي الذي يسعى إلى أن يتحلى أبناؤه بالصفات الحميدة يجد في الأساليب التربوية عوناً مهماً له في تحقيق أهدافه، وتجنيب صغاره الكثير من الأخطاء وسيِّء العادات، ومن دون الفهم والتواصل التربوي فقد لاتؤدي القدوة وحدها الأثر المطلوب، فإن كثيراً ممن هم في ذاتهم قدوة في سلوكهم وطبائع نفوسهم يكونون غير متواصلين تربوياً مع أبنائهم؛ مما يفسر انحراف كثيرٍ من أبناء هؤلاء الآباء الذين لم يشفع لهم صلاحهم في حسن تربية أبنائهم وسلامة توجهاتهم.

ومثال آخر على التعامل المبني على فهم الأساليب التربوية راقبته بين أخي الأصغر والوالدة يرحمها الله حين أقبل الصغير إلى "سيجارتها" الموقدة ليأخذها إلى فمه تقليداً لها، وحين هبَّتْ إحدى أخواتي تنزعها منه وتصرخ فيه، فرأيت الوالدة يرحمها الله تطلب إلى أختي الهدوء وترك الأمر لها، وحينئذ أخذت تلف "سيجارة" أخرى ملأتها له بالتبغ، وأشعلتها وقدمتها إلى الطفل الصغير، الذي لابد أنه كان يتطلع إلى الحصول على طعم قطعة من الحلوى، وأخذ السيجارة إلى فمه ليسحب إلى فمه دخان السيجارة المر المذاق، وحينها بالطبع رمى بالسيجارة إلى الأرض فوراً، وبالطبع لم يعد بعدها أيضاً إلى رفع سيجارةٍ حتى اليوم إلى فمه قط.

ودرس آخر يوضح كيف يكون أثر الدروس التربوية في الصغر؛ فقد رأيت مشهداً بين الوالدة يرحمها الله وأخي الصغير الذي دخل البيت وفمه الصغير يتأتئ بالانفعال، لأنه لم يجد الكلمات المناسبة لتعبر عن أحاسيس فرحته بما تحمله يداه الصغيرتان، فقد كان يحمل "محمصة" مزركشة المقبض، من تلك التي يُقلى بها البن، لإعداد القهوة العربية، وقد وجدها ملقاة في عرض الطريق الضيق أمام الدار، ولعلها مما سقط من متاع بعض المارة من عرب الجزيرة الوافدين إلى مكة الذين يكثر مرورهم في ذلك الطريق، واستقبلت الأمُ الطفلَ، وأنا أنظر إليها، مترقباً ما عساها أن تفعل بهذه "اللقية"، ولدهشتي رأيتها تحمل الطفل في رفق على ذراعها ومعه "المحمصة" في يده، وترفع يده و"المحمصة" فيها ليلقيَ بها إلى الطريق ثانيةً وهي توضح له أن هذه المحمصة ليست لنا فلا نأخذها، ومن الواضح أن قصدها كان هو ألا يتعود ابنها أن يأتي إلى الدار بما ليس لنا. وحين أمعنت النظر في هذا الدرس أدركت أن مثل ذلك الطفل لن يمد يده بعد ذلك إلى ما ليس له، ولن يكون من صفاته العدوان على مال سواه، وسوف يستقر في قرارة نفسه - وبلغة تربوية أولى - عدم التطلع إلى مال سواه، ولو كان ملقىً على قارعة الطريق. وكم من طفل تحول إلى سارق حين مدّ يده الصغيرة إلى مال الآخرين وعاد بأسلابه الوضيعة إلى الدار؛ حيث يجد الفرحة بغنيمته مع تصديق جميع أكاذيبه؛ فتأنسَ نفسُه، ويتعود - في براءة - عادةَ السرقة والكذب، بسبب جهل الأهل وغفلتهم، وعدم متابعتهم لسلوك أبنائهم ونشاطاتهم، أو ربما ألهتهم فرحتهم بالأشياء "المسروقة" التي أحضرها الطفل عن التدقيق في الحقائق؛ مما يدفع الطفل -يوماً بعد يوم- إلى مزيدٍ من الانحراف، دون قصد أو اكتراث بطبيعة التصرف أو بنتائجه الوخيمة.

ولم يخفَ عن الابن أن جو المحبة والوفاق والرعاية والأمن في داره كان خلف الاستجابة التي مكنت الوالدين من أن يؤثرا - بالحسنى - في نفوس صغار الدار الذين كانوا يأنسون إلى جوار والديهم ومراتع دارهم، بعيداً عن صحبة الأشرار ونفوذ جلساء السوء، وأمكنهم أن يعبروا بأبنائهم في جيل

واحد قروناً حضارية تدل على ما للأساليب التربوية من قدرة على الإصلاح والتغيير.

ومن التجارب الشخصية في مشاهدة البرامج التلفزيونية أنني وجدت أن الكثير مما تبثه بعض القنوات كان رسائلَ غير مرغوبة، وفي بعض الأحيان قد تكون رسائل هدامة، ومن خلال برامج ترويحية محببة إلى النفوس وبأساليب فعالة غير مباشرة، وعلى قدر كبير من الإتقان تحقق بها التسلل إلى نفوس المستمعين، ولاسيما صغارهم، على غير وعي منهم بالرسالة وأهدافها، ولكنها تؤثر في نفوسهم وعواطفهم، وتخلط القيم والأهداف في رؤيتهم، وتدفعهم إلى تقبل أمور ما كانوا ليقبلوها ولا ليتهاونوا بشأنها لو أنها بُثَّتْ إليهم بشكل عقلي منطقي مباشر.

والبرامج التلفزيونية على ألوانها أصبحت إحدى ضرورات العصر التي توفر بأسلوب ميسر كثيراً من البرامج الثقافية والتعليمية والترويحية؛ مما لا يمكن عملياً الاستغناء عنها، فكان علي أن أجد الطريقة التي أتلافى بها أو أقلل بها من آثار الرسائل السلبية التي قد يفاجأ المشاهد بها في أثناء بَثِّ أحد هذه البرامج، ولكن دون أن يفسد على الطفل والمشاهدين متابعتهم ومتعتهم بما يقدم من البرامج.

ولأنني أعلم تربوياً أن الطفل يهمه دائماً أن يعلم رأي والديه فيما يعن له من أفكار، وما يثور لديه من تساؤلات، وما يواجهه من مواقف، لذلك فإنني كنت أحرص ما استطعت أن أكون مع الأطفال وهم يشاهدون برامج التلفزيون، وكان أهم دور أقوم به حين الحظ رسالة سلبية ترسل في أيٍّ من هذه البرامج أن أقوم بتعليق عابر قصير محدد، وبأسلوبٍ مناسبٍ؛ ليكشفَ زيف الرسالة، ويرد عليها، ويصححَ مغالطاتها، دون أن يحرم الأطفال من متعة المتابعة والاستمتاع بحبكة القصة أو البرنامج، وإذا كان لا بد من مزيدٍ من التعقيب والمناقشة فيتم ذلك بعد البرنامج، وبأسلوبِ حوارٍ مفتوحٍ لمناقشةِ أهم ما فيها بهدف التوضيح والتصحيح، وتعريف الطفل بوجهة نظر والديه،

وترك الأمر يدور في رأس الطفل حتى يتسرب إلى أعماقه بهدوء وطمأنينة، وقد كان لذلك الأسلوب من خلال تجربتي أثرٌ فعَّالٌ في مقاومة كثير من الآثار السلبية للبرامج التلفزيونية السلبية، والتي يجب على المربين أن يزودوا الآباء بكثير من النصائح التربوية لحسن التعامل العملي الفعَّال مع ما يواجهونه من مواقف تربوية في حياة الطفل، ومع ما يجدونه من مواقف وتحدياتٍ لن يكون آخرها تحديات البثّ الإلكتروني (الإنترنت) وبرامج الكمبيوتر.

إن أهم عناصر هذا المشروع التربوي الذي يدعو إليه هذا الكتاب هو تكريس جزء هام من جهود المفكرين والتربويين والإصلاحيين الإسلاميين، وتوفير الدعم المعنوي للدراسات العلمية التي توجه الخطاب العلمي الإسلامي المقنع المؤثر إلى الآباء والأمهات، وتثقيفهم تربوياً، وتعريفهم وجوهَ التشوه الثقافي والقصور التربوي، وأثر ذلك في بناء أبنائهم وأمتهم، دينياً ونفسياً ومعرفياً وحضاريا، كما يمدونهم ويبصرونهم بالمعلومات والطرق والوسائل التي تمكنهم من أداء أدوارهم في تربية أبنائهم، ورعاية نموهم، واستقامة بنائهم النفسي والوجداني والمعرفي؛ حيث تنطلق طاقات الحب والعدل والبذل والصبر الذي تحويه وتمتلئ به جوانح الوالدين الفطرية نحو أبنائهم، والحرص على ما فيه مصلحتهم.

إنّه من العار أن نجد مكتبات الأمم تمتلئ بالمئات والألوف من الكتب والأبحاث العلمية التربوية التي تبصّر الآباء والأمهات بالمفاهيم والمعلومات والطرق والوسائل الثقافية التربوية التي تعين الوالدين على القيام بأدوارهما بنجاح في تربية الأبناء وتحقيق طموحاتهم وتطلعاتهم، فيما نجد المكتبة الإسلامية في شؤون الأسرة والتربية تكاد تكون خِلْواً من الكتب والأبحاث العلمية الجادة، وإن جُلَّ ما يتصدرها من النزر اليسيرمن الكتب لايعدو أن يكون مكرورَ خطاباتٍ وعظيةٍ سلطويةٍ، أو كتبَ قانونياتٍ وفقهياتٍ تتعلق بأحكامِ عقودِ الزواجِ وأحكامِ الطلاق، والوصايةِ على الأطفال، وتقسيم التركاتَ، وجُلُّ هذه أمور لا تَتعلق بجوهر التربية والعلاقات الإنسانية، ولاَ

تقدم من خلالها علماً سننياً، ولا دراية علمية ثقافية تربوية، وهي أمور لاحاجة للعامة إلى أن يتعلموا تفاصيلها الدقيقة، لأن المأذون والقاضي والحاكم سوف يتولون تفاصيل هذه الأمور القانونية عند الحاجة إليها، ويقومون حينذاك بإجراءاتها وإصدار الأحكام اللازمة فيها.

إن المعالجات والثقافة المطلوبة التى يجب إنتاجها من أجل ترقية شؤون الأسرة والتربية والتعليم وتطويرها؛ يجب أن تكون معالجات علمية سننية إسلامية اجتماعية حضارية تتعامل مع جوهر المفاهيم، وفهم كنه العلاقات والعوامل المؤثرة فيها، وكيفية التعامل معها، وتحقيق الأهداف المنشودة منها، في سيلٍ لا ينقطع من دراساتٍ وأبحاث وتجارب، ومتابعاتٍ للتحديات، ولمتغيرات العلاقات والظروف والإمكانات، ولمستجدات المعارف والمعلومات، بما في ذلك الدراسات النفسية، ودراسات الدماغ البشري، والجينات، وسواها من مجالات المعرفة المتفجرة التي تمتد إلى آفاق واسعة جديدة في معرفة أسرار فطرة النفوس والكائنات، ولها آثارها في تطوير الأساليب التربوية والتعليمية، حتى تأتي الجهود العلمية على أفضل الصور الممكنة في حلبة سباق الأمم والحضارات.

المعلم رديف الأسرة

وإذا كان الدافع الفطري لدى الآباء في الحرص على مصالح أبنائهم وتوفير ما فيه مصلحتهم هو الأساس الأول المكين الذي يجب أن يستند إليه كل جهد جاد لإصلاح معدن الإنسان المسلم ومستقبل أجياله، فإن المعلم هو صاحب دورٍ هام أيضاً لكونه الداعمَ والرديفَ الميداني الأول لدور الأسرة في التربية؛ ولأنه هو العنصر الذي يكل إليه المجتمع أمر تعليم الصغار، ورعايتهم، وتوجيههم، وتنمية قدرات الناشئة، وصقل مواهبهم.

وثقافة المعلم ومناهجه التربوية والوسائل المتاحة له لها أهمية كبرى في تنمية الطفل معرفياً ووجدانياً. وكلما توافقت مفاهيم الآباء والمعلمين، وتناسقت جهودهم، كانت الجهود أكثر فاعلية، والنتائج أكثر إيجابية.

وجُلُّ الأخطاء وأوجه القصور في أداء المعلمين والمدارس وخطط التربية والتعليم في كثير من البلاد "النامية"، ليس ناتجاً - بالضرورة - عن سوء تدبيرٍ أو سوء قصد، بقدر ما هو ناجم عن قصورٍ في الأداء، ومتابعةٍ تغريبيةٍ عمياء في بناء الخطط والمساقات والبرامج والنشاطات التعليمية.

إن الاهتمام بقضايا المعلم وإعداده ورعايته، وكذلك الاهتمام بقضايا التعليم العام ومناهجه ووسائله ووجوه القصور فيه، يضع هذه القضية أمام الأمة، ويعين كثيراً على تصحيح منظور الجهات المسؤولة عن التربية والتعليم التي لن تجد - في كثير من الحالات - غضاضةً في إصلاح كثير منها، وفي الاستثمار من خلالها في الأجيال القادمة، بأسلوب تربوي متوازن، خاصة إذا تكوَّن لدى الأمة، ولدى القيادات، وعي بأهمية هذه الإصلاحات، وخاصة إذا ما لمستْ الأمةُ آثار هذه الإصلاحات والمناهج في تنمية القدرات الناشئة وتحسين أدائها.

إن المعلم مثل الوالد - في كثير من الوجوه - في حرصه على مصلحة الطفل، وعلى النجاح في مهمته، ولن يستطيع أن يؤدي دوره إلا إذا تمّت توعيته، والحصول على اقتناعه وتحسين ظروفه المعيشية، ومكانته الاجتماعية، ودعم دوره التربوي بالأبحاث التربوية العلمية، وبالكتب والمواد المدرسية المنهجية الفعالة المتطورة. إن المفكرين والمؤسسات الفكرية والتربوية الرسمية وغير الرسمية وجهود المصلحين يمكنها أن تسهم بنصيب وافر في دعم المعلم وتطوير فكره ووسائله التربوية التي يجب ألا تتقاعس أو تقصر في أدائها.

خطاب القداسة الديني: العلاقة بين المعرفي والوجداني

إن المعلومات لن تنتهي بدفقها وتجددها، ولن يتوقف طلب المزيد منها، وإعادة النظر والتطوير فيها، ما دامت الحياة تجرى في عروق البشر، فالمعرفة تُطلب وتتجدد من المهد إلى اللحد، أما الجوانب الوجدانية النفسية التربوية فلها أوانها ومداها من مراحل العمر والنمو الإنساني الذي لا تتعداه، ولذلك

يجب أن يكون الوجداني النفسي هو الأساس الذي يُبنى عليه نوع المعرفي وأسلوب تعليمه، حتى في مجال تعليم العقيدة والقيم والأخلاق، بل فيهما معاً قبل سواهما، ولذلك فإن كل ما يقدم إلى الطفل من علوم ومعارف - حتى في مجال تعليم القرآن الكريم- يجب ملاحظة آثار ما يقدم على تكوين العقلية والبناء النفسي والوجداني للطفل، وفي كل مرحلة من مراحل الطفولة، إذ إنه "لكل مقام مقال".

ولعل من أهم المجالات التي يجب أن نوضح فيها علاقة المعرفي بالوجداني، وملاحظة علاقة التأثير المتبادل بينهما، هو مجال التعليم الديني - بما في ذلك تعليم القرآن الكريم للطفل - حيث درجت المناهج التقليدية على تعليم القرآن الكريم بشكل عفوي عشوائي، وهم يبدؤون بتعليم الصغير منذ نعومة أظفاره قراءة الجزء الثلاثين من القرآن الكريم، واستظهاره، ولعل ذلك بسبب الظن أن قصارَ السور أيسرُ حفظاً من طوال السور، ولأن جُلَّ موضوع تلك السور المكية هو الغيب والعقيدة[1] وهذا المنهج -في رأينا- يجب تصحيحه وتقديم القرآن الكريم للطفل على أسس منهجية علميه تربوية.

فالجزء الثلاثون يغلب عليه خطاب الكفار الجبابرة والجاحدين المنكرين، ومجابهتهم بسوء عاقبة كفرهم وجحودهم، وقدرة الله عليهم وما ينتظرهم في أخراهم، وما يتوعدهم من الهوان والعذاب وسوء المصير، بكل ما تحمله اللغة من قوة وبلاغة في التهديد والوعيد، داعياً هؤلاء المستكبرين إلى إدراك حقيقة حالهم وسوء مآلهم، وهو خطاب يناسب حال البالغين المستكبرين لكي يحمِّلهم مسؤولياتهم، ويبصرهم بعواقب أمرهم، ويعيدهم إلى صوابهم

---

(١) يبلغ عدد سور الجزء الثلاثين سبعاً وثلاثين سورة كلها مكية إلا ثلاث سور هي سورة النصر والزلزلة والبيّنة، وثلاث الآيات الأولى من سورة الماعون، انظر صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسنين مخلوف الطبعة الثالثة الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية - الكويت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨م.

ورشدهم، ولن يكون من آثار هذا الخطاب للبالغين أن يحيلهم إلى رجال جبناء، ولن يقوِّض بناء نفوسهم ويقضي على مكامن القوة والشجاعة فيهم، لكنه يبصرهم ويرشدهم ويلزمهم الحجة، ويدعوهم لإمعان النظر، والتفكر والتدبر، وحساب العواقب، وترشيد الخيار.

ولكن ذات الخطاب إذا وُجِّهَ إلى الطفل الصغير أخضرِ العود، صغيرِ السن - الذي يتطلع إلى ما تريده منه، ويسعى للاستجابةِ له، والتلبسِ به، في فهم معنى حياته والكون من حوله - لن يكون له ذات الأثر، لأن الصغير ليس في حاجة إلى التهديد والوعيد، فلو أخطأنا وخاطبناه بما خاطب به القرآن الكريم الجاحدين المنكرين فإن الأثر النفسي والوجداني - في حالة الصغير البريء - مختلف ومدمر لبنائه النفسي، لأنه يشيع فيه الخوف والرعب، ويميت فيه القوة والشجاعة، ويجعل الحياة أمامه مفازة يخشاها، ويقف منها موقفاً سلبياً، يتحرك لا بروح الاستخلاف، ولكن بروح الخوف وغريزة البقاء، ولا يمكن أن تنمو في نفس الخائف المروع ملكة إبداع ولا قدرة عطاء، ولا ينتظر أن تُبنى علاقته بالله وبالحياة وباليوم الآخر على مشاعر الحب والأشواق والطاقات الإيجابية، ولعل ذلك ما يفسر إلى حد كبير سلبية النفس المسلمة في عصور الانحطاط، حيث ضعفت فيها محبة الله، وتوارت جدية الحياة، ولا ترى مثل هذه النفوس في صورة الدار الآخرة إلا أنها سعير جهنم، برغم أن مصير المسلم - برحمة الله- إلى الجنة "وإن زنى وإن سرق"[(١)] لأن الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس على كليات أعمالهم، وليس على ما يرتكبون من الأخطاء فقط، فيؤتى بحسناتهم وسيئاتهم، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١/ ١١٤]. وجُلُّ الناس يغلبُ الخير على الشر في حياتهم ونفوسهم، فلا غرابة إن سيطرت مشاعر الخوف

---

(١) روى أحمد في مسنده: ٢٦٢١٩ أن أبا الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له دخل الجنة». قال: قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: («وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي الدرداء».

والوجل في عصور التخلف على أكثر نفوس المسلمين في كل شيء؛ لأننا لم نتبين آثار الخطاب التربوي الخاطئ الموجه إلى المسلم، ولاسيما الطفلُ، والمبني على التخويف والإرهاب والعقاب، وليس على الحب والمودة والاحترام والثقة والتشجيع والتبصير وتحمل المسؤوليات والأمانات.

على المربي - على أساسٍ من هدي الخطاب النبوي للطفولة، والبحث العلمي التربوي المبني على أساس الرؤية القرآنية وقيمها ومقاصدها - أن يقدم للطفل الاختيارات القرآنية التي تناسب طبيعته في المراحل النفسية التي يمر بها؛ بما يقربه من الله، وينمي في نفسه مشاعر الحب الإيجابية، ويحبب إليه قيم الإسلام وغاياته، حتى إذا بلغ مرحلة التمييز شجعناه -عن طريق الاختيارات القرآنية المناسبة - على تحرِّي الخير والصواب، والبعد عن الشر والأذى، وغرسنا في نفسه المبادئ والقيم، وفي الوقت نفسه نزيل من ذاته الغضة الخوفَ والفزع حين الوقوع في أخطائه الصغيرة، من بعض الكذب، وإيذاء الأقران، ومثالب حب الاستطلاع؛ وبذلك نفتح أمامه - بالاختيارات القرآنية المناسبة - سبلَ مراجعة النفس، والبعد عن الخطأ، وتهذيب الذات بمعاني التوبة والغفران والرحمة الإلهية، فلا يحسّ بالإحباط الذي يقود إلى الهروب النفسي والاستسلام للأخطاء والانسياق فيها، حتى إذا بلغ الطفل مبلغ الرجال وُضِع - بالاختيارات القرآنية المناسبة - أمام مسؤولياته، وبُصِّر بعواقب أفعاله، كما وضع رجال العرب الأحرار الأقوياء من أصحاب رسول الله - وقد آمنوا رجالاً - أمام مسؤولياتهم وبُصِّروا بعواقب أفعالهم، فحملوا مسؤولياتهم الجسام بقوة معادن نفوسهم الشجاعة القوية غير الهيابة، والصفاء الذي نُشِّئوا عليه في نعومة أظفارهم في أحضان مراتعهم الفسيحة الحرة.

إن الإصلاح الثقافي التربوي يجب أن يمتد إلى كل جوانب التكوين المعرفي والنفسي والوجداني للطفل والناشئة، وأن يوظف لخدمة التكوين السليم لعقلية الطفل ونفسيته، والجانب الديني والعقدي هو من أهم مكوناته ويجب

أن يكون الخطاب النبوي الودود على أساس من الفهم والتدبر والفهم العلمي السنني هو الدليل والأساس في بناء المناهج التربوية المعرفية والنفسية والوجدانية للطفل، التي تنمي فيه معاني القوة والعزم والعزة والكرامة والإقدام، لا أن تكون مناهج استظهار وقسرٍ وزجرٍ وإرهابٍ، تكرس فيه صفات الخنوع والخضوع والتقليد والمحاكاة.

إن علينا أن ندرك علاقة المعرفي بالوجداني والنفسي فيما نعلِّم للطفل حتى فيما نعلم من القرآن الكريم الذي لا أظن أننا اتبعنا فيه المنهج التربوي السليم، في اختيار ما يناسب كل مرحلة من مراحل نمو الطفل وبنائه النفسي؛ الذي يجب أن يبدأ بمحبة الله سبحانه وتعالى، ومحبة دينه وأمته والتعلق بربه وعقيدته، وحسن فهمها، والتدرج به إلى المراحل التي يصلب فيه عوده وينضج، ليدرك مسؤولياته وعواقب أفعاله تجاه نفسه وأمته؛ فيخاطب خطاب المسؤولية والتبصير بها، ويرشد - في نصحٍ وحبٍ - إلى ما يترتب على أفعاله من العواقب والمسؤوليات، فيكتمل نضجه، ويشتد عوده، ويطيب ثمره -من دون أن يضعفَ بناؤه النفسي، ولا تُفَلَّ شجاعة فؤاده، ولا قوة جنانه - ليكون مسلماً صالحاً قوياً سوياً في أمةٍ قويةٍ عزيزةٍ قادرةٍ.

وينطبق هذا المفهوم التربوي الذي يراعي الآثار الوجدانية، على كل ما يقدم للطفل من فكر وثقافة ومعارف، لتقدم تربوياً بما يناسب كل مرحلة من مراحل نمو الناشئ، وأن يكون أثرها النفسي والوجداني أثراً إيجابياً، وهذا هو دلالة الخطاب النبوي التربوي للأطفال والناشئة الذي يجب أن تُفهم أبعادُه علمياً، وأن تُراعى أسسه ومنطلقاتُه في بناء الخطط والمناهج التربوية لكل ناشئة الأمة، لا فرق بين فئة وأخرى، وصفوة وعامة، فالجميع إخوة، وهم جند الأمة المسلمة القوية الكريمة.

إن على فئات الأمة كافة، مفكرينَ ومصلحينَ، وآباءً وأمهاتٍ، ومربين ومعلمين، أفراداً ومؤسساتٍ، أن يولوا شؤون التربية والتعليم الأولويةَ والأهميةَ والجهدَ المطلوب لهذا المجال الهام، ولإعادة بناء قواعد كيان الأمة،

وتفجير طاقتها في طفولة أبنائها، وتنمية مواردها البشرية على أسس معرفية ووجدانية إسلامية علميةٍ سليمةٍ.

إذا أولى المصلحون والمفكرون والمثقفون والتربويون ثقافة الآباء والمعلمين والأسرة والمدرسة اهتمامهم، وقدموا لهم الأدبيات العلمية المدروسة اللازمة لتوفير الرؤية العقدية الصحيحة، والثقافة النقية، والتربية الإسلامية السوية؛ فإن الأمة تكون قد أمسكت بطرف الخيط، ووضعت أقدامها على جادة الطريق الصحيح للتغيير والإصلاح، لأنها بذلك تكون قد استعانت - عن علم - بالدوافع الفطرية لتفعيل حركة التغيير والإصلاح، وإذا تغير الفرد وصَلح حاله عقدياً ومعرفياً ووجدانياً فذلك الطريق الفعال لصلاح الجماعة والمجتمع، وإعادة بناء علاقات المجتمع ومؤسساته على أسس إسلامية قويمة تستجيب لنوع القاعدة السياسية الصالحة.

وحتى يتحول القولُ إلى عملٍ، والفكرُ إلى فعلٍ، يجب البدء بأسرع ما يمكن من أجل وضع خطط عمل جادة شاملة، تتعاون فيها كل الأيدي المخلصة؛ حتى يبدأ فعلاً - وبإذن الله - مشوارٌ تأخر كثيراً لاستنبات جيل الإيمان والقدرة والعزة والإصلاح.

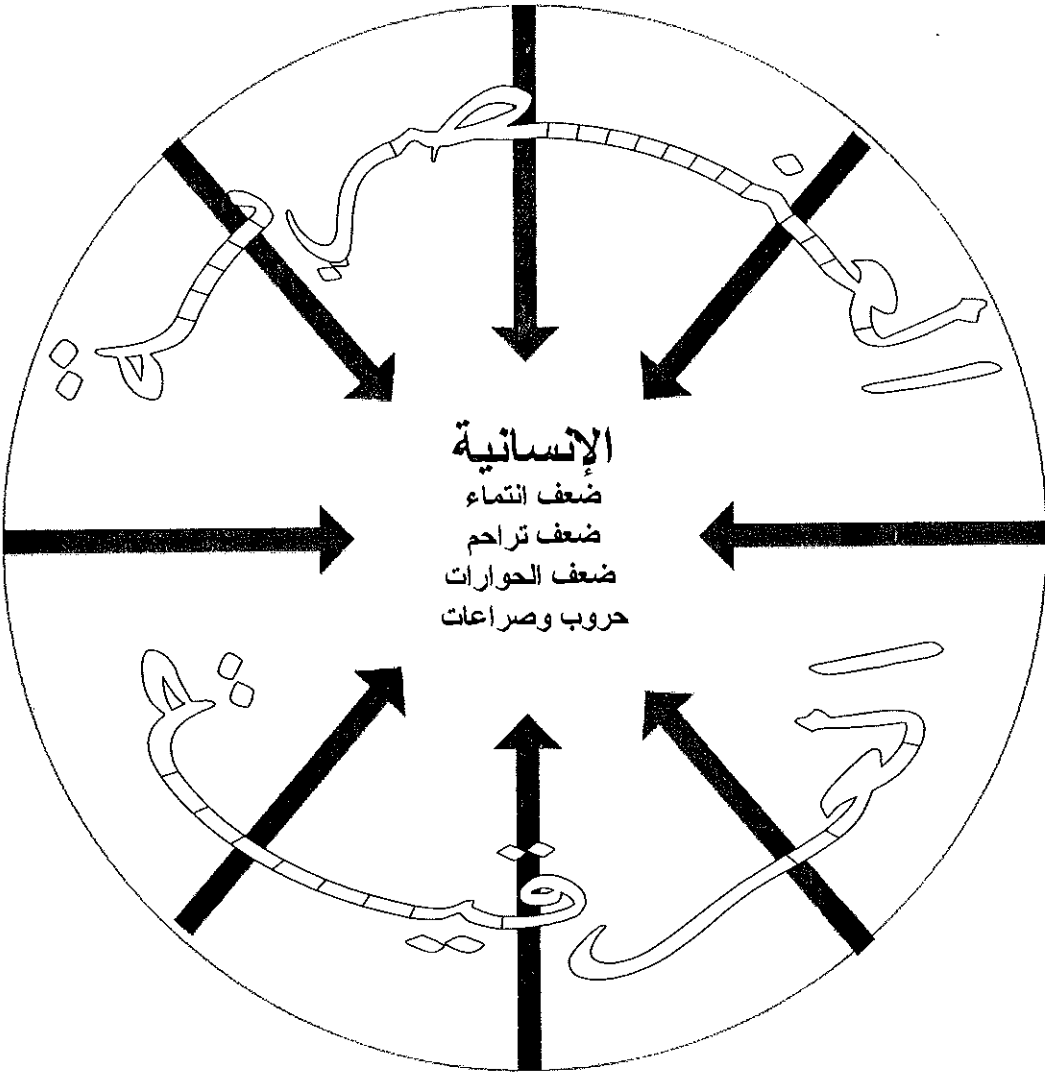

العنصرية والعرقية: فلسفة الاستعلاء
والصراع الإنساني والحضاري
حراب متقابلة

الشكل (٩)

الفصل السادس

خطة العمل

جبهات العمل

والأصل في كل خطة عمل أن تكون متعددة الأبعاد، وأن يتم العمل فيها على عدة جبهات تتوازى وتتكامل وتتناسق؛ حتى تؤتي في نهاية المطاف ثمارها المرجوة.

والغاية من هذه الخطة بشأن الطفولة هي التغيير النفسي والوجداني، حتى تصبح النفس المسلمة قوية مؤثرة وبناءة مبدعة، وهي إعادة بناء العقلية المسلمة لتكون عقلية سليمة مؤمنة، وقوية علمية جادة.

وحتى يتم ذلك لا بد لنا من استعادة الرؤية الإسلامية الكونية القرآنية لعهد الرسالة، وذلك بواسطة التنقية الثقافية لما أصاب الرؤية والثقافة الإسلامية في عصور التمزق والاستبداد والتخلف من تشوهات الفصام والقهر والخرافة والجهل، وعن طريق استعادة الخطاب التربوي النبوي للناشئة ليكون أساساً للإصلاح التربوي: الذي يغرس بذرة الإصلاح المعرفي والوجداني في تربة الطفولة على أساس مكين، ويعيد إلى الأمة هذا (البعد الغائب) في مشروع الإصلاح الإسلامي الحضاري.

توعية المثقفين والمفكرين

والخطوة الأولى في هذه الخطة هي التوعية بطبيعة المشكلة وأبعادها الثقافية التاريخية، فعلى الرغم من الإخلاص الهائل الذي تحلى ويتحلى به كثير من المثقفين والمفكرين، والجهود الكثيرة المرهقة التي بذلت على مدى القرون ضمن الظروف والتحديات التي أحاطت بالأمة، إلا أنّ تلك الجهود ظلت محدودة الأثر، ولم تؤتِ ثمارها وتحقق غاياتها في استعادة طاقة الأمة وقدراتها؛ لافتقارها إلى النظرة الشمولية، وتغييب دور العقل السنني الصحيح في النظر والبحث والدرس النفسي الاجتماعي، وذلك بسبب ما تسرب إلى العقل المسلم من الفكر الميتافيزيقي الصوري الإغريقي، الذي سيطر على فكر الأمة وآفاقها المعرفية، إلى جانب عنف الصراع السياسي الذي اضطر إليه كثير من العلماء في مواجهة الصفوة السياسية المستبدة، دفاعاً عن المقدسات والمواقع، وحفاظاً على الموروث: الذي ما زالت آثاره - حتى اليوم - تسيطر على الفكر الديني التقليدي، وتوهن البناء النفسي والطاقة الوجدانية للأمة.

وبقي المناخ الفكري والسياسي على ما هو عليه من الفصام والصراع والسعي لكسب الأتباع والأنصار، ولم يلتفت أو ينتبه أحدٌ إلى دور الطفولة والتربية والتعليم في إحداث التغيير وإعادة بناء الأمم، وبقي شأن الطفولة مهملاً. ولهذا لم تحظ دراسات الطفولة وأدبياتها وأبحاثها العلمية الإسلامية حتى اليوم بكثير من الاهتمامِ، والعطاءِ الفكري، وتجنيدِ القدرة الفنية والعلمية، كما اقتصرت أدبيات بناء الأسرة على الشكليات الفقهية القانونية، مهملة جوهر البناء النفسي والاجتماعي والمعرفي؛ في علاقاتِ الأسرة، وشؤونِ تربية الطفل، وتنشئتِهِ على أسس علمية إسلامية متينة.

فتوعية المفكرين والمربين المثقفين بأهمية (الطفل) والعناية التربويّة ببنائه النفسي الوجداني والمعرفي العلمي، على أساس قاعدة إيمانية توحيدية استخلافية بينة مكينة هو من أهم أسس نهضة الأمة، وهذا يعني أيضاً التوعية

- بالقدر نفسه - بأهمية (الأسرة) وبنائها؛ لتكونَ تربةً ومحضناً أساسياً لبناء عقلية الطفل ونفسيته ووجدانه.

إذا نجحت التوعية في توجيهِ قدر مناسب من اهتمام المفكرين والتربويين والإصلاحيين إلى أهمية الطفل والأسرة تربوياً، وبذلِ الجهد اللازم للتنقية الثقافية وتطوير المفاهيم والوسائل التربوية، وتكثيف الدراسات الجادة في هذه المجالات، وإصدار الأدبيات المطلوبة، فإنّ إحداثَ التغيير في جيل واحدٍ أمرٌ ممكنٌ، وهو ما برهنه النهج التربوي الذي اتبعه سيدنا موسى عليه السلام، في تحرير المستعبدين من بني إسرائيل[1] وكما قدمه النهج الذي مثله

---

(١) من المهم أن نلاحظ الفرق بين طبيعة القوم الذين أُرسل إليهم سيدنا موسى عليه السلام والقوم الذين حملوا رسالة الإسلام المحمدية إلى الأمم، وأثر ذلك في النهج الذين أخذ به سيدنا موسى في التعامل مع قومه والخطاب الذي وجهه الرسول عليه الصلاة والسلام إلى قومه. ودلالة ذلك في النهج والخطاب المطلوب لخطاب الشعوب المسلمة. فسيدنا موسى عليه السلام أرسل إلى بني إسرائيل الذين استعبدوا في مصر وكانوا كالخيل المعطوبة التي يرجى نسلها؛ فكان نهج سيدنا موسى كما أمره الله هو تنشئة جيل حر كريم شجاع في (تيه سيناء) على مدى أربعين عاماً. أما سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقد كان قومه العرب الذين بدأهم بالخطاب ومنحهم شرف حمل الرسالة إلى العالمين كانوا قبائل بدوية حرة كريمة لم يذل أعناقها قياصرةٌ ولا أكاسرةٌ، ولذلك أخذهم الرسول ﷺ بخطاب التبشير والمسؤولية للمؤمنين، والإنذار والوعيد للمعاندين والجاحدين والمناوئين، فحمل العرب الأحرار الشجعان - الذين كانوا كالخيل الشموس - مهمة الدعوة فحملوا الرسالة بقوة وأمانة ورفعوا راية الإسلام وأقاموا قواعد حضارته، وحين أذلت الملوك والسلاطين أعناق الشعوب الإسلامية كانت صحوتها الثانية على يد قبائل الأتراك الحرة الشجاعة التي دخلت الإسلام وأقامت الدولة العثمانية. واليوم فإن حال شعوب المسلمين وقد عم جمهورها ذل الاستبداد والطغيان، وتخلفت وكونت نفسية العبيد فإن النهج التربوي الذي أخذ به سيدنا موسى هو النحو الذي ينطبق على حال الشعوب الإسلامية في حال أجيالها المتأخرة، ولابد لهم من إعادة بناء القواعد وإصلاح منطلقات العقل المسلم ومعدن وجدان ناشئته على النهج الذي نستعيد معه سمات الخطاب النبوي للأطفال والناشئة. كما أن المطلوب ملاحظة معادن الوافدين إلى الإسلام من أبناء الشعوب الحرة المتقدمة التي تتصف بالقوة والشجاعة، والذين هم قوة للإسلام، وأن نحفظ لهم صفات القوة والشجاعة، وألا يكون ما نقدمه لهم من ثقافة ملوثة وسيلة سلبية تغل طاقاتهم وتدمر وجدان ناشئتهم.

الخطاب والقدوة النبوية المحمدية في تربية النشء، إلى جانب ما أثبتته التجارب الحية للأمم المعاصرة، وكما يعرفه كثيرٌ منا في أنفسنا مما حدث من تغيير كبير في المفاهيم والمعارف عما كانت عليه مفاهيم ومعارف جيل الآباء، وفي غضون جيل واحد فقط، مما يدل على أن مثله وأكثر منه عمقاً ومجالاً يمكن أن يحدث في عمر جيل واحد من بعدنا إن نحن جَدَدْنا واجتهدْنا خلال الأربعين أو الخمسين عاماً القادمة بإذن الله، وما ذلك على الله بعزيز.

تنمية الفكر الإسلامي الاجتماعي الناقد

لقد بُذِلَتْ جهودٌ، وقُدمتْ أطروحاتٌ كثيرةٌ، بغرض الإصلاح الفكري، والتكامل المعرفي، بين هداية الوحي وآيات الكتاب من ناحية، ونظر العقل وآيات الكون والحفاظ على الثوابت وتفعيل المتغير من ناحية، ولكن عزلة أهل العلم المدرسية، وممارساتهم العلمية الدراسية التقليدية، جعلت تربة الثقافة والفكر الإسلامي لا تعين على النمو والتفعيل حتى اليوم، ودون أن يشعرَ بخطر ذلك كثيرٌ من أهل الصنعة ومن المصلحين ومن عامة الناس.

ولتفعيل العقل السليم وإخصاب تربته لا بد من تشجيع الفكر الإسلامي العلمي الاجتماعي الناقد، الذي يهدف إلى استرداد الرؤية الكلية الشمولية الإسلامية، وإلى تكامل مصادر المعرفة الإسلامية في الوحي والعقل والكون، وأن يتم - على أساس هذه الرؤية وهذا المنهج - تنقية الثقافة الإسلامية مما أصابها من تلوث، وتطوير المناهج التربوية لإعادة بناء النفسية والعقلية الإسلامية الاستخلافية؛ بهدف إعادة بناء أجيال الأمة على مستوى قدرة الأداء المطلوب، لحل الإشكالات، وتحقيق غايات مشروع الإصلاح الإسلامي الحضاري، ومواجهة التحديات المعاصرة.

لقد بذلت جهود مهمة وكثيرة للإصلاح لم يكتب لها النجاح في تحقيق أهدافها وإنهاض الأمة؛ لأنها لم تهتم بالتغيير التربوي للطفل، بل بقيت خطاباً ترهيبياً ونداءً معرفياً جدلياً موجهاً للبالغين، ومن أهم هذه الجهود في تاريخ الأمة جهود الإمام أبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م) فقد تبين

أبو حامد الغزالي مبكراً الحاجة إلى الإصلاح المعرفي في كتابه (تهافت الفلاسفة) بهدف التوفيق بين الديني والعقلي، وهدفَ في كتابه (إحياء علوم الدين) إلى التوفيق بين الشرعي العقلي والوجداني، إلا أنّ هذه الدعوة وهذا التوجه لم ينجحا في إحداث التغيير والإصلاح المعرفي الذي يؤدي إلى التفاعل بين القيمي والسنني؛ لأن نجاحه مشروط ببنائه على أسس علمية منهجية في السّنن والعلوم الاجتماعية من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن نجاح الإصلاح الوجداني التربوي مشروطٌ أيضاً بأن يوجه بشكل علمي مدروس إلى الطفولة وإحداث التغيير في أصل بنائها.

كذلك فإنّ الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية (ت ٧٢٨ هـ، ١٣٢٨ م) أدرك أمراً هاماً في بناء الشخصية الإنسانية وهو العقيدة وسلامتها، إلا أنّ غلبة الفكر النظري الجدلي الصِدامي - الذي أملته ظروف العصر وثقافته - لم يمكِّن لهذا البعد المعرفي من أن يأخذ طريقه إلى الجانب التربوي واستثماره في مناهج تربوية عملية فعالة من أجل التغيير وبناء الطفولة؛ بل إن كثيراً ممن تأثروا بفكر الإمام كانوا أبعد الناس عن إدراك الوسائل النفسية والوجدانية والتربوية أو الاهتمام بها.

وقد أسهم الإمام علي بن أحمد بن حزم (ت ١٠٦٤ م) في بناء أسس المنهج العلمي السنني الاجتماعي، كما أرسى العلامة أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون (ت ١٤٠٦ م)، قواعد هذا المنهج، ولكن فكر هذين الإمامين قد هُمِّشَ كما هُمِّشَ فكرُ كثيرٍ من المبدعين في عصور التقليد والركود الفكري؛ فالأول ظاهري، وكتابات الثاني ليست من اهتمامات الفكر التقليدي ولا من قراءاته، ولذلك لم يوظف هذا الفكر في بناء المعارف الاجتماعية الإسلامية، ولا في تطوير الدراسات العلمية التربوية لإحداث التغيير المنشود في أصل بناء الطفولة المسلمة.

ومن المتأخرين نجد الإمام محمد عبده (ت ١٩٠٥ م)، ومن بعده أعلام مدرسة المنار وتلامذتها؛ الذين أدركوا أهمية السلامة العقدية، وتمكين العقلية العلمية، وتنقية الثقافة الإسلامية من مفاهيم الخرافة والشعوذة، كما أنّ

الشيخ عبدالرحمن الكواكبي (ت ١٩٠٢ م) قد أدرك أهمية البعد العام والسياسي وضرورة إرسائه على أساس متين من مبادئ الإسلام وقيمه، وضرورة القضاء على الاستبداد في المجتمع. إلا أن هذه الإصلاحات لم تبلغ العمق المطلوب، ولم تحقق الغايات المرجوة؛ لأنها بقيت في دائرة المعرفي وفي دائرة خطاب البالغين، ولم تتجه بفكرها وبحثها نحو الطفولة والتربية والتغيير في أساس بناء الشخصية الإنسانية، وصياغة معدنها ووجدانها على أسس علمية في مراحل الطفولة.

كل هذه الجهود وما جاء بعدها لم تنتج التغيير المطلوب؛ لأن فكر الركود والجمود المدرسي والتقليد قد هَمَّشَتْ كلَّ هذه المحاولات وَحَدَّتْ من آفاقها، ولم تسمح لها بالتطور والتفاعل لإرساء فكر علمي إسلامي يقوم على التكامل المنهجي المعرفي، وبناء العلم النفسي الاجتماعي، وتطوير المنهج التربوي.

ومن الناحية الأخرى فإن فكر الاستيراد والتغريب بقي غيرَ متجاوبٍ مع وجدان الأمة ونفسيتها وأسس بنائها العقدي؛ مما هَمَّشَ - أيضاً، وبشكل تلقائي وأسباب موضوعية- تأثيرَه في وجدان الأمة، فلم يتأثر ضمير الأمة ووجدانُها به، ولم تتجاوب مع جهود دعاته وأتباعه، في التغيير، وفي تحريك كوامن طاقة الأمة.

علينا أن ندرك هذه الدروس، وأن نعلم أنه يجب ألا يستمر العمل الإسلامي الإصلاحي بشكل تلقائي عشوائي، خاصة في مجال الفكر والثقافة والتربية، ولكن يجب أن يتحول هذا العمل الإصلاحي إلى فكرٍ منهجي يهدف إلى بناء التكامل المعرفي بين معارف الهداية الإلهية الكلية، وعلوم العقل السنني، وتطوير العلوم الاجتماعية والإنسانية الإسلامية، وتقديم البدائل الرشيدة لبناء إنسانٍ أكمل، وحضارةٍ أفضل.

الإصلاح الثقافي

لإحداث الإصلاح الإسلامي لابد من إصلاح قاعدته الفكرية بإصلاح

الثقافة وتنقيتها لكونها وسيلةً للإصلاح التربوي، وإعادة بناء المسلم معرفياً ونفسياً ووجدانياً على أسس سليمة.

والإصلاح الثقافي يتطلب استمرار جهود إسلامية المعرفة المبنية على مقاصد المنظومة الإسلامية ومفاهيمها وقيمها وتأصيلها وتنقيتها. فهذه الجهود قد دخلت - بالإصلاح الفكري والثقافي - مرحلةً متقدمةً من النضج، بالعمل على إصلاح الجانب المنهجي الذي يعيد وحدة مصادر المعرفة والثقافة الإسلامية في هداية الوحي ومبادئ العقل وسنن الكون، وتوظيف هذه المنهجية العلمية الإسلامية للتعامل مع ما أصاب الثقافة الإسلامية من التشوهات والتمزق بالتصدي لهذه التشوهات والانحرافات، وتنقية الثقافة والعقل المسلم من آثارها؛ حتى يمكن أن تستعيد ثقافة الأمة وحدتها ووحدة منطلقاتها، وتتوحد في الجوهر ثقافة الخاصة والعامة، ويقضي بذلك على ما أصاب ثقافة الأمة وبعدها العام ومن تشوهات قضت على الروح العلمية السننية وعلى البعد العام والجماعي، ومكنت سلبيات العقليه الفردية، وعقلية الخرافة والشعوذة.

إن التنقية الثقافية هي من أهم الأسس التي تعيد إلى الأمة روح الإعمار والعقلية العلمية، وتقضي على فكر العنصرية والخرافة؛ لأن المدخلات الثقافية هي الأساس والمدخل إلى بناء الفكر التربوي السليم؛ فهي توظف الأساليب العلمية التربوية في عملية إعادة بناء الشخصية الإسلامية لدى الطفل المسلم معرفياً ووجدانياً، في بعديها الفردي والجمعي، والروحي الخلقي، والمادي المعيشي، فمن ليست له غاية روحية إعمارية أخلاقية أبعد من ذاته المادية فهو إنسان خواء هش، لا يقوى في مآل الأمور على مواجهة التحديات، وتخطّي الصعاب، وقهر العقبات، ومآله ومآل مجتمعه وحضارته إلى الهزيمة والانتحار والسقوط والزوال. ولعل هذا مايفسر صمود الإسلام وأمته، على عكس حال كثيرٍ من الأمم - على الرغم من كل أخطاء الأمة ومعاناتها - واستمرار استعصائها على الزوال والاندثار، واستمرار صمود روح المقاومة فيها على مدى القرون، وتجدد تطلعاتها التي لاتخمد ولاتنقضي طلباً للنهضة والتجديد.

الإصلاح التربوي

إن المعرفة وحدها لا تكفي للتغيير، ولا بد من ملاحظة البعد النفسي والوجداني لإحداث التغيير في الإنسان، فالإنسانُ عقلٌ وعاطفةٌ ووجدان، وإذا لم يتم التعامل بأسلوب علمي سليم مع الجانبين في آن واحد، فإن إحداث التغيير المطلوب في جُلِّ الأحوال وأهمها لا يتحقق، وإذا شئنا للشخصية الإسلامية أن تكون إيجابية تنفعل بحاجات الأمة، وتستجيب بعزم لاحتياجاتها، ومواجهة تحدياتها، فإن الجانب المعرفي لا يكفي لتحقيق ذلكَ الأمر، بل لا بد من توافر الجانب النفسي والوجداني، لكي تتحول المعرفة، ويتحول العلم، إلى عملٍ وبذلٍ وتضحيةٍ وجَلَدٍ ومثابرةٍ، وإلا كان علم الفرد بما يجري حوله من أحوال واستجابته لما يواجهه من تحديات بقدر ما يفيد الحمار مما يحمل على ظهره من الأسفار، أو كمثل الطبيب الذي يدخن، وهو من أعلم الناس بمضار التدخين، ولكن ذلك لا يكفي لردعه وردع أمثاله عن التدخين؛ لأن الأمر ليس مجرد علم ومعرفة، بل هناك جوانب نفسية لابد من أخذها في الحسبان لكي تؤدي المعرفة دورها، وتحقق آثارها، ومثل ذلك كمثل المدمن، فهو يدرك ما هو عليه من حال بائس، إلا أنه يعجز عن الإقلاع لأسباب نفسية وحيوية لا ينفع معها العلم وحده، بل لابد له من علاجات نفسية وجدانية تنمي في أعماقه روح المقاومة وقوة الإرادة، ومثل ذلك أيضاً كمثل الشاعر الذي يحفظ شعر الحماسة عن ظهر قلب ويجيد قرض شعر الشجاعة، فيما هو في المواجهة أجبنُ من أرنبٍ، وأسرعُ في الهزيمة من غزالٍ.

ولذلك يجب توظيف المنهج العلمي لدراسات الطفولة، وتوظيف هذه الدراسات لتنمية أساليب تربوية لتنشئة الأجيال نفسياً ووجدانياً، بما يحقق الصفات الإيجابية التي تَبْني - في أصل تكوين الشخصية المسلمة - الإيمانَ والأمانةَ والقوةَ والشجاعةَ والإبداعَ والمبادرةَ؛ ذلك لأن تشكيل الشخصية الإنسانية وأعمدة بنائها النفسية والوجدانية إنما تتم في مراحل الطفولة والمراهقة. أما إذا فُوِّتَتْ فرصةُ بناء الطفولة في هذه المراحل، واعوج العود، فلن تفيد

المعرفة، ولن يفيد الترهيب والوعيد، إلا في إبراز الوجه القبيح لازدواج الشخصية بين المظهر والمخبر، وبين القول والعمل، والكشف عن السلبية وقصور الأداء، و"الناس معادن" و"خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا".

فإذا كانت التنقية الثقافية هي البذور التي تحدد طبيعة الشجر والثمر؛ فإن التربية هي الماء الزلال والتربة الخصبة التي ينمو بها الشجر، ويحلو معها الثمر، ومن دون البذر والتربة والماء لا ينمو شجر ولا يحلو ثمر.

أدبيات الأسرة التربوية(١)

وإذا كنا قد أدركنا أهمية التنقية الثقافية، والمنهج التربوي للطفل، فإن من

---

(١) من وجوه اهتمام مدرسة إسلامية المعرفة بالجانب التربوي والأدبيات التربوية للأسرة المسلمة قيام المعهد العالمي للفكر الإسلامي بإصدار عدد من الكتب المهمة والندوات العلمية في شؤون التربية على مدى عقد من الزمان، ومن ذلك إصدار طبعتين لكتاب دليل مكتبة الأسرة المسلمة الذي سبق أن وضع خطته وأشرف على إعداده الكاتب حين كان أميناً عاماً للندوة العالمية للشباب الإسلامي (١٩٧٣ - ١٩٧٩م)، والذي تُعِدُّ "مؤسسة تنمية الطفل" الطبعة الثالثة منه، ومادة الدليل هي تعريفٌ بأفضل مايتوافر في المكتبة العربية من الكتب والأدبيات الإسلامية المتميزة، ولمختلف مراحل عمر أفراد الأسرة، ولمختلف أدوارهم الأسرية، وقد ألحق بالدليل فهارس متعددة تعين القارئ على الوصول إلى بغيته من هذه الأدبيات، ووفق المرحلة، أو الدور المطلوب، أو الاختصاص، وبكل يسرٍ وسهولة، مع التعريف بمؤلفي هذه الكتب ما أمكن ذلك.

كما أن المؤسسة تعد في الوقت الحاضر لعمل موسوعي شامل هو دليل القصة الإسلامية؛ ليخدم الأسرة المسلمة؛ حيث يُعرِّف الدليلُ بالقصص النظيف الذي يوفر المتعة البريئة، ويساعد على النضج الاجتماعي، ويغرس القيم السامية، ويدعمها، لدى أفراد الأسرة، وفي مختلف مراحل العمر والثقافة، وهو بذلك قصص يشمل كل أنواع القصص، وكل أنواع الكتّاب، بغض النظر عن موضوع القصة أو هوية الكاتب؛ لأن المعيار هو نوعية القصة فنياً، وقيمتها، وأثرها الترويحي والتربوي، ومدى إسهامها في إنجاح مشروع الإصلاح الإسلامي المنشود بإذن الله. =

المهم تركيزَ الاهتمام من قبل المفكرين والاجتماعيين والنفسيين والتربويين على تقديم الأدبيات العلمية؛ التي تعلم الآباء كيف يكونون آباءً حقاً، وتوفر لهم المفاهيم الإسلامية العلمية، والاجتماعية التربوية، التي تعين على بناء الأسرة السليمة والحفاظ عليها محضناً تربوياً فعالاً لتنشئة الطفل، والأساليب الصحيحة لتربيته معرفياً ونفسياً ووجدانياً؛ لإيجاد الإنسان الخليفة المؤمن القوي الذي يتحلى بالأمانة وبالشجاعة والمبادرة والإبداع، ويكون مسلحاً بالعقلية العلمية المبرَّأة من عيوب الفردية والسلبية، ومن فكرِ الخرافة والشعوذة.

ومن المهم هنا - ونحن بصدد الحديث عن الأدب بشكل عام، والقصة وأدب الطفل بشكل خاص - أن نشير إلى أن الأدب هو من أهم الوسائل الفنية المؤثرة في ناشئة الأمم، فهو يبرز خصائص الأمم والثقافات ويظهرها ويبلورها، وأن الوعي بهذه الخصوصيات ورموزها له أهمية كبيرة في التواصل مع روح الحضارة، وأن سوء فهم هذه الخصوصيات والرموز - خاصةً في عهود الانحطاط - يعد من الأمور التي تسهم بنصيب وافر في التشويه الفكري والثقافي للشعوب، ومن ذلك ما حدث من سوء فهم الرموز الإسلامية التي وُظِّفَتْ في قصص التراث، ولاسيما قصصُ "ألف ليلة وليلة" وما يشابهها؛ فهي كثيراً ما تصور رموزاً شريرةً شرسةً كاسرةً من البشر والوحوش والزواحف كالأسود والثعابين، وهي رموز شريرةٌ مهمتها في هذه القصص أن تحول دون الوصول إلى الكنوز والنفائس، ولكن هذه القوى الشريرة تتلاشى في الهواء أمام شجاعة الأخيار الشجعان من طلاب الكنوز، لأن هذه الرموز في حقيقة إطارها الخيالي الإسلامي هي رمز لقوى الشر والفساد والطغيان التي تقف حائلاً أمام كنوز الحق والخير، وتصدُّ عنها، وكيف أن

= كما تقوم المؤسسة أيضاً بإعداد مختارات أدبية عالية متميزة من (النشيد الإسلامي) لمختلف الأغراض الاجتماعية الوجدانية، وذلك لما للشعر والنشيد من أثر في بناء الجوانب الوجدانية والجمالية في النفس الإنسانية عامة، والإسلامية منها خاصة.

شجاعة طلاب الحق والخير وصمودهم وإقدامهم تهزم قوى الشر والطغيان، وأن سطوة قوى الشر والفساد هي في الحقيقة وهمٌ وسرابٌ لابد له من أن ينهزم أمام قوة طلاب كنوز الحق والحقيقة وإقدامهم وشجاعتهم.

ومن المؤسف أن تتحول خصوصيات الحضارة والثقافة الإسلامية ورموزها الأدبية بسبب جهل أبنائها وتجهيلهم؛ فتصبح مدخلاً وتربة لفكر الخرافة والشعوذة والأوهام والخيالات الكاذبة؛ التي تطلق في قلوب أبناء الأمة الرعب والخوف من موهوم عوالم قوى الجان، فتتحول الرموز الثقافية الفنية الإسلامية من خيالات ورموز أدبية إبداعية، وصور فنية، وأدوات ترفيهيه تدعم طاقات الإيمان والشجاعة، وتنمي طاقات مقاومة الظلم والفساد لدى اليافعة والشباب؛ لتصبح - بالجهل والتخلف والتلوث الثقافي - أدوات للخرافة؛ فتحيل الطاقات الحضارية الإيجابية إلى معاولِ هدمٍ وتخلفٍ، ووسائل فعّالة للإرهاب النفسي، وتعمل على تمكين أنظمة القهر والاستبداد، وتعين على ترويج صناعة كهان الخرافة والشعوذة.

أدبيات المدرسة التربوية

والاهتمام بالأبحاث والأدبيات التربوية التي توجه إلى المدرسة ودورها المعرفي التربوي، وإلى المعلم، وتعين دوره المعرفي التربوي، وتقدم له المساعدة العلميه، بالمناهج والكتب المدرسية المبنية على أفضل الأسس والوسائل المعرفية والتربوية، هو أيضاً أمر هام، لأن المعلم هو الذي يفعّل معرفياً دور الأسرة في تنمية شخصية الطفل ومعارفه وقدراته. والمعلم بطبعه يسعى لما فيه مصلحة الطالب، إذا لم يُغْلَب على أمره، وإذا يُسِّرَتْ مهمتُه، ووُفِّرتْ له الأدبيات والوسائل المطلوبة، ولذلك يجب الاهتمام بدوره ودور المدرسة ومناهجها؛ لكونها عوامل مكملة لدور الأسرة في التنشئة والتربية، وفي الإعداد والتمكين.

إصلاح التعليم العالي

ولإنجاح مشاريع الإصلاح المنهجي الفكري الثقافي، فإن من الضروري إصلاح التعليم العالي، ولاسيما الجامعات الخاصة الخيرية التي يمكن أن تتمتع بقدرٍ أكبر من الحرية والدافعية إلى التجديد والتغيير، وكذلك الجامعات التي تكون في دول تتمتع بقدرٍ من الحرية واستقلالية القرار واحترام الأداء الأكاديمي؛ ذلك لأن التعليم الجامعي هو الجهة المنوط بها إعداد (الأجهزة) المثقفة العلمية والتقنية والفنية، خاصةً في مجال العلوم العقدية والقانونية الفقهية، والاجتماعية والإنسانية. ولتحقيق هذه الغايات لا بد من إصلاح المنهجيات العلمية التي تدرس في مراحل دراسات التعليم العالي، وتوحيد هذه المناهج ومصادر المعرفة فيها وتكاملها إسلامياً وسننياً؛ حتى يبني - فعلاً - المثقفُ والمختصُّ الإسلامي البديلَ في كل مجالات المعرفة الإنسانية والفيزيائية، وحتى يمكنه أن ينتج الفكرَ والثقافةَ الإسلامية الهادفة الموحدة البديلة.

إن عالمية التواصل وماحققته من إمكانات ومن وسائل الاتصال والتعليم الإلكترونين، إلى جانب فتح المجال للتعليم أمام جهود الإصلاحيين ورجال الأعمال المخلصين ومشاريعهم تفتح المجال واسعاً للمشاركة في إصلاح التعليم العالي، وتشجيع البحث العلمي ودعمه وتحسين مستواه كماً وكيفاً، وبالتالي توفير (الأجهزة)، وتوفير الأبحاث والأدبيات التي تستجيب لحاجات الأمة، ومواجهة تحديات العصر، وتعمل على التنقية وإزالة التشوهات، والقضاء على التغريب والجمود والتمزق الثقافي[1].

---

(١) ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى أهمية تعليم كل أنواع المعرفة الإنسانية الاجتماعية والفيزيائية في البلاد العربية والتقنية باللغة العربية لكونها وجهاً من وجوه إصلاح التعليم الجامعي، لأن اللغة العربية هي اللغة الأولى للأمة العربية الإسلامية، والتي يجب إثراؤها بما حققته وتحققه الحضارة الإنسانية من الكشوفات العلمية السننية؛ وذلك أن الإبداع لا يتم إلا في اللغة الأولى، وهي في هذه الحالة اللغة العربية. لا شك أن من أسباب فشلنا في مواجهة التحدي العلمي والتكنولوجي على مدى قرنين أننا كنا وما زلنا نعلم العلوم الفيزيائية والتكنولوجية في جامعاتنا باللغات الأجنبية، وفي الحالات التي علمنا العلوم الإنسانية باللغة الأولى - اللغة العربية - لم نصل شرايين ثقافتنا ومؤسساتنا العلمية بنتاج الحضارة الإنسانية وجهودها =

إن العمل الجاد لتحقيق ما تقدم - ولاسيما الاهتمامُ السريع بإنتاج أدبيات ثقافة الأسرة المسلمة، المبنية على رؤى ومفاهيم ثقافية وتربوية إسلامية علمية سليمة، وتوفيرها بأيسر السبل، مطبوعة ومسموعة ومرئية وإلكترونية، ودفع الشباب إلى الإقبال عليها واقتنائها وقراءتها وتطبيقها - أمرٌ يجب المبادرةُ إليه، وتوعيةُ المفكرين والتربويين والمثقفين والناشرين والقائمين على شؤون التربية والتعليم، بأهميته القصوى في هذه المرحلة، ليكونَ جزءاً لا يتجزأ من اهتمامات الأمة والعناية به؛ حتى يصبح في أصل ثقافتها وممارساتها الحياتية التي تؤهلها للريادة والتقدم إن شاء الله.

= العلمية من خلال ترجمة الدوريات العلمية المهمة التي ينشر فيها الجديد من الأبحاث والكشوفات العلمية، واكتفينا بترجمة بعض الأعمال الأدبية الكلاسيكية والروايات التجارية.
إن التعليم في كل مراحله باللغة الأولى أمر مهم بشرط أن تدعمه الترجمة العلمية لكل ما يجد من أبحاث وكشوفات علمية، وذلك من خلال مؤسسات الترجمة العلمية و(كوادرها) من طلابِ وأساتذةِ الدراساتِ العليا ومراكز الأبحاث العلمية الذين يشترط حسن إعدادهم في اللغات العالمية في مجالاتهم العلمية، وذلك عن طريق توفير البرامج الاختيارية الجادة لتعليم الراغبين في دراستها وإعداد أنفسهم ليكونوا من الصفوة العلمية القادرة على القيام بالأبحاث العلمية والحصول على المادة العلمية من مصادرها العالمية، ويجب أن ندرك أنه لا جدوى من تعليم اللغات الأجنبية في التعليم العام بشكل إجباري، فإن ذلك لا يعني إلا ضياع الأموال والموارد وإهدار الطاقات البشرية.
أرجو أن نقوم بإنشاء كليات الترجمة والمؤسسات الوطنية للترجمة والنشر العلمي لإثراء ثقافة الأمة وتوسيع دائرة الثقافة العلمية حتى تصبح ذات مردود تجاري يغري رجال الأعمال بالإسهام الواسع في إثراء ثقافة الأمة، كما أرجو أن ننصرف إلى العمل والكفِّ عن الجدل البيزنطي الوهمي حول قدرة اللغة العربية على هضم المعارف والعلوم فقد قامت اللغة العربية بذلك من قبل كما تقوم به اليوم كل أمم الأرض الناهضة على الرغم من أنه ليس لها ما للغة العربية من ثراء وقدرة وبناءٍ، وعلى مجامع اللغة ووسائل الإعلام أن تقوم بدورها في بناء المصطلحات وتوحيدها وترويجها في تعليم أبناء الأمة وإعلامهم.

خطة مدرسة إسلامية المعرفة وتأصيل الفكر الإسلامي

لا يكتمل فهمنا للتيارات الفكرية في العالم الإسلامي المعاصر، كما لا يكتمل إدراكنا للجهود المبذولة للإصلاح الحضاري الإسلامي وإعادة بناء الأمة وتفعيل دورها الحضاري إذا لم ندرك طبيعة مدرسة "إسلامية المعرفة" والأهداف التي سعت - ومازالت - تسعى إلى تحقيقها، والجهود التي بذلتها خلال العقود الماضية حتى اليوم؛ لدفع الجوانب الفكرية والثقافية والتربوية في عجلة الإصلاح الحضاري الإسلامي، وهذا الإدراك يعيننا على مواصلة المسيرة و تشجيع التعاون بين مختلف الفئات الإصلاحية للتكامل من أجل إنجاح مشروع الإصلاح الإسلامي.

وعلى أي حال فإن مانذكره هنا عن مدرسة إسلامية المعرفة لايقصد منه تفصيل جوانب هذه الجهود والتجارب؛ ولكن المقصود هو إعطاء فكرة مختصرة عن أبعاد هذه الجهود والآفاق التي تتطلع إليها.

النشأة والمسار

لقد قامت هذه المدرسة على يد شبابٍ جمعوا بين الثقافتين الإسلامية والوضعية، وظهرت بواكير فكرها في نشاطاتهم وكتاباتهم وأُطروحاتهم المبكرة قبل أن يلتقي جمعهم وتتكاتف جهودهم وتتكامل أدوارهم، في مجال العمل الإسلامي، وخدمة النهضة الإسلامية، ومن هذه البواكير كتاب: (نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة)، لكاتب هذا البحث، وقد صدر عن دار الخانجي بالقاهرة عام ١٩٦٠م[١] حيث وضع

(١) كان من نتائج إدراك الكاتب لأهمية كشفه في المنهج أنه جعل موضوع بحثه العلمي للحصول على إجازة الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة بنسلفانيا بفلادلفيا هو النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية (١٩٧٣م) وفيه بسط الجوانب التجديدية في المنهج، وبرهن على قدرة هذا المنهج على التجديد الفكري في ذلك البحث، وتطوير الفكر الإسلامي في ذلك المجال، وقد قام أستاذ العلوم السياسية بجامعة الملك سعود بالرياض في المملكة العربية السعودية، الدكتور ناصر البريك، بترجمة الكتاب الى العربية ونشره.

الكاتبُ اليدَ على أسس منهج الفكر الإسلامي المطلوب، وعلى أهميته، وإمكاناته في إحياء الفكر الإسلامي المعاصر. وقد تحولت رؤى هؤلاء الشباب إلى برنامج عمل حين تلاق رعيلهم الأول الذي قَدِمَ في بعثات علمية للدراسة المتخصصة في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، طلاباً في أقسام الدراسات العليا، وذلك في الستينيات من القرن المنصرم، ضمن موجة البعثات الدراسية إلى الولايات المتحدة من بلاد العالم الإسلامي ودوله الحديثة العهد بالاستقلال والتحديث. وكان بداية اجتماع هذه المجموعة هو العمل على إنشاء مؤسسات طلابية ثقافية إسلامية، تحتضن الشباب المبتعث في غربته الدينية والثقافية والاجتماعية؛ بهدف الحفاظ على هوية الشباب المسلم المبتعث، حمايةً لعقيدتهم وولائهم، وتوجيهاً لطاقاتهم وجهودهم، بما يعين على خدمة أمتهم وتحقيق غاياتها وتطلعاتها بإذن الله.

ومن خلفية هذه المجموعة من الشباب، وبحكم اتساع أفقهم الثقافي، فقد أدركوا أهمية البُعد الفكري في أزمة التخلف العلمي الحضاري للأمة، وأدركوا أهمية إعادة تأهيل الأمة بإصلاح مناهج فكرها وتنقية ثقافتها، وتطوير مناهجها التربوية، وأساليبها التعليمية؛ لتنمية الطاقة النفسية الوجدانية، والقدرة المعرفية والتكنولوجية اللازمة لحمل أعباء مشروع الإصلاح الإسلامي والتغيير الحضاري(١).

بهمة هؤلاء الشباب ورؤيتهم تكوَّن أولاً في عام ١٩٦٣م اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا (MSA of the US and Canada) وأصبحت هذه الجمعية الطلابية خلال عقد واحد من الزمان، أكبر جمعية ثقافية

---

(١) يحلو لبعضهم جهلاً أو تجاهلاً التساؤل عن كيف يمكن أن تكون هناك علوم ورياضيات إسلامية وعلوم ورياضيات غير إسلامية؟ والجواب أن المقصود بإسلامية العلوم والتقنيات هو ما يتعلق بفلسفة العلوم وبالغايات والأهداف من العمل في هذه المجالات، وسبل توجيهها، والاستفادة منها إيجابياً وبروح المسؤولية الاستخلافية؛ ولا تكون مطلقاً أداة للقهر والظلم وتدمير البيئة وإهدار الموارد.

طلابية إسلامية في الغرب، ضمت في عضويتها ألوف المثقفين من كل أبناء العالم الإسلامي المبتعثين في الغالب الأعم للدراسة العليا، وانبثق خلال هذه الفترة عن اتحاد الطلبة المسلمين عدد من الجمعيات المهنية العلمية الإسلامية المتخصصة، وأهمها (جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين) التي تأسست رسمياً عام ١٩٧٢م، وكان القصد من هذه الجمعية جمع جهود الطلبة الإسلاميين من طلاب الدراسات الاجتماعية والإنسانية؛ لتوظيف معارفهم ومهاراتهم العلمية في تأصيل الفكر الإسلامي، وإصلاح مناهجه، والعمل على إنشاء علوم اجتماعية وإنسانية إسلامية، تُبنى على مقاصد الشريعة وثوابت الإسلام ومفاهيمه ومنطلقاته، وخلق لغة علمية مشتركة مع طلاب العلوم الاجتماعية والإنسانية المعاصرة؛ فقد غلبت على الكتابات الإسلامية الروح الدفاعية والدعاوى الجزافية؛ بسبب افتقاد التخصص العلمي والسطحية العلمية لدى جُلِّ الكُتَّاب في المجالات الإسلامية، مما أَوْجَدَ هوةً وجفوةً بين رجال الفكر الإسلامي، ورجال الإصلاح الإسلامي، وطلاب الدراسات الاجتماعية الغربية المعاصرة من ناحية، ومن ناحية أخرى رجال الحكم والصفوة السياسية ودعاة التغيير والتطوير والتحديث؛ بسبب تكوينهم الفكري التغريبي ومسؤولياتهم العملية.

وفي العقود اللاحقة استقر عدد كبير من المبتعثين المسلمين في الولايات المتحدة، كما تدفقت هجرة واسعة للعقول المسلمة إلى أمريكا بسبب تدهور الأحوال السياسية والاجتماعية في كثير من البلاد الإسلامية، فانبثق عن اتحاد الطلبة المسلمين: (الجمعية الإسلامية لشمال أمريكا) (Islamic Society of North America - ISNA) عام (١٩٨٠)، وكان الهدف من ذلك هو خدمة الثقافة والهوية الإسلامية للجالية في أمريكا الشمالية وكندا.

ومع مطلع القرن الخامس عشر الهجري (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) قام (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) مؤسسةً علميةً ثقافيةً إسلاميةً متخصصةً مستقلةً، تعمل على خدمة الفكر الإسلامي وإعادة بنائه المنهجي المعرفي، وتنقية الثقافة

الإسلامية على أسس إسلامية علمية سليمة بإزالة ما أصاب رؤيتها الكلية من تشوهات، بعيداً عن فكر الخرافة والشعوذة، وإعادة بناء النفس الإسلامية، وتحريرها معرفياً ونفسياً ووجدانياً، واستعادة بعدها الجماعي، وطاقتها العمرانية الحضارية الإبداعية، وهي في ذلك كله تتعاون وتتكامل مع جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في خدمة الفكر والثقافة الإسلامية.

لقد قطع المعهد العالمي للفكر الإسلامي - في سبيل إعداد الساحة الثقافية والأكاديمية للقيام بدورها في إعادة بناء منهج الفكر الإسلامي، وتنقية الثقافة الإسلامية - شوطاً مهماً، أساسُه وقاعدتُه الإصلاحُ المنهجي، وتكاملُ مصادر المعرفة الإسلامية. ولم تعد المعرفة الإسلامية في مفهوم مدرسة إسلامية المعرفة مجرد معرفة مدرسية استظهارية، بل أصبحت معرفة شمولية متجددة (process) تعنى بالحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والعلمية، وتسبر غور الطبائع، وتهدي المسيرة الإنسانية الحضارية، على ضوء ثوابت الوحي الرباني الإسلامي وقيمه وغاياته السامية.

وقد أصدر المعهد ما يزيد على الثلاثمائة وخمسين كتاباً حتى اليوم في مختلف ميادين العلوم الدينية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية، وعُنِيَ - وما يزال يُعْنَى - بمعالجة كيفية التعامل مع القرآن الكريم والسنة النَبوية، وكيفية التعامل مع التراث، وكيفية التعامل مع الفكر الغربي، وكيفية التعامل مع علوم السنن في الحياة والكون، إلى جانب معالجة قضايا مناهج الفكر وسبل تفعيل الفكر الإسلامي، وتسخير مصادره؛ لبناء العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية والتربوية والاقتصادية الإسلامية[(١)].

كما نظم المعهد لذات الغرض مئات المحاضرات والندوات والمؤتمرات

---

(١) لتكوين فكرة مناسبة عن «إسلامية المعرفة وطبيعة النظام المعرفي الإسلامي ومنهجه المعرفي وتميزه وتكامل مصادره المعرفية في الوحي والعقل والسنن» انظر كتاب «إسلامية المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل» وكتاب أزمة العقل المسلم للمؤلف الصادرين عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن، فرجينيا - الولايات المتحدة والدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، المملكة العربية السعودية ١٤١٢هـ.

العلمية في عدد كبير من الحواضر العلمية في مختلف بلاد العالم، وسخّر لذلك عدداً من المكاتب الثقافية التابعة له، أو المتعاونة معه، من أجل إيصال رسالة المعهد وطرح قضايا الثقافة الإسلامية، وإشكالات الفكر الإسلامي، وسبل إصلاحه أمام المفكرين والمثقفين والأساتذة الجامعيين، في مختلف ميادين العلوم والمعارف والاختصاصات.

وأصدر المعهد العالمي للفكر الإسلامي لخدمة الأقلام الإسلامية في قضايا إسلامية المعرفة، وإصلاح مناهج الفكر الإسلامي، وبناء العلوم الاجتماعية الإسلامية، دوريتين عالميتين: إحداهما باللغة العربية (مجلة إسلامية المعرفة)، والأخرى باللغة الإنجليزية (المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية، American Journal of Islamic Social Sciences - AJISS) عدا ما يصدر عن بعض مكاتب المعهد والمكاتب المتعاونة معه من نشرات ودوريات محلية.

المؤسسات المتخصصة في دراسات الطفولة ورعايتها

وإذا كان دور إسلامية المعرفة، ودور المؤسسات الثقافية والفكريّة، ومؤسسات البحث الأكاديمي والتعليم العالي أساسياً في إعادة بناء الساحة الفكرية، وتأهيل العقل المسلم، وحل الإشكالات المنهجية، وتنقية الثقافة وبناء (الأجهزة) الثقافية والعلمية المؤهلة إسلامياً وعلمياً حتى تؤدي دورها في مواكبة المتغيرات، وتمد الأمة بالخبرات والقدرات، فإنّ الحاجةَ أيضاً ماسةٌ وعاجلةٌ إلى نشاط علمي تربوي مركز في مجال قضايا التربية الاسلامية، يؤدي إلى إمداد الأمة والآباء والمدرسين وقادة الرأي العام والمسؤولين بالأبحاث والأدبيات التي توضح الرؤية، وتوفر الخبرة، والوسائل المطلوبة الضرورية لمواجهة المتغيرات والتصدي للتحديات، وتبصر الآباء والمعلمين والمسؤولين بالجديد والفعّال؛ بهدف تحسين نوعية الناشئة وجدانياً ومعرفياً، ورفع مستوى أدائها.

إن البحوثَ المتخصصة في شؤون التربية والتعليم حلقةٌ مهمة وأساسية لإنجاح جهود الإصلاح، لأن عدم القدرة على تنمية الفكر التربوي، وتوطين

وتطوير الوسائل والمناهج التربوية اللازمة لبناء الناشئة القادرة على مواجهة التحديات المتلاحقة، وعلى ضوء الظروف المتغيرة، والإمكانات المتعاظمة، وتخلف الفكر التربوي ومناهجه التربوية؛ هو من أهم المعوقات في سبيل إنجاح جهود الإصلاح والتغيير، ووأد بذور رؤاها الفكرية والثقافية؛ حيث ينتهي المشوار بتهميش فكر الإصلاح ورجاله على النحو الذي شاهدناه في متأخر تاريخنا الثقافي والحضاري. وعلى الرغم من أن عدداً من قمم الفكر الحضاري الإسلامي تبينوا كثيراً من وجوه العجز والقصور والتشوه في فكر أمتنا ونادوا بإصلاحه، وقدموا رؤى مهمة للإصلاح، إلا أن جهودهم لم تثمر الثمرة المطلوبة، في تبني هذه الرؤى، وتوظيفها لخدمة الأمة، وتوليد الطاقة لإحداث التغيير والإصلاح المطلوب، وما ذلك إلا لأن الطفل والجانب التربوي المتعلق به وبالمرأة كان بعداً غائباً في الرؤية والخطاب الإصلاحي الإسلامي، وكان دور الطفل والمرأة في أداء المجتمع والتغيير الاجتماعي غائباً في هذا الفكرُ وفي منطلقاته الإصلاحية.

وإبرازاً لأهمية الجانب التربوي، ودوره في الإصلاح الإسلامي، ولإعلان حملة جهادية إسلامية تربوية؛ لتجنيد الطاقات الفكرية اللازمة لخدمة الفكر التربوي والتغيير والتجديد الاجتماعي، وبناء مؤسسات متخصصة علمية بحثية تربوية، تعمل على خدمة الأبحاث والدراسات، وتوفر الأدبيات العلمية، في مجال تربية الناشئة، وخدمة مؤسساتها فقد أسهم (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) في هذا الاتجاه - إلى جانب تجربة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا - بإنشاء مؤسسة إسلامية بحثية تربوية مستقلة لهذا الغرض في الولايات المتحدة الأمريكية أسماها (مؤسسة تنمية الطفولة) مهمتها - ضمن إطار المعهد العالمي للفكر الإسلامي - خدمة قضايا الطفل المسلم التربوية، وهدفها التوعية بهذا المجال، وإبراز أهمية بذل الجهود التربوية التي تخدم أهداف التغيير والإصلاح الإسلامي الاجتماعي المنشود، وجعلها بين أيدي الدارسين والمربين.

مؤسسة تنمية الطفولة

أنشأ المعهد العالمي للفكر الإسلامي مؤسسة متخصصة في شؤون التربية وتنمية الطفولة هي (مؤسسة تنمية الطفولة Child Development (CDF) Foundation).

ويقف المعهد والمؤسسة اليوم أمام قضية الإصلاح التربوي، والتغيير في الجذور الاجتماعية، وإعداد العدة اللازمة لتحقيق ذلك، بإعادة بناء الرؤية الإسلامية الإيمانية التوحيدية الاستخلافية الأخلاقية، وبناء العقلية العلمية الإسلامية، وتنقية الثقافة والتراث من مدسوس الخرافة والشعوذة، وحماية العقل المسلم من سوء استعمال ما ورد من لمحات نصية عن عالم الغيب، وما جَنَّ[1] من عوالم الكون، وما سلف فيما سبق من مراحل الإنسانية وعصورها من معجزات الرسل؛ بحيث لا تصبح تلك اللمحات موضعاً لسوء الفهم والتأويل على غير ما تقتضيه مقاصد الشريعة وكلياتها، وما بلغته الإنسانية من نضج وقدرة ومسؤولية، وتتحول بذلك إلى مدخل لتشويه ثقافة عامة الأمة وعقليتهم من قبل الأفَّاقين والمحتالين والمشعوذين وأعداء الأمة، ومن قبل الجهلة والمرضى والمغفلين؛ الذين يحسب جلهم أنهم يحسنون صنعاً بما أركسوا الأمة فيه من الضعف والجهل والسلبية.

في هذه المرحلة الهامة لابد من أن تهدف الدراسات المنهجية الأكاديمية إلى إنجازات تطبيقية، وتجعل من مقاصد القرآن الكريم وكلياته ومبادئه ومفاهيمه ضابطاً للفكر الإسلامي، وحارساً للعقل المسلم من الانحراف والخرافة والقصور، ودافعاً إلى العمل والاجتهاد والجهاد وإحسان الأداء، في سبيل إقامة مجتمع العدل والكرامة والإحسان، وحضارة الأخلاق والعلم والعمران.

لم يكن لكثير من السلف في عزلته وسيلة للتعامل مع المجتمع إلا من خلال النصوص؛ فتوسع في تحصيلها، وتساهل في رواياتها وتأويلاتها، واغراه في

(١) جَنَّ: أي استتر وخفي.

ذلك الصبغة النظرية للمعرفة، وعدم نضج العقل بعلوم السنن الاجتماعية والكونية، وغيبة مناهج التعامل معها، ومعرفة كنه أسرارها، والغايات التي توخاها الوحي في توجيهها، أما اليوم فإن الحال يختلف عما كان عليه من قبل؛ حيث إن العقل المعاصر - بإتقان مناهجه وسننية بحثه، وتيسير وسائل عمله - تحققتْ له إمكانات شموليةٌ مقارنةٌ لم تتيسر للإنسان والبحث العلمي من قبل، ولذلك فإن العقل المسلم - على ضوء التحديات التي تواجهها الأمة المسلمة، وبإمكانات العصر العلمية - يمكنه بعد جمود وانقطاع طويل تجديد النظر والبحث والدرس لتحرير دراساته بشأن الثوابت والمتغيرات، وأخذ صادق العبر والدروس من تاريخ الأمة؛ وذلك بالاستفادة من كل ما يسهم في بناء الحضارة ورفع رايتها إيجابياً، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى بالتنبه إلى كل مايسهم في تخلف الأمة والحضارة وتراجعهما سلبياً، والعمل على التخلص من آثاره.

إن على هذا العقل المسلم الاستفادة من التراث الحضاري الإنساني الذي بين يديه في كل مجالات المعرفة الإنسانية، في العلوم الاجتماعية والإنسانية والفيزيائية والخبرات الحضارية والعمرانية، وعلى العقل المسلم المعاصر أن يعي الدرس الذي دفع السلف ثمنه غالياً حين تفاعل سالف العقل المسلم مع سالف التراث والفكر الإنساني الحضاري، ولاسيما الفكر الفلسفي الإغريقي، ولكن بشكل عفوي عشوائي، ودون منهجٍ علمي سليمحتى لا ينتهي به تفاعله العفوي العشوائي إلى متاهات الفلسفات الإنسانية الميتافيزيقية؛ التي أنهكت طاقة العقل المسلم فيما لا فائدة من ورائه، وأدت إلى تمزيق نسيج وحدة الأمة، وصرفها إلى التهويمات الغيبية الظنية، بعيداً عن جهاد الإحسان والإتقان الإسلامي في قصد الخير، وبناء الحياة في دار الشهادة والاستخلاف.

ولذلك فإنّ المنهج الكلي الذي يدرك مقاصد كل منظومة حضارية وخصائصها وغاياتها ورؤيتها الكونية هو المنهج الذي يجب أن يتسلح به العقل المسلم المعاصر في تعامله مع منظومة الفكر والحضارة الغربية، ذلك

المنهج الذي يقي العقل المسلم من مخاطر الغزو الفكري، والتدمير الحضاري؛ الذي كان أحد أهم الأسباب التي أجهضتْ النهضة الإسلامية الحضارية الأولى، وبَطَّأَتْ تروسَ عجلاتها -ومازال- حتى عطلتها عن الدوران والعطاء.

لاشك أنّ اعتماد المناهج الفكرية السليمة، واعتماد العقلية السننية المتدبرة الناقدة؛ التي تهدف إلى إعادة بناء العقل المسلم، والعقلية العلمية، وإعادة بناء الثقافة والشخصية الإسلامية؛ حتى تصبح على مستوى تحديات العصر وإمكانات أدائه، أمرٌ يجب أن يكون في أولوية اهتمامات رجال الفكر والثقافة المسلمين، ويحتاج منهم إلى صفات أولي العزم في البذل والصبر والمثابرة، خاصة في مواجهة تعويق ردود فعل من قصَّرَتْ بهم ثقافتهم وتجربتهم عن إدراك غايات هذه الجهود، وجسامة التحديات التي تواجه هؤلاء الرواد، وطاقاتِ الإمكانات التقنية المتاحة أمامهم؛ التي يجب ألا تهدر فرصها في خدمة الأمة والإسلام.

سيكون هناك كثير من المثقفين على جانبي الطريق الذين تؤهلهم ثقافتهم وإدراكهم لمعرفة أبعاد التغيير المطلوب ومقاصده ووسائله، وعلى هؤلاء أن يتحلوا بالشجاعة، وينزلوا إلى الساحة، ويشمروا عن ساعد الجد، فهم رجال العمل في هذه المرحلة، وعليهم أن يُعِدُّوا الجيلَ الجديدَ القادرَ بمؤهلاته المعرفية والنفسية ليكون قادراً على حمل الرسالة، ورفع الراية، ومتابعة المشوار.

تجربة إسلامية المعرفة في إعداد (الأجهزة) البديلة

وتجربة إسلامية المعرفة في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا (١٩٨٨-١٩٩٩م) وخطط إعداد الأجهزة الثقافية والعلمية والأكاديمية الإسلامية فيها تعدُّ تجربة علمية عملية رائدة في هذا الاتجاه، برهنت على نجاح التجربة، وعلى إمكانات عطائها الفكري الإصلاحي الإسلامي.

فقد عهد بالتجربة إلى أحد مؤسسي المعهد العالمي للفكر الإسلامي مما

جعل لهذه التجربة بالنسبة لمدرسة إسلامية المعرفة أبعاداً مهمة، حيث كانت تطبيقاً لمفهوم إسلامية المعرفة ومنهجيتها ونتائج تجربتها[١].

ومؤسسة تنمية الطفولة (CDF) أو تنمية (الناشئة) هي مؤسسة متخصصة في شؤون تربية الطفل وتنميته، حيث إن المقصود بالطفولة معناها الشامل الأعم الذي يبدأ من لحظة الحمل حتى نهاية مرحلة المراهقة، وبلوغ الرشد، وصلابة العود، واستقرار تكوين الشخصية الإنسانية نفسياً ووجدانياً، ويصبح الفرد مؤهلاً لحمل المسؤولية الاجتماعية، وبذلك تمتد الطفولة بشكل عام حتى نهاية مرحلة التعليم العام وبدء النزول إلى سوق العمل، أو الالتحاق بمؤسسات التعليم العالي، حيث يصبح الفرد مسؤولاً عن نفسه، فينطلق الفرد - في جُلِّ الأحوال - عن بيت الأسرة ومحيط النشأة، مؤذناً بصلابة العود، واستقرار الشخصية، واستقلال الأداء.

ومن المهم أن ندرك أن عمل (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) وعمل (مؤسسة تنمية الطفولة) ضمن تجربة (مدرسة إسلامية المعرفة) هما عملان متكاملان؛ لأن الإصلاح الثقافي والإصلاح التربوي هما بدورهما متكاملان، فإذا كان عمل المعهد مستغرَقاً في ساحة العمل الفكري المنهجي وتنقية الثقافة، فإنَّ عملَ المؤسسة - بالتعاون مع المعهد - عملٌ تربويٌّ؛ يهدف إلى توظيف الإصلاحات الثقافية، في أصل بناء شخصية الإنسان المسلم الوجداني في مرحلة الطفولة بالأساليب التربوية الفعّالة.

(١) لإدراك بعض أبعاد التجربة وخلفيتها الفكرية يمكن الرجوع إلى مطبوعات المعهد العالمي للفكر الاسلامي وإلى بعض أعمال الكاتب في (نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة) (١٩٦٠)، (النظرية الإسلامية في العلاقات الدولية: اتجاهات جديدة في الفكر والمنهجية الإسلامية) (١٩٧٢م)، (السياسة والحكم) قدم إلى اللقاء العالمي الثاني للندوة العالمية للشباب الإسلامي ١٩٧٣م ونشر في أعمال ذلك اللقاء و(إسلامية العلوم السياسية) قدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي بمكة المكرمة ١٩٧٧م، و(إسلامية المعرفة: منهج جديد لإصلاح المعرفة المعاصرة) قدم إلى المؤتمر العالمي الثاني لإسلامية المعرفة بإسلام آباد - باكستان (١٩٨٢م) والمنشور في أعمال المؤتمر الصادر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وكذلك كتاب (إسلامية المعرفة: الخطة والإنجازات) الذي حرر أصله الشهيد=

إن الأسلوب العلمي الفعال؛ الذي يخدم الإصلاح والتغيير؛ الذي يجب أن يبذل في سبيله أقصى الجهد، في هذه المرحلة من مراحل حياة الأمة؛ التي تعاني فيها من قصور الطاقة الوجدانية اللازمة لتحقيق الآمال والأهداف التي تتطلع إليها الأمة، إنما يكمن في الجهود التربوية التي تستثمر الرؤية الاجتماعية السليمة، وتغرس الرؤى والقيم والمبادئ الصحيحة، وتعمل على توازن الجوانب الفردية والجماعية في الشخصية الإسلامية، وتنمي فيها الشجاعة الأدبية، وتبني في أساسها العقلية العلمية، وتشعلُ - مع مطلع مرحلة الطفولة - روحَ المبادرة والحاسة النقدية الإبداعية، وتتعهدها بالصقل والتهذيب في مراحلها المختلفة. والسبب في ذلك أن الإصلاحات الثقافية العقدية والفكرية لا تؤتي ثمارها إلا إذا تم غرسها تربوياً في أصل كيان طفولة الإنسان؛ لتصبح هذه الإصلاحات وما تشتمل عليه من قيم وآمال وتطلعات هي لغته الوجدانية الأولى، وأصل تصوراته وانفعالاته ودعائم بناء شخصيته، فتكون معدنَه ونقشَ الحجر على صفحة روحه ووجدانه؛ فلا يرى إلا بها، ولا ينفعل إلا من خلالها، ولا يدرك سواها، ولا يأتي فعله وتصرفه تجاه ذاته ومجتمعه وأمته إلا بدافع منها، وعلى شاكلتها، فيقول ما يفعل، ويفعل ما يقول.

إن الخطابَ والوعيَ المعرفي الموجه إلى الفرد البالغ؛ الذي تُبسَط أمامه تطلعاتُ الأمة، و تُشرَح له حاجاتها وتحدياتها، و تستصرخه آمالها وآلامها، ما لم يكن لذلك الخطاب أصل في تكوين الفرد النفسي وبنائه الوجداني في طفولته، يصبحُ لغةً ثانيةً ليست هي لغة التصور الأصيل، والانفعال الحق، والوجدان الصادق، وهي لغة أشبه ما تكون آثارها في أعماق نفس الفرد وانفعالات وجدانه وأولويات كيانه "كالنقش أو الخط أو الرقم على الماء"، ينتهي أثرها بانتهاء الخطاب والخروج من صحون المساجد وقاعات المحاضرات؛ لتعود جُلُّ النفوس إلى أصل ما طبع في وجدان طفولتها، وهي في أمتنا اليوم كثيراً ما تتسم بالخوف والرهبة والسلبية وضعف الإرادة، وتتشح بالجبن والشح والنفاق.

= الدكتور إسماعيل الفاروقي رحمه الله. وأصدره المعهد العالمي للفكر الإسلامي بعد الإضافات والتعديلات التي أدخلها الكاتب باللغتين العربية والإنجليزية، و(أزمة العقل المسلم) للكاتب (١٩٨٦م) إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي. والدار العالمية للكتاب الإسلامي بالرياض ١٩٩٢م.

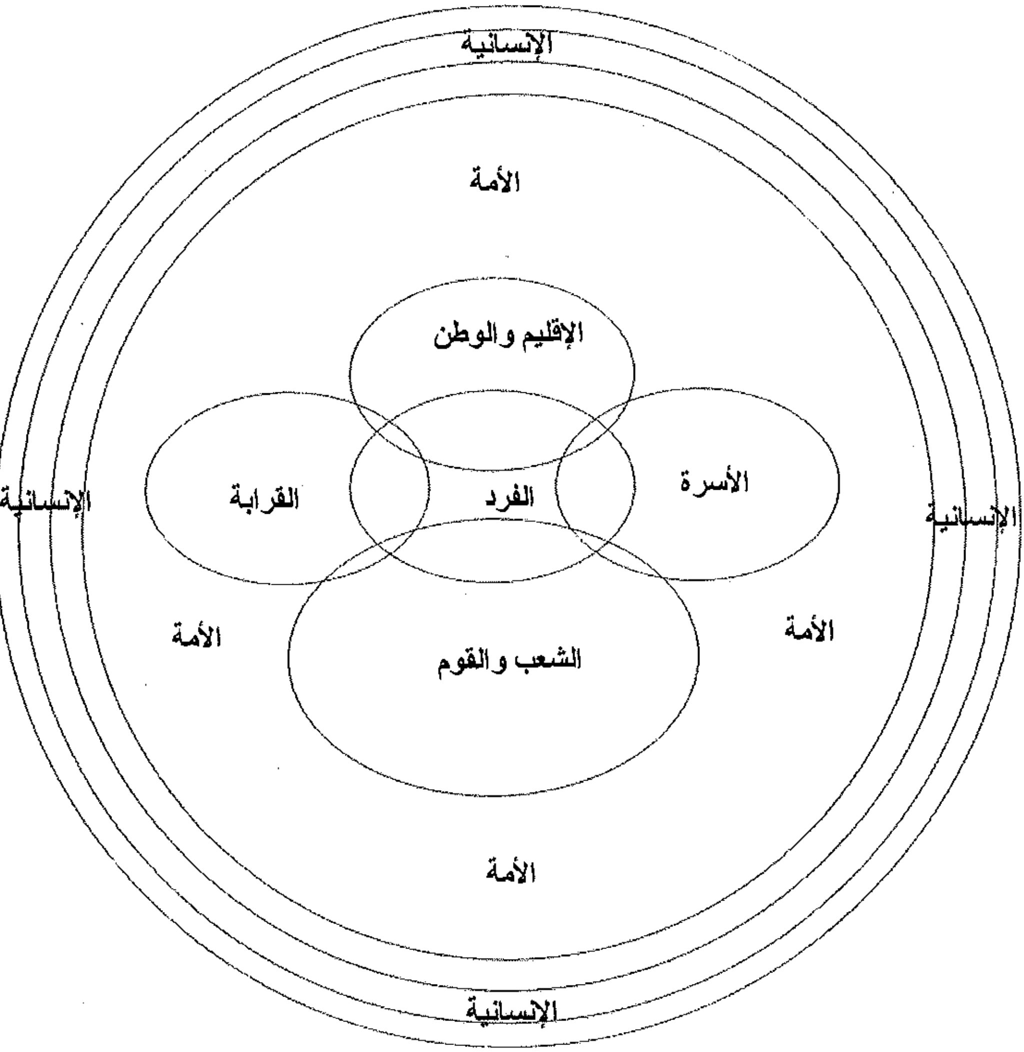

خارطة مفهوم العلاقات الإنسانية الإسلامية
تداخل وتراحم إنساني حضاري
دوائر متداخلة

الشكل (١٠)

وإذا كانت الخطوة الأولى هي إسلامية المعرفة بإصلاح مناهج الفكر وتنقية الثقافة، وإذا كانت الخطوة الثانية هي العمل على إصلاح بناء الأسرة وعلاقات الأزواج - الوالدين - على أسس إسلامية سليمة من الحب والثقة والأمن، وتوفير المحضن التربوي المطلوب لتنشئة الطفل المتكامل الشخصية، القوي القادر الأمين، فإنّ الخطوة الثالثة هي التوعية التربوية التي تحول إمكانات الأسرة من معين الحب والثقة والأمن إلى منهج تربوي إيجابي فعّال، يأخذ بيد الطفل ويرعاه لتنمية قدراته ومواهبه، وتكوين عقليته العلمية ووجدانه الاجتماعي الحي، وتكون الخطوة الرابعة توفير الوسائل العلمية والتربوية للمدرسين لمساعدتهم على أداء مهمتهم؛ ويتم ذلك بتزويدهم بكل جديد ونافع في المجال التربوي، وإنتاج الأدبيات التي تعينهم وتعمق مداركهم، كما توفر لهم المناهج المعرفية التربوية التي تقدم لهم المعارف والعلوم المناسبة لكل مرحلة من مراحل الطفولة، وتدعم القيم والمفاهيم والسلوك المرغوب في كل مرحلة، فلا يقدم للطفل ما يضر ببنائه النفسي وحسه الوجداني الفردي والجماعي، كما يجب الحرص على أن تُقدم المادة العلمية بأسلوب تربوي عملي، يؤدي إلى غرس العقيدة السليمة، والقيم الأخلاقية، والممارسات الاجتماعية الحميدة، والطاقات الوجدانية الحية، والمناهج العلمية، والقدرات المعرفية المتميزة. هذه الخطوات الأربع لا بد من أن تكون متلازمة متوازنة متزامنة مع استعادة البعد الغائب في التجديد والتغيير في تاريخ فكر الأمة، وجهادها الحضاري، وأن تُشَكِّلَ البعدَ التربوي الأساسي للطفل تأسياً بالخطاب النبوي التربوي الكريم للطفل.

والهدف من إنشاء (مؤسسة تنمية الطفل) هو أن تمثل نموذجاً متخصصاً في العمل التربوي لخدمة الأسرة والمعلم، مهمته العمل على توعية المثقفين والمفكرين والتربويين والعاملين الإسلاميين وجمهور الأمة بأهمية الطفل، وبالدور التربوي المطلوب منه وله، وتقديم العون والتشجيع والمنابر اللازمة للمفكرين والتربويين ورجال البحث العلمي لخدمة هذا المجال المهم بشكل فعَّال، كما تهدف المؤسسة إلى إنتاج أعمال رائدة من الأدبيات التربوية،

وتشجيع الآخرين على إنتاجها، وإنتاج وسائلها لتحقيق تلك المهمات، وذلك عن طريق المحاضرات، والندوات، والمؤتمرات، والدوريات، والكتب، ووسائل النشر، والإعلام الإلكتروني المرئي والمسموع على حدٍّ سواء.

ومن أهم مايبذله المعهد والمؤسسة من الجهد في هذه المرحلة، ويتعاونان على تحقيقه بجهود علمية تربوية متقدمة، هو العمل على إنضاج هذه المجالات الثقافية والتربوية، وصولاً إلى إنتاج مناهج وكتب دراسية ودورات تدريبية لمختلف مراحل التربية والتعليم، تنبني - بأسس علمية - على الرؤية القرآنية الكونيَّة الصحيحة، والثقافة الإسلامية السليمة، في مختلف مجالات المعرفة، ومراحل التعليم، ولاسيما مجالاتُ العلوم العقدية والثقافية والاجتماعية، ومجالات النشاطات وتربية المواهب والقدرات.

وما تأمله خطة عمل (مؤسسة تنمية الطفل) لاستكمال مشروعها النموذجي هو العمل - في الوقت المناسب - على إنشاء مؤسسه تعليميه عالميه تقوم على أساسها سلسلة من المدارس الإسلامية العالمية، لتكون نواة فلسفتها ومناهجها وأساليبها، ونموذجاً لتفعيل دور الأسرة والمدرسة، ومساعدتهما على أداء دورهما، فهي مدارس لايرجى أن تقف برامجها في عملها عند حد الطفل ونشاطه داخل أسوارها، وفي ساعات الدوام المدرسي فحسب؛ بل هي مدارس يمتد أثرها واهتمامها وعناياتها إلى الأسرة ومفاهيمها التربوية، فهي تقدم للآباء والأمهات أدبيات تربوية، ودورات تدريبية، تضمن بها فعالية العملية التربوية وجدانياً ومعرفياً، وهي تؤهل الأسرة قبل أن تؤهل الطالب، لأن نجاح البرنامج التربوي لا يتوقف على أداء الطالب وحده فقط؛ بل إنه يتوقف قبل ذلك على أداء الأسرة، فليس في نظام المدرسة التربوية موضعٌ لأسرة لا تؤدي دورها، ولا تتعاون مع المدرسة في إنجاح مهمتها وحمل رسالتها.

وتبني المؤسسة المنشودة خططها التربوية، ومناهجها التعليمية، ونشاطات

مدارسها في المجالات الوجدانية والثقافية والعلمية والبدنية على أساس من الرؤية الكونية القرآنية السليمة، والقدوة النبوية، والثقافة الإسلامية الصحيحة النقية، وتعنى بالبناء النفسي والوجداني والمعرفي، في تكاملٍ وتناسقٍ، يوظف المجالات والمراحل كافة لأداء المهمة التربوية المطلوبة. إن غاية هذه المناهج وهذه المدارس حماية النشء المسلم من كل ما يشوه العقيدة، ويشوه العقلية العلمية، ويشوه الوجدان المسلم، وإغلاق الساحة أمام فكر الخرافة والشعوذة، وكل ما يؤدي إلى ضعف النفوس والقدرات والأحساس بالعجز وقلة الحيلة.

المدارس الإسلامية العالمية

لقد بدأ المعهد العالمي للفكر الإسلامي هذا المشوار من خلال تجربة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، فقد أقامت الجامعة مركزاً لأبحاث مناهج التربية والتعليم العام، والعمل على بناء مدرسة نموذجية تابعة للجامعة، وقام المركز - من خلال عدد من أساتذة التربية المختصين، وعلى ضوء الخطة التي تم رسمها، وبإشراف مباشر من إدارة الجامعة، وبالتعاون مع عدة لجان متخصصة من الأساتذة الجامعيين في مختلف المجالات الأكاديمية - بوضع مسودات أولية لمناهج تربوية لمختلف مراحل التعليم العام، وتم فعلاً إقامةُ مدرسة تابعة للجامعة تشتمل مختلف مراحل التعليم العام، نُفِّذَتْ فيها تلك المناهجُ التي يُرجى أن تستمر على النمط والغايات التي أقيمت من أجلها، وأن يستمر مركز الأبحاث التربوية في تطوير تلك المناهج، وأن ينجح في تأليف كتب منهجية كاملةٍ على أساس تلك المناهج التربوية المطورة.

وليكتمل مشروع إسلامية المعرفة وإصلاح مناهج الفكر الإسلامي في خدمة مشروع الإصلاح الإسلامي الحضاري، فإنّ من المهم أن يعمل المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومؤسسة تنمية الطفل ومؤسسة المدارس الإسلامية العالمية تحت مظلة اتحادٍ عامٍّ لمؤسسات الفكر الحضاري الإسلامي، والتعاون مع المراكز الفكرية الحضارية المختلفة التي تعمل لذات الهدف.

ومن المهم لمشروع إسلامية المعرفة الأكبر - من خلال من يتبنون رؤيته ومناهجه في أي مكان من العالم - حتى يستكمل مهمته في إرساء القواعد الفكرية والمنهجية والثقافية لمشروع الإصلاح الإسلامي الحضاري، أن تمتد جهوده العلميه إلى المرحلة الثانية من مراحل التطوير الفكري الحضاري، وذلك بأن يوظف إصلاحه الفكري الثقافي المنهجي بشكل فعّال، ويتبلور في دراسات وكتب منهجية، ومن خلال دوريات علميه في مجال الدراسات الاجتماعية والإنسانية والاقتصادية والإستراتيجية، من منظور إسلامي، كما يجب أن يشمل نشاطات مؤسساته العلميه بشكل خاص مجال فلسفة العلوم ورصد النشاط العلمي والتكنولوجي، وتوجهاته الحضارية، وتقديم الرؤية الإسلامية فيها، كما يجب أن يتولى الباحثون دراسة قضايا حقوق الإنسان المسلم وقضاياه العادلة، والدولية، والاهتمام بها، وتقديم الدراسات والمعلومات الصحيحة عنها، ووضعها بكل صدق وأمانة أمام الأمة والقيادات، ووسائل الإعلام، دفاعاً عن الإنسان المسلم وقضايا الأمة، وحقها وحق شعوبها في العيش الكريم، وخدمةً لدورها الحضاري، ورسالتها العالمية في خدمة الإنسان والإنسانية.

وللقيام بكل هذه الأبعاد الحضارية يجب العمل الدؤوب - من قبل المؤمنين في كل موقع ومكان في العالم - برسالة إسلامية المعرفة ومناهجها الفكرية، والمؤمنين بقدسية رسالة الأمة، ووجوب العمل من أجل الإسهام في نهضتها - تغطيتها بشبكة من المراكز والمؤسسات المتعاونة لذات الغاية وبذات الرؤية، وعلى ذات المنهج؛ لتتكامل نشاطاتها فيما بينها، وتقدم الرؤى الإسلامية السليمة لجماهير الأمة، و(لكوادر) العاملين في مختلف نشاطات مشروع الإصلاح الإسلامي الحضاري وممارساتهم، وعونهم، وتبصير جهادهم الحضاري لخير الأمة والإنسان.

في زحمة القضايا الكثيرة التي عالجها هذا الكتاب والتفاصيل الجمة التي تعرض لها في كل قضية، والتي يحتاج بسط جوانبها إلى إلى مجلدات كثيرة تغوص في بطون الكتب والتاريخوواقع الأمة، وفي ضوء العديد من التفاصيل والرؤى التي قد يختلف الناس بشأن بعضها، انطلاقا من الزاوية التي ينظر كل واحد منها اليها؛ فقد كان من المهم أن يبقى أصل القضية الكبرى وجوهرها واضحا أمام القارئ، بحيث لاتحول التفاصيل بينه وبين تتبع مسار الأزمة، ومعرفة الآثار الكبرى الناجمة عنها، والتي لاتزال الأمة تعاني منها إلى يومنا هذا.

لذلك فقد توخينا أن نضع في نهاية الكتاب أمام القارئ لمزيد من الوضوح والتركيز عددا من الرسوم والعبارات التوضيحية (١١ -١٧) التي تعين على تتبع جوهر القضية بعيدا عن التفاصيل، وتكشف في إيجاز وضع مسار الأزمة، وعلاقاتها، ونتائجها، والسبيل الأمثل لعلاجها.

نسأل الله سبحانه وتعالى العون والسداد والتوفيق...

* * *

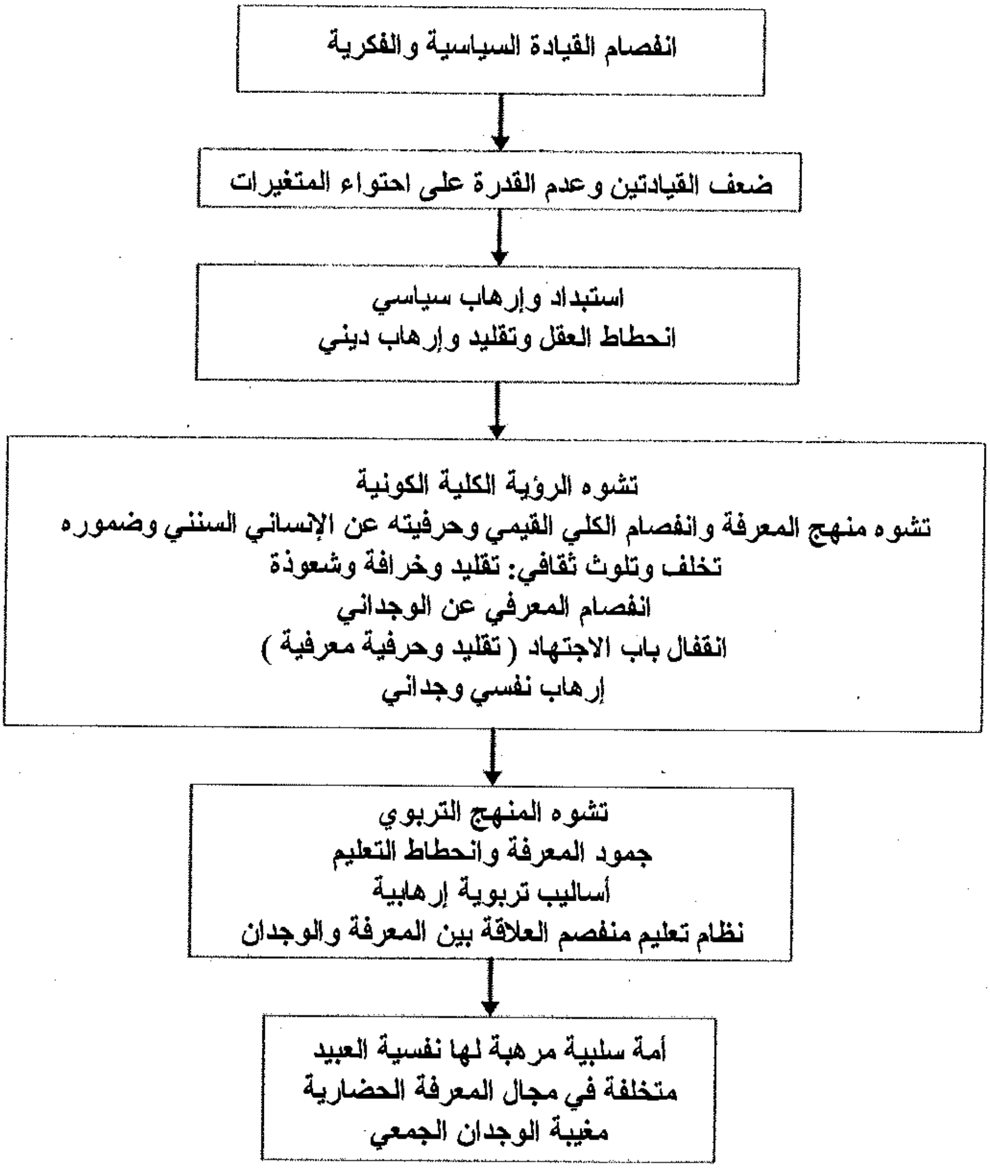

آثار التشوه المنهجي والتربوي

الشكل (١١)

إصلاح منهجي: استعادة وحدة المعرفة الكلية
الدينية القيمية والمعرفة الإنسانية السننية

↓

إصلاح ثقافي
استعادة الرؤية التوحيدية الاستخلافية الكلية الإسلامية
- إيمان وذكر وجهاد
- تنقية الثقافة من الخرافة والشعوذة
- إزالة خطاب الإرهاب الفكري

↓

إصلاح تربوي
إحداث التغيير النفسي الوجداني الفعال في مرحلة الطفولة
- استعادة الوحدة بين المعرفي والنفسي الوجداني التربوي في تربية الطفل
- استعادة الخطاب النبوي التربوي في غرس قيم قوة الإيمان والاستخلاف والانضباط والمسؤولية القائمة على أساليب المحبة والتشجيع والتواصل في نشأة الطفل.
- الاهتمام بدور الأسرة والأبوة التي تمثل دافعها الفطري مفتاح حركة التغييروالإصلاح
- إصلاح التعليم واستعادة وحدة المعرفي والوجداني فيه.

↓

أمة تتحلى
- بالقيم والشجاعة المعنوية الإيجابية،
- بالقوة والمبادرة الجمعية، وإتقان الأداء الاستخلافي الحضاري،
- نفيسة ألاحرار وإزالة نفسية العبيد السلبية الفردية الأنانية الهلوعة.

↓

ناشئة قادرة على حمل المسؤولية
وحسن الأداء وحمل الأمانة والرسالة.

أساس نجاح مشروع إصلاح الأمة
طفل مومن واضح الرؤية، سوي، حر، قوي، قادر

الشكل (١٢)

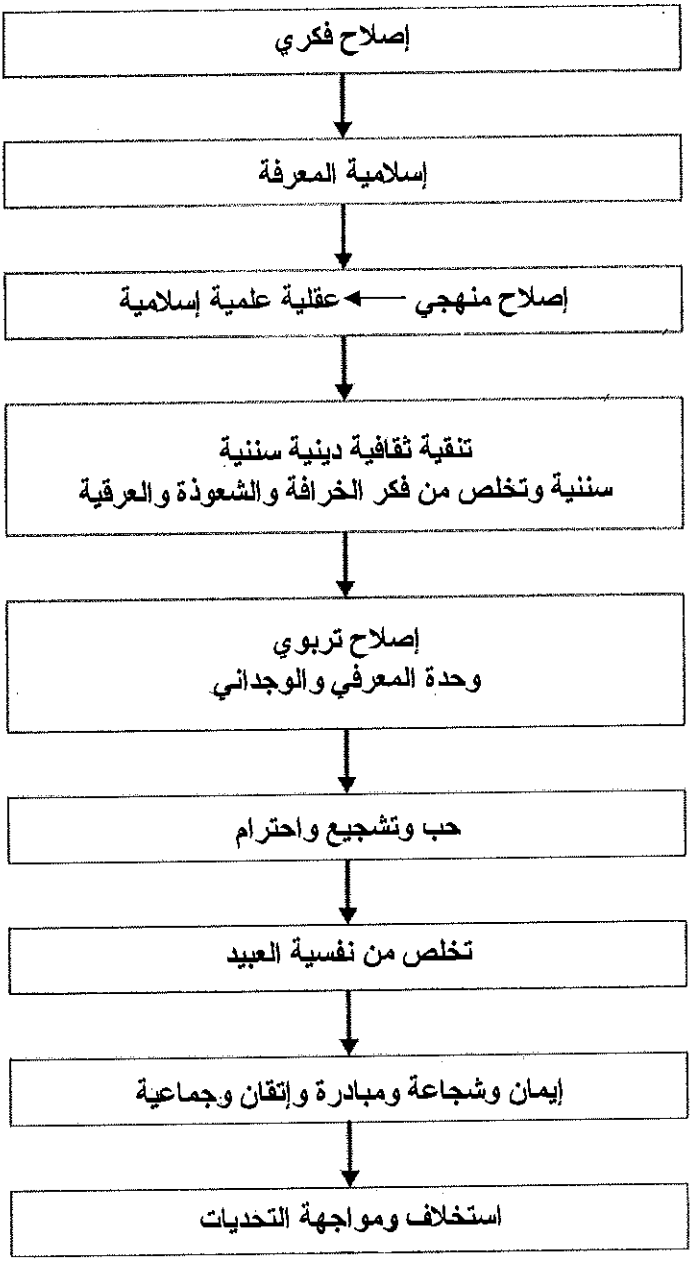

الآثار الإيجابية للإصلاح الفكري والتربوي

الشكل (١٣)

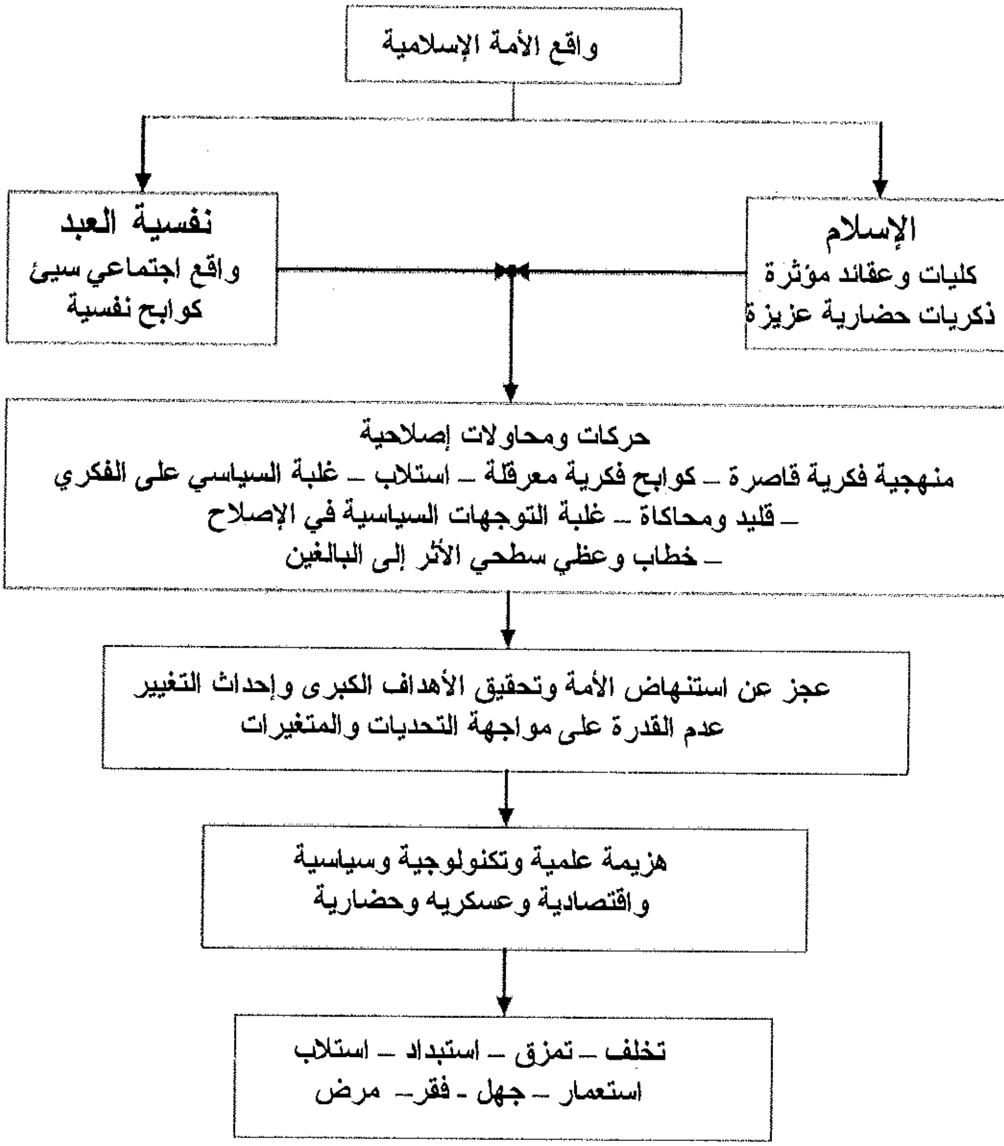

حركات إصلاحية محدودة لم تستطع تحقيق المطلوب

الشكل (١٤)

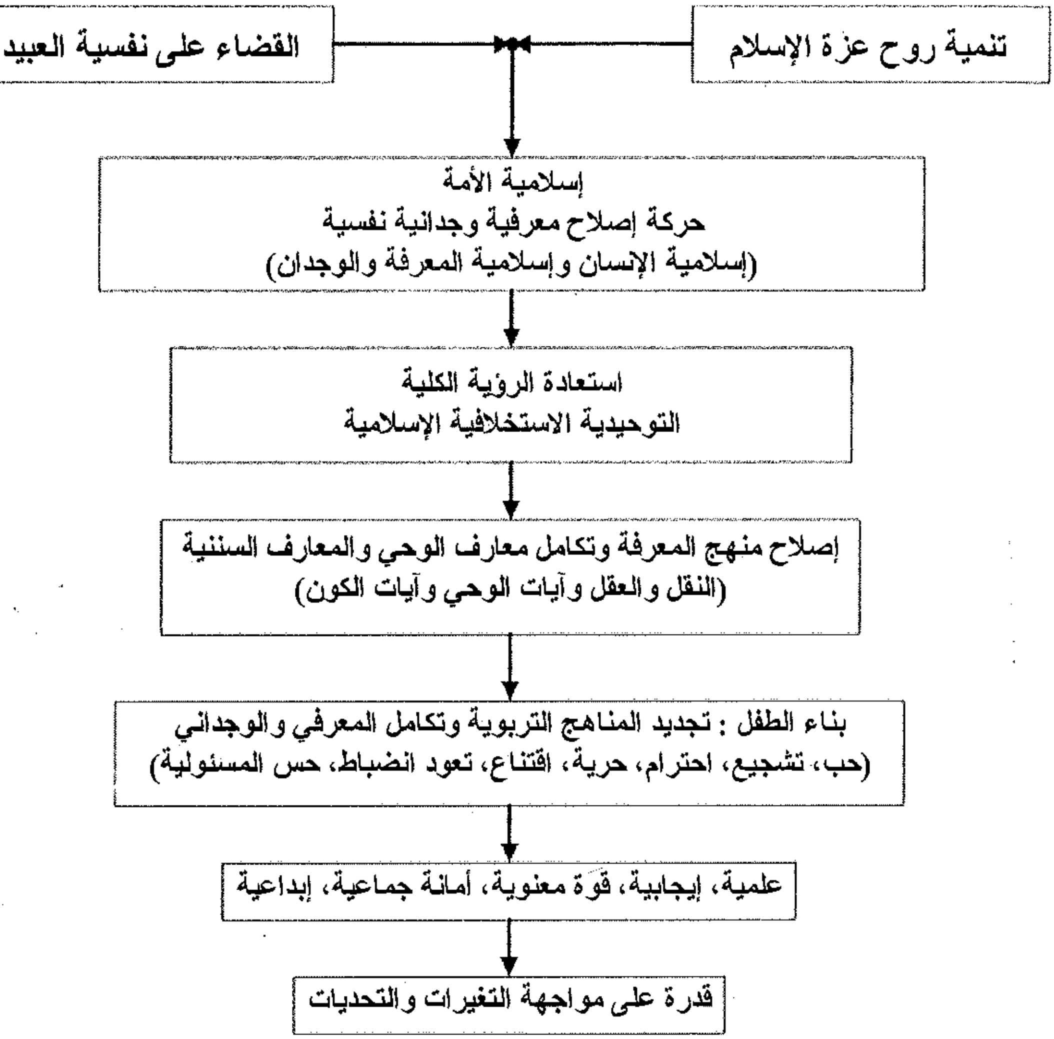

إصلاح الأمة
حركة إصلاحية جذرية فعالة

الشكل (١٥)

مجتمع ممزق متخلف فكرياً ونفسياً وحضارياً

↓

أزمة منهجية ثقافية وجدانية نفسية

↓

إصلاح المنهجية وتنقية الثقافة

↓

إصلاح تربوي

↓

ثقافة تربوية علمية إسلامية للآباء والمجتمع

↓

الطفل التربة الخصبة للتغيير الوجداني

↓

تكامل إيجابي للمعرفي والوجداني

↓

جيل القدرة والاستخلاف
مواطن علمي إبداعي منزه عن الخرافة والعجز،
مواطن أمين، مسؤول، أخلاقي، قادر، غير فردي

الطفل: البعد الغائب
في مشروع إصلاح الأمة

الشكل (١٦)

إصلاح منهجي ثقافي تربوي

↓

أداء علمي فعال
مفكرون وتربويون يتمتعون بالوعي والمقدرة العلمية

↓

أدبيات علمية فكرية تربوية إسلامية

↓

أولاً والأهم : خطاب أساسي تربوي إلى الآباء
ثانياً : خطاب تربوي إلى المعلمين والمدارس
ثالثاً : خطابات فكرية-علمية متخصصة إلى مؤسسات المجتمع

↓

توظيف
الدافع الفطري لدى الآباء
آباء يتمتعون بثقافة علمية تربوية إسلامية
(أدبيات ثقافة علمية تربوية، مقررات مدرسية وجامعية، ندوات علمية،
برامج حرة، برامج ونواد، حركات إسلامية، انترنت، فضائيات إسلامية)

↓

تحريك مفتاح تشغيل حركة التغيير الجذري السلمية التربوية بواسطة الآباء والأسرة ودوافعهم الفطرية لما فيه مصلحة أبنائهم ولما لهم من قدرة فريدة مؤثرة في تكوين نفسية أبنائهم وعقليتهم، وهي قوة وطاقة غير مستعملة إيجابياً في الوقت الحاضر بسبب جهل الآباء وعدم توافر الأدبيات العلمية الإسلامية المقنعة المؤثرة .
توافر الأدبيات والمقررات والوسائل العلمية التربوية الإسلامية الفعالة لتسهيل مهمة المعلمين وبقية فئات المجتمع.
بناء المراكز والمؤسسات العلمية والفكرية الحريصة والقادرة على ترقية فكر الأمة وتجديده.

الآبـــــــاء
مفتاح الإصلاح والتغيير السلمي الفعال في المجتمع

الشكل (١٧)

الحاجة إلى إعلان مبادئ منهجية وفكرية

في هذه المرحلة التي بلغها الفكر الإسلامي، وعلى الحال التي عليها شعوب الأمة ومؤسساتها الاجتماعية والتعليمية، فإنني أرى أنه قد آن الأوان للصفوة من المفكرين والعلماء والمثقفين أن يجتمعوا في مؤتمر منظم يخرجون فيه إلى الأمة ببيان مبادئ عام يتناول المجالات الأساسية في حياتها، ترسى فيه الأسس، وتُبْسَط أمامها المقاصدُ، والكليات، والمبادئ، والثوابت، والأولويات، والتحديات؛ ويكون هذا البيان بمنزلة دليل العمل الذي يضع قواعد المنهجية، ويرسم الإطار، ويضيء - بكل اقتناع - سبيلَ التغيير والحركة والإصلاح؛ في مجال المعرفة والثقافة والتربية والتعليم، ويسد الطريق أمام سوء الفهم، وأمام الضلال والتضليل، ويحميها من انحرافات الفكر وتضارب الاتجاهات، فلا ينحرف المسار عن الجادة، ولا يطغى الجزء على الكل، ولا الفرع على الأصل، ولا يبقى للتخريف والتهريف والتنازع موضعٌ، ولا يبقى - دون قهر ولاقسر - للخرافة والشعوذة سوقٌ، ولا مشروعيةٌ، ولا بضاعةٌ رائجةٌ، ولا تصبح النصوص والأفكار مِزَقاً متناثرة لاقدرة على رصفها وترتيبها على وجهها الصحيح، يصنع منها كلُّ ناعق وصانع، وكلُّ صاحب غرض، ما يحلو له من الفتوى والفكر؛ مما يؤدي إلى أن تعتم الرؤية وتضل السبل.

إن استمرار غياب مثل هذا الدليل في مسيرة التخلف والتخبط والتيه الذي تعاني منه الأمة ويعاني منه فكرها ودليل حركتها - حتى اليوم - إنما هو خطأ جسيمٌ وتقصيرٌ لا يغتفر.

ندعو الله سبحانه وتعالى أن يلهم عقلاءَ الأمة وحكماءَها الإسراعَ إلى رتق الفتق، وترشيد المسير؛ خدمةً للأمة، وخدمة للإنسان، وأداءً وتبليغاً للرسالة، إنه على كل شيء قدير.

خـاتمـة

حتى نعلَمَ ونعملَ

وقد بلغنا نهاية الكتاب وطرح قضيته بشيء من التفصيل الذي تعرض - ضمن ما تعرض له - إلى جوانب قد تختلف فيها الآراء والرؤى والتي قد يحتاج بعضها إلى كثير من إمعان النظر والحوار والإنضاج، لذلك فقد يكون من المفيد أن نستخلص في نهاية المطاف الرؤية الأساسية للكتاب، والخطوط العامة التي هدف الكتاب في الأساس إلى وضعها أمام القارئ، والتي تمثل في جوهرها استبطاناً وتصوراً لأزمة الأمة، وللعوامل الأساسية المؤثرة فيها، وإبراز العناصر المفقودة في مشاريع الإصلاح الإسلامي المنشود، والتي يجب أن تؤخذ في الحسبان حينما نسعى إلى تفعيل الجهود الدائبة المخلصة من أجل استنهاض الأمة، وتصحيح مسيرتها، وتحريك كوامن الطاقة في كيانها.

فالأمة الإسلامية هي حاملة رسالة الهدى والنور إلى البشرية كافة، وقد قامت بدورها في الماضي بتصحيح مسار الحضارة الإنسانية، ورفعتها إلى آفاق أسمى، وزودتها بالمنطلقات التي تقف اليوم خلف كل إنجازات الحضارة الإنسانية المعاصرة.

وعلى الرغم من الطاقة الإيمانية الحضارية السامية العظيمة التي فجرها الإسلام فإن رواسب التقاليد والثقافات والفلسفات، وتغير القاعدة السياسية إلى قبلية وشعوبية، قد عملت على تشويه الرؤية الإسلامية، وتدمير منهجية الفكر والمعرفة الإسلامية، وتلويث ثقافة الإسلام؛ مما أفقد الأمةَ بُعْدَها العام، ومكّنَ لعقلية الشعوذة والخرافة والعرقية من أن تستحوذ عليها.

وانتهى ذلك الغبش العقدي والفكري والتشوه الثقافي إلى الجمود والتخلف، وأورث قيادات الأمة الضعف والعجز؛ مما نتج عنه التأخر والإرهاب السياسي والديني، وأورث الأمة "نفسية العبيد" التي تتسم بالفردية والخوف وعدم المبادرة، وجعل من الأمة جسداً خامداً خِلواً من روح الوحدة والتكافل، ومن روح الشجاعة، ومن طاقات القدرة والإبداع والمبادرة، وأصبحت الأمة مطيةً لكل راكب، وصدى لكل ناعق، وفريسة لكل عدو وطامع.

وجاءت محاولات الإصلاح - برغم إخلاصها وتضحياتها - جزئية سياسية، وعلى الرغم من أنها تسعى دائماً إلى استنهاض الهمم، وصد التعديات ودفعها عن الأمة، إلا أن هذه المحاولات لم تكن على وعي كامل بحقيقة أمراض الأمة المعرفية الثقافية والنفسية الوجدانية، ولذلك كان خطابها في جوهره سياسياً موجهاً إلى رجال الأمة بغرض تجنيد طاقاتهم من أجل البذل في سبيل الدين والأمة، والدفاع عنها.

وطبيعة الخطاب السياسي أنه يعمل عليضم الصفوف وإحياء الأمل، ولكن الملاحظ أيضاً أنه إذا تغلب الخطاب السياسي على الخطاب الفكري، ولم يدع مجالاً للخطاب الفكري الناقد، فإن الأمة عند ذلك لن تتمكن من تجديد طاقة مواجهة التحديات وتنميتها، ويؤول مصيرها ومصير جهودها وحركاتها الإصلاحية إلى الاستنزاف والضعف المتزايد، ولذلك فإنه لابد للعمل النهضوي الإصلاحي من التوازن بين السياسي الاجتماعي، وبين الفكري الثقافي؛ لإصلاح الخلل، وليس فقط تجنيد الطاقة؛ ولكن أيضاً تجديد الطاقة في الوقت نفسه حتى تتنامى وتتفجر، وبذلك تنمو الطاقة معرفياً وتربوياً في الوقت الذي تتوحد فيه وجهتها وصفوفها سياسياً، تحدوها روح التفاؤل والأمل والثقة بالمستقبل.

وحتى تنجح جهود الإصلاح وتتفاعل، وحتى تتضح رؤية الأمة، وتتحدد غاياتها، وتتجدد وتتنامى وتتفجر طاقتها، لتكون على مستوى التحديات التي

تواجهها؛ فإنه لابد من أن يكون إصلاح الجانب النفسي الوجداني، متزامناً مع إصلاح الجانب المعرفي فيها.

إن عدم فهم الإشكال المعرفي، وبالتالي عدم إدراك علاقة المعرفي بالنفسي الوجداني هو من أهم الأسباب في انشطار المعرفة الإسلامية إلى معرفة دينية وأخرى مدنية متواجهتين متنابذتين متدابرتين؛ انتهى الأمر بهما إلى (تهافت الفلاسفة)، وموات (علوم الدين)، أي جمود الكلي القيمي، وضمور دوره، وعقم السنني الإنساني وجموده وجمود ما يلحق به من العلوم والمعرفة الإنسانية؛ مما أورثنا الاهتمام الكمي بالمعلومات العقيمة، وعدم إدراك علاقتها بالعملي وبالوجداني وآثاره النفسية؛ فأهملنا العلوم الإنسانية، وأهملنا الطفولة والتربية التي هي مجال التغيير، ومجال تنمية الطاقة، واستثمار القدرات، وتزويد الأمة بخزانات وقود الطاقة النوعية المتنامية اللازمة لمواجهة المتغيرات والتصدى لمواجهة التحديات.

وحتى نحركَ عجلات النهضة والتقدم، ونعيدَ بناء الطاقة النفسية الوجدانية المحركة للإرادة الإنسانية، والقدرات البشرية، والمعرفة العلمية، والجهود الذاتية اللازمة للنهوض بالأمة، ومواجهة التحديات؛ فإنه لابد من أن يقوم المفكرون والعلماء والأساتذة الجامعيون والمثقفون وقيادات الأمة بدورهم في إصلاح أسس الخلل، وإعداد العدة المعرفية والنفسية لتجنيد أبناء الأمة من أجل إنجاز مشروع الإعمار والإصلاح الحضاري الإسلامي.

لابد من استعادة الرؤية الإسلامية التوحيدية الاستخلافيه العمرانية الحضارية الخَيِّرة، ولابد من إصلاح منهج المعرفة، وضمّ جناحيه القيمي الديني والسنني الإنساني، وتنقية الثقافة الإسلامية من كل ما أصابها من أوضار العقم والتلوث.

ثم يأتي بعد ذلك دور تفاعل المعرفي والنفسي والوجداني تربوياً في تكوين الإنسان المسلم؛ حتى يكون على الدوام مؤمناً خيراً مبدعاً قادراً على توفير الطاقات والمهارات اللازمة لمواجهة التحديات.

والفكر والمفكرون والمثقفون هم المنطلق المعرفي للإصلاح، وتأتي التربية والمربون منطلقاً للإصلاح النفسي والوجداني، وبذلك. يصبح الأساتذةُ الجامعيون، ويصبح التعليمُ العالي وسائلَ مهمة في عملية الإصلاح الفكري، وتصبح التربيةُ والتعليمُ العامُ أدوات مساندة للأسرة في مجال الإصلاح النفسي والوجداني، وفي مجال التربية يؤدي المعرفي دوره في بناء الوجداني وتنميته؛ لتنموَ الطاقاتُ والقدراتُ، وتتمكنَ من النفوس كالنقش على الحجر.

وحتى يقوم المفكرون والإصلاحيون بدورهم، وحتى يتم التغيير ويحدث التوحد والتفاعل الحي بين المعرفي والوجداني فإن من المهم علمياً معرفة طبيعة عملية التغيير التربوية الجذرية في المجتمع والتي يعيد بناء الوجداني، ويوسع طاقة القدرة والعطاء النفسي، ويحرر النفوس المسلمة من أمراض "نفسية العبيد"، وتزودها بطاقات القدرة والشجاعة والإبداع والمبادرة.

إن المؤسسات على أشكالها المختلفة تعمل جاهدةً من أجل المحافظة على الوضع القائم وإبقائه وديمومته، وتحرص على أن أي تغيير إنما يتم في إطار هذا الوضع القائم، ولذلك لابد لطلاب الإصلاح والتغيير من معرفة مفتاح تشغيل عملية التغيير، ودون معرفةِ هذا المفتاح، ومعرفةِ طبيعة عملية التغيير ومتطلبات تحريكها؛ فإنه لا يمكن إحداثُ التغيير المطلوب، ويصبح المصلحون كمن يحاولون تحريك عجلات عربة التغيير ودواليبها بأيديهم.

إن مفتاح تشغيل التغيير السلمي في المجتمع إلى ما هو أفضل إنما يكمن تلقائياً في الوازع الفطري في نفوس الآباء وحرصهم على ما فيه مصلحة أبنائهم، وهو دافع فطري أودعه الله في النفوس لارادَّ له، وله القدرة والتأثير الأكبر في تكوين عقلية الفرد ونفسيته، في مرحلة الطفولة وبناء النفوس البشرية، وهو بمنزلة النظارة الملونة على العين، إذ ليس المهم لون الموجودات، ولكن المهم لون النظارة، وعليه فإنه ليس المهم في المقام الأول ما يرى الطفل أو يسمع، ولكن المهم - بالدرجة الأولى - هوكيف يفهم ما

يرى؟ وكيف يعي ما يسمع؟ وللآباء - إذا عرفوا كيف يؤدون دورهم - أكبرُ الأثرِ في تكوين مفاهيم الطفل وتشكيل نفسيته وقدراته.

ولذلك فإن تضامن المفكرين والمربين في أداء أدوارهم في فهم الأبوَّة والطفولة، والقيام بالأبحاث العلمية التربوية ضمن منطلقات ومشكلات الفكر والثقافة الإسلامية أمرٌ ضروريٌّ للقيام بدورهم في تقديم الأدبيات العلمية الفاعلة إلى الآباء المسلمين، والوصول بهم إلى الوعي والاقتناع بما هو مطلوب منهم؛ من أجل بناء المواطن المسلم، وتعليمه كيف يقوم بدوره حتى يتمتع الطفل المسلم بالعقلية والنفسية والقدرات اللازمة لأداء الدور الاجتماعي الحضاري الفاعل، والتحلي بقدرات الإبداع والشجاعة والمبادرة، واستعادة البعد العام في الشخصية الإسلامية ومؤهلات (مقصد حفظ الأمة). إن تبصيرَ هؤلاء الآباء بالأساليب التربوية الفعَّالة لتحقيق هذه الأهداف النبيلة أمرٌ مهمٌ؛ وإن الاقتناع وحده لا يكفي، بل لابد معه من تزويد الآباء بالقدرة وبالخبرات التربوية اللازمة لنجاح الأداء.

ولهذا السبب يجب منحُ الأبوةِ والتربية الأسرية الوجدانية الاهتمامَ الأكبر، وتوفيرُ أدبياتها العلمية، وبناء برامجها في تكوين الفرد المسلم، وتثقيفه وتعليمه، ولهذا الغرض طوَّرت الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا من منطلق إسلامية المعرفة ثلاثة مقررات دراسية لطلابها، وقررت دبلومات دراسية لتخريج المدرسين اللازمين لها، وهذه المقررات التي أُريد لها أن تكون متطلبات جامعية لجميع منسوبيها من الطلاب هي: مقرر "الأسرة والأبوة"، ومقرر "الفكر الإبداعي وحل المشكلات"، ومقرر "قيام الحضارات وانهيارها".

ويأتي الدور المعرفي للمدرسة والمعلم تَبعاً ومكملاً للدور الوجداني التربوي للآباء والأمهات، وإذا ما توافر الوعي فإن دور المعلمين يتكامل مع دور الآباء؛ لأن المعلم يحمل - عادةً - الرغبةَ في رعاية التلميذ، وفي جعله قادراً

على تحقيق النجاح في حياته، وإيجاد الطاقة لديه لمواجهة التحديات والتغلب عليها.

وهكذا يتضح لنا في النهاية إن من أهم أسباب قصور الحركات الإصلاحية في تاريخ الأمة عن تحقيق أهدافها في إصلاح الأمة واستنهاضها وتفجير طاقاتها – على الرغم مما قدمته من جهود وخدمات خففت من أزمة ضعف الأمة وتمزقها وتخلفها – هو عدم إدراك هذه الحركات أهمية الجانب الوجداني في إصلاح العطب النفسي الذي أصاب الأمة، وأصاب الجانب المعرفي المنهجي من عطب قبل ذلك، ووترتب على ذلك عدم إدراك هذه الحركات وهذه الجهود أهميةَ دور الطفولة في إحداث الإصلاح النفسي الوجداني، الذى سيؤدي - إن شاء الله – إلى تحرير الأمة من أزمة (نفسية العبيد) والانتقال بها إلى دور القدرة والإبداع والمبادرة، كما فعل سيدنا موسى ببني إسرائيل في (سيناء) حينما أُستعبِدوا في مصر وكونوًا (نفسية العبيد).

كما يتضح لنا في النهاية أيضاً مسئولية المفكرين والتربويين والمثقفين والأساتذة والمعلمين والمصلحين في أخذ زمام المبادرة، وتحريكِ مفتاح تشغيل التغيير السلمي والإصلاحِ الجذري، وهو الدور نفسه الذي يقوم به سائق السيارة في تحريك عملية سيرها وانطلاقتها نحو غايتها، وهو هنا تفعيل عنصر الطفولة الغائب واللازم لتفعيل وجدان الأمة، واستكمال أدوات إصلاحها، وتحريرها، وتنمية طاقاتها وقدراتها، وذلك بخطاب وازع الأبوة الفطري، لما فيه مصلحة الأبناء، ولابد من أن يكون خطاباً علمياً مقنعاً تبنى له مراكز البحث العلمي، وتطور أدواتها ووسائلها من أجل تقديم الأدبيات والبرامج التربوية العلمية، في جهدٍ علمي حيٍّ، وخطابٍ فعّالٍ يتعاون في بنائه وتسويقه المخلصون كافةً من المثقفين والقادرين، ومن رجال حركات الإصلاح وقيادات المجتمع ومؤسسات المجتمع المدنية؛ فذلك هو السبيل الوحيد الذي يأخذ به المسلم في يده زمامَ مبادرة البناء والتحرير، وعندها فقط تستجيب

المؤسسات الرسمية لنبضه، وتوجهات حركته، وتصبح عند ذلك - بالضرورة - عوناً له في تحقيق غايته (فكما تكونوا يولَّ عليكم). هذا هو الطريق العملي الفعَّال من أجل تنشئة جيلِ التوحيد والاستخلاف والإبداع والمبادرة، الجيلِ القادر على توفير القدرة العلمية والطاقة الوجدانية، والمهارة العمرانية اللازمة لبناء قدرات الأمة ومؤسساتها، وبناء حضارتها، وحمل رسالتها، ومواجهة العقبات والتحديات أمامها، وتقديم يد العون الخَيِّر للإنسان؛ ليحقق ذاته الخيرة في الأرض، وَفْقَ شريعة الحقّ والخير والعدل والإخاء.

• لقد آن الأوان لأن ندركَ أهمية نقاء الثقافة ومدخلاتها التربوية.

• لقد آن الأوان لأن ندركَ أهمية التربية.

• لقد آن الأوان لأن ندركَ أهمية الوجدان.

• لقد آن الأوان لأن ندركَ أهمية الأُبوَّة.

• لقد آن الأوان لأن ندركَ أهمية الطفولة.

• لقد آن الأوان لأن ندركَ أهمية البناء في الأساس، وألا نعجل، وألا نكتفي بالفروع والأعراض؛

• فتلك سنةُ الله في خلقه، وديدنُ نهضة الأمم، كلِّ الأمم.

• لقد أن الأوان لأن يأخذَ الإنسان المسلم مصيرَه في يده.

• لقد آن الأوان لكي يحمل المفكرون والمربون والعلماء والمعلمون والأساتذة الجامعيون والمثقفون وقيادات الأمة الرشيدة المخلصة مسؤوليتهم ودورهم - بالعمل الجاد - في توعية الأمة، وتبصيرها بمسالك دروبها، وتزويدها بالمعرفة العلمية الصحيحة، والثقافة الإسلامية النقية، وتحريك قوة الأبوّة الفطرية في الاتجاه الصحيح؛ بالتوعية والاقتناع والتثقيف والتعليم، وتزويد الآباء والمعلمين بالأساليب التربوية السليمة التي تحرر النفوس

والوجدان، وتنمي الطاقات، وتعينها وتدعمها بالأنظمة والمناهج التعليمية الناضجة الراقية.

إن على الآباء أن يدركوا أنهم - في هذه المرحلة - المفتاحُ والأساسُ لتحرير الأمة وبناء طاقاتها، ومستقبل أجيالها، وأنه دون جهدهم في الاتجاه الصحيح لاسبيلَ إلى القدرة والعزة والخلاص.

وكلمة أخيرة إلى المفكرين والمقفين والإصلاحيين بشأن نوعية جهدهم ودورهم، وهي أن من المهم لنجاح جهودهم العمل الجاد في أداء دورهم الرائد في تحريك مفتاح تشغيل حركة التغيير في الأمة، وذلك بتقديم الرؤية الحضارية الإسلامية، وتنقية ثقافة الأمة، والتبصير بأمراض الأمة الوجدانية، وبسبل علاجها والقضاء عليها.

كما أن عليهم - بالصبر والمثابرة - العمل من أجل تحقيق تلك الغاية دون تعجل ويأس؛ حتى يتم إرساء قواعد التغيير والإصلاح، وحتى يتم النضج، وتحين ساعة انطلاق طاقة التغيير والإصلاح في الأمة من خلال أجيالٍ تتمتع بصحة معرفية ووجدانية، وحينها فإن ما كان يبدو ساكناً بطيئاً ينطلق ويتعاظم بالطاقة والتغيير، ويكتسح كل العقبات، ويزيل من ممارسات المجتمع كل الغثاء، كالقَطْر يتحول إلى سيول وأنهار، وكالطائرة تدرج على الأرض ثم تنطلق إلى عرض السماء.

وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم من قبل خير مثلٍ لِثمارِ المثابرة والصبر؛ فقد أخذ نفسه وأصحابه في مكة لثلاث عشرة سنة بالعمل والصبر والمثابرة في إرساء القواعد، وبناء الأسس، وإعداد (الأجهزة)؛ لتنطلق بعدها طاقة الإصلاح في عشر سنين لتغيير وجه الدنيا والتاريخ، وتكتسح كل الغثاء وتزيل كل العقبات أمام أمةٍ وحضارةٍ وفجرٍ جديد، وهذا هو ديدن كل حركة تغيير كبرى في التاريخ.

إن على المفكرين والمثقفين والإصلاحيين أن يعلموا أن عليهم أولاً

وأساساً أن يؤدوا دورهم في إدارة مفاتيح تشغيل حركة التغيير والإصلاح في الأمة؛ لتنطلقَ بقواها الذاتية في بناء طاقتها، وتغيير أوضاعها، وإصلاح ما فسد من أمرها، وأن يتخلوا في أداء دورهم عن أعراض مرضِ "نفسية العبيد" فلن يأتي الآخر الذي يحرر لهم الأمة بالنيابة عنهم، ولن تجد الأمة الحلَّ السهل الذي يتحقق عاجلاً، ودون جهدٍ، وفي اليوم اللاحق، فلا بديل عن أن تعتمد الأمة على ذاتها وعلى جهود أبنائها، وأن نتعلم الصبر والمثابرة؛ حتى يتحول القَطْرُ إلى سيلٍ، وحتى تتراكم الطاقة لانطلاق المسيرة وتحليق مركبتها الوجدانية الحضارية على أكتاف مَنْ رباهم الآباء الواعون جيلاً من الأحرار الأقوياء الأمناء.

فمشروع الإصلاح والتغيير يحتاج إلى العمل والصبر لإرساء القواعد، وإنبات الشجر، حتى يتحقق الحلم، وتؤدَّى الرسالة، ويعلو البناء، ويُجنى الثمر، فدون الاعتماد على النفس والتخلي عَن كل أحلام الآخر المنقذ والحل السهل العاجل سوف تمضي بالأمة العقود والقرون على ما خبرنا من وهم الآخر وخسفه، ومن وتيرة العجز والقهر والذل، وليس لنا - إلا أن يشاء الله - أن نتوقع في المستقبل ، كما في الماضي لا قدر الله المزيدَ من الأزماتِ والكوارث التي تستنزف في كل يوم، وفي كل جيلٍ، كلَّ ما يسري في كيان الأمة من طاقةٍ وقدرةٍ متضائلة نحن أحوج ما نكون لكي نصلح بها ذواتنا، وننمي بها طاقاتنا، ولا نجاة بإذن الله إلا أن نصحوَ ويصحوَ المفكرون والمثقفون والإصلاحيون؛ كي يؤدوا دورهم، ويضعوا حركة إصلاح الأمة على الجادة في إصلاح الذات معرفياً ووجدانياً، وإرساء الأسس لبناء أجيال تتمتع بعقلٍ ووجدانٍ حرٍّ صحيح سليم، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٣/١١]، ويقول: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١٠٣/١-٣].

وللشعر والوجدان كلمة

رسالة إلى الآباء من أجيال المستقبل

د.عبدالحميد أحمد أبو سليمان

إن عـــافـــتْ نــفــسُــك يـــا أبـــتـــي

ثـــمـــرَ الـــصـــبـــار

إن عـــافـــتْ نـــفـــسُـــك

شـــجـــر الـــصـــبـــار

إن عـافـتْ نفسُـك يا أبتي مُرَّ الصبار

لـــن يـــغـــني نـــوحُـــك يـــا أبـــتـــي

عـــنـــد الـــصـــبـــار

* * *

لـــــن يـــــصـــــغـــــي

شـــجـــر الـــصـــبـــار

لـــن يـــثـــمـــر

شـــجـــر الـــصـــبـــار

إلا مُـــرَّ الـــصـــبـــار

❋ ❋ ❋

إن تـــاقـــتْ نـــفـــسُـــك يـــا أبـــتـــي

لـــلـــكـــرم

أو تـــاقـــتْ نـــفـــسُـــك

لـــلـــتـــين

أو تـــاقـــتْ نـــفـــسُـــك

لـــلـــتـــفـــاح

فـــدونـــك يـــا أبـــتـــي

بـــذر الـــكـــرم

وبـــذر الـــتـــين

وبـــذر الـــتـــفـــاح

❋ ❋ ❋

تجني يا أبتي حُلوَ الكرم
وتجني حُلوَ التينِ
وتجني ثمر التفاح

* * *

ما أبشع شجر الصبار
ما أبشع ثمر الصبار
ما أبشع مرَّ الصبار
ما أبشع جيل الصبار

* * *

فلتبذر يا أبتي
حُلوَ الكرمِ وشجرَ التينِ
وثمر التفاحْ
ولتقطعْ
أشجار الشَّوكِ
وأشجار الصبار

ولتقطع يا أبتي دابر جيل الصبار

أبنـاء الحاجـة والـذل

جيـل الخيبـة والعجـز

جيـل الضعفـاء

* * *

كفكفْ دمعي يا أبتي

قلبي يتفجَّر

دمعي يتفجَّر

أرضي تتفجَّر

جيلي يتفجَّر

* * *

أنقذني يا أبتي أنقذني

لا ينقذني إلا أبتي

أنقذني من أسر اليأس

أنقذني من أسر العجز

أنـقـذنـي مـن أسـر الـضـعـف
مـن أسـر الـذلّ
مـن أسـر الأعـداء
مـن خـسـف الأعـداء

* * *

يـا أبـتـي
أنـت الـصـائـغ والـصـانـع
أنـت المـهـد
وأنـت الـعـشّ
أنـت المـرشـد والـرائـد
أنـت الأنمـل
مـلـهـمـة الـقـيـثـار

* * *

يـا أبـتـي أحـسـن تـربـيـتـي
أحـسـنْ تـربـيـتـي يـا أبـتـي

أنت البلسم والترياق

* * *

أنقذني يا أبتي أنقذني
أنقذني وتعلَّم يا أبتي
كيف تربي جيلَ الشرفاء
جيلَ العلماء
جيلَ الصنَّاع
جيلَ الشهداء
جيل القادة والنبلاء

* * *

إحملني يا أبتي
فوق جناح العلياء
في مكة
في أرض الإسراء
في المقدس

في أرض المعراج
في بابل
في طيبة
في كل الأرض

❊ ❊ ❊

حقق بسمة أيامي
ارفع أسوار مقامي
أسوار العزة والمجد

❊ ❊ ❊

لا تتركني يا أبتي
أغرق في الماء الآسن
أغرق في الفكر الآسن
أغرق في الأوحال
أغرق في الأدغال

❊ ❊ ❊

دعني في السرب
أحلق يا أبتي
في الماء الصافي أنهل
أنهل في النهر الرقراق
في أفق التوحيد
في نهر الإحسان
في نهر القوة والإيمان

❊ ❊ ❊

لا تتركني يا أبتي
في حال الضيعةِ والضعف
في وجه الإعصار
يجرفني التيار
في فكر الغربة
في فكر الأغيار
غربان الغابة والأوكار

❊ ❊ ❊

دعـــنـــي يـــا أبـــتـــي

أعـــلـــو المـــوج

أعـــلـــو الـــصـــعـــبَ

أعـــلـــو الأوثـــان

أنـت الـشـاطـئ يـا أبـتـي

أنـــت الأفـــق

وأنـــت الـــريـــح

وأنـــت الـــرُّبـــّان

* * *

فـلـتـبـذر يـا أبـتـي لـلأمـة

فـــي ســـيـناء

فـــي الحـــرمـــيـــن

فـــي بـــيـت المـــقـــدس

فـــي المـــشـــرق

فـــي المـــغـــرب

فـلـتـبـنِ يـا أبـتـي لـلأمة

بالقلبِ وبالعقلِ

بالعلم وبالحبِّ

بالدين، بالقيَم، وبالأخلاق

جيلَ الملايين

جيلَ الدارين

جيلَ الروح

وجيلَ الأبدان

جيلَ العدلِ

وجيلَ العمران

* * *

فلتبنِ يا أبتي

جيلَ المستقبل

فلتبنِ يا أبتي

جيلَ القوة والبذل

جيلَ العزة يا أبتي

جيل يا أبتي قادر

في الساحة قادر

في المكتب قادر

في المعملِ قادر

في المصنعِ قادر

في المتجر قادر

في القِمَّةِ قادر

في الساقة قادر

جيل الإتقان

جيل الإحسان

❊ ❊ ❊

جيلٌ يا أبتي

حرٌ في القلب

حرٌ في الفكر

حرٌ في الوجدان

حرٌ في الإيمان

حرٌ في الأوطان

جـيـلٌ يـا أبـتي

يحـمـي الأوطـان

يـغـنـي الأوطـان

يـبـنـي الأوطـان

يـعـلـي الأوطـان

* * *

لا يـأبـه لـلأوثـان

لا يـسـجـد لـلأوثـان

بـؤبـؤ غـايـتـه الـرحـمـن

لا يـعـبـد إلا الـرحـمـن

* * *

الجـيـل الـقـادر يـا أبـتي

الجـيـل الـصـامـد يـا أبـتي

فـي وجـه الأعـداء

فـي وجـهِ الـتـاجـر

فـــي وجــهِ الـــنـــخَّـــاس
وفي وجــه الـــســـمـــســـار

* * *

فـلـتـصـنـعْ يـا أبـتـي
يـــا حـــبَّ الـــفِـــطـــرة فـــي أبـــتـــي
يـــا بـــذل الـــفِـــطـــرة فـــي أبـــتـــي
بـــاســـم الـــرحمـــن
بـــاســـم الـــقـــرآن
جـــيـــلَ الأبـــرار
جـــيـــلَ الأحـــرار

* * *

وخـــتـــامـــاً اذكـــرْ يـــا أبـــتـــي
لـــن يـــثـــمـــر شـــجـــر الـــصـــبـــار
إلا مـــر الـــصـــبـــار
واذكـــر يـــا أبـــتـــي

بــذر الــكــرم وبــذر الــتــيــن

وبــــذر الأحـــــرار

وســلام لــكَ يــا أبــتــي

إن أنــت بــذلــت الــطــاقــة يــا أبــتي

لــك ألــف ســـلام

وســلام ألــف ســلام

لــلــزرّاع ولــلأحــرار

* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مستخلص

يحاول هذا الكتاب ((أزمة الإرادة والوجدان المسلم والبعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة؛ إصلاح الثقافة والتربية في رؤية إسلامية معاصرة)). فهم الأسباب التي تحول حتى اليوم دون نجاح مشروع الإصلاح الحضاري الإسلامي، وإحداث التغيير النفسي المطلوب في الأمة، والذي يتمثل في عدم فهم الجانب النفسي الوجداني في الخطاب التربوي للطفل، وهو البعد الغائب في مشروع الإصلاح.

ويوضح الكتاب الأدوات المنهجية والثقافية اللازمة للإصلاح التربوي، وأهم أسسه ومنطلقاته، ودور الأسرة المحوري الفطري في توجيهه، دون أن يقلل من أهمية جهود مشروع الإصلاح الإسلامي في المجتمعات المسلمة في الجوانب الاقتصادية والسياسية والدعوية وسواها.

ويلقي الكتاب نظرة بحث ودرس ناقدة، تتعرف أسباب ما أصاب روح الحضارة الإسلامية السامية الباسقة التي سادت العالم المتمدن لقرون عديدة، وارتقت بالإنسان إلى آفاق سامية واسعة، ويبين أسباب الضعف والقصور التي أدت بالأمة إلى العجز والتخلف.

كما يدرس الكتاب جوهر أزمة العقل المسلم في إشكالية المنهجية وأحادية المعرفة، التي أدت إلى تلوثات في الثقافية وسوء للممارسة في التربية. ويوضح أن الجهل بالطفولة وإهمالها هو جوهر أزمة الإرادة والوجدان المسلم، التي تمثل معوقات ينجم عنها أمراض نفسية تكبح طاقة العطاء والإبداع في أصل بناء النشأة المسلمة والمجتمع المسلم.

ويطلب الكتاب جدية التعامل مع أزمات العقل والمنهج والفكر والثقافة والوجدان والتربية، على أساس من التوازن بين السياسي والفكري والتربوي في جهود حركات الإصلاح، لتحقيق القدرة، وتحرير نفسية المسلم، وتفعيل وجدانه.

ويدعو المفكرين والمربين والآباء والأمهات إلى القيام بمسؤولياتهم. في بناء مستقبل أجيال الأمة ثقافياً ونفسياً ووجدانياً على أسس علمية إسلامية صحيحة.

Abstract

This book handles the crisis of the Muslim will and sentiment, which is the absent dimension of the project of the nation reformation and rectification of culture and education through a contemporary view.

It is trying to understand the reasons which, until the time being, have laid obstacles on the way of the success of the Islamic civilizational reformation project and the creation of the required changes in the Muslim Nation as well as understanding the sentimental psychological factor in the educational address of the child, which represents the absent dimension in the project of the Islamic reformation movements.

It clarifies the essential methodological and cultural means of the educational reformation, its most significant bases and goals and the basic role of the family in guiding. It stresses at the same time the importance of the efforts exerted for the Islamic reformation in the Muslim societies in the economical, political, missionary and any other fields.

It casts a look of research and criticism to reveal the causes of the decay that has afflicted the spirit of the lofty and supreme Islamic civilization, which had overwhelmed the civilized world for several centuries and raised the rank of the human to supreme and broad horizons, and lists the causes of weakness and retardation which have disabled the Muslim nation.

It studies epistemologically the essence of the crisis of the Muslim mind in the crux of methodology and the mono-knowledge and states that psychologically the essence of the crisis of Muslim will and sentiment lies in the nation's ignorance and negligence of childhood, which represents hindrances that curb the Muslim productive and creative energy in the foundations of building the Muslim's growth and Muslim society.

It also demands taking serious methodological and educational steps toward dealing with the crises of mind, approach and the psychology of educational sentiment on the basis of balance between the political, intellectual and educational ones in the efforts of the movements of reformation in the aim of realizing creative ability, liberating the Muslim's soul and psychology and activating his sentiment.

It calls the intellectuals, the educators, fathers and mothers to bear their own responsibilities in developing the mind of the future Muslim child mind educationally, psychologically and sentimentally on proper scientific Islamic bases.

دار الفكر
آفاق معرفة متجدّدة

DIALOG حوار
٢٠٠٥
عالم بلاعنف
NON-VIOLANCE WORLD

أسست عام ١٩٥٧م (١٣٧٦هـ).

رسالتها:

- تزويد المجتمع بفكر يضيء له طريق مستقبل أفضل.
- كسر احتكارات المعرفة، وترسيخ ثقافة الحوار.
- تغذية شعلة الفكر بوقود التجديد المستمر.
- مدّ الجسور المباشرة مع القارئ لتحقيق التفاعل الثقافي.
- احترام حقوق الملكية الفكرية، والدعوة إلى احترامها.

• **منهاجها:**

- تنطلق من التراث جذوراً تؤسس عليها، وتبني فوقها دون أن تقف عندها، وتطوف حولها.
- تختار منشوراتها بمعايير الإبداع، والعلم، والحاجة، والمستقبل، وتنبذ التقليد والتكرار وما فات أوانه.
- تعتني بثقافة الكبار، وترنو لتأهيل الصغار لبناء مجتمع قارئ.
- تخضع جميع أعمالها لتقيح علمي وتربوي ولغوي وفق دليل ومنهج خاص بها.
- تعدّ خططها وبرامجها للنشر، وتعلن عنها: شهرياً، وفصلياً، وسنوياً، ولآماد أطول.
- تستعين بنخبة من المفكرين إضافة إلى أجهزتها الخاصة للتحرير، والأبحاث، والترجمة.

• **خدماتها ونشاطاتها:**

- نادي القارئ النهم (الأول من نوعه في الوطن العربي)
- تمنح سنوياً جوائزها للإبداع والنقد الأدبي، وتكرم مؤلفيها وقراءها.
- ريادة في مجال النشر الألكتروني
- أول موقع متجدد بالعربية لناشرٍ عربيٍّ على الإنترنت: **www.fikr.com**
- إسهام فعّال في موقع (فرات) لتجارة الكتب والبرامج الألكترونية: **www.furat.com**
- موقع تفاعلي رائد للأطفال: عالم زمزم: **www.zamzamworld.com**
- **إشراف مباشر على مواقع:**

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: **www.bouti.com**

الدكتور وهبة الزحيلي: **www.zuhayli.com**

اللجنة العربية لحماية الملكية الفكرية: **www.arabpip.com**

• **حازت على جائزة أفضل ناشر عربي للعام ٢٠٠٢، من الهيئة المصرية العامة للكتاب.**

• **منشوراتها:** تجاوزت حتى عام ٢٠٠٤ (١٨٥٠) عنواناً، تغطي سائر فروع المعرفة.

دَارُالفِكْر
للطباعة والتوزيع والنشر

دمشق - سورية - ص.ب: ٩٦٢
هاتف: ٢٢١١١٦٦ فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
e-mail: fikr@fikr.com - http://www.fikr.com

CRISIS IN THE MUSLIM WILL AND SENTIMENT

Azmat al-Irādah wa-al-Wijdān al-Muslim

Dr. ʻAbd al-Ḥamīd Abū Sulaymān

يحاول هذا الكتاب استبطان التاريخ الحضاري للأمة والعوامل المؤثرة في مسيرتها والأبعاد الغائبة في حركتها من أجل تفسير أسباب العجز والتصور في بناء مشروع الإصلاح.

وقد توصل الكتاب إلى نتائج هامة من وراء تلك الأسباب، ومنها غياب الطفل وما يتعلق به في الفكر العلمي التربوي في منظور سلّم الأولويات، وانحصار الخطاب الإسلامي في الدائرة الوعظية والمعرفية للبالغين الذين يستعصون على التغيير والاستجابة الوجدانية لمتطلبات الإصلاح...

وحدد الكتاب أهم وجوه التشوه الثقافي الذي انتهى بالأمة إلى التمزق والتدهور وضمور العقلية العلمية وقتل الإبداع. كما حدد أهم وجوه التحديات التي تواجه الأمة وسبل مواجهتها.

ISBN 1-59239-343-8
9 781592 393435

SROUR ALWANI 2003

فرات
www.furat.com
موقع عربي رائد لتجارة الكتب والبرامج الالكترونية
حائزون على جائزة أفضل ناشر عربي لعام ٢٠٠٢
من الهيئة العامة المصرية للكتاب